

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس  
الجزائر

# المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية

دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع  
في الحديث والمعاصر



العدد السابع ديسمبر 2013  
رمد 0600 - ISSN 2170



**المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**  
دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع  
في الحديث والمعاصر جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس / الجزائر  
**العدد السابع ديسمبر 2013** labtarikh@yahoo.fr

---

### **توجه المراسلات إلى :**

السيد مدير المجلة : أ.د محمد مجاود  
جامعة سيدي بلعباس / الجزائر  
البريد الالكتروني labtarikh@yahoo.fr

ردمد 0600 - ISSN 2170



## قواعد النشر :

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المختصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقاً للقواعد التالية:

1. أن يكون مقال جديد ولم يسبق نشره
2. أن يتبع البحوث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحوث وتزويدها بالصور والرسوم والخرائط اللازمة
3. تكتب المقالات على آلة الحاسوب، وأن لا يتجاوز المقال عشرة صفحات مقاس 22/16
4. أن تخضع البحوث المقدمة للتحكيم العلمي قبل نشرها
5. لا ترد البحوث التي تتلقاها المجلة لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر
6. المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن رأي أصحابها وحدهم.



المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية  
دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر الجزائر تاريخ ومجتمع  
في الحديث والمعاصر جامعة جيلالي ليايس / سيدي بلعباس / الجزائر  
العدد السابع ديسمبر 2013 labtarikh@yahoo.fr

---

## مدير المجلة

أ.د محمد مجاود

## هيئة التحرير

أ.د محمد مكحلي	جامعة س.بلعباس
د.بلعربي خالد	جامعة س.بلعباس
د. الزين محمد	جامعة س.بلعباس
د ولد النبيلة كريم	جامعة س.بلعباس
د. بن حويذقة علي	جامعة س.بلعباس
د. بن عون بن عتو	جامعة س.بلعباس
د. تيزي ميلود	جامعة س.بلعباس
د. أوراغي سيد أحمد	جامعة تلمسان

## هيئة الاستشارية

أ.د. عمران محمد الطيب	جامعة الزاوية / ليبيا
أ.د. تليلي العجيلي	جامعة منوبة / تونس
أ.د بلخروف عمار	جامعة الجزائر
أ.د. فغرور دحو	جامعة وهران
أ.د. دادة محمد	جامعة وهران
أ.د. سعيدي محمد	جامعة تلمسان
أ.د. بشير محمد	جامعة تلمسان
أ.د بلوحي محمد	جامعة تلمسان





# الفهرس

1	د. قصي منصور عبد الكريم التري	جوانب من الجذور الحضارية لأساطير بلاد الرافدين وأثرها في الثقافة الأفريقية القديمة
25	د. الهادي غيلوفي	دور الاعيان في مقاومة الاستعمار الفرنسي في تونس -انتفاضة مشايخ بني زيد الحامة مثالا -
45	د. عزالدين بويحيوي	تأثير الطرق في إنشاء مدن المغرب الأوسط
63	أ. بن جبور محمد	الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني
73	أ. محمد بكار	علاقة جمعية العلماء المسلمين بنواب فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة (1931-1936).
85	د. توفيق دحماني	الأوضاع الصحية والكوارث الطبيعية في الجزائر عشية الاحتلال
97	أ. كركب عبد الحق	دور المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية (1954_1962) المرأة العباسية نموذجا
109	أ. بن زغادي محمد	الدور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمعالم الأثرية
119	أ. شبوب محمد	الجزائر وحركة التحرير الفلسطيني «فتح» من خلال جريدة الشعب
127	د. علوان أمال	المعارضة الفرنسية للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954-1962.
135	أ.د. سالم لبيض	المسألة اللغوية في تونس: مقارنة سوسيو-سياسية
161	د. حلوش مصطفى	الأسرة والمجتمع وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة أية علاقة؟

169	أ. حمروش دليلا	فاعلية الأنشطة والوسائط الثقافية في تنمية المعرفة والسلوك البيئي ( الطفل في الطور الابتدائي كنموذج )
193	أ. براهيم بوعناني	الامتداد التقليدي و الانسداد الحداثي - قراءة للمجتمع الجزائري
199	أ. فكروني زاوي	عقلية الجزائري و أفعاله محاولة لرصد صورة الجزائري المشخصة في اليومي
211	د. الشيخ فتيحة	الاتجاهات الوالدية المعتمد عليها في تنشئة الأبناء
223	أ. خلوفي محمد	دور النشاط المدرسي في تلبية حاجات المتعلمين والإعداد للحياة
231	د فوزية بلعجال	ابن خلدون والمسألة السكانية
243	أ. عبد الله ثاني محمد النذير	مجتمع المعلومات و فجوة المعرفة في المجتمعات النامية -مقاربة نسقية مفاهيمية-
259	د . قدوسي محمد	إشكالية التنمية المحلية في الجزائر: بين أبوية الدولة و زبائنية المجتمع
267	د. أوراغي أحمد	الأنثروبولوجيا والاستعمار -قراءة في صورة الجزائرية في المؤلفات الأنثروبولوجية الاستعمارية

## الكلمة الافتتاحية

كلما تقدم العالم في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية أزداد أثرها على الميادين المعرفية الأخرى، كما نجد أثرها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ونحتاج في معترك الحياة العملية إلى كل العلوم التجريبية منها والعلوم الإنسانية (علم الاجتماع، التاريخ، علم السكان، علم النفس، الاقتصاد، الحقوق... الخ) وإلى الأدب واللغات والفنون، والسينما والمسرح. ولعل نجد هذه العلوم تعالج الكثير من القضايا الإنسانية والاجتماعية وتطرح الكثير من الأسئلة التي تخص ماضي وراهن مجتمعاتنا ومستقبلها عبر طروحات متجددة. ولم يكن بالإمكان تحقيق التقدم في النشاطات الصناعية والتكنولوجية بدون مشروع نهضوي شامل وأصيل متفتح على لغات العالم والنهل من مناهل العلوم الحديثة بكل تفرعاتها، كما سار عليه العالم الغربي في القرون الماضية وأصبح يسبقنا في ركب التطور والحدثة.

وعليه، يجب عاينا أن لا ننع في تصادم مصطنع بين العلوم الإنسانية والتجريبية، لأنه توجد علاقة جدلية وثيقة بينهما، يمكن لكليهما أن يلعب دورا أساسيا في التنمية الاقتصادية والرقى الاجتماعي،

لعله ما يلفت النظر ويدعو إلى التفاؤل المتزن هو ظهور جيل جديد من الأساتذة والباحثين الشباب الذين يساهمون بشكل نوعي في إنتاج المعرفة ويعول عليهم في ترقية جامعتنا لتحتل مكانتها الرائدة في المجتمع، وإن نشر الأبحاث العلمية المتزايد في المجالات التي تشرف عليها مراكز ومخابر البحث التي أصبحت تزخر بها بلادنا تؤكد على النهج السليم المتبع لإرساء الثقافة العالمية والارتقاء بالفكر العلمي الجامعي.

وفي النهاية نشكر فريق البحث الذي يقوم بإنجاز عمل في إطار مشروع وطني للبحث PNR حول التمثيل السياسي المحلي وعلاقته بالتنمية. دراسة في إعادة التشكيل الروابط الاجتماعية.

الأستاذ الدكتور محمد مجاود



## جوانب من الجذور الحضارية لأساطير بلاد الرافدين وأثرها في الثقافة الأفريقية القديمة

د. قصي منصور عبدالكريم التركي

جامعة دهوك / كلية التربية الاساسية – عقرة - العراق

### المقدمة:

إن الأدلة الأثرية (Archaeological) والانثروبولوجية (Anthropological) المتوافرة للباحثين في عصور ما قبل التاريخ، قد أثبتت بأن الإنسان قد مارس السحر خلال العصور الحجرية في ضل حياته البدائية، ومن خلال دراسة تلك الشواهد التي وصلت إلينا حول الممارسات السحرية، أصبح بإمكاننا تقصي جملة من تلك الظواهر وتعبّر استمرار وجودها بين ظهرانينا منذ الأمس البعيد وحتى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن الدراسات العلمية الحديثة قد أضافت الكثير من المعلومات القيمة التي قدمها الأنثروبولوجيون وعلماء السيسولوجيا (Sociologist) وحاولت أيضا تقديم التفسيرات المنطقية والعلمية للقوانين والممارسات السحرية والباراسايكولوجية (Para-psychological)، لأن الإنسان القديم والحديث لا يمكن أن يعتقد بممارسات لا تعتمد على المنطق، لاسيما وأن الشعوذة والدجل لا يمكنها أن تتدخل في الممارسات الإنسانية الخاصة بأهم الأمور التي كانت تؤثر في حياة الإنسان تأثيرا مباشرا. وقد صنف المختصون إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تلك الممارسات لدى شعوب القارة السمراء بأنها سحرية، بينما أكدت الدراسات الحديثة على أنها من الممارسات الباراسايكولوجية،<sup>1</sup> خاصة وان جذور اغلب تلك الممارسات وجدنا لها أدلة في عادات وتقاليد وممارسات مجتمعات المشرق القديم في شمال شرق القارة الأفريقية وفي شمال غرب القارة الآسيوية.

إن هذه الدراسة توضح الفرق بين القوانين السحرية وما يعرف حديثا بعلم الباراسايكولوجي، حيث أنّ تلك القوانين تحكم سلوك المجتمعات قديما وحديثا، ويمكن أن تؤثر كل على حده. في طرق تفكير الإنسان، فإنّ فهم هذه الأمور سوف يساعدنا كثيرا في التعرف على تاريخ وطبيعة حياة المجتمعات والأفراد وتجعلنا قادرين على الوصول من خلال إشارات بسيطة إلى نتائج ذات قيمة تاريخية لفهم التراث الذي يخبزن في ذاكرة الشعوب،

وبذلك نحقق الغاية التي أشار إليها المفكرون العالميون من خلال مقولاتهم ومن بينهم ما ذهب إليه المؤرخ والطبيب الشهير «سيسرو» (106) (MARCUS TULLIUS CICERO . 43 ق.م) عندما قال: «إذا كنت لا تعرف شيئاً مما حدث قبل ولادتك، فلن تكبر أبداً»، إذن لابد من العودة إلى الأصول لمعرفة ما وصلت إليه الشعوب المعاصرة من ثقافة وإبداع .

وفي ضوء ما سبق حاولنا في هذه الدراسة رصد جوانب مميزة من الثقافة والتراث لبعض الشعوب الأفريقية ومدى تأصل جذورها في ثقافة وحضارة بلاد الرافدين، من خلال مطلبين اثنين كان أولهما يتعلق بالقوانين الخاصة بالسحر التمثيلي بشقيه التشاكلي والاتصالي، وقد زودتنا المصادر الأصلية التي بحثنا بها عن عناصر مميزة من التراث الأفريقي وأصول مثل هذه العناصر في ثقافة سكان بلاد الرافدين. أما المطلب الثاني فقد تناولنا فيه جملة من العناصر المشتركة في الثقافتين الرافدينية القديمة وما وجدناه من عناصر مشابهة في الثقافة الأفريقية. ثم ختمنا الورقة بملاحظات اعتبرت كمحصلة للبحث، الذي نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض أفكاره .

#### التمهيد:

تمتد قارة أفريقيا بين دائرتي عرض 40 و 35 جنوباً و 37 شمالاً، ويفصلها عن أوروبا البحر الأبيض المتوسط وعن آسيا المحيط الهندي والبحر الأحمر. ويقسمها خط الاستواء قسمين، الجنوبي وهو أضيق من الشمالي، ومعظم القارة يقع في المناطق المدارية، وأهم هضابها الجنوبية، ومن مرتفعاتها جبال كليمنجارو وكنيا وجبال داركترج، وتغطي الصحراء مساحة واسعة من أراضي القارة مثل الصحراء الكبرى شمالاً وصحراء كلهاري جنوباً. وتتميز قارة إفريقيا بأكثر ظاهرات انكسارية في العالم وهي الأخدود الإفريقي العظيم. وأكبر بحيراتها بحيرة فكتوريا، وأهم أنهارها الكونغو والنيل والزامبيزي ونهر النيجر. تتدرج الحياة النباتية في إفريقيا مع المناخ من الغابات الاستوائية، إلى السفانا الغنية، إلى السفانا الزراعية، إلى السباسب، إلى الصحراء. وتعتمد الزراعة فيها على الأمطار والري<sup>2</sup>.

ينتمي سكان إفريقيا إلى أربع مجموعات عرقية هي: البوشمن، والهوتنتوت، والأقزام، والزنج، وهي العناصر القديمة، إضافة إلى الهاميون، والشعوب الزنجية السامية، ثم العناصر السامية العربية، وقد وجدت في القارة أقدم الحضارات في العالم وهي الحضارة

#### الفرعونية<sup>3</sup>.

إنّ الأديان الإفريقية التقليدية تنتهي في معظمها إلى صنف الأديان المتعددة الآلهة. وذلك ما تتميز به المجتمعات ما قبل الطبقية، فالأشخاص الخارقون في هذه الأديان هم أرواح مختلفة ( بما في ذلك أرواح المكان وأرواح الأجداد، وأرواح ظواهر الطبيعة... الخ) ولكنهم ليسوا آلهة، إنّ الأديان المتعددة الآلهة هي من صفات المجتمعات الإفريقية الأولى4، وهي بذلك تشترك مع أولى المجتمعات الحضارية المتشكلة في المنطقة العربية الا وهي حضارة وادي الرافدين والنيل حيث اتصفت ديانتها ومنذ بدايتها بمبدأ تعدد الآلهة وتشبيه الافراد بالآلهة خاصة الملوك5، ومن المعروف ان في مواطن حضارات إفريقيا الغربية (السودان الغربي والأوسط، ومنطقة خليج بنين) وما بين البحيرات (يوغندا) قامت أديان تجسد الإله في عدد من الأشخاص. وبشكل عام فان الأديان الإفريقية التقليدية، سواء أكانت المتعددة الآلهة أم تلك التي جسدت الإله في شخص واحد، لم تكن مناسبة تماماً لنظام يملي تعاليمه الروحية على أفراد المجتمع الواحد في إفريقيا قديماً، بل ان الممارسات السحرية هي الصفة الغالبة على سلوك المجتمعات عموماً سواء في الحضارات الآسيوية (المجتمعات العربية) أو الأفريقية.

#### المطلب الأول- القوانين الخاصة بالسحر التمثيلي:

إن الشواهد الأثرية المتوفرة للباحثين لفترة عصور ما قبل ظهور الزراعة في الشرق الأدنى القديم بينت ان الإنسان قد مارس السحر منذ بداية تكوّن المجتمعات في العصور الحجرية، ومن خلال دراسة تلك الشواهد التي وصلت إلينا حول الممارسات السحرية، أصبح بإمكان الباحث الانكليزي «سير جيمس فريزر» دراستها ومن ثم نشرها في كتابه المشهور «الغصن الذهبي»6.

ومما لا شك فيه أن الدراسات العلمية قد أضافت الكثير إلى المعلومات القيمة التي قدمها «سير جيمس فريزر» وحاولت أيضاً تقديم التفسيرات المنطقية والعلمية للقوانين التي قام بتحديددها، لأن الإنسان القديم والحديث لا يمكن أن يساعد نفسه بممارسات لا تعتمد على المنطق، ولأن الشعوذة والدجل لا يمكنها أن تدخل في الممارسات الإنسانية الخاصة بأهم الأمور التي كانت تؤثر في حياته تأثيراً مباشراً. وفضلاً عن ذلك فإن هناك العديد من الممارسات التي صنفها الأستاذ «فريزر» ضمن الممارسات السحرية المرتبطة جذورها بالعادات والتقاليد والارث الثقافي بينما كدت الدراسات الحديثة على أنها من الممارسات

ولذلك فإن الغاية من هذه الدراسة هي أن نوضح الفرق بين القوانين السحرية التي تؤثر في سلوك المجتمعات وعاداتها وتقاليدها داخل حدودها الجغرافية ومدى ارتباطها وتأثيرها وتأثيرها في مجتمعات الحضارات الأخرى قربت أم بعدت في الزمان والمكان. وكيف يمكن أن تؤثر هذه القوانين على الإنسان العربي والأفريقي من حيث الثقافة والتراث؟ لأن فهم هذه الأمور سوف يساعدنا كثيرا في التعرف على أحداث التاريخ المتعلق بالتقارب الإيجابي الثقافي بين المجتمعات ويجعلنا قادرين في أن نصل من إشارات بسيطة إلى نتائج ذات قيمة تاريخية. ولكي لا نطيل في تمهيدنا الخاص بالدخول إلى الموضوع نعتقد بأن من أبرز القوانين السحرية التي اعتمد عليها الإنسان القديم في سير حياته والتي اعتمدنا عليها في هذا المطلب للوقوف على جذور الثقافة الأفريقية المتأصلة في ثقافة حضارة بلاد الرافدين قديما، الآتي:

#### أولا- قانون التشابه:

من خلال الأعمال الفنية للإنسان والتي بدأ ظهورها في حياته منذ حوالي ثمانين ألف سنة، تبين لنا أن أفكاره كانت تبحث عن سر الحياة والممات وعن ما هو ممكن لمساعدة حياته. وقد تجسدت هذه الأفكار واضحة من خلال ممارساته السحرية الموثقة برسوماته التي تركها على جدران الكهوف التي سكنها، حيث أن تلك الرسوم قد بينت لنا أولى أفكار الإنسان السحرية التي اعتمدت على مبدأ مفاده أن المعلول يشبه علته وان الشبيه ينتج شبيهه،<sup>8</sup> ولذلك وافق المختصون على تسمية هذا المبدأ بقانون «التشابه» او قانون «السحر التشاكلي»<sup>9</sup>.

وقانون التشابه هذا كما يثبت ذلك الواقع لم ينشأ لدى الإنسان نتيجة للشعوذة أو الدجل، وإنما اعتمد على ملاحظاته للطبيعة من حوله، حيث بينت له تلك الملاحظات بان الكائنات الحية لا تلد إلا الشيء الذي يشبهها، وكذلك الحال بالنسبة للجملادات، فهي لا تقدم للإنسان إلا ما يماثلها، فمورد الماء الصافي لا يعطي إلا ماءً صافيا والمورد الكدر لا يعطي إلا ماءً كدرا. والشيء نفسه مع بقية الأشياء الجامدة الأخرى. وهذه الحقيقة جعلت الإنسان يعتقد بأنه قد اكتشف سر الحياة. وبدأ يؤمن بأنه يستطيع أن يحصل على ما يريد إذا ما قام بعمل شبيه للشيء الذي يبتغيه ويحصل من هذا الشبيه على ما يريد<sup>10</sup>.

ومن أبرز الممارسات السحرية القديمة في هذا المجال وجدناها في المناطق الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين، إذ أن هذه المناطق كانت ولا تزال ذات أمطار تكفي كميتها لنمو الزرع،



وهذه الناحية قد ساعدت سكان المناطق المذكورة على ممارسة الزراعة الديمية بصورة منتظمة، وإنسان هذه المناطق ما كان يمتلك إمكانية يستطيع أن يواجه بها هذه المشكلة سوى ممارساته السحرية مما اضطر ذلك سكان المناطق المذكورة على اتخاذ المرأة زعيمة للطقوس الدينية والزراعية. وهذا القرار لم يتوصل إليه السكان المذكورين إلا بعد أن اعتمدوا على قانون التشابه السحري، وما دامت المرأة بالنسبة للجنس البشري هي التي تحمل ومن ثم تلد وتسبب التكاثر في المجتمع فقد برز الاعتقاد بأنها لو تتعامل مع الزرع سوف تجعله يعطي محصولاً أكثر مما لو يتعامل معه الرجل<sup>11</sup>. والشواهد الأثرية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية في المناطق الزراعية الديمية قد أكدت هذه الحقيقة.

أن هذا الاعتقاد لم يظهر في المناطق الديمية من بلاد الرافدين فقط وإنما شمل أجزاء واسعة من العالم، فالمعلومات المتوفرة لدينا، والتي دونها السير جيمس فريزر في مخطوطته، ذكرت أن أحد المبشرين الإسبان قد ذهب إلى إحدى قرى «البيرو» للتبشير بالديانة المسيحية هناك، وأن بساطة وطيبة سكان هذه القرية قد سهلت على هذا المبشر مهمته، حيث كانوا ينفذون كل ما يطلبه منهم، ما عدا ناحية واحدة لم ترضه، وهي: أن رجال هذه القرية كانوا يجلسون في أماكن الراحة واللهو ويتركون نسائهم وأطفالهن على ظهورهن يعملن في الحقول الزراعية وتحت شمس الصيف المحرقة، وكان هذا المبشر يعارض هذا السلوك ويطلب من الرجال الذهاب إلى الحقول والقيام بالأعمال الزراعية ليفسحوا المجال للنساء وأطفالهن للتخلص من عناء العمل والابتعاد عن حرارة الشمس اللافحة، غير أن الرجال لم يستجيبوا لطلبه ولم تؤيده النساء أيضاً فيما كان يدعو إليه، وبعد أن أنهى هذا المبشر المدة التي كانت مقررة له وحان موعد الرحيل ذهب إلى شيخ القرية ليشكره وقال له في أثناء الحديث: إنكم أناس طيبون وقد ارتحت معكم، ولكنكم تمتلكون عادة سيئة لم أتمكن من إزالتها عنكم، وهي أنكم ترسلون نسائكم وأطفالهن على ظهورهن يعملن في الحقول تحت الشمس المحرقة ولا تكلفون رجالكم بهذه المهمة... عندها أجاب شيخ القرية: «أبونا كذلك أنت إنسان طيب، ولكن عليك أن تبتعد عن الأشياء التي لا تفهمها، فالمرأة التي تحمل ومن ثم تلد وتسبب التكاثر بين البشر هي بالتالي إن تعاملت مع الزرع فسوف تجعله يعطي غلة أكثر مما لو تعامل معه الرجل، فكيف تطلب منا أن نبذل النساء بالرجال»<sup>12</sup>.

وهذا الأسلوب في عدم عمل المرأة بالزراعة في أراضي وادي النيل هو ان اراضي وادي النيل الزراعية لم تعاني عبر تاريخها الطويل الشحة في الخصوبة كما كان يحدث في المناطق الديمية في العراق وفي أجزاء أخرى واسعة من العالم القديم، ولهذا السبب بالذات لم تكن بلاد وادي النيل بحاجة إلى استخدام المرأة لأغراض زيادة خصوبة الأراضي الزراعية. واعتمادا على ما سبق، يمكننا أن نفترض بان سكان حضارة وادي النيل قد استخدموا المرأة أيضا بخصوص خطر المجاعة الذي كان يهدد بلادهم عندما لا يرتفع منسوب مياه الفيضان. ومادامت الكتابات المصرية القديمة لم توضح لنا ما هي الإجراءات التي كان يمارسها المصريون تجاه الخطر المذكور فليس أمامنا سوى الاعتماد على ما كان يسعى بطقس «عروسة النيل»، المتمثل برمي فتاة شابة جميلة إلى النهر المذكور كزوجة له يمكن من خلالها إعطاء الفيض الكافي<sup>13</sup>. وبالتأكيد كانوا يهدفون من ممارسة هذا الطقس مساعدة نهر النيل حسب القانون السحري الذي أطلقنا عليه تسمية «قانون التشابه» بهدف إعطاء الفيض الكافي.

هذا ومن الممارسات السحرية الشائعة الاستعمال في حضارات وطننا العربي هي تلك العادة التي نقوم فيها برمي كمية من الماء خلف المسافر عند خروجه مباشرة من البيت قاصدا المكان الذي ينوي السفر إليه، وعند سؤال الناس المتعاملين مع هذه العادة ذات الأصول السحرية عن الهدف من وراءها يجيبون على الفور بان الماء خير، وهذا ما يساعد المسافر على العودة سالما، بينما الحقيقة هي أن المسافرين قديما من مكان إلى آخر وبالأخص في الأماكن التي تحتوي على الأراضي القاحلة والصحراوية قد يواجه خطر شحة الماء، بحيث أن الكثير من المسافرين ماتوا عطشا، وعملية سكب الماء عند خروج المسافرين من البيت، أي عندما يضع أولى خطواته على طريق السفر، يعني ذلك بان رامي الماء يتمنى للمسافر أن يجد الماء في أثناء سفرته بالوفرة نفسها التي واجهت فيها خطواته الأولى على طريق السفر، وإذا توفر الماء للمسافر أثناء سفره فسوف يصل سالما دون الخوف عليه من مواجهة العطش.

اما المشاهد الحية التي نقلها لنا صاحب كتاب «الغصن الذهبي» عن الشعوب الافريقية ، فانها تتمثل في بعض العادات الخاصة بالصيادين وتحسبهم من سوء الطالع المرتبط بوقت معين، فهناك عدد ليس بالقليل من الصيادين المتواجدين في مناطق شرق افريقيا،

يعتقدون ان خيانة الزوجة لزوجها الصياد عند غيابه، يزود الفيل بقوة هائلة تمكنه من صرع الصياد او جرحه على اقل تقدير، لذلك اذا ما تعرض احد الصيادين للخطر فانه يرجع الى قبيلته، واذا ما هاجم اسد صيادا من قبيلة «الواجوجو» (wgogo) فانه يرد ذلك الى سلوك زوجته التي تركها في القرية فيرجع غاضبا، اما سلوك المرأة المرتبط بخوفها مما سيحدث لزوجها في غيابه، فانها بمجرد خروج زوجها للصيد تتحاشى مرور رجل من خلفها او ان يقف امامها او ان تسمح لنفسها بالوقوف معه، حتى انها اذا ما ارادت النوم فإنها تختار النوم على وجهها.14

واما ما نجده عند قبائل «الكافير» في «سوفالا» (safala) شرق افريقيا ، فانه مختلف عن سلوك الصيادين لكنه يصب في المعنى نفسه الخاص بالسحر التشاكلي، اذ يخاف مقاتلوا القبيلة اشد الخوف اذا ما ضربهم شخص ما بشيء مجوف من الداخل كأن يكون عصا من القصب او القش، ويفضلون ان يضربوا بقضيب من الحديد، وذلك لاعتقادهم ان العصا المجوفة فيما لو ظرب بها شخص ما فانها سوف تتسبب في وصول الضربة وتأثيرها الى داخل جوف الانسان.15

أما ما يخص دفع الفأل السيء او خداع الاقدار التي تلحق الاذى بالانسان، فانه يمكن تجنب ذلك بالسحر التشاكلي أيضا، لدى بعض سكان افريقيا ممن تعرض لذكرهم «فريزر» في مخطوطته، ففي «مدغشقر» عندما يولد لعائلة طفل خلال شهر نوفمبر، حيث تهطل الامطار بغزارة، بحيث سمي هذا الشهر لديهم بـ «شهر الدموع» يعتقدون ان هذا الطفل ولد وفي حياته الأسى والحزن والدموع، ولكي تنقشع الغيوم التي تتلبد فوق مستقبل الطفل وحياته ، فان عليه ان يرفع بيديه غطاء عن اناء فيه ماء مغلي ، وان يحركه حول جسمه حتى تسقط القطرات من الغطاء اذانا بسقوط الدموع التي كان مقدرا لها ان تنهمر من عينيه عندما يكبر.16

وقبل الانتقال إلى النوع الثاني من الممارسات السحرية نشير إلى أن واقع الحال يؤكد بان الممارسات سابقة الذكر لا ينطبق عليها حقا مبدأ العلل المتشابهة تنتج عنها نتائج متشابهة، فسكب الماء للمسافر عند وضع أولى خطواته على طريق السفر ليس بإمكانها أن توفر له الماء اللازم لإدامة حياته، وعمل دمية للشيء الذي يريد الإنسان معاملته المعاملة المطلوبة لا توفر لصانع هذه الدمية إمكانية الحصول من الشخص الذي تصوره الدمية ما يريده

منه. ولكن الفائدة الوحيدة التي يمكن أن تقدمها الممارسة السحرية للأشخاص القائمين بها تتمثل بالناحية النفسية، حيث أنها تخدم ممارستها من الناحية النفسية فقط. لأن أكثر من 70% من مشاكل البشر هي مشاكل مبعثها الجانب النفسي، ولهذا السبب فإن الممارسات السحرية قد عالجت ما يزيد على أكثر من نصف المشاكل التي يعاني منها البشر في حياتهم. ثانيا- قانون الاتصال أو السحر الاتصالي:

ويستند هذا القانون على قاعدة تختلف عن قاعدة قانون التشابه وخلاصتها أن الأشياء التي كانت متصلة في زمن ما، فإنه رغم الانفصال الذي يحصل بينها يبقى تأثير بعضها في البعض الآخر وان للجزء تأثير في الكل كما أن لكل تأثير في الجزء، ولتوضيح ذلك نقول إننا لو أخذنا شعرة من جسم إنسان ما ونعاملها المعاملة التي نريدها فإننا نعتقد بان ما يصيب الشعرة سوف يصيب صاحبها لأن الشعرة كانت متصلة بجسم ذلك الإنسان وهي جزء من كل الجسم. والثبيء نفسه مع الأسنان المقلوعة وقلامة الأظافر التي تؤخذ من الانسان، فمعاملتها السلبية أو الايجابية حسب قانون الاتصال سوف تنتقل إلى الجسم الذي تعود إليه.

وهذا القانون لم ينشأ كذلك من الخيال وإنما اعتمد أيضا على ظواهر طبيعية وفي مقدمتها البذور والبيض والأجنة، إذ أن هذه الأشياء الثلاثة كانت جزءاً من الكل الذي تولدت في داخله ومن ثم انفصلت عنه، وبعد الانفصال أخذت تمثل جزءاً من ذلك الكل<sup>17</sup>. وما دام هذا الجزء بإمكانه بعد فترة معينة من إعطاء الكل، فقد نشأ الاعتقاد بان للجزء تأثير في الكل مثلما لكل تأثير في الجزء، فحبة القمح التي تؤخذ من سنبلة على سبيل المثال، سوف تعطي سنبلة إذا ما زرعت بصورة صحيحة، والبيضة الناتجة عن أي حيوان بيّاض بإمكانها إيجاد الحيوان الذي تولدت عنه، وان إتلاف البذرة أو البيضة أو الجنين سوف يمنعنا ذلك من الحصول على الكل الذي أوجد كل واحد منهم، ولهذا يمكننا القول بان العلاقة بين الجزء والكل هي علاقة جدلية، أي بمعنى أن الواحد منا لا يمكنه أن يحصل على البذرة من دون ثمرة ولا الثمرة من دون بذرة.

وبعد مرور آلاف من السنين على الفترة التي ظهرت فيها تلك الممارسات السحرية تناسى الناس الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ظهور تلك الممارسات وهذا التناسي قد ساعد على إدخال بعض التغييرات على تلك الممارسات الأولى، إذ أن أقدم الممارسات قد اعتمدت فقط

على الأجزاء الحية التي لا يحتاجها الجسم أو أنها تبلى ويطردها تلقائيا مثل الشعر والأسنان والأظافر.18

ولا يزال السحرة في الوقت الحاضر يستخدمون أجزاء لا حياة فيها من الإنسان لأغراض قانون الاتصال، كأن يؤخذ منديل أو أية حاجة يستخدمها الشخص المنوي لعمل السحر له، في الوقت الذي ما كان ذلك ممكنا على الإطلاق في الفترات الأولى من ظهور مثل هذه الممارسات السحرية.

والممارسات السحرية المتعلقة بقانون الاتصال ليس في حقيقتها أية علاقة مؤثرة فيما بين الجزء والكل الذي انفصل عنه، أي بمعنى أن معاملة أية شعرة معاملة سيئة أو حسنة، فإن تلك المعاملة لا تؤثر إطلاقا في صاحب الشعرة. ولكن مثل هذه الممارسات كانت تدعم الأشخاص المتعاملين معها من الناحية النفسية التي اشرنا إليها سلفاً.

ومن الأمثلة التي كانت لوقت قريب أو لا تزال في المجتمع الأفريقي والمجتمع العربي بصورة عامة، تلك التي نجدها على المستوى الشعبي، والتي تتمثل في أن بعض شعوب أفريقيا كانوا يأخذون الأسنان المنزوعة ويقذفونها من فوق رؤوسهم إلى الخلف وراء ظهورهم ويقولون: «أيها الفأر اعطني سنك الحديدية الصلبة وخذ بدلا منها سني المصنوعة من العظم»19، وفي مقولة أخرى متشابهة نجد القول الآتي: «أيها الفأر الكبير، أيها الفأر الصغير، هذه سني القديمة ... خذاها وأعطيني بدلا منها سنا أخرى جديدة».20 ثم تلقى السن بعد ذلك، فوق سطح البيت المغطى عادة بالقش، حيث تتواجد الفأران في العادة في مثل هذه الأماكن، ويبدو أن اختيار العقل الأفريقي لأسنان الفأر نابع من كونها أقوى الأسنان في نظرهم، في حين أننا نجد في التراث الشعبي العراقي ولحد الآن أن الأسنان اللبينة التي تسقط من فم الأطفال، يذكر لهم أن يقولوا ويفعلوا مثلما قال الإنسان الأفريقي، عندما يرمي السن إلى الخلف أو إلى الأمام صوب الشمس وبعيدا عن نظر الطفل، بيد أن المقولة تختلف بعض الشيء إذ نقول «أيها الشمس خذي سن الحمار واعطيني سن الغزال» وكأن العربي يبحث عن الجمال دون الحاجة إلى القوة والمنعة التي تدور في ذهن الأفريقي. ولا ادري لماذا يُتجنى على الطفل بوصف سنه بسن الحمار؟!

أما ما يتعلق بطالع الإنسان ومستقبل الطفل عند ولادته، فقد وجدنا ذلك في السحر التشاكلي ولا أجد مثالا أكثر دقة مما تقوم به أمي والى الآن عندما يولد لها حفيد بان تأخذ الجزء المتروك من الحبل السري (السرة) للرضيع فتدفنه في المستشفى إن كان ذكرا وفي المدرسة إن كانت أنثى، لأنها تريد من الذكر أن يكون طبيبا ومن الأنثى أن تكون مدرسة. ولا أخالني أجد غير ذلك إن بحثت في أفريقيا في جزئها العربي والأفريقي.

### المطلب الثاني- جوانب من الممارسات الخاصة بالمعتقدات الدينية والاجتماعية:

ان اغلب المعتقدات الدينية القديمة في أفريقيا ينسبها علماء الفكر الديني الى التقليد ويضعونها في دائرة ما أسموه بالأديان البدائية التي تقوم على السحر والمبالغة في التقديس حيث ينتقى فيها الاستدلال العقلي والمنطقي، وإن البدائيين ينفرون أشد النفور من الاستدلال العقلي ، كما يلاحظ أيضا أن هذا النفور لا يرجع إلى قصور أو عجز طبيعي في أدراكهم بل بالأحرى إلى مجموعة من العادات العقلية التي درجوا عليها من خلال طريقتهم في التفكير والتي قامت على أساس التساؤل عن معنى الحياة والوجود والعدم وما بعد الموت ، كما عملت على وجود مظهر طقوسي فرضت به سيطرتها على نواحي الحياة المختلفة لتنتقى ثنائية الحياة والدين فالأشياء كلها مترابطة لأنها تقوم على الشعور العميق بوحدة الحياة ووحدة الأشياء كلها في عالم مقدس.<sup>21</sup> ومن الصعب أن تتخيل المجتمعات الأفريقية القديمة بدون اعتقاد في أي من أنواع الأرواح التي تساعد أو تعوق أعمالهم راضين بالسحر التمثيلي سلوكا وطريقا للتعبير عن ذلك الاعتقاد في أنواع القوى والطاقات الخارقة للطبيعة ويظهر التطبيق للمفاهيم الدينية والسحرية في القناع حيث يمثل مكان الروح ، التي يعتقد فيها الأفريقي على اختلاف أنواعها من أرواح للقوى الطبيعية (كالأرض، والضوء، والبرق، والشمس، والقمر... الخ) أو أرواح لمؤسس القبيلة والجدود ، أو أعضاء القبيلة» فالأرواح هي تجسيد ، وتشخيص للقوى التي يخشاها ويخافها ، ولا يستطيع أن يدركها أو يصل إلى مستواها ، لذا فهو يجسدها في صورة شبه إنسانية».<sup>22</sup> ولا يختلف هذا المفهوم عن فكرة خوف الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، من أشياء ليس بمقدوره فهمها، فكان عليه أن يجسدها على شكل آلهة مثل النجوم والرياح والمطر والشمس والقمر.... الخ.<sup>23</sup>

ومن هذا المفهوم يتضح تحديد وتشخيص القوى غير المعلومة لدى الأفريقي والرافديني وأن الأعمال الفنية لديه، إنما هي أداة ووسيلة، لإشباع حاجاته النفسية وعلى هذا

الأساس نشأ المفهوم الاعتقادي الخاص بجوانب من الحياة الاجتماعية والدينية في معتقد الإنسان وعاداته وأعرافه. وخير مثال يمكن من خلاله التعرف على اهم الممارسات الدينية والاجتماعية هي الاساطير والقصص والروايات الشفاهية وبعض الممارسات الباقية الى يومنا هذا، وفي ما يلي اهم الافكار الخاصة بهذه المعتقدات التي ترتبط بشكل او بآخر بثقافة حضارة وادي الرافدين والتي حاولت رصدها للدلالة على متانة الترابط وعمق الصلة بين الشعوب الافريقية في القارة السمراء ونظيراتها من الشعوب العربية في القارة الآسيوية التي اخترنا من بينها، حضارة من اعرق حضارات الشرق الأدنى القديم.

**أولا- خلق الإنسان من طين:**

تنتشر بين قبائل «الشلوك» (Shlook) التي تسكن النيل الأبيض، أسطورة خلق الإنسان من طين، وتفسر الأسطورة بطريقة بارعة اختلاف ألوان البشر المخلوقين من الطين بموجب لون التراب الذي صنعهم الإله منه، فالإله الخالق «جووك» (Jook) عزم على خلق البشر فتجول في انحاء العالم، وعند مكان تواجد الجنس الابيض البشرة وجد طينا ابيضاً (تراب) نقي فصنع منه الانسان ذا البشرة البيضاء، وعندما وصل الى مصر، شكّل من طمي الطين في النيل، الناس ذوي البشرة البنية، وعندما وصل الى ارض «الشلوك» وجد فيها تربة سوداء فشكّل منها الناس ذوي البشرة السوداء.24

وهذا الامر الخاص بخلق الانسان من طين يكاد يكون متطابقا تماما حتى مع المفهوم اللغوي لكلمة طين في اللغة العربية، فالمدللول اللغوي للطين هو التراب المختلط بالماء، ويسمى بذلك وإن زالت عنه رطوبة الماء، ومن معاني الطين الوحل وجمعه اطيان25. والطينة القطعة من الطين وتستخدم مجازا للدلالة على الخلقة والجبلة فيقال فلان من الطينة الاولى، وطينة الرجل: خلقته واصله، والطينان، صانع الطين، وحرفته الطيانة.26 وبالمقابل نجد في التراث والثقافة الإفريقية لدى قبيلة «الفانيون» (Fanyon) الذين يسكنون في غرب القارة، ويعتقدون ان الله خلق الانسان على شكل «سحلية» من الطين ثم وضعها في حوض فيه ماء لمدة سبعة ايام، ثم قال له اخرج من الماء، فخرج على هيئة انسان. وبنفس المفهوم الخاص بخلق الإنسان من طين، كانت قبائل غرب إفريقيا والقاطنة في «توجولاند» (Togoland)، والتي تنتمي إلى الزنوج وتنتشر الآن في جمهورية «تنجو»، نجد انها تعتقد وإلى وقت قريب، ان الله يخلق الانسان من الطين، فاذا تبقى قليل من الماء الذي

فيه تراب سكبه على الارض وخلق منه الاشجار والعصاة من الناس، اما الانسان الصالح فانه يخلق من طينة جيدة. وتعتقد القبائل المذكورة ان الله خلق الرجل ثم خلق المرأة<sup>27</sup>. وفي الفكر الرافديني القديم،<sup>28</sup> نجد ان كلمة الطين ارتبطت بالفكر العراقي القديم منذ بواكير النضوج الحضاري على هذه الارض. الالف الرابع قبل الميلاد. وانعكس ذلك بشكل واضح فيما ورد في الملاحم والاساطير الدينية، ومن اولى المفاهيم التي كانت تشغل الفكر هو خلق الانسان واصل الوجود.<sup>29</sup> وقد عدّ العراقيون القدماء الطين المادة الاولى التي خلق منها الانسان ويمثل هذا الاعتقاد صدى للدعوات التوحيدية والرسالات السماوية التي جاء بها الانبياء والرسول من عهد نوح (عليه السلام) ومن جاء بعده وبقيت تلك الدعوات عالقة في اذهان الاجيال اللاحقة.

وخلف لنا البابليون، الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة بلاد الرافدين، اطول قطعة ادبية واشهرها وهي المعروفة بـ «إنوما إلش» (Enuma Elish) التي عرفت بين الباحثين باسم « قصة الخليقة البابلية » وتحدث عن نظرة البابليين إلى خلق الكون والانسان،<sup>30</sup> وتذكر القصة ان سبب خلق الانسان ليحمل مشقة العمل على الارض واعبائه بدلا من الالهة نفسها فباركت الالهة الفكرة وقررت خلقه من دم احدى الالهة الممزوج بالطين إذ جيئ بالاله « كنكو » فذبح ومزج دمه بالطين وخلق منه الإنسان،<sup>31</sup> ونجد الأسطر التالية في قصة للإله اينكي (En.ki) يتحدث فيها عن خلق الإنسان من الطين وكيف أن الالهة هي التي خلقتة:

«امزجي لب الطين الموجود في اعلى المياه التي لا يسبر غورها الصناع المهرة ، سيجعلون الطين مختمرا وانت عليك ان تخلقي له الاضلاع » ننماخ « اله أم الارض ستعمل من فوقك آلهة الولادة ستقف إلى جانبك حينما تخلقين أماه ! قدرتي مصيره (مصير المولود الجديد) « ننماخ » ستربط به ... الالهة كانسان»<sup>32</sup>.

ويفهم من خلال ما ورد في نصوص الخليقة ان الطين كان المادة الاساسية لخلق الانسان وان ما تصوره العراقيون في عملية الخلق ما هو الا انعكاس لواقع المجتمع العراقي ومدى تأثر ذلك المجتمع بالدعوات التوحيدية الاولى.

ويؤكد كتاب «العهد القديم» ، كتاب اليهود المقدس الذي تؤلف الاسفار الخمسة الاولى منه بقايا التوراة، على لسان الانبياء والرسول السابقين للنبي موسى (عليه السلام)، ان الله



سبحانه وتعالى خلق الانسان من طين، 33 وقد وردت اشارات عديدة بهذا الخصوص منها :  
«وجبل الرب الاله ادم ترابا من الارض، ونفخ في انفه نسمة حياة. فصار ادم نفسا حية» 34.

وقد فسر اسم ادم بانه من الاديم أي الارض لانه مخلوق من تراب الارض. 35

«وهكذا فان الله خلق ادم من تراب ونفخ فيه نسمة الحياة فصار ادم نفسا حية» 36.

وفي القرآن الكريم الذي هو ليس كتابا تاريخيا هدفه سرد القصص والاحداث وبيان تفاصيلها ، بل ان ما جاء فيه من اشارات موجزة، انما جاء للعبارة والموعظة ومنها خلق الانسان من طين. 37 فقد ورد ذكر المادة التي خلق منها الانسان بأكثر من صيغة منها الطين والتراب والصلصال اذ ورد ذكر الطين في الآيات الكريمة الآتية :

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا» 38.

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» 39.

«الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ» 40.

«إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» 41.

يلاحظ في جميع الاشارات الواردة ان الكلمة المستخدمة للإشارة الى المادة الاولى التي خلق منها الانسان هي الطين او التراب في التوراة، تماما كما هي في المصادر المسمارية الا انها تختلف في القرآن الكريم اذ وردت اكثر من كلمة للدلالة على المادة التي خلق منها الانسان وان كانت جميعها تؤدي المعنى نفسه.

ان ما يلفت الانتباه ان جميع القصص ذات العلاقة بخلق الانسان من الطين والوارد ذكرها في المصادر الثلاثة المسمارية والعهد القديم والقران الكريم متشابهة في الخطوط العامة والأساسية وهذا لم يكن مصادفة بل ان ذلك يؤكد تتابع الرسالات السماوية وبعث الانبياء والرسول ومعرفة الناس بقصة خلق الانسان من طين، الا ان الافكار السائدة التي كانت قد ابتعدت عن التوحيد اضافت اليها فيما بعد القصة عما ورد في القرآن الكريم وان ما ورد في المصادر المسمارية والعهد القديم طراً عليها اضافات وتحريفات عبر العصور الطويلة التي مرت عليها حتى وجدت طريقها الى التدوين فابتعدت تدريجيا عن اصولها التاريخية وجاءت وقد اكتنفها الخيال والاسطورة وتمحورت حول معتقدات القوم الدينية وقت تدوينها وكادت صلتها تنقطع عن اصولها الاولى في حين حفظ لنا القرآن الكريم بإيجاز شديد الصورة الحقيقية لتلك القصص 42.

## ثانيا- فكرة الموت والخلود

تربط قبائل «الناماكوا» (namakwa) او «الهوتنتوت» (hotntoot) بين ولادة القمر في اول الشهر وغيابه عند دخوله المحاق في آخر الشهر والتي تحدث بشكل مستمر مع فكرة البعث والموت اي ان فترة محاق القمر ثم بزوغه هي بمثابة موته وميلاده. ومع ترسخ هذه الفكرة في اذهان القبائل المذكورة، فقد اصبح القمر صديقا حميما للإنسان، وهو كذلك فعلا خاصة عند القبائل التي تقطن الصحاري المكشوفة كونه ينير لهم عتمة الليل ويجنبهم حر الشمس الملهبة وما يعانونه من حرارة في فصل الصيف. 43 ولأن الصديق يبوح بأسراره لصديقه فقد اراد القمر ان يفشي سر موته وبعثه للإنسان، واختار الارنب لان يبلغ الرسالة لبني البشر، لكن الارنب قلب المفهوم عندما قال على لسان القمر «كما انني اموت ولا اعود الى الحياة مرة اخرى، فإنكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحياة مرة اخرى». 44

وعندما رأى القمر الارنب مرة اخرى، طلب منه ان يعيد ما قاله للناس على لسانه، عرف القمر انه حرّف الرسالة، فضربه القمر بعصى شقت شفتيه، ولاتزال قبائل «الناماكوا» غاضبة من الارنب لأنه سلبهم الخلود على حد اعتقادهم، كما انهم لا يأكلون لحم الارانب، واذا ما خالف شخص منهم وعرفوا انه اكل لحم الارنب فانه يبعد من القبيلة.

وفكرة البعث والموت هذه وارتباطها بالقمر نجدها ايضا عند قبائل «البوشمان» (poshman) لكنها تعتقد في اساطيرها ان القمر قد ابليغهم الرسالة بمضمونها الصحيح، لكن شخصا لم يصدق قول القمر وبدأ يناقش الامر مع القمر عندما توفيت والدته امام ناضريه في حين كان القمر يخبره أن أمه نائمة وان موتها مؤقت ليس الا، لكنه اصر على موتها، فضربه القمر وشق شفتيه ومسحه على شكل حيوان هو الارنب. 45

ان فكرة الموت والبعث في الفكر الرافديني القديم يجسدها اله القمر ايضا والذي يأتي في الدرجة الثالثة من بعد السماء والهواء، وفيما يخص اختفاء القمر في نهاية كل شهر فقد عدّ هذا الاختفاء بمثابة موت مؤقت ليعقبه بايام ولادة جديدة وحياة اخرى بعد الموت المؤقت، حيث وردت اشارات عديدة تخص ايام الاختفاء حددت في اليوم السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين، وكان على المتعبدین ومن بينهم ملك البلاد ان يمتنعوا عن تقديم الصلوات والادعية للقمر في هذه الايام لأنه في حالة اختفاء، 46 اما في اليوم الثلاثين من الشهر فقد خصص لتقديم القرابين الى معبد اله القمر والتضرع

والدعاء له لكي يعود ويظهر ثانية، وعند ولادة القمر او بعثه من جديد فان ذلك يعتبر عيداً رسمياً خصص اليوم الاول من كل شهر للاحتفال به وقد اطلقوا على هذا العيد اسم «ايش – ايش» (esh -esh)، والمعلومات المتوفرة عن الاحتفال بهذا العيد قد بدأت مع تكون الحضارة خلال العصور التاريخية وقيام الممالك والدول في العراق القديم انه في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، إذ تم تحديد يوم واحد لهذا العيد، 47 بينما خصصت حكومة بابل في آخر عهود العراق السياسية في القرن السادس قبل الميلاد، ثمانية ايام للاحتفال بمولد القمر وبعثه للحياة من جديد، 48 وذلك لان الاقوام القادمة من الجزيرة والتي استوطنت في بابل او التي استقرت في اعالي الفرات، اعطت القمر مكانة مرموقة اكثر من باقي مجتمعات بلاد الرافدين لكونه صديق سكان الصحراء في الجزيرة العربية مثلما هو صديق لسكان الصحراء الذين حاول القمر منحهم الخلود في افريقيا السمراء.

### ثالثا- أسطورة الطوفان:

عن اسطورة الطوفان نجد في الاساطير الافريقية وتحديدًا لدى قبيلة «ماساي» (masai) التي تقطن احدى ولايات جنوب افريقيا، اذ تذكر في اساطيرها ان رجلاً مستقيماً اسمه «تومباينوت» تزوج من امرأة تدعى «ناياندي» وولدت له ثلاث اولاد، ثم تزوج من أرملة اخيه التي تدعى «ناهابا- لوجوينجا» وولدت له ثلاثة ابناء ايضا. وبعد ان كثر الفساد في الارض وفي قبيلته بالذات قررت الالهة ان تهلك الجنس البشري ماعدا «تومباينوت» فاشفقت الالهة عليه وامرته ان يبني فلكا من الخشب وان يركبه هو وزوجاته واولاده الستة وان ياخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف، وبعد ان بدء الطوفان وركب الجميع في السفينة ، وسقط المطر بغزارة حتى اصبح الطوفان محققا وشاملا لكل الارض، اثر ذلك بدأ المطر يخف، الى ان توقف، فارسل «تومباينوت» حمامة لتتحقق من انحسار الماء وظهور اليابسة من جديد ، فعادت اليه منهكة، ثم اطلق النسر بعد ان ربط بذيله رمحا، ثم بعد برهة من الوقت عاد النسر وعرف ان النسر قد حط على اليابسة وانه اكل من جيفة شَمَ رائحتها في الرمح. وبعد ذلك ادرك «تومباينوت» ان الطوفان قد انحسر فرست سفينته على ارض البراري ونزل الركاب. 49

وفي رواية اخرى مشابهة لقصة الطوفان السابقة، حكاها احد المبشرين في افريقيا بمنطقة «سايسي» (saya) عند نهر «مومبا» وعلى مقربة من بحيرة «روكو» ذكر الراوي

للمبشر انه سمعها من جده، وفحوى القصة لا تختلف عن سابقتها ، الا في التأكيد على ان رجل الطوفان قد حمل معه في السفينة كل انواع الحبوب وكل صنف من الحيوانات، الذكر منه والانثى . وعندما حدث الطوفان وغرقت الجبال هلك من بقي على الارض من الحيوانات والناس جميعا.50

وفي المقابل نجد قصة الطوفان قد حدثت في ارض الرافدين وما ضمته في مصادرها المسمارية عن اخبار الطوفان التي وردت مدونة باللغة السومرية والاكادية وهي اقدم قصة عن الطوفان معروفة حتى الان، وهذا ما عكسته الرقم الطينية التي دونت عليها اخبار الطوفان ، ومن المعروف ان النص قد دون بعد الاف السنين من وقت حدوث الفيضان، اذ يذكر الملك «جلجامش» في ملحمة الشهيرة والتي حملت اسمه ان الطوفان قد حدث قبله بكثير وان القصة سمعها من جده « اوتونابشتم» الذي حكى له قصة الطوفان، ومن المعروف ان تاريخ حكم الملك «جلجامش» حاكم مدينة الوركاء كان في حدود 2700 ق.م ثم حدث وان حذف منها واضيف اليها الشيء الكثير بما ينسجم وافكار القوم، على مر العصور وباختلاف الالسن، الا ان الخطوط الرئيسة ظلت واضحة فيها رغم انتشارها في اصقاع الدنيا الكبيرة والبعيدة عن ارض الرافدين.

اذ نجد في احداث قصة الطوفان الرافدينية ان بطل القصة اسمه «اوتو- نابشتم» (utu-napishtim) والذي يعني اسمه الذي منح الحياة من قبل الاله». وقد وردت الاحداث مدونه على رقم طيني لكاتب بابلي، وتكررت القصة في اكثر من عصر وعلى يد اكثر من كاتب ، اذ يقول الكاتب البابلي واصفا بداية الطوفان: «رعد يشق عنان السماء، اعاصير مدمرة تعصف وتزجر، مثل «نهيق حمار الوحش»، فيضان عارم تخور مياهه مثلما «يخور الثور»، ظلام حالك ودمار في كل مكان ، حتى ان الالهة نفسها تراجعت مذعورة الى اقصى السماوات».51

ومن الجدير بالذكر ان الوصف اعلاه يتطابق مع ما جاء في وصف الطوفان في الاساطير الافريقية، كما تتطابق اغلب المعلومات الاخرى ومنها على سبيل المثال ان رجل الطوفان «اوتونابشتم» قد امره الاله ان يحمل في السفينة بذرة كل المخلوقات الحية، واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة ايام وسبع ليالي ، حتى جاء الطوفان على كل من في الارض من البشر والحيوانات الا من كان على ظهر السفينة.52 ثم استقرت السفينة على جبل، وقبل

ذلك ارسل رجل الطوفان ليستقصي عن انحسار المياه وانتهاء الطوفان ، من خلال ارساله لأنواع من الطيور فان وجدت مهبطا لن تعود وان لم تجد فإنها ستعود للسفينة حتما، واول هذه الطيور الحمامة ، كما في الرواية الافريقية تماما، ثم اخيرا اطلق اوتونايشتم الغراب ، وعندما رأى الغراب ان المياه انحسرت اكل وحام ونعق ولم يرجع 53، بينما ذكرت الاسطورة الافريقية ان «تومباينوت» ارسل نسرا فأكل وايقن الرجل ان الطوفان قد انحسر بهذه الدلالة.

ان الادلة الاثرية المادية والكتابية عن حدوث الطوفان تتابع تترى، ولعل السير «جيمس فريزر» الذي الف مخطوطته التي بين ايدينا منذ حوالي قرن من الزمن (1918) رغم حداثة التأريخ القريب بالنسبة الينا والبعيد جدا عن تاريخ احداث الطوفان، يفيدنا في حقيقة تاريخية واقعية يروها لنا صاحب المخطوطة الذي عاش ما بين (1854 - 1941) يؤكد فيها اخبار الطوفان ومكان رسو السفينة اذ يقول:

«اما الفلك الذي استقر عند جبال «أرمينيا» فلا يزال جزء منه مطروحا على هذه الجبال حتى اليوم، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه في تعاويذهم» 54.

رابعا- شعائر عقد معاهدات السلام:

بعض العادات والتقاليد والأعراف التي كانت تتبعها بعض القبائل في افريقيا فيما يخص عقد الصلح او معاهدات السلام، تتشابه الى حد ما مع شعائر الآشوريين، 55 اذ تطلعنا الروايات ان زعيم قبيلة «بارولونج» اذا اراد ان يعقد حلفا مع قبيلة اخرى، فإنهم يأخذون معدة ثور ويبقرونها، ثم يزحف الزعيمان من خلال فتحة المعدة واحدا تلو الآخر، بعدها يعلنان انهما اصبحا واحدا، وتتبع قبيلة «بتستوانا» النهج نفسه فيما اذا عقدت حلفا مع قبيلة اخرى حيث يعمدون الى ذبح حيوان ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض اجزاء امعاء ذلك الحيوان، ويقسمان على التعاهد، ويذكر «السير فريزر» انه شهد مثل هذا التقليد بقوله «اقيمت مثل هذه الشعائر عندما كنت في قبيلة «شوشنج» 56.

ان التفسير المنطقي لهذه الشعيرة، هو ان الجزء الذي يصيب من يرجع عن عهده، بأن يقطع مثل الذبيحة وان مصيره هو القتل لامحالة ، ومن بين ذلك نجد اقوالا عند قبائل مثل «الواتشاجا» والتي تصّرح اثناء تأدية شعائر الصلح بالقول: «لكي لانشق الى نصفين كما

يشق ذلك الجدي» والشئ نفس تقوله قبيلة «ناندي» اذ تذبح كلبا وتشرطه الى نصفين و تقول «ليقتل من ينقط العهد مثل هذا الكلب»، 57 اما قبائل «الاولمبيون» وهم شعب كان يسكن دلتا نهر النيجر، فقد عرف عنهم انهم يجلبون شاة بحضور الكاهن ويشقونها الى نصفين ويقولون «ليشق جسد من يشن الحرب على القبيلة الاخرى كما يشق جسد الشاة». 58

أما عند الاشوريين فان مغزى ودلالة ما ذكرناه سابقا لدى بعض القبائل الافريقية وجدناه مدونا على الرقم الطينية منذ اكثر من اربعة آلاف عام، اذ اشارت الكتابات المسمارية الى ان ابرام المعاهدات كان يرافقها بعض الطقوس والمراسيم، لإضفاء نوع من القدسية على الاتفاق، ومن المتوقع ان تكون هذه الطقوس عبارة عن اعمال يقوم بها المتعاهدين من الملوك او من ينوب عنهما تتعلق بذبح حيوان كأن يكون كبشا او القيام بحركات رمزية تتمثل بمسك رداء الملك القوي او لمس الحنجرة، 59 ومثل هذه الحركات والاعمال وجدناها في محل استعراضنا لعادات بعض القبائل الافريقية في وقت سن المعاهدات، اما في بلاد الرافدين فلنا في المعاهدة التي عقدها الملك الاشوري «آشور نراري الخامس» (745-745 ق.م) مع الحاكم «ماتع- ايلو» امير مدينة «أرواد» على الساحل السوري وخير شاهد ودليل. وتعد المعاهدة من اقدم المعاهدات التي وصلتنا بصيغتها الاصلية، 60 إذ يرد في النص ان كبشا قد ذبح بالمناسبة ويحدد النص بالقول:

« ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه للتضحية ولا من اجل الالهة عشتار، انما احظر لكي يقسم «ماتع- ايلو» على ولائه للملك «آشور نراري الخامس» ، فاذا حنث بيمينه فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش»، 61 ثم يحدد النص اجزاء الكبش ويذكر ان هذا الجزء من الكبش كان يكون اليد او الساق او الكتف، ليس جزء يعود الى الكبش بل انه لـ «ماتع- ايلو». ويختتم الملك الاشوري النص بالطلب من الاله «سين» اله القمر ان يتلي حاكم مدينة ارواد وشعبه وابناءه وموظفيه اذا ما حنثوا بالاتفاق بالآتي: «فعسى ان يكسوا الاله سين، .... ، ماتع – ايلو وابناءه وموظفيه وشعب بلاده بالجذام كالرداء يغطي اجسامهم فيهموا على اوجههم في العراء وعسى ان لا يرحمهم» .... 62.

## الخاتمة:

إذا صرفنا النظر عن أهمية هذه الأساطير في حد ذاتها بوصفها سجلا للحوادث والكوارث التي قضت على الجنس البشري كله على وجه التقريب. فإنها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشه الأنثروبولوجيون مناقشة جادة تستحق الدراسة. والسؤال هو، كيف يمكننا أن نفسر أوجه التشابهات الكثيرة والقوية بين معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها، تلك الأجناس التي تسكن في بقاع مختلفة ومتفرقة متباعدة في أنحاء العالم ؟

فهل يرجع ذلك التشابه إلى انتقال المعتقدات والعادات من جنس إلى جنس بشري آخر، أما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصال غير المباشر، أو ربما أن لهذه المؤثرات والمعتقدات المتشابهة نشأة مستقلة عند كثير من الأجناس، نتيجة تماثل الفكر البشري في ظروف فكرية متشابهة ؟

والرأي الذي نعتقد به أن كلا الوجهتين قد عملت بقوة، وعلى نطاق واسع لإيجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها، وتعبير آخر نقول أن كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من هذه المؤثرات والمعتقدات مع تغير أثناء النقل، أو من المحتمل أن وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر أنها نشأة مستقلة ونتيجة لتماثل حركة التفكير في العقل البشري.

ومهما تكن النتيجة التي يمكن أن نتوقعها فإن المغزى الحقيقي، هو أن الإنسان القديم وإن قطعت بين أماكن استيطانه الصحاري والبحار فإن عمق الترابط والحوار الثقافي لابد أن يطوي كل هذه المسافات لتحل الألفة والوئام محل التنافر والخصام في حوار جاد وصريح يعيد للأذهان ما كان عليه الأجداد من حس ثقافي متلهف لمعرفة القصص والبطولات مستمدين منها العزم، نحو غد ومستقبل أفضل، وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا التلاحم في البناء الثقافي والحضاري والذي حاولنا أن نجسده في ورقتنا هذه في زمن ولى وانتهى، بيد أن عبقه لا يزال حاضرا ومحفورا في ذاكرة الأجيال.

## الهوامش:

- 1- سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي - دراسة في السحر والدين، النسخة الانجليزية، ط1، 1922، الترجمة العربية العامة، بإشراف الدكتور احمد أبو زيد، ط2، ج1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1998. أما ما يخص علم الباراسيكولوجي كمصطلح، فانه يتألف من السابقة «بارا» والتي تعني «خارج نطاق» وكلمة «سيكولوجي» التي تعني علم النفس، ومعنى الكلمة كاملا يكون « ما هو خارج نطاق علم النفس» أو « هو ما لا يخضع لقوانين علم النفس» ومع ذلك فان تسمية هذا العلم لا تزال تحت الدراسة.
- 2- احمد جروزا طاهر، أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الاجتماعية الإفريقية، جامعة نغونديري، الكاميرون، على الموقع الالكتروني التالي:  
[http://www.mubarak-inst.org/stud\\_reas/research\\_view.php?id=319](http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=319)
- 3- نفس المرجع السابق .
- 4- انظر في ذلك، بحث كتبه يوري كبيشانف: الحضارات الإفريقية: التشكل والنمو. إفريقيا: التراث الثقافي والعصر، موسكو، 1985م، ترجمة نوفل عليّ نيوف، مجلة طلبة الدعوة الإسلامية، عدد 1991، 8م، طرابلس، ليبيا.
- 5- الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1992، ص264.
- 6- سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الترجمة بإشراف احمد أبو زيد، ج1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، القاهرة، 1998.
- 7- الباراسيكولوجي: تتألف الكلمة من السابقة «بارا» والتي تعني «خارج نطاق» ومن كلمة «سيكولوجي»، التي تعني علم النفس، ومعنى الكلمة كاملا ما هو خارج نطاق علم النفس أو «ما هو لا يخضع لقوانين علم النفس» ومع ذلك فان تسمية هذا العلم لا تزال تحت الدراسة.
- 8- السير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 112.
- 9- المصدر نفسه، ص 112.
- 10- فوزي رشيد، الفكر عبر التاريخ، دار سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص28-30.
- 11- المصدر نفسه، ص 30.
- 12- سير جيمس فريزر « الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص123-124 .
- 13- مختار السويفي، مصر والنيل في أربع كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، ط2،



منقحة، القاهرة 1892، ص36. وهذا الطول يساوي طول الذراع السومري، الذي يساوي (50سم). ينظر: فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ط2، بغداد 1979م، ص35-43.

-14 سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص112.

-15 المصدر نفسه، ص131.

-16 - المصدر نفسه، ص141.

-17 فوزي رشيد ، الفكر عبر التاريخ، مصدر سابق، ص32-33.

-18 سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق ، ص142.

-19 المصدر نفسه، ص146.

-20 المصدر نفسه، ص146.

-21 عصام محفوظ ، الرمز في القناع الأفريقي، نوفمبر 2008، موقع رؤى تشكيلية، على الرابط التالي:

[/http://essammahfouz.maktoobblog.com](http://essammahfouz.maktoobblog.com)

-22 المصدر نفسه.

-23 لمزيد من المعلومات حول معتقدات إنسان بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ وكيف نشأ الدين ينظر: فوزي رشيد، الديانة، حضارة العراق ، ج2 ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، 1985.

-24 السير جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم ، ترجمة نبيلة ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، 1972 ، ص40.

-25 مصطفى والزيات، ابراهيم واحمد حسن، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، ج2 طهران ، ب ت، ص58.

-26 ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ، م13 ، ط3 ، بيروت - 1994م ، ص270.

-27 السير جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق ، ص54.

-28 للاطلاع على معلومات وافيه حول موضوع خلق الانسان من مادة الطين، يمكن مراجعة اطروحة الماجستير للباحثة وسناء حسون يونس حسن الاغا، في فصلها الاول، والمعنونه «الطين في حضارة بلاد الرافدين» والمقدمة إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل، في اختصاص التاريخ القديم ، الموصل 2004، والتي استفدنا منها كثيرا ونقلنا عنها الكثير من المعلومات الواردة حول الموضوع كما استخدمنا مصادرها التي تناولتها

الباحثة المذكور بدقة وامعان.

29-الدباغ ، تقى ، الفكر الديني القديم ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1992 ، ص27 .

Langdon, S.: The Babylonian Epic of Creation, Oxford, 1923- 30

31- طه باقر وبشير فرنسيس ،الخليقة واصل الوجود، مجلة سومر ، م5 ، ج1، 1949 ، ص6 .

32-كريم ، صمويل نوح : الاساطير السومرية ، ترجمة يوسف داؤد عبد القادر ، بغداد، 1971، ص114.

33- كنيت ، هاوكنز ، مواجهة الاعتراضات في المرشد إلى الكتاب المقدس، بيروت، 1966 ، ص 45 .

34-العهد القديم ، سفر التكوين 2: 7، في: الكتاب المقدس، ط1، دار الكتاب المقدس، الاصدار الخامس، القاهرة، 2003، ص2.

35- نخبة من الاساتذة ، معجم اللاهوت الكتابي ، ط2 ، بيروت1988-، ص 25 .

36-محمد قاسم محمد ، التناقض في تورايف واحداث التوراة من ادم حتى سبي بابل ، قطر، 1992، ص5.

37- سليمان ، عامر، من القران الكريم الى النصوص المسمارية - قصة الطوفان» ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج1 ، م45 ، (بغداد1998-) ، ص 37 .

38-سورة الانعام : الآية 2 .

39- سورة المؤمنون: الآية 12.

40- سورة السجدة : الآية 7.

41- سورة الصافات : الآية 11 .

42-سليمان ، عامر ، من القران الكريم الى النصوص المسمارية ، مصدر سابق، ص 36 .

43- الهييتي، قصي منصور عبدالكريم ، عبادة الاله سين (اله القمر ) في حضارة بلاد الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، قسم الآثار ، 1995.

44- السير جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق ، ص 55.

45- المصدر نفسه، ص55.

Langdon S, Babylonian Menologies and the Semitic Calendarsm 46-

,London, 1935, p.80

- 47- الهيتي، قصي منصور عبدالكريم ، مصدر سابق ، ص 74-77.
- 48- The Chicago Assyrian Dictionary , Chicago, 1956 ff( =CAD) , E, p.373.
- 49- السير جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق ، ص 202-203.
- 50- المصدر نفسه ، ص 204.
- 51- فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان، جامعة بغداد ، 1975 ، ص 84.
- 52- نفس المصدر ، ص 87.
- 53- نفس المصدر، ص 94-96.
- 54- السير جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق، ص 95.
- 55- اقوام يرجح انهم استوطنوا في شمال بلاد الرافدين منذ الالف الثالث قبل الميلاد، وقد قويت شوكتهم مع عصرهم الحديث في الالف الاول قبل الميلاد، للمزيد انظر: طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، دار البيان، بغداد ، 1973 ، ص 230.
- 56- سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 239.
- 57- المصدر نفسه ، ص 240.
- 58- المصدر نفسه ، ص 241.
- 59- عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم - موجز التاريخ الحضاري، جامعة الموصل، الموصل، 1993 ص 78.
- 60- من الجدير بالذكر ان هناك معاهدة اقدم من هذه المعاهدة قد دونت في القرن التاسع قبل الميلاد بين الملك الاشوري «شمشي ادد الخامس» والملك البابلي « مردوخ زاكر شومي» الا ان معظم ما بقي مدون على رقيم المعاهدة تالف مع الاسف ولا يمكن ان نفهم منه نص المعاهدة او بنودها، لمعرفة المزيد ينظر: شعلان كامل اسماعيل ، العلاقات الدولية في العصور العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب بجامعة الموصل ، 1990 ، ص 181-183.
- 61- سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 242.
- 62- عامر سليمان، العراق في التاريخ، مصدر سابق، ص 69.



## دور الاعيان في مقاومة الاستعمار الفرنسي في تونس انتفاضة مشايخ بني زيد الحامة مثالا

الدكتور الهادي غيلوفي

أستاذ التاريخ المعاصر بالمعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بتوزر/جامعة  
قفصة تونس

مقدمة:

التاريخ يكتبه المنتصرون لا ريب أن هذه المقولة مازالت تحتفظ بالكثير من ألقها رغم قدمها النسبي ومن ثم فإن الباحث المتقصي لن يعدم أدلة وقرائن للبرهنة على مدى صحتها ونفاذها. ولكن الذاكرة الشعبية لا تزال تحفظ العديد من الروايات عن الأحداث التاريخية فأني محاولة للمقارنة بين ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية والوثائق التاريخية تبدو للوهلة الأولى صعبة إلى حد ما فبالنسبة للمستعمر يعتبر كل من يخرج عن إرادته قاطع طريق وخارج عن القانون أما بالنسبة لأبناء جلدته وقبيلته تعتبر بطلا وتشكل سيرته مصدرا للإلهام وخرانا لتغذية الذاكرة وهذا الإعجاب يصبح مصدرا لنسج الروايات التي تتداول من جيل لجيل ومصدرا للفخر والاعتزاز وهي لا تخلو من المبالغة.

هذه المفارقة بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية كانت إلى حد بعيدا إحدى أسباب تناولنا لهذه الأحداث محاولين المقارنة بينهما دون السقوط في المبالغة ولكننا أيضا سوف نعمل على بعث الروح في الوثائق الميته من خلال تطعيمهما بالرواية الشفهية التي سوف نتعامل معها بحذر شديد ولا بد من الإشارة إلى أننا سوف نعتمد بشكل مكثف على ما دونة المونوقرافي التونسي المشهور محمد المرزوقي الذي كان له السبق في هذا المجال إذ مثلت أعماله تدويننا لذاكرة أشرفت على التلف فقام بأعمال متميزة في تدوينها وإن كانت أعماله لا ترقى إلى الكتابة التاريخية الأكاديمية غير أن لها قيمة علمية لا يمكن إغفالها حيث أن أغلب رواياته المدونة اعتمدت على الذاكرة الشعبية من روايات وأشعار لأشخاص كانت لهم صلة وثيقة بأبطال هذه الروايات دون أن ننسى الرجوع لبعض الروايات التي سوف نجتمعها معتمدين أصول تدوين الوثيقة الشفهية وذلك بالاستعانة بالوثائق التاريخية التي تمكنا من الحصول عليها من خزائن الأرشيف الوطني والأرشيف الفرنسي مستغلي انتمائنا الجغرافي لهذه المنطقة و هو الجنوب التونسي.

## 1. ثورة مشايخ بن زيد من خلال الرواية الشفهية

كما ذكرنا فأننا سوف نعتد بشكل مكثف على كتابات المرزوقي ولا سيما كتابة المشهور دماء على الحدود فالمرزوقي استطاع من خلال المقابلات التي أجراها في فترة مبكرة جمع أخبار ثورة في زيد من «أفواه الرجال» الذين كانت لهم صلاة قرابة برجال هذه الثورة فهو يرى أن أسباب الثورة تعود بالأساس إلى محاولة استغلال جماعة الاتحاد و الترقى للشعور الديني لدى المسلمين من أجل خلق متاعب لفرنسا التي تقود الحلف المعادي لتركيا «وكانت تركيا، أو على الأصح جماعة (الاتحاد والترقى) الماسكون بزمام الأمور في ذلك العهد، يدركون جيدا تعلق المسلمين بمركز الخلافة الإسلامية، فأرادوا أن يستغلوا هذا الشعور لصالحهم فأصدر شيخ الإسلام بالأستانة فتوى في وجوب إعلان الجهاد المقدس من كافة المسلمين، ضد دول الحلفاء أعداء الإسلام، فانتشرت هذه الفتوى في عموم البلاد الإسلامية فأثارت صعوبات لانكلترا في الهند، وفجرت حماسا للثورة والعصيان في الشمال الإفريقي. واغتنم التونسيون المهاجرون في تركيا هذه الفرصة وفي مقدمتهم الشيخ (صالح الشريف) الموجود بتركيا منذ 1906 و(علي باش حامبة) المهاجر إليها اثر إبعاده في واقعه الترام سنة 1912 اغتنموا هذه الفرصة فاجتمعوا وتداولوا في الأمر مع القادة الأتراك، وأرسلوا رسلا برسائل إلى بعض الشخصيات التونسية بتونس، عن طريق طرابلس التي تحركت من جديد لطرد الايطاليين الغاصبين، ووصلت هذه الرسائل من طرابلس إلى العاصمة التونسية بواسطة رجل اشتهر بأنه أخطر رسول يستطيع أن يحمل الأوامر السرية، دون أن ينتبه إليه أحد، هذا الرجل هو الشاب (مصباح بربيش الغيلوفي) من قبيلة (بني يزيد) سكان حامة قابس، الذي كان في صفوف المجاهدين الليبيين منذ سنة 1912 وكان معروفا من قبل الضباط الأتراك الذين شاركوا في الجهاد الليبي، وتضمنت الرسائل وجوب الدعوة للجهاد، والاستناد إلى الحدود الليبية العامرة بالمجاهدين، ومن بينهم بعض الضباط الأتراك، أما السلاح فستوفره لهم تركيا بواسطة الغواصات الألمانية»<sup>1</sup>.

هذه الرواية التي يوردها المرزوقي تعود إلى روايات جمعها المؤلف دون أن نجد رجوعه لأية وثيقة أرشيفية ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الرسائل التي قام مصباح بربيش بمهمة نقلها من طرابلس لم يعثر عليها ولا نعلم من حررها ولكننا وجدنا إشارات إليها من

ملفات الموقوفين حيث يتكرر سؤال الموقوفين عن هذه الرسائل ومدي علم المستوجب عنها حيث ينفي أغلب الموقوفين معرفتهم عن موضوع هذه الرسائل أما لعدم اطلاعهم عنها فعلا أو لنفي التهم الموجهة إليهم حيث أن أحد المتهمين وهو محمد بن الحاج محمد بن فرح الغيلوفي قد نفى أي علم له بهذه الرسالة الموجهة من الشرق في محضر استجوابه من طرف الجندرمة بتاريخ 23 سبتمبر 1917»<sup>2</sup>.

ولهذا المتهم ملف في السلسلة «ج» تحتوي على ملف أمني تحت عنوان الأشخاص المشبوهين وهو ما يدل على أن هذه القضية تندرج ضمن الإجراءات الأمنية التي تقوم بها سلطة الحماية وكان فعليا مراقبا مراقبة دقيقة حيث أننا عثرنا في ملفه على تقارير البوليس الفرنسي حول تحركاته بالعاصمة والأشخاص الذين يتردد عليهم ومن بينهم المدعو على بن حسن فارس الحامي الطالب بالمسجد الكبير (الزيتونة) و هو ابن عم المدعو علي بن عمار فارس الموقوف حاليا بمجاز الباب و يذكر التقرير أن المدعو محمد بالحاج محمد قدم للعاصمة بتاريخ 28 أكتوبر 1918 من أجل العلاج<sup>3</sup> ويظهر أن هذا المشتبه قد تحصل على إذن خاص لزيارة تونس لمدة ثمانية أيام وفي تقرير بتاريخ 11 أكتوبر يؤكد أن هذا الشخص قد نزل بمقهى 13 شارع الحجامين وأنه استطاع الحصول على غرفة ليقيم فيها.

ويصر المتهم مرة ثانية في تحقيق أجري معه بتاريخ 2 أكتوبر 1917 على اعترافاته السابقة ويصر على أنه كما عمه الحاج عمر محتجين حول مسألة لا علاقة لها بها وهي الرسالة المرسله من طرف خليفة بن عسكر حيث أنه لا علم له بهذه الرسالة وأنه لم يسمع عمه الحاج عمر يتحدث عن هذه الرسالة في أي مناسبة حيث أنه يسكن بعيدا عن عمه وأن لا علم له بقدوم ابن عمه مصباح إلى تونس منذ سفره إلى طرابلس وأنه لم يسمع من عمه حديثا «عن حسن القلاتي وأن لا علم له بأي علاقة يجمع بين عمه وبين المدعو حسن القلاتي»<sup>4</sup>.

إن موضوع الرسالة الواردة من الشرق شكل محور استنطاقات أغلب الموقوفين في ما يعرف بثورة بن زيد وذلك بالإضافة عن علاقاتهم بحركة الشباب التونسي ولا سيما حسن القلاتي الذي يبدو أنه كان على علاقة بزعماء الحامة فنفس الأسئلة تكررت تسمع

أحد المتهمين وهو السيد علي بن عمار فارس الذي أكد على أنه من عائلة أعيان إذ يقول «لا أفهم سبب اعتقالي فأنا انتفى إلى عائلة موالية لدولة الباي وأنه عند قدوم قوات الاحتلال أعلننا تأييدنا لها وقد عارضة شخصيا سنة 1915 خروج خليفة الحامة عن الدولة الفرنسية المدعو عمار بن عبد السلام بن سعيد وأنا لم أوقع عن الرسالة الموجهة إلى نوري باشا ولم أسمع إطلاقا عن اتصالات مع أي عدو لفرنسا ولكنني سمعت فقط عن أخبار الحرب الإيطالية التركية وقد كان جدي وجها بالمنطقة معروف لحسن سيرته وهو الذي كان يهتم بي وكان أبي شيخا ووليت بعده المشيخة .

ولذلك لا يمكن أن أكون متورطا في العداء لفرنسا ولم أطلب إطلاقا سراح أعيان بن غيلوف الخمسة الذي اتهموا بالاعتداء على قافلة البريد بالبحائر»<sup>5</sup>.

فالمؤكد أن السيد علي فارس يحاول نفي أي علاقة له بجماعة بنغيلوف أو التوسط في إطلاق سراح الأشخاص الذي اتهموا بالاعتداء على قافلة البريد التي اتهم فيها الغيالييف نظرا لاتهام مصباح بربيش بالهجوم على هذه القافلة وتم إيقاف أقاربه لاتهامهم بمشاركته في هذه الحادثة ولعل الشيخ يدحض التهمة عليه.

وهي التوسط الإطلاق سراحهم من أجل نفي اتهامه بالتحضير للثورة مع هؤلاء المتهمين وهو بذلك يريد دحض التهمة من أساسها ولا نعلم على وجه التحديد علاقته الفعلية بالغيالييف ولعله قام بمهمة التدخل لدى الخليفة من أجل تبرئة أصدقائه الغيالييف ولكن الاعتراف بعلاقته بالغيالييف سوف يثبت التهمة الثانية وهي مشاركتهم في التحريض والأعداد لثورة لأن المتهم الرئيسي في هذه القضية هو مصباح بربيش ابن أحد الموقوفين وهو عمر بن فرج الغيلوفي وابن عم الموقوف الموقوف الثاني محمد بن محمد بن فرج الغيلوفي ولعل الشيخ علي فارس يحاول نفي أي علاقة له بهؤلاء المتهمين.

ولكن الشيخ علي فراس على عكس المتهم الأول محمد بن الحاج محمد اعترف بمعرفته بالمدعو حسن القلاتي ولكنه أصر على أن معرفته به لا تتعدى رؤيته في بعض الأحيان حيث يقول «اعرف حسن القلاتي لكن بالنظر فقط حيث رأيته فقط عدة مرات في الوزارة ولا تربطني به أية علاقة وعلى حد علمي فلا علاقة له إطلاقا مع أشخاص من



ويضيف بأنه لا يعرف شيئا في القضية محور اهتمام السلطات ولكنه لا ينفي معرفته بالحاج عمر ويقول «لا علاقة لي بالقضية التي يهتمون بها ولكن أعرف الحاج عمر وأعرف أن له ابن يدعا مصباح في طرابلس ولم تصلني رسالة على عنواني من طرف ابنه وأناي أعرف كل من حبيب الزائر والحاج عمارة بوطارة وسعيد بن عمر ولا علاقة تربطني بهم لأنهم ينتمون لحلف الخليفة القديم وأريد أن أقول بأنهم من الفريق المناهض للحكومة وأريد أن أقول أنه ليس كل حد علمي بأن هؤلاء الثلاثة المذكورين سابقا أو السيد الغيلوفي قد أعدوا شيئا ضد الحكومة»7.

فالسيد علي فارس لم ينف علاقته ببقية المشايخ فقط بل أكد أنه على علاقة غير ودية معهم حيث أنه يختلف معهم حيث أنهم ضمن فريق آخر يختلف معه وبالتالي أراد بهذا التأكيد على فرضية تؤكد على عدم إمكانية أي تعاون بينهم حيث لا يمكن الحديث عن اتفاق بينهم على القيام بأي عمل عدائي للحكومة بين أشخاص لا اتفاق بينهم لعل السيد علي فارس حاول قدر المستطاع تفنيد فرضية الحماية القائلة بانتماء هذه المجموعة إلى خلية واحدة كانت بصدد إعداد شيئا ما معادي لها وحسب رأي البعض مشروع ثورة غير منجزة أو مجمعة كما يمكن اعتبارها إذا ما أخذنا بفرضية رواية المحدثين اللاحقين الذي أكدوا على أن مشايخهم كان فعليا يعدون لهذه الثورة وكما ذهب المرزوقي في تحليله دون أن نجد ما يؤكد هذه الفرضية أو ينفيها ولعلنا لا نستطيع تأكيد أو نفي مشروع الثورة ولكننا من خلال الوثائق التي اعتمدنا عليها نستطيع أن نرجح أن هناك حديث ما دار بين أعيان الحامة حول إمكانية مشاركتهم في ثورة الجنوب لمناصرة إخوانهم الودارنة ولعل بعض الاتصالات تمت بين هؤلاء الأعيان ومصباح بربيش الذي يصفه المرزوقي بأخطر رسول للثورة نظرا لانتمائه لهذه القبيلة بني يزيد وإذا ما أخذنا برأي المرزوقي والشهادات الشفهية فلا يمكن أن يقوم مصباح بربيش بدعوة بقية القبائل دون أن يدعوا قبيلته للثورة وما يؤكد فرضيتنا هو أن مصباح بربيش كان يتردد وأحيانا على الحامة ولا سيما أنه أنجب أبنة الوحيد سنة 1914 مما يدل على رجوعه لتونس بعد سنة 1912 سنة سفره إلى طرابلس من

أجل المشاركة في الحرب الإيطالية إلى جانب إخوانه الطرابلسيين.

ولعل موضوع الرسائل كان جوهر قضية المشايخ، فالرواية الشفهية التي اعتمدها المرزوقي تقول بأن المشايخ قد اتفقوا على خطة الثورة «كان يتزعم حركة بن يزيد كل من المرحومين الحاج عمار بوطارة الكاتب بإدارة خليفة الحامة حينذاك محمد الزواري شهر (بودبوس) الذي أظهر لزعماء الحركة انه معهم وتظاهر بعد أنه للفرنسيين والعمل ضدهم حتى اطلع على خيوط المؤامرة.

هذه المؤامرة التي تم كشفها من قبيل الخليفة محمد الزواري وردت في رسالة لهذا الخليفة عثرنا عليها في ملف الخليفة المذكور حيث اعتبر نفسه قام بعمل متميز وردت هذه الرسالة ضمن طلبه في الترقية ليصبح عاملا وان كنا نرجح أن يكون هذا الخليفة أراد من وراءها إبراز إخلاصه وتفانيه في عمله وهو بذلك بطلب بمجازاته ولعل الخليفة استطاع معرفة خيوط هذه الثورة من خلال بعض من كانت له أغراض ضد هؤلاء المشايخ ولم يجد ما يؤكد صحة ادعائه ولكن الرواية الشفهية تؤكد علم هذا الخليفة بما كان يعده المشايخ وتؤكد هذا شهادة السيد علي بن مصباح بربيش في مقابلة أجريناها معه بصفته ابن زعيم هذه المؤامرة وقد ذكر لنا أن السيد محمد بن الحاج امحمد بن فرج الغيلوفي قد حدثه عن أن الهدف من إشراك المشايخ كان يهدف إلى الأعداد الجيد للثورة ولكن لماذا المشايخ دون غيرهم يذكر السيد علي بربيش بأن والده مصباح وابن عمه محمد بالحاج امحمد أرادوا إشراك المشايخ لأن المشايخ بصفتهم أعيان العروش هم أكثر الناس دراية بأمور عروشهم وبذلك بإمكانهم اختيار الأشخاص المناسبين للمشاركة من حيث الإخلاص والاستعداد للمشاركة في الثورة وكانت المجموعة القيادية تجتمع في مكان قريب من الحامة وهي جبانة الدبدابة وكانت هذه الاجتماعات تعقد ليلا وفي مكان سري حيث لا أحد يزور المقبرة ليلا وكانت المجموعة تتداول في أمور الثورة المحتملة<sup>8</sup>.

ويذكر المرزوقي في هذا الإطار بأن الزعماء قد اتفقوا على الخطة وبعد ذلك حرر اتفاقهم وتم تكليف الشيخ الحبيب الزائر بحمل رسالة لا نعلم محتواها لإيصالها مباشرة إلى زعماء الحركة في تونس ولأغلب الضن السيد حسن القلاطي ويورد المرزوقي ما يلي «وبمجرد

الاتفاق على الخطة، وتحديد يوم الثورة، حرر بذلك تقرير لزعماء الحركة بتونس، ضم إلى رسائل أخرى واردة من طرابلس، سافر بها الشيخ الحبيب الزائر إلى العاصمة بواسطة رتل السكك الحديدية من محطة (العونيات) على مسافة 18 كلم من قابس، وبادر خليفة الحامة بإعلام المراقب الفرنسي بقابس، وأعلم هذا بدوره إلى زميلة الفرنسي بصفاقس، موضحا له صفات الشيخ الزائر ولباسه، فأمر هذا أعوان الجندرمة الفرنسيين بانتظار القطار بمحطة صفاقس والتفتيش عن حامل التقرير، وسرب السر إلى الشاوش (الطيب الزمزمي، الحامي) الذي كان يشغل وظيفة شاوش صبايحية بمراقبة صفاقس، فدفعته حمية القرابة إلى محاولة إنقاذ ابن عمه الحبيب الزائر فذهب إلى محطة القطار، فبحث بعينه عن الشيخ الزائر، فعثر عليه، فأشار إليه بأن سره قد انكشف، وإن الأعوان يبحثون عنه، فعليه أن يتخلص مما عنده، فأسرع الشيخ إلى أكل الرسائل، ولم يهتد إليه الأعوان فاستمر في طريقه إلى تونس.

وفي محطة تونس كان أعوان الجندرمة في انتظاره، يبحثون بعيونهم عنه بين النازلين، كما كان في انتظاره أيضا قريبه مفتاح الزائر، الذي هتف باسمه حين رآه، فلم يبق شك عنه الأعوان أنه طلبهم، فقبضوا عليه، وسيق إلى السجن كما قبض على زعماء الحركة، وفي مقدمتهم الحاج عمار بوطارة الذي بقي مع الشيخ الزائر رهيبي السجن إلى أواخر 1923.

لا يجزم المرزوقي قصة المشايخ مع الخليفة هل هو بالفعل نعمد الإيقاع بهم أو أنه كان مضطر في رواية أخرى أوردتها المرزوقي ذكر «لقد كان الخليفة مخلصا» في أول أمره، إلا أنه في الاجتماع الذي حررت فيه الرسائل المرسلة مع الشيخ الحبيب الزائرة حضر هذا الاجتماع أحد المشبوه فيهم، فلم يتخوف منه الخليفة فقط، بل أظهر التخوف بعض الشيخ الحاضرين، وهمس بما في نفسه للشيخ الذي جلب معه هذا المشكوك في أمره معنى هذه الهمسات فنبه الجماعة إلى خطتهم في هذا الشك، وطلب إحضار مصحف ليقسم عليه يمين الإخلاص وأقسم فعلا، وبذلك اطمأن بعضهم وبقي البعض الآخر متخوفا، لأنهم كانوا يعملون عن هذا الشخص أنه كان كثير الاتصال بالفرنسيين، واستشار بعض رفاقه في التخلص من هذا المشكوك فيه بالقتل، فلم يصادق الجماعة على هذا الإجراء... وإن الخليفة كان أشد الجماعة خوفا «وانه راقب ذلك المشكوك فيه في تحركاته، وبلغه إن

الرجل ربما تحول إلى قابس، فأسرع الخليفة دون استشارة أحد، وأبلغ تفاصيل المؤامرة إلى المراقب المدني الفرنسي بواسطة الهاتف، واعلمه بالرسائل التي سافر بها الشيخ الزائر إلى تونس، مدعيا أنه سمح لنفسه بالدخول في هذه الجماعة قصد التوصل إلى جمع خيوط المؤامرة وتفاصيلها، ولهذا ألقى القبض على شيوخ بن يزيد وفضل النبا بسرعة إلى قبائل الجنوب فسارعت إلى إعلان الثورة»<sup>10</sup>.

مهما اختلف الروايات غير أنها تجمع على دورها للخليفة في كشف مؤامرة الثورة كما سبق وأشارت إلى أن الخليفة قد ذكر دوره في كشف المؤامرة غير أننا لم نعثر على أي اعتراف لقادة هذه الثورة على دور للخليفة لا بد من الإشارة أن الاعترافات التي عثرنا عليها أجمعت على إنكار التهم الموجه لهم لأنه لا يمكن لأي متهم إثبات التهمة الموجهة إليهم حيث نفى جميعهم أي علم لهم بالرسائل ونفوا جميعا أي اتصال لهم بالمدعو مصباح بربيش بما فيهم ابن عمه محمد بالحاج امحمد الذي أكد لنا ابن عمه على بربيش ابن مصباح أن الرجلين كان يجتمعان ويخططان للثورة مع بقية المشايخ لا بد من الإشارة أننا لم نتمكن من العثور على ملفات المتهمين الرئيسيين في الثورة وهم الحاج عمر بن فرج والشيخ الحبيب الزائر والحاج عمار بوطارة الذين صدر فيهم حكم مما يوضح لنا جانب من الثورة المؤامرة وعلى أي أساس صدر ضدهم الحكم لأن بقية المجموعة لم تصدر ضدهم أحكام بالسجن بل صدر ضدهم حكم بالتغريب إلى مجاز الباب لمدة سنة دون السنة أشهر التي قضوها في السجن كموقوفين.

إذا كانت هذه الثورة المزعومة حقيقة أو خيال غير أن السلطات الاستعمارية كانت مستنفرة أمنيا ولم توفر أي جهد للقبض على أي شخص تحوم حوله الشكوك أو أي شخص علمت أنه حمل رسالة إلى منطقة الأعراض عموما وخاصة حامة بن يزيد في هذه الفترة ففي 22 أكتوبر من سنة 1917 تم القبض على امرأة قادمة من ليبيا تبين أنها تحمل رسالتين من أشخاص طلبا منها أيضا لها إلى أهلهم فتم إيقاف هذه المرأة وتم التحقيق معها واستجوابها وأعلنت المحقق إن لا علم لها بأي رسالة ولا علاقة لها بين يزيد<sup>11</sup> وهي لا تعرف أي شخص

من هذه القبيلة وأنها لم تدخل الحامة إطلاقا وقد تين أن الرسائل التي نعملها هذه السيدة لا علاقة لها بالرسائل التي يتم البحث عنها.

لعل حالة الحرب التي كانت تعاني منها فرنسا وتخونها من الثورة والعصيان دفعها لاتخاذ إجراءات أمنية مكثفة وقاسية حيث أن هذه المرأة تعرضت للسجن لا شيء لمجرد الاشتباه فيها حيث أصبح كل من يدخل المنطقة معرضا «للتحقيق والاعتقال وهذا ما تعرض له كذلك المدعو علي بن عمر بالحاج عبد القادر الحامي القاطن بتونس منذ سنة 1910 ولكنه يتردد على بلده الحامة وصادف وجوده في هذه الفترة بداية أكتوبر 1917 وتعرض للتوقيف والتحقيق حيث أكد في البحث الذي أجرى معه سماع بعض الأخبار عن الثورة.

وذلك عن طريق السمع وتتمثل الأخبار الرائجة في سوق الحامة بأن الشيخ الحبيب الزائر سافر إلى تونس وأنه سوف يلتقي بأحد الزعماء الطرابلسي هناك وأن بعض الرسائل التي عثر عنها عند بوطارة واردة من سليمان الباروني والشيخ سوف الذين يرسلون بتحياتهم لحسن القلاطي ولا أعلم إذا كان السيد حسن القلاطي هو ممثل الطرابلسي بتونس أم لا»<sup>12</sup>.

لعل هذا ما أورده الموقوف حقيقيا حيث أنه سمعه كالحديث كان رائجا في الحامة « بعد إيقاف المجموعة وربما يكون مجرد تأويلات عن أسباب إيقاف المشايخ من طرف العامة حيث ذكر أنه سمع هذه الأحاديث من أناس لا يعرفهم وذلك حماية لمن حدثه أو أنه فعلا لا يعرفهم ويضيف الموقوف «بأن بوطارة في علاقة بالطرابلسين وخاصة الشيخ سوف الثائر منذ فترة طويلة ولكن لا علاقة لي لحسن القلاطي ولكن شاهدته مرة بالوزارة حيث أنه معروف لأنه محامي ولكن اسمع عن مصباح (بريش) الموجود حاليا بطرابلس الذي هو على اتصال بالودة الحاج عمر وهذا معروف لدى كل بن زيد وكل المشايخ ولكن لا أعلم شيئا دعوه نوري باشا للثورة ولا أعلم شيئا عن رسائل خليفة بن عسكر. ولكن اعرف كل من بوطارة لحبيب الزائر وسعد بن عمر ولكن لا اعلم إذا كان هؤلاء يعدون لثورة ضد فرنسا ولا اعلم كذلك أن كان هؤلاء علاقة بحسن القلاطي»<sup>13</sup>.

لا بد من الإشارة بأن أسباب إيقاف كل من علي بن عمر بالحاج عبد القادر والمرأة الليبية المدعوة مبروكة يعود إلى تشكيك سلطات الحماية إلى كل من يفد من طرابلس أو

من تونس العاصمة بهدف نقل رسائل و ذلك من أجل البحث عن خيوط الثورة التي يتم الإعداد لها في تونس انطلاقا من الحامة التي أصبحت في نظر السلطات الفرنسية مركز للثورة وصلة وصل بين الثوار الطرابلسيين و حركة الشباب التونسي نظر لوجود أحد أبنائها في طرابلس ويعتبر أحد أبرز دعاة هذه الثورة أو الرسول الخطير كما ذكر المرزوقي.

هذه الفرضية يمكن تأكيدها من خلال المخاوف التي أبدتها السلطة من هذه المنطقة المعروفة حسب رأيها بالاستعداد الدائم للتمرد ولذلك فإن السلطات الاستعمارية قد أولت اهتماما «خاصا» بهذه المنطقة وكانت تطلب تقارير مفصلة حول أحوالها وحول الأفكار الرائجة ففي تقرير مؤرخ في 31 أوت 1918، أعده عامل الأعراض يؤكد بأن أهالي المنطقة يتابعون بشغف أخبار الحرب الدائر على الحدود وان الأهالي يضخمون هذه الأخبار حيث يقول «ولنتكلم الآن عن الأخبار التي تخص الأحوال الجارية بطرابلس حسب الإشاعات الرائجة بينهم وفي تلك الأخبار المشاعة في الوقت الحاضر هو أن خليفة بن عسكر الناهب الشهير لديه قوة تجمع على 1300 نفر كلهم تحت طاعته أوامره التي لا تقوم إلا بالسرقة وشن الغارات كما يروج غير ذلك من الأخبار وهي أن المسمى شيخ سوف والباروني مشغلان الآن تحت أوامر المدعو نوري باشا يجمع العساكر لجهات بساطو و بوعجيلة وغيرها من الجهات وان لديه عدة ضباط آخرين أكبرهم رتبة اسمه إسحاق باشا وان الذخائر الحربية ترد لهم على طريق مرسى مسراطة.

كما أنه لا يفوت أيضا «الكثير من الأهالي العلم لبعض الوقائع التي تقع بين الثائرين الطرابلسي والطلليان بجهات زوارة أو كحادث النهب الأخير الواقع على قافلة التموين جهة ذهنية وان انتشار الأخبار المشار إليها يقع بواسطة المسافرين القادمين من جهات الدوائر الحربية فسيرى الخبر ويروج من جهة إلى أخرى مع ما يشوبه من مبالغات إلى أن يعم غالب جهات الأعراض كما أن بعض العساكر الذين في جهات لحدود يحكون بعضها لأقاربهم عند ورودهم في رخص» 14.

هذا التخوف من أحداث طرابلس لديه مباشرة حسب تقرير العامل حيث أن تقارب منطقة الحامة خصوصا «والجنوب عموما» مع طرابلس ليس جغرافي فقط ولكنه من

حيث الطباع والعادات وهو بحسب رأيه يساهم في حالة التعاطف بينهم وربما يسبب في حدوث شيء ما في هذه المناطق وهو ما دفع العامل للتجاسر والتدخل في نشأة ربما ليس من اختصاصه وذلك بتقديم بعض المقترحات التي تجنب المنطقة الهزات ومن بين هذه المقترحات هو عدم اشتراك أبناء هذه المنطقة الجنوبية في القوات الموكل لها حماية الحدود وذلك لتكرر حالات الفرار وهو يقول «و بهاته المناسبة استمنح العفو سلفا» للخوض في الموضوع الآتي الذي هو من خصائص جناب الإدارة العسكرية لان واجب الإخلاص يحتم علينا التعرض له وهو أنه بوجود بعض عساكر الجهات الجنوبية معينين لحراسة الحدود الطرابلسية أو ماكثين بالمراكز القريبة من الحد مع أن وجود العساكر المشار إليهم أين ذكر يأتي منه أمرين وهما سريان الإخبار بواسطتهم عندما يمنحوا الرجوع لأوطانهم من رخصة عائلته وفلاحيه. وارتكاب بعض منهم الفرار لجهات طرابلس حيث وقع ذلك في حوادث أم السويف وغيرها على أن الفرار ناجم فيما يظهر عن ميل الفار للخروج من رقبة الانقياد العسكري والانضمام لشراذم النهب والإغارة ومما يسهل لديه ارتكاب ما ذكر ملائمة طقس طرابلس ومقاربتة لطقس جهته التي تنشأ فيها وقس على ذلك تقارب المعيشة والعوائد لأنه لا يخفي أن القبائل الجنوبية كثيرة المشابهة في الأخلاق وبعض العادات لسكان الحدود الطرابلسية ولهاته المشابهة يسهل من لازمة لهم نحو وطنهم ارتكاب الفرار بخلاف لو كان جل هؤلاء العساكر من سكان الجهات الوسطى فانه يفسد عنهم الفرز لما يوجد من البون البعيد بين طقس مسقط رؤوسهم وبين طقس الجهات الطرابلسية القاحلة الحارة القليلة المياه وان إحصائية الأنفار الفارين من الجندية لطرابلس تثبت أن غالبيهم إن لم نقل كلهم من سكان أعمال الجنوب كما أن عند رجوع عساكر الجهات الوسطى من رخص فان ما ينقلونه لذويهم من أخبار لا يكون له تأثير مثل ما يكون للجهات الجنوبية للأسباب المقررة آنفا ولبعد المسافة»<sup>15</sup>

يقدم العامل عدة أسباب لطاهرة فرار عساكر الجهات الجنوبية وهي في أغلبها صحيحة فتقارب أهل الجنوب مع أهل طرابلس لا جدال فيه على جميع المستويات الأخلاقية كالحماسة وعدم الرغبة في خدمة المستعمر ونزعتهم للثورة وكرهم للظلم وخاصة إذا كان هذا المستعمر من غير دينهم فهم ينظرون إليه كعدو لا كصديق بالإضافة إلى الروابط

العائلية التي تربطهم بإخوانهم في طرابلس وما يؤكد هذه الفرضية هو التحاق أعداد كبيرة من أهل الجنوب لنصرة إخوانهم في الدين في وجه الاستعمار الإيطالي و تعد ثورة الجنوب إحدى مظاهر رفض الاستعمار مهما كانت جنسيته فرنسية أو إيطالية ولعل خروج مصباح بريش والده الحاج عمر وابن عمه محمد بالحاج امحمد العدد الوفير من أبناء الجنوب أفضل دليل على رغبتهم في الجهاد إلى جانب إخوتهم وهؤلاء الجنود التي يتحدث عنهم العامل هم إخوتهم الذين وقع تجنيدهم غصبا ودون رضاهم ولكن مع اندلاع الحرب هان عليهم أن يواجهوا أبناء عمهم وإخوتهم الثوار وانضموا للثورة رغبة منهم في التخلص من الاستعمار البغيض والذي ذاقوا ويلاته في بلدهم والعامل يضيف في تقريره وصف الحالة التي تمر بها منطقة الأعراض عموما ومن زيد خصوصا فهو يصفهم بالتقية اتجاه الاستعمار أي إظهار ما لا يضمرون فهم معادين للاستعمار ولكن تحت بطشه يظهرون حسن النية تجاهه ولكنهم في دواخلهم يناصبونه العداوة فهو يقول في وصف حالة بن يزيد تحت عنوان حالة الأفكار في بن يزيد وإخلاصهم نحو الحكومة بما يلي «إن بني يزيد قوم يغلب عليهم الجهل حيث يندر بينهم من حسن القراءة والكتابة وطبائعهم تنم غالبا للتصديق بكل ما يصل إلى مسامعهم من أخبار بدون تمحيصها وهاته الصفة نتيجة القيم السائدة على أفكار الكثيرين منهم وان من يعرف منهم حقائق الأمور وعافية الضرر من النتائج نادرا ورغما» على وجود تلك الصفات فان نواياهم تجاه الحكومة تلوح في ظاهرها أنها حسنة ولكنهم سريعو لما يأمرهم به من لدن الولاة المحليين بشرط تفهمهم ماهو الواجب عنهم»<sup>16</sup>.

ويطلب العامل في نهاية تقريره من الحكومة تحسن ظروف هذه المنطقة المعيشية والصحية من أجل كسب ود بني يزيد من خلال شراء المواد التي ينتجونها وتوفير طبيب وخاصة أن الحالة الصحية للمنطقة سيئة نتيجة الحرارة المرتفعة وتفشي الأمراض فهو يرى بأنه عن طريق هذه التقديمات المعيشية والصحية يمكن أن تتحسن صورة الحكومة أمام هؤلاء وبذلك ينزع فتيل العداوة للحكومة.

هذا التقرير يبدو في ظاهره دراسة للحالة الاقتصادية والاجتماعية ولكن أسبابه أمنية بالدرجة الأولى لأن الحكومة لم تكن لتلتفت إلى مشاكل الأهالي لولا الوضع الأمني المضطرب نتيجة النقرة السائدة في منطقة الجنوب نتيجة نوافذ الأخبار عن هزائم الجيش



الفرنسي أمام اخواتهم الودارنة مما حرك فيهم أمل التخلص من الاستعمار البغيض وضمن هذه الرؤية تم الأعداد للثورة من قبل بني يزيد استجابة لنداء الواجب الوطني الديني فالفرنسيين في نظرهم هم أعداء الوطن والدين و هنا لا بد من الإشارة بأنه من الصعب جدا الفصل بين مسألتي الدين والوطن فالوطنية في تلك الفترة لم تكن واضحة المعالم بل كانت متداخلة من الدين فالمستعمر احتل الوطن وأهان المسلمين في الوقت نفسه وبالتالي لا يمكن أن نقلل من دور العامل الدين في هذه الثورة

### مأساة التغريب وإهانة الأعيان:

تعودنا دائما أن نغفل في دراستنا التاريخية البعد الإنساني في الثورات ولكننا في هذه الدراسة رأينا من الضرورة التطرق لمعاننات قادة هذه الثورة الذين كانوا يشكلون أعيان بني يزيد ورغم عدم تفاوت مستوى المعيشة بين العامة والخاصة من حيث رغد العيش والرفاهية غير أن الأعيان دائما كانوا يتمتعون بمستوى معيشي أفضل وما تعرض له مشايخ بن يزيد وإبعاد عن مصدر رزقهم جعلهم يعيشون حالة من العوز والحاجة و الخصاصة مع صعوبة إرسال الأموال وحالة المراقبة المشددة وخاصة إذا ما علمنا انه تم تجريدهم من الأموال التي كانت بحوزتهم بعد إيقافهم وتحويلهم إلى السجن ومن ثم إرسالهم إلى مجاز الباب الذي يختلف من حيث المناخ مع بيئتهم نظرا للبرد الشديد الذي يتميز مجاز الباب وفقدان وسائل التدفئة هذا بالإضافة إلى شعورهم بالظلم كل هذه الأسباب دفعتهم إلى إرسال العديد من الرسائل إلى السلط من أجل العفو عنهم وإرجاعهم إلى موطنهم الأصلي وإلى أبناءهم فالمأساة مزدوجة من ناحية شعور المغريين بالغرابة والبعد عن الأهل والموطن مع شعورهم بالخصاصة بعد أن كانوا يتمتعون بمعيشة مريحة في موطنهم هذه الرسائل تعبير فعلا عن مأساة حقيقية وأهم فصولها هو حالة الخصاصة التي عان منها المبعدون وبداية هذه المعاننات في السجن ففي رسالة مؤرخة بتاريخ 31 أكتوبر 1917 أي بعد قرابة شهر من تاريخ إيقافهم طلب كل من الشيخ علي فارس والشيخ على بن عمر تمكينهم من أموالهم التي تم حجزها في الإدارة العسكرية بقابس لأنهم في أمس الحاجة للمال وتقول الرسالة ما يلي «جناب المعظم الفخم سيدي بلان الكاتب العام بالايالة التونسية حرسه الله إما بعد تفخيمكم و تعظيمكم أخير جنابكم إننا نفران، أعلاه لما أخذنا من الحامة

إلى قابس على طريق السجن وأتينا إلى قابس إلى الإدارة العسكرية بمحضر السيد الكمدان بقابس وطلبنا في كل من لديه دراهم بدفعها إلى السيد الشاق بالمكان المذكور أعلاه وفي حين ذلك سلما إليه الفصلان أعلاه ووعدنا بتوجيهها إلى الحبس الجديد والآن مضت 28 أيام ونحن مترقبين توجيه ذلك إلى السيد الشاف بالحبس المذكور وإلى الآن لم تأتية ذلك ونحن محتاجين في ضرورياتنا وعليه فالمرجو من كمال حزمكم تسعى في توجيه الدراهم، المذكورة أعلاه لمن له النظر دام وجودكم وإحسانكم ودمتم بخير المصححات كتب في 31 أكتوبر 1917»<sup>17</sup>.

هذه الرسالة تدل على حالة المساجين السيئة حيث أنهم يعانون من قلة الرعاية وهو ما دفعهم للمطالبة بأموالهم من أجل الحصول على مستلزماتهم الغير متوفرة في السجن وأما المبالغ المشار إليها 31 فرنك لشيخ علي فارس و280 فرنك للشيخ علي بن عمر هذه الرسالة هي بداية لمجموعة الرسائل التي بعث بها المبعدون يشكون فيها حالتهم الصحية المعيشية في بلد لا أحد لهم فيها ففي رسالة ممضاة من قبل المشايخ بتاريخ 20 جوان 1918 يصفون فيها حالتهم ويطلبون فيها صدور إذن بإرجاعهم إلى بلادهم وإذا متعذرا» الإذن ينقلهم لتونس وهذه الرسالة موجهة إلى الكاتب العام بلان ومحتواها يقول انه مضى على تغريبهم أربع أشهر وان سيرهم حسنة وهم يطلبون منه الاسترشاد من جناب المراقب المدني والعامل بمجاز الباب وان أملهم في عدالته وان يعيرهم أذان صاغية وان يقبل طلبهم فتقول الرسالة «ونطلب من الجناب إصدار الإذن من الجناب في رجوعنا إلى بلادنا وإذا لم يمكنهم ذلك يعوضوا بتونس لأن حالة صحتنا أخذت في الانحطاط من سوء حالة الطقس وأيضا سيدي لم وجدنا ما تحترفو بها (نعمل) وان ماليتنا خصيصة جدا فبناء على هذا نرجو من جنابكم الالتفات إلينا والسلام إلى الراجين إنصافكم وعدلكم»<sup>18</sup>.

وفي رسالة سابقة لهذه الرسالة بتاريخ 27 ماي 1918 مرسله من الشيخ على فراس بطلب نقله إلى تونس لعدم صلاحية ماء هذه المنطقة ولعدم وجود عمل بها وضعف ماليته.

لا شك أن هذه الرسائل التي كان يرسلها المشايخ كانت تعبر عن الحالة الصعبة التي كانوا يعيشونها فهم بعيدين عن أهلهم وازرقاهم وكانوا مستأجرين لبيت ولم تكن الدولة

توفر لهم أدنى مستلزمات الحياة اليومية ففي شهادة شفوية للسيد علي بن مصباح بريش ذكر لي أن خاله محمود بن بلقاسم الذي زار قريبة محمد بالحاج امحمد في أواسط سنة 1918 حدثه عن الحالة التي كان يعيشها هؤلاء لعدم توفر الأموال الكافية فعند زياته في أحد رخصة العسكرية للمبعدين قام قريبه بشراء لوازم العشاء من لحم وكسكسي وخضر وطلب من رفاقه عدم احتساب ثمن هذه الأشياء لأن محمد ضيفه هو لا ضيف المجموعة فاحتج رفاقه وقالوا يا رسول الله يا محمد 5 فرنكات بكاملها تدفعها لوحدك»19

لقد كانت خمسة فرنكات لدى الجماعة، تشكل مبلغا كبيرا لذلك احتجوا على رفيقهم وطلبوا منه عدم التكفل بها كاملة ولا تعلم قيمة الخمسة فرنكات الحالية ولكنها تشكل ثمن عشاء في ذلك التاريخ وفي تلك الظرفية بالذات وإذا ما علمنا أن كل من هؤلاء هو شيخ وإحدى أبرز أعيان قومه فلم يكن ذلك المبلغ يشكل عبئا «لو كان في بلاده وخاصة أن بني يزيد معروفين بالكرم المبالغ فيه فالضيف عندهم يمثل ذبيحة شاه على أقل تقدير ولكن الظروف التي كان يعيشها المبعدون كانت تدفع بهم إلى التفكير مليا في مبلغ 5 فرنكات في ذلك الحين وخاصة إذا علمنا بأن المبالغ المجوزة لدى إيقافهم كانت كبيرة لقد وجد عنه الشيخ منصور التومي مبلغ قدره خمسة عشر ألف فرنك وستمائة وأربع فرنكات 15604 فرنك والشيخ محمد بن رجب لديه 1460 فرنك والشيخ على فارس 31 فرنك.

لقد عثرنا على ما يزيد من 50 رسالة كلها يطلب فيها المشايخ العفو عنهم لسوء أوضاعهم المعيشية نتيجة تدهور صحتهم لسوء الطقس ولقلة الإمكانيات المادية لعدم وجود عمل بهذه المنطقة وعدم تمكنهم من الأموال اللازمة للعيش هذا هو الوجه الأول من المأساة أما الوجه الآخر هو في الحامة أي لدى أبناء هؤلاء المبعدين فأغلبهم ترك أبناءه وأرزاقه بدون عناية لأن الأرزاق تتمثل أساسا في المواشي أغنام وابل والزراعة البعلية كالحرث وغيره ولقد حدثني والدي عمار عن هذه المأساة بحسرة كبيرة حيث تركه والده محمد بالحاج امحمد وعمره 4 سنوات وأخوه عبد الله 10 سنوات وكان جدهم متوفي وليس

له أعمام وذكر لي أن عائلة من الغيالييف لا تربطهم بها قرابة كبيرة قاموا بكفالتهم لمدة سنتين حيث قاموا لهم بعملية الحرث بمساعدة أحد خدام والدهم ويدعي سعد وبقي والدي وفيما «لهذه العائلة إلى وفاة بعدما يناهز 80 سنة اعترافا لهم بهذا المعروف وعن نفس الحادثة تحدث السيد علي بن مصباح بربيش الذي سجن جده الحاج عمر وذكر لي أنه يوم إطلاق سراح ابن عمر والده محمد بالحاج امحمد قدم إليه ابن عمار المذكور فرحا بمناسبة رجوع والده من التغريب فسأله علي بربيش من هو والدك « أليس والدك سعد » وذلك اعتقادا منه بأن والد ابن عمه عمار و صديقه في اللعب يدعى سعد نظرا لغياب والده وعدم معرفة علي بربيش به وقد ذكر السيد علي بربيش بأن محمد بالحاج امحمد تعرض لحالة الإفكار 20 نظرا لأنه كان من كبار ملاكي الأغنام والإبل وخلال وجوده في الأبعاد تم بيع أغلب هذه المواشي من أجل إرسال ثمنها له في مجاز الباب ولم يجد منها إلى الندر القليل هذه حالة المعاناة التي عاشها المشايخ وأعيان بني يزيد حالة إذلال وفقر لم يتعودوا عليها هؤلاء من قبل وهو ما دفعهم لمراسلة الكاتب العام بلغة تبدو قريبة إلى الاستعطاف والمهانة نظرا للظروف القاسية بعيدا عن أهلهم وبلدهم ولعل هذه السياسة العقابية كان الهدف منها تأديب واهانة الأعيان وكسر شوكتهم لكي لا يعودوا مرة أخرى لمجرد التفكير في الثورة ضد المستعمر الذي انتهج سياسة الإبعاد أما داخل البلاد أو للخارج والعديد منهم لم يعد لبلده كحالة الحاج عمر الذي توفي في غار الملح ولا شك إن وفاته شكلت مأساة كبرى لأبنائه عموما ولحفيدة السيد علي بن مصباح بربيش الذي حرم في حنان الوالد الذي لم يشاهده إلى مرتين في حياته وهو مصباح بربيش الذي توفر في ليبيا وكان جده يتكفل بتربية إلى عمر 3 سنوات عندما تم القبض عليه سنة 1917 فهو حرم من الأب والجدة وتربى وحيدا مع أمه بعد وفاة أخاه الأكبر ولم تقتصر مأساة علي بربيش عند ذلك بل تعرض للسجن و عمره خمس سنوات لمدة 6 أشهر سنة 1919 - 1920 عندما اتهم والده بالإغارة على قافلة بين قابس ونفزاوة ليتم اقتياده هو والدته وأخوه محمد إلى السجن بقابس ورغم صغر سنه غير أنه ذكر في شهادته هذه الحادثة بكل ألم وحسرة حين يتذكر عملية التهريب التي تعرض لها عندما قدم المخازنية و هددوه هو وأخاه بالقتل إذا لم يعترفوا بقدوم والدهم.

## خاتمة:

هذه المأساة التي عايشها أهالي الحامة التي شملت أغلب العائلات وخاصة أن المنطقة تعرضت للعقاب الجماعي سنة 1919 بعد فشل السلطة من الفضاء على المجاهدين مصباح بربيش ومحمد الدغباجي عمدت إلى إقامة معتقل جماعي بالحامة لعائلات الثوار وذلك من أجل معاينة العائلات ومنع التموين عن الثوار وذلك من أجل تشديد الخناق عليهم ودفعهم للتسليم هذه الحالة من القهر والاضطهاد والحياة في السجن والمعتقل لا شك أنها كانت الدافع الأكبر لمناصبه أبناء بني يزيد للحقد على الاستعمار هذا الجيل الذي عايش مأساة مشايخ بني يزيد وتعرض العديد من أبناء هذا الجيل للحرمان من الوالد أو العيش في السجن والمعتقل سوف تولد لديه مشاعر كره وحقد على الاستعمار وهذا ما ذكره لي السيد علي بن مصباح بربيش حيث ذكر لي أنه كان من السابقين للانتماء لحزب الدستور سنة 1934 وان ابن عمه عبد الله بن محمد بالحاج امحمد هو من أقنعة بالانتماء.

لهذا الحزب لأنه أكبر منه سنا وانه سنة 1934 ثم اقتطاع ما يزيد عن 30 اشتراكا في الحزب رغم أن بطاقة الاشتراك كانت باهظة الثمن آنذاك وعبد الله هذا هو ابن محمد بالحاج امحمد حيث تعرض هو وأخوه عمار للحرمان من جنان ورعاية الولد سنة 1917 وعلى بربيش ابن المجاهد مصباح وحفيد الحاج عمر هذا الجيل انتسب لحزب الدستور باعتباره الحزب الذي قاد الحركة الوطنية هذا الجيل من أبناء بني يزيد كانوا في انتظار الفرصة المناسبة للثأر من هذا المستعمر كما قال لي السيد علي بربيش حرفنا الثأر للأب والجد وللوطن أن السياسة القمعية والعقابية التي مارسها المستعمر وإن أعطت نتائجها على المدى القريب غير أنها كانت وراء تخمر فكرة الثورة لدى أبناء بني يزيد وهذا يفسر تلك الهبة التي تميزت بها تلك الجهة وانتساب العدد الوفير من أبناءها للثورة المسلحة سنة 1952.

ويمكننا اعتبار أن ثورة 1952 هي امتداد لثورة 1917 أو أن ثورة 1917 المجهضة تبلورت سنة 1952 عندما توفرت الظروف المواتية لذلك ولا يشك بأن أغلب من شاركوا في الكفاح ضد المستعمر في ثورة سنة 1917 أبائهم وأقاربهم لأن التاريخ تراكمات وإذا كانت

الثورات الاجتماعية يقودها أبناء الطبقات الكادحة نظرا لشعورهم بالظلم الاجتماعي والحرمان فان الثورات الوطنية يقودها أبناء الطبقات الميسورة دون أن ننسى أبناء الطبقات الفقيرة أو التي فقرها الاستعمار فهناك خيط يربط بين ثورة 1917 المجهضة وثورة 1952 المنجزة فهذا ليس بالمستغرب فمن عانى ويلات الاستعمار كان الأقرب إلى الخروج للجبال وان أبناء الجنوب تميزوا بالثورة المسلحة لأن العمل السياسي كان من اختصاص أبناء المدن الذين يحذقون فن السياسة فان أبناء الأرياف يحذقون فن التمرد والثورة المسلحة فأبناء بن يزيد رغم مشاركتهم الكبيرة في الثورة المسلحة وهذا ما يتفق عليه أغلب المؤرخين فإنه لا بد من الإشارة إلى أن أبناء بني يزيد الذين استقروا في المدن كانت لهم مساهمات ملحوظة في النضال الوطني (السياسي والنقابي) والمثال على ذلك مشاركة محمد علي الحامي في النضال السياسي والنقابي والطاهر الحداد في النضال الاجتماعي والجلولي فارس في النضال الطلابي والسياسي وغيرهم.

إن كان الملاحظ المشاركة المكثفة لأبناء وأحفاد أبناء رواد ثورة 1917 فإننا لا يمكن أن ننكر مساهمة غيرهم من أغلب أبناء عروش بني يزيد فلا يوجد عرش في الحامة لم يقدم مقاومين في الثورة الثانية 1952 دون أن ندخل هنا في ذكر الأسماء ويمكن وان كنا لا ننكر دور أبناء وأحفاد الجيل الأول للثورة ويمكن أن يشير إلى بعض الأسماء على سبيل الذكر لا الحصر إلى أن لكل زعيم من زعماء ثورة 1917 أقارب أو أبناء شاركوا في ثورة 1952 وهم أبناء محمد بالحاج امحمد حسن وعمار وقبلهم أخوهم عبد الله الذي انتسب ونشط في صفوف الحزب الحر منذ سنة 1934 والى علي بن مصباح بربيش ابن مصباح وحفيد الحاج عمر والجلولي فارس أخ الشيخ علي فارس والحاج السوداني الزاير حفيد الشيخ الحبيب الزاير والكيلاني بوطارة ابن عمار بوطارة وغيرهم من المقاومين الذين خرجوا للجبال انتقاما من المستعمر الذي أهان أهلهم واحتل وطنهم فان هذا التاريخ بحاجة لدراسة أكثر، بالاعتماد على وثائق الأرشيف الوطني والأرشيف الفرنسي دون أن نغفل دور التاريخ الشفوي الذي تعرض للتلف ولعل بعض المحاولات التي قام بها محمد المرزوقي في فترة مبكرة في دراسة مونوقرافية لسير هؤلاء الأبطال أو بعض المحاولات المتأخرة التي قام بها بعض المسرحيين المحليين (الحامة) الذين تعوزهم الإمكانات المادية والتشجيعات من وزارة الدولة المختلفة

وبقيت هذه المحاولات الخجولة أسيرة منطقة الحامة ولم تعرض الأعمال خارج هذه المدينة فعلى الرغم من ذلك لا تزال سير هؤلاء الأبطال تحضى باهتمام بالغ لدى أهل الحامة لما تشكله لهم من عودة لماض يعاد إنتاجه بشكل مستمر.

وان محاولتنا هذه تندرج ضمن هذا الإطار وهي محاولة لنفض الغبار على تاريخ منسي يشكل جزء «هاما» من تاريخ تونس المعاصر لا يمكن إغفاله فإن التاريخ المحلي مكملًا للتاريخ الوطني العام وان كانت الدولة الوطنية أعطت اهتماما للتاريخ السياسي فإننا نرى أنه من الواجب علينا كجيل جديد من المؤرخين الاهتمام بهذا التاريخ النضالي ( المنسي ) المسكوت عنه كرد اعتبار و كجزء من جميل هؤلاء المقاومين الذين عانوا من محنة الاحتلال ومن محنة النسيان من الدولة الوطنية ومن مؤرخيها الرسميين وتاريخ بن يزيد هو جزء من تاريخ هذا الوطن الذين ناضلوا من أجل استقالة وان هذه المحاولة المتواضعة نندرج ضمن مشروع أكبر لدراسة التاريخ المحلي للجنوب التونسي بدأنا القيام به.

#### الهوامش:

1 محمد المرزوقي، دماء على الحدود ثورة 1915 الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، الطبعة الأولى 1974، ص 38

2 أوت سلسلة ج كرتونة 550 30/15، ملف 1190

3 أوت سلسلة ج كرتونة 550 30/15، ملف 1190

4 أوت: سلسلة 6 كرتونه 550 30/15 ملف 1190

5 أوت سلسلة E كرتونة 550 30/15، ملف 1190

6 أوت سلسلة E كرتونة 550 30/15، ملف 1190.

7 أوت سلسلة E كرتونة 550 30/15، ملف 1190.

8 مقابلة أجراها الباحث مع السيد علي بن مصباح ابريس بتاريخ 18/01/2006 بنغيلوف .

9 محمد المرزوقي، دماء على الحدود، مصدر سابق، ص 42.

10 محمد المرزوقي، مصدر سابق، ص 43

11 سلسلة، ج، صندوق 30/15، ملف 1197

12 أوت سلسلة ج، صندوق 550 30/15 ملف 1196، وثيقة عدد 7.

- 13 أوت سلسلة ج، صندوق 550 30/15 ملف 1196، وثيقة عدد 7.
- 14 أوت، سلسلة ج صندوق 550 30/16 ملف 1194 وثيقة عدد 3
- 15 أوت سلسلة صندوق 550 30/15 ملف 1194 وثيقة عدد 3
- 16 أوت سلسلة صندوق 550 30/15 ملف 1194 وثيقة عدد 3
- 17 أوت سلسلة صندوق 550 30/15 ملف 1190 وثيقة عدد 34
- 18 أوت سلسلة صندوق 550 30/15 ملف 1190 وثيقة عدد 51
- 19 شهادة علي بن مصباح ابريس مصدر سابق
- 20 شهادة السيد علي بن مصباح ابريس مصدر سابق.



## تأثير الطرق في إنشاء مدن المغرب الأوسط.

د.عزالدين بويحيياوي جامعة الجزائر2

### مقدمة:

إن الحديث عن التعمير في شتى أنحاء العالم يكون دائما مرتبطا أولا بوجود شبكة من الطرق المستعملة من طرف الأهالي و ثانيا باستحداث شبكة جديدة تفرضها الغاية المرجوة من ذلك، بمعنى أن الرومان في توسعاتهم وجدوا طرقا فسلكوها إلى أبعد نقطة ممكنة و حدّدوا عن طريق الليمس حدود مستعمراتهم، (انظر الشكلين 1 و 2). أما في بداية الفتوحات الإسلامية فقد أصبح هذا الحدث في حدّ ذاته وسيلة من وسائل التوسع العمراني التدريجي مما أدّى فيما بعد إلى تعمير المغرب الأوسط. و في هذا المجال نجد أن المرحلة الأولى من الفتوحات اتخذت الطرق القديمة الموروثة عن العهد الروماني و قد يكون تطور وسائل النقل قد ساعد في إيجاد شبكة جديدة من المواصلات. 1 و على ضوء هذا نلاحظ أن المسلمين عبروا المسلك المتجه من الشرق إلى الغرب بحيث كانت القيروان المنطلق الرئيسي لهم سواء في بداية محاولات فتح (شمال إفريقيا) في عهد أبي المهاجر دينار الذي وصل إلى بسكرة مروراً بطبنة و باغاية و بلزمة و قسنطينة ثم من بني بزاق، حيث مركز قيادته إلى تاهرت و تلمسان مروراً بأربة و سطيف. 2. كذلك الحال بالنسبة لمرحلة عقبة بن نافع الذي سلك الطريق المؤدية من القيروان إلى تاهرت مروراً بسببية و مرمجانة و مسكيانة و باغاية و طبنة و المسيلة و منها إلى تاهرت القديمة ثم الوصول إلى تلمسان ليعبر بعد ذلك نحو طنجة في المغرب الأقصى إلى أن وصل إلى شواطئ المحيط الأطلسي 3 ( انظر الشكل 3) أما موسى بن نصير فيمكن أن يكون قد سلك نفس الطريق من القيروان إلى طنجة. 4

أدّت معرفة تضاريس المغرب الأوسط و تطور العلاقات التجارية بعد ذلك إلى إيجاد مراكز عمرانية جديدة أحدثت في كل مرّة طرقاً يمكن اعتبارها ثانوية و لكنها بالغة الأهمية حيث أنها سهلت عملية تنقل القوافل التجارية داخل المغرب الأوسط. من بين هذه المراكز نجد مدينة تاهرت الرستمية التي كانت فعلاً ملتقى القوافل الآتية من شتى الأمصار و هي أيضاً نقطة وصل ما بين المشرق و المغرب و ما بينهما و بين بلاد السودان أيضاً. 5 و

يرى عبد الفتاح وهيبة عن تأثير التضاريس و دور الممالك في انشاء المدن ما يلي: " تؤثر التضاريس تأثيرا قويا على اتجاهات المسالك و الطرق، و حيثما تلتقي هذه الطرق و المسالك غالبا ما تقوم مدينة تتركز عندها حركة النقل و المواصلات و ترتبط أهمية المدينة بنشاط هذه الحركة."6

### تأثير الطرق في إنشاء مدن المغرب الأوسط:

إن للعامل الطبيعي ( البيئي ) أثر كبير في استقرار الحكم من خلال مدن هامة كتاهرت و أشير و القلعة و تلمسان الموجودة كلها في منطقة الهضاب العليا (أو ملامسة له). و القلعة و تلمسان الموجودة كلها في منطقة الهضاب العليا (أو ملامسة له).« وجد الإنسان منذ أقدم العصور أسباب المعيشة متوفرة في هذه المناطق حيث الأراضي الصالحة للزراعة وتوفر المياه بكثرة من أودية و عيون بالإضافة إلى كونها مجالا فضائيا واسعا يصلح للتنقل.\* إضافة إلى هذا العامل نجد أن هذه المدن اتخذت موقعا لائقا يسمح بالتبادل التجاري خاصة مع الشمال (التلّ) و الصحراء. و في هذا المجال يقول مارك كوت Marc Côte: « ابتداء من القرن الثامن انتقلت الطرق التجارية المعروفة بطرق الذهب التي كانت تمّون الشرق الأوسط من السودان عبر وادي النيل إلى مسلك آخر أي إلى الصحراء الغربية عن طريق الصحراء. وعبر «جسر» تمثله سلسلة جبال الهقار تكونت علاقات اتصال (مسالك) ما بين السودان و المغرب الأوسط و صولا إلى سجلماسة ثم بعد ذلك إلى ورقلة. إن تاهرت و أشير و القلعة استفادت من هذا الزخم flux ما أدار أرباحا كبيرة على تجارها و على هذه المدن ككل. فوجودها في هذه المواضع جعلها تسيطر على التجارة الصحراوية و تراقبها».7(انظر الشكل رقم 4)

لما حوّل الحماديون عاصمتهم إلى بجاية على الساحل برزت المدينة الساحلية كمركز تجاري هام نظرا للعلاقات الجديدة مع بلدان الشرق و بلدان أوروبا و هذا لا يعني إطلاقا أنها فقدت أدوارها الأخرى و إنما الغرض من هذا القول أن بجاية أعطت للمغرب الأوسط توجهها جديدا من حيث العلاقات الخارجية التي أضافت إلى البلاد طابعا خاصا متميزا فيما بعد.8 (الشكل رقم 6). اتّضح جليا دور الطرق في تطور العمران الإسلامي في المغرب الأوسط منذ أن قام عقبة بن نافع بإنشاء مدينة القيروان و رغم أن هذه المنطقة عرفت عدّة اضطرابات و عدّة ثورات إلّا أن هذا العامل كان ربما السبب غير المباشر في هذا التطور.

إن الفترة الممتدة ما بين القرن الثاني و الثامن الهجريين (الثامن والرابع عشر ميلادي) مثلت الحركة الفعلية للعمران الإسلامي في كل المغرب الإسلامي و بما أننا نريد إبراز دورها هذا لابد من الإشارة إلى ما سبقنا إليه ناصر الدين سعيدوني إذ قال: "إن الهدف من دراسة الطرق هو إبراز دورها الحضاري الذي طالما حاول بعض الكتاب الفرنسيين طمسه أو تشويهه بالترويج لفكرة مفادها أن الفترة الإسلامية ارتبطت خاصة بتقهقر العمران و انعدام الأمن و كثرة الثورات و لاسيما في مناطق العبور كالهضاب العليا القسنطينية مثلا".<sup>9</sup> كما أن ارتباط هذه الطرق بالعمران كان أيضا في جانبه الاقتصادي حيث سمحت هذه الطرق أولا بإنشاء المدن الجديدة و بالتالي تم استصلاح الأراضي المحيطة بها لأغراض الاستهلاك أو التصدير و هذا عن طريق التبادلات التجارية. فهذه الشروط الضرورية للعمران لم تكن لتتأكد لولا هذه المسالك. "ارتبط ازدهار هذه المراكز العمرانية (أشير، تاهرت، القلعة، تلمسان الخ.) الواقعة على مسالك الهضاب بتطور الاقتصاد وانتشار البساتين وكثرة الإنتاج الفلاحي"<sup>10</sup>

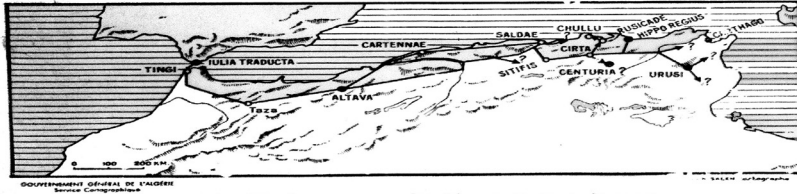
إن الاهتمام بالتبادل التجاري كمورد اقتصادي كان محفزا و منشطا للحركة الاجتماعية في المدن الإسلامية بصفة عامة فكيف يكون الحال دون ذلك بالنسبة لمدين المغرب الأوسط على وجه الخصوص. إن المدن التي قامت في هذا الإطار الجغرافي الرحب لم يكن لها من وسيلة للإقامة والبقاء إلا بشرط تواجدها في ملتقى الطرق القديمة و السابقة عن العهد الإسلامي أو في الأماكن المتاخمة أو المجاورة للمحاور الكبرى التي أنشئت في العهد الإسلامي. فكل دولة من الدول التي قامت على أرض المغرب الأوسط ساهمت في النشاط التجاري منذ عهد الرستميين، و يذكر أن أفلاج بن عبد الوهاب أعد قافلة للتوجه إلى بلاد السودان.<sup>11</sup> و هذا دليل على أن الطريق كانت مؤمنة و كان التجار على دراية بها.

إن سهولة المواصلات برا و بحرا مكنت المغرب الأوسط من وضع علاقات تجارية يمكن اعتبارها بالمفهوم الحالي "دولية" و ذلك لعدم وجود عوائق طبيعية تعرقل المسار التجاري و إن وجدت فقد تمّ تفاديها. إن الطرق كما هو موضح في الكثير من الخرائط كانت تخترق منطقة الهضاب العليا أو السهول الساحلية من الشرق إلى الغرب، كذلك هو الحال بالنسبة للطريق جنوب غرب متخذة منطلقها من أكبر المدن المنشأة آنذاك. بالإضافة إلى هذا الشرط الضروري لقيام المدن وازدهار اقتصاد الدول فإن تأمين الطرق كان شرطا

أساسيا يسمح بتمويل تلك المدن بمختلف السلع الآتية من المشرق الإسلامي أو من جنوب أوروبا أو من بلاد السودان.<sup>12</sup> و في هذا الصدد ، و بغرض تفسير الوضع بصفة أكمل، نورد ما ذكره جودت عبد الكريم يوسف: " و نفس هذه السياسة قام بها الفاطميون فعينوا المحتسبين و عملوا على نشر الأمن و نظموا التجارة و جعلوا لها قوانين محددة. و نقلنا عن ابن حوقل أن لسلطان المغرب أمناء بمرسى الخرز على ما يخرج منه من المرجان، و كان لسلطان تنس مراصد على المتاجر الداخلة إليها و الخارجة والصادرة والواردة." <sup>13</sup>

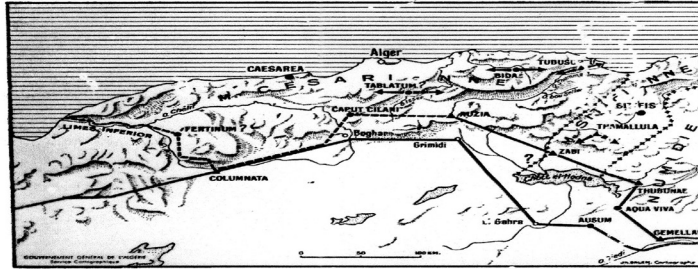
### تأثير الطرق القديمة:

نظرا لكون المغرب الأوسط عرف في فترة محدودة إنشاء مدن هامة ارتقت خمس منها إلى مصف العواصم يثير فينا الفضول أكثر للبحث عن العلاقة الفيزيائية التي يمكن أن تربط بينها. من هذا الواقع ارتأينا أن نبحت و لو بشكل مختصر عن وسائل الاتصال ما بين المدن ممثلة في الطرق التجارية أو المسالك الأخرى التي أدت إلى نمو هذه المدن أو إلى زوال بعضها. يقول E. Pauty: « إن الطرق التي يعبرها النازحون إلى المدن من جيوش وغيرها هي نفسها التي يقطعها التجار من مختلف البلدان و الأمصار.»<sup>14</sup> و بما أن طبيعة المعاملات التجارية في المدن الإسلامية نشطت الحركة الاقتصادية و ساهمت في نمو و ازدهار مدن هامة مثل تاهرت و أشير و قلعة بني حماد و بجاية وتلمسان كان لزاما علينا البحث عن مصدر هذا النمو السريع إن لم يكن فيه سبب و عامل سابق قد أثر تأثيرا إيجابيا في ذلك. لاحظنا أن هذه المدن واقعة كلها على الشبكة القديمة التي تعود إلى الفترة الرومانية. ( انظر الشكلين 1 و 2). و من خلال أبحاث من سبقنا إلى هذا الميدان ( الطرق و المسالك) ومنهم<sup>15</sup> Salama.P و Lombard. M<sup>1</sup> و Courtois. C16<sup>1</sup> و Baradez<sup>17</sup> وأخيرا دحماني سعيد أكد لنا أن شبكة الطرق الرئيسية و الثانوية الرابطة بين المدن الإسلامية في المغرب الأوسط هي نفسها الطرق القديمة أو أنها موازية لها إذ أحدثت انطلاقا من آثار ما سبقها. الأهم من ذلك أن بعض المسالك و الطرق الرئيسية أحدثت في الفترة الإسلامية ابتداء من استقرار الرستميين بتاهرت خاصة تلك المؤدية إلى الجنوب و إلى بلاد السودان.\* (الشكل رقم 4)



● Localités où le passage des Vandales est attesté par les textes.

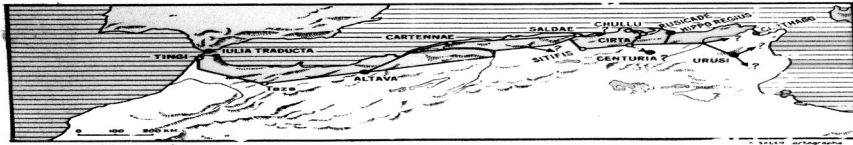
شكل رقم 3: الطريق الساحلي (من المسالك القديمة)



— Tracé approximatif de la frontière à son extension maxima (postes extérieurs non compris).  
 --- Tracé approximatif de la frontière d'après la *Notitia Dignitatum* (Tracé certain).  
 - - - Tracé approximatif de la frontière d'après la *Notitia Dignitatum* (Tracé hypothétique).  
 ▲ Limes mentionné par la *Notitia Dignitatum* (identification certaine).  
 ● Limes mentionné par la *Notitia Dignitatum* (identification hypothétique).  
 + + + Limite de province.  
 M. Les noms latins sont écrits en capitales.

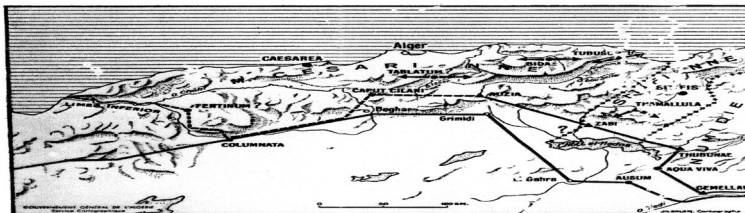
شكل رقم 4: الليمس الروماني (الحدود الجنوبية)

## الشكل 1: الليمس الروماني. عن Courtois



● Localités où le passage des Vandales est attesté par les textes.

شكل رقم 3: الطريق الساحلي (من المسالك القديمة)



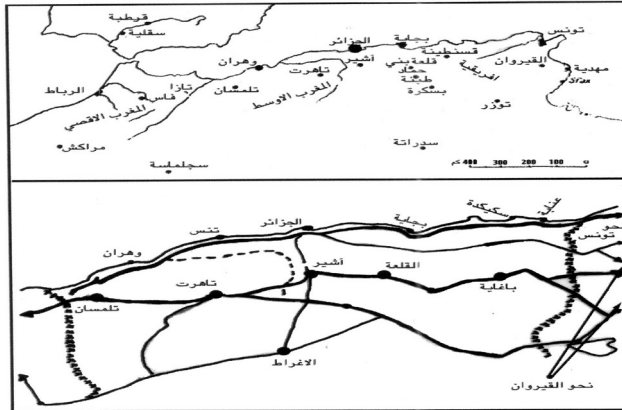
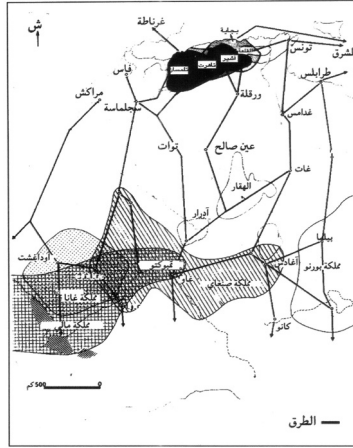
— Tracé approximatif de la frontière à son extension maxima (postes extérieurs non compris).  
 --- Tracé approximatif de la frontière d'après la *Notitia Dignitatum* (Tracé certain).  
 - - - Tracé approximatif de la frontière d'après la *Notitia Dignitatum* (Tracé hypothétique).  
 ▲ Limes mentionné par la *Notitia Dignitatum* (identification certaine).  
 ● Limes mentionné par la *Notitia Dignitatum* (identification hypothétique).  
 + + + Limite de province.  
 M. Les noms latins sont écrits en capitales.

شكل رقم 4: الليمس الروماني (الحدود الجنوبية)

## الشكل 2: الخط الروماني الساحلي. عن Courtois

## طرق الفتح:

يقصد بها المحاور الرئيسية الناتجة عن حركة الفتح الإسلامي لكل المغرب الأوسط بشكل خاص. إن هذه المحاور التي تطرق إليها العديد من الباحثين والمؤرخين عرفت أولا بالنشاط الاقتصادي من جهة و بالمسلك الذي اتخذه الجيش الإسلامي أثناء الفتوحات و لم يبق سوى التعريف بأثره أو بآثاره المرتبطة بإنشاء المدن. فبالنسبة للقرنين الأول و الثاني للهجرة (السابع و الثامن الميلاديين) عرف المحور الأول مدينة القيروان إلى منطقة السوس بالمغرب الأقصى مروراً بموقع باغاية (باغاي) وبلزمة و طبنة وعدانة وتاهرت و تلمسان.(انظر الشكل رقم 3 ). أما بالنسبة للمغرب الأوسط فالمسلك الأول المعروف لحد الآن هو الطريق الذي اتخذه أبو المهاجر دينار من تيكروان بالقرب من القيروان إلى جبال الأوراس مروراً بمنطقة بسكرة. و يقول في هذا الصدد عبد الرحمن الجيلالي: "اتصل أبو المهاجر بإفريقية و أسس بها مركزاً هو غير قيروان عقبة و لكنه بجانبه على مسافة ميلين "تيكروان" و سار في خطته غرباً إلى المغرب الأوسط أو بلاد الجزائر حيث يخيم ملك البربر "كسيلة" بجبال الأوراس، فاتخذ مسلكه إلى هناك بوابة بسكرة المنخفضة التي تمثل فجوة في الأطلس فتمكن من الانتصار على أعمال قسنطينة سنة 59هـ/678م. و جعل مركز قيادته العليا مدينة ميله فابتنى بها دار الإمارة و جعلها ملاصقة للجامع...و مكث الأمير بها سنتين. و قد حظيت الجزائر بذلك - طيلة هذه المدة- بشرف إمارة إفريقية الإسلامية."18 ، ومن هذا المكان انتقل أبو المهاجر إلى أحواز تلمسان حيث أنه احتفر آباراً لجنده سميت باسمه (عيون أبي المهاجر).19 و كان بعده لعقبة بن نافع دوراً آخر في تحديد مسلك جديد لم يتعد عن المحور الرئيسي و هذا في المرحلة الثانية لولاية عقبة على إفريقية وكان ذلك سنة 62هـ\682م.



الشكل 3 وضعية المدن الساحلية و مدن الهضاب العليا.

الشكل 4 علاقة مدن المغرب الأوسط بالطرق الصحراوية

إن المحور شرق غرب الذي اتخذه عقبة بن نافع حتمته الظروف التي كان يعيشها المغرب الأوسط من مقاومة فوّجه الفتح من إفريقية حيث أعاد الاعتبار لمدينة القيروان بإعادة بنائها و منها انطلق نحو الغرب حتى وصل طنجة فافتتحها. و عرف مسلكه هذا المرور بعدة مدن منها على وجه الخصوص تهرت و تلمسان. و يذكر الجيلالي عبد الرحمن: «فتتبع (أي عقبة بن نافع) طريق السهل و تجنب المسير على الهضبة الوعرة ففتح في طريقه مدينة» باغاية» شرق جبل أوراس غرب خنشة.. و منها توجه إلى مدينة لمبيز (Lambese)

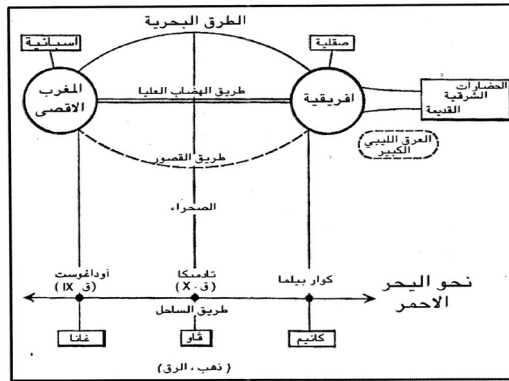
ذلك الحصن البيزنطي...ومنها وصل إلى الزاب و أحاط بعاصمته يومئذ «أزبة» على مرحلة شرق المسيلة...و منها توجه إلى تهرت وكان بها حصن بيزنطي قديم...ومن هنالك انحدر عقبة من الهضبة إلى السهل الساحلي و سار إلى المغرب الأقصى وعرج في طريقه على تلمسان و دخل طنجة فافتتحها و احتل مدن المغرب حتى بلغ المحيط الأطلسي. 20 إن هذا المسلك في مجملته لا ينفي وجود مسالك أخرى سابقة لهذا العهد أو معاصرة له و إنما سكوت المصادر التاريخية عن هذه الأخيرة هو السبب الوحيد الذي جعلنا نكتفي بهذين المسلكين لهذا المحور الرئيسي من إفريقية إلى المغرب الأقصى و الدليل على ذلك أن عقبة اتخذ في عودته مسلكا آخر يربطه بالمحور الرئيسي عند المسيلة و مقرة.

#### طرق الهضاب العليا :

كانت القيروان في وسط السهوب وراء الساحل التونسي بمثابة رأس جسر أو رباط. و موقع القيروان موجود عند منتهى الطريق الكبيرة الآتية من مصر و بعد خضوع كل مناطق المغرب إلى الحكم الإسلامي أصبحت القيروان قاعدة هامة وأساسية تنطلق منها الطرق المتجهة إلى الهضاب العليا، من الساحل التونسي مارة بجبل أوراس ( من الناحية الشمالية) إلى شط الحضنة و من ثمة تتفرع عنها طرق تتجه إلى كل من بجاية و ورقلة و كذلك إلى الهضاب العليا الغربية مرورا بمضيق تازا حتى الامتداد الثاني لسهول المغرب الأقصى، 21 (أنظر الشكل 5 ) و على طول هذه الطريق التي تقطعها طرق آتية من الجنوب - من محطات تجارة القوافل عبر الصحراء - أسست مدن جديدة. من أهم هذه المدن التي تلتقي عندها طرق التجارة في هذا المخطط الواسع في المغرب الأوسط نجد مدينة تاهرت التي تشرف على الطرق المؤدية إلى الهضاب العليا. التي تشرف على الطرق المؤدية إلى الهضاب العليا. " و في نهاية القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي)، كانت طبنة الواقعة على شط الحضنة تتمتع بمكانة مرموقة، وفي سنة 927 م قام عبيد الله الخليفة الفاطمي بإنشاء مدينة المسيلة في مكان يقع في شمال طبنة 22. الواقعة على شط الحضنة تتمتع بمكانة مرموقة و في سنة 927 م قام عبد الله الخليفة الفاطمي بإنشاء مدينة المسيلة في مكان يقع في شمال طبنة 22.



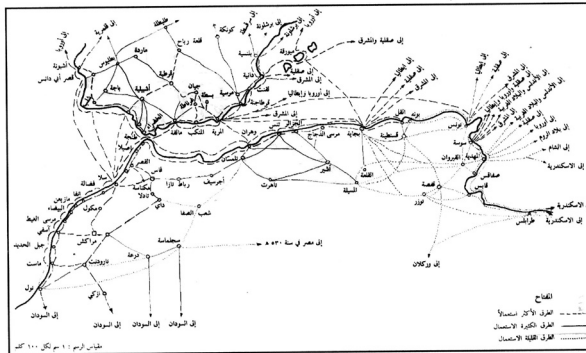
وعلى هذا الأساس أيضا وعلى طول هذه الطريق أنشئت فيما بعد مدن أخرى لا تقل أهمية عن القيروان حيث أنشأ الزيريون مدينة أشير في منطقة "الكاف لخضر". بحيث أنشأ الزيريون مدينة أشير على سفوح جبال الحضنة. " قام أيضا بلكين بن زيري ببناء مدن المدية على الهضبة الواقعة شرقي نهر شلف و مليانة و مدينة الجزائر و هي في الواقع مراكز تنتشر على الطرق المتجهة إلى البحر. و في سنة 1007م أنشأ حماد بن بلكين قلعة بنى حماد على سفوح جبل تقرت شمال الحضنة. فأصبحت القلعة أيضا مقصدا للقوافل الآتية من مختلف البلاد وازدادت أهميتها بعد خراب القيروان من طرف بنى هلال. بن بلكين قلعة بنى حماد على سفوح جبل تقرت شمال الحضنة. فأصبحت القلعة أيضا مقصدا للقوافل الآتية من مختلف البلاد وازدادت أهميتها بعد خراب القيروان من طرف بنى هلال. " و بعد اكتمال فتح كل المغرب و التحكم في وسائل الاتصال المتمثلة في الطرق البرية من القيروان إلى المغرب الأقصى عرفت طريق الهضاب العليا دورا فعالا في التنمية العمرانية استفاد منها على وجه الخصوص المغرب الأوسط بإنشاء مدن هامة و أخرى ثانوية اعتبرت همزة وصل ما بين كل المناطق في المغرب الأوسط وخارجه. فعلى طول هذه الطريق تم فتح طرق ثانوية كلما أنشئت مدينة ( أو مركز اجتماعي) سواء نحو الساحل أو نحو الجنوب ( الصحراء). و تمثلت هذه الطرق أيضا بطابعها التجاري و من أهم المدن الأولى التي أنشئت على هذا المحور مدينة تاهرت الرسمية من القرن 2هـ / 8م كما عرف ميلاد مدن أخرى لم ترق إلى صنف المدن العواصم ولكنها لعبت دورا بارزا في تاريخ المغرب الأوسط و هي مدن طنبنة والمسيلة.



الشكل 5 وضعية الطرق في العصر الوسيط. عن: Lambard, M:

## الطرق البحرية:

لعبت الطرق البحرية أيضا دورا معتبرا في إنشاء المدن سيما الساحلية منها كما كان لها الأثر البالغ في تفعيل الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط. ويتميز الخط البحري بوجود المرافئ الأساسية كالموانئ أو المحطات البحرية Comptoirs maritimes المعروفة منذ العهدين الفينيقي و الروماني بالإضافة إلى الخط البري المتجه من الشرق إلى الغرب عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط. (أنظر الشكل رقم 6) و بعد الفتح الإسلامي و خاصة ابتداء من القرن 5هـ - 11هـ أنشئت موانئ جديدة و بنيت عليها قلاع و أقيمت بها مصانع لبناء و ترميم المراكب و حتى بناء الأساطيل منها على وجه الخصوص، ميناء تونس والمهدية وبجاية وتونس 23. كما لهذه المدن و الموانئ دور فعال في تثبيت الحركة التنموية (الاقتصادية) للمدن الداخلية بطريقة غير مباشرة. لعبت كذلك المجاري المائية الكبرى كالواديان و الأنهار دورا كبيرا في ربط المدن بعضها ببعض و فعلت النشاط التجاري داخليا و غالبا ما ربطت هذه الطرق مناطق الداخل بالساحل. وكان لهذه الطرق أيضا الدور الفعلي في قيام المدن كما يؤكد عبد الفتاح محمد وهيبة: " تقوم المدن عند ملتقى الواديان في إقليم جبلي أو عند تلاقي منطقة سهلية بأخرى. تقوم المدن هناك لتلعب دور الوسيط التجاري بين إقليمين مختلفين في الطبيعة وفي الحاصلات. أما عن الأقاليم الجبلية فتركز المواصلات حيث تلتقي الواديان يكون بدرجة أقل لذا فالمدن أصغر وأهميتها أقل" 24



الشكل 6: عن عز الدين أحمد موسى

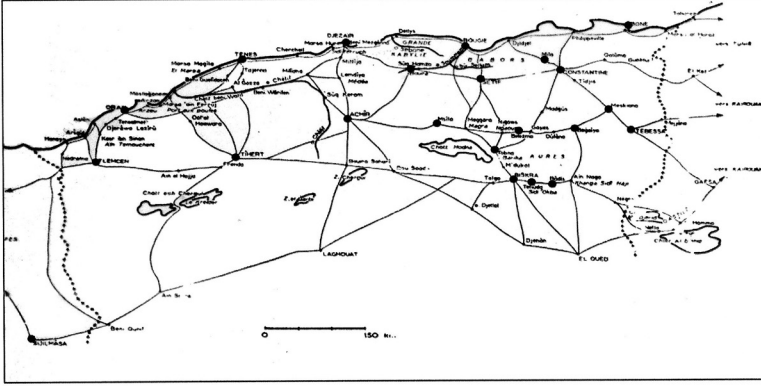


يعرف باسم " الجناح الأخضر " كانت هذه الطريق تمر من القيروان بلربس وتامديت ووادي الدنانير و تيجيس، و يعبر نهر سهر، نهر المسيلة ليصل إلى القلعة.27

**الطرق الثانوية:**

إن الغاية من التوسع السياسي يؤدي أحيانا إلى دراسة التضاريس و طبيعة المواقع العمرانية سواء لإحداث تجمعات بشرية جديدة أو إنشاء المدن، و من هذه الدراسة و الدراية بالأرض أو الموضع (territoire) يمكن إحداث الطرق الثانوية. وكانت الطرق الفرعية تربط بين المدن في شكل شبكة داخلية تبرز لنا بعض ملامحها و تختفي أخرى لقلّة المراجع و الأعمال الميدانية. و من بين هذه الطرق على سبيل المثال الطريق من القلعة إلى بجاية أو من تاهرت إلى تنس أو من تلمسان إلى وهران أو من مسيلة إلى أشير. ( الشكل رقم 8 ) و لإبراز طابع العلاقات ما بين مدن المغرب الأوسط في مختلف الفترات إرتأينا تقديم بعض النصوص التي ذكرها الإدريسي عن هذه الطرق الثانوية وهي على النحو التالي : " الطريق من مدينة تنس إلى مسيلة من بلاد بني حماد بالمغرب الأوسط تخرج من مدينة تنس إلى بني وازلغن مرحلة لطيفة في جبال وعرة وشواهد متصلة "28... " والطريق من تلمسان إلى مدينة وهران الساحلية مرحلتان كبيرتان وقيل بها ثلاث مراحل، وذلك أنك تخرج من تلمسان إلى وادي وارو فتنزّل به وبينهما مرحلة، ومنها إلى قرية تانيت فتنزّل بها، وهي مرحلة، ومن هذه القرية إلى مدينة وهران مرحلة "29 يتجلى من خلال ما سبق ربط المدن الساحلية بالمدن الداخلية، وهكذا الحال بالنسبة لمدينة بجاية وعلاقتها بقلعة بني حماد. وعلاقتها بقلعة بني حماد. " والطريق من بجاية إلى القلعة، تخرج من بجاية إلى المضيق إلى سوق الأحد إلى وادي وهنت إلى حصن تاكالات وبه المنزل... ومن حصن تاكالات إلى تادרכת إلى سوق الخميس إلى حصن بكر وبه المنزل... ومن حصن بكر إلى وارفو، ويسمى أيضا وارفو إلى القصر وهو أيضا قرية، وهناك تترك وادي بجاية غربا وتمر في الجنوب إلى حصن الحديد، مرحلة إلى الشعراء إلى قصر بني تراکش، إلى تاورت. وهي قرية كبيرة... ومن تاورت إلى الباب وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح وهناك مضيق وموضع مخيف... ومنه إلى السقائف وهو حصن ثم إلى حصن الناظور إلى سوق الخميس وبه المنزل... ومنه إلى الطمامه وهو فحوص في أعلى جبل ومنه إلى سوق الاثنين وبه المنزل وهو قصر حصين... ومنه إلى تافلكانت وهو حصن، إلى تازكا وهو حصن صغير ومنه إلى قصر عطية، وهو حصن على أعلى جبل إلى حصن إلى

حصن إلى حصن إلى حصن القلعة مرحلة «30 كما كان للطرق الثانوية دور كبير في نقل العواصم كما هو الحال بالنسبة لتاهرت حينما غادرها الرستميون إلى سدراته بضواحي مدينة ورقلة، حيث انهم بحثوا عن ملجأ يأوون إليه فوجدوه أولا في ورقلة ثم في سدراته ثم في ميزاب على طول الطريق المتجه من الشمال إلى الجنوب31



الشكل 8: شبكة الطرق الداخلية. عن: Golvin

#### خاتمة:

مهما كانت نوعية الطرق أو المسالك فإن العمران الإسلامي مرتبط بها ارتباطا وطيدا سواء تعلق الأمر بالمدن القائمة (أي الوظيفية) أو بالمدن المندثرة من حيث أنها كانت مركزا من مراكز الاتصال. وفي هذا الصدد لم نجد أحسن تعبير عن هذا الرأي سوى ماقاله عبد الفتاح محمد وهيبة: " رغم تغيير المواضع فإن المدينة العربية ورثت أهمية مواقع المدينة السابقة ... وما ظهرت هذه المدن العربية أو المعربة حتى صارت مصايرها معلقة بخطوط النقل والتجارة العابرة أينما اتجهت»32.

يتأكد مما سبق ذكره أن عامل الطرق بشتى أنواعها ساهم مساهمة فعالة في تطور حركة العمران الإسلامي في المغرب الأوسط و سوف يتجلى لنا هذا أكثر عند دراسة العواصم كل على حدة و هذا ما سوف نتطرق إليه في المقال المقبل. إن معظم الأحداث التاريخية التي تسببت إما في نشأة المدن أو في توسعها أو حتى في زوالها مرتبطة بالمسالك التي اتخذها المسلمون الفاتحون الأوائل أو تلك التي أحدثت فيما بعد. من هذا المنطلق نلاحظ أن البنية للمدن تتأثر أيضا بشبكة الطرق الخارجية حيث تتحكم النواة الأصلية للمدينة

في مجمل المكونات العمرانية لها بحيث يساعدها في ذلك ما تفرزه الأبواب الموزعة على السور الدفاعي من طرق ومسالك مؤدية إليها<sup>33</sup>. فتنظيم المدينة من حيث تسهيل حركة السير بداخلها وتفعيل النشاطات المختلفة مرتبط أيضا بالطرق وبالتالي نلاحظ أن الأبواب المفتوحة في السور إنما تفضي إلى المسجد أو إلى السوق أو أن الطرق تربط المداخل فيما بينها مما يحدث محاور أساسية. هذه المحاور تحدد أيضا الفضاءات المختلفة في المدينة التي تحتوي إما السكنيات أو الوحدات العمرانية الأصلية .

#### ببليوغرافية:

- ابن حوقل ، صورة الأرض، الطريق من إفريقية إلى تاهرت، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت»
- ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، النص العربي، ترجمه إلى الفرنسية، Gatteau. (A), Conquête de l'Afrique du nord et de l'Espagne, Alger, 1942، فتوح إفريقية والأندلس، النص العربي، ترجمه إلى الفرنسية، Gatteau. (A), Conquête de l'Afrique du nord et de l'Espagne, Alger, 1942»
- عذارى (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، بيروت، 1985.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد) المعروف بالشريف، المغرب الكبير من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق، محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
- البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (من المسالك والممالك)، ط الثانية، الجزائر، 1911، 1911،
- باشا (نجاة سويس)، التجارة في المغرب الإسلامي، من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، 1976.
- رشيد بورويبة، مدن مندثرة، سلسلة فن وثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، ش. و ن ت، الجزائر، 1981 ص. 27.
- الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ الجزائر العام، 14 أجزاء، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السادسة، 1983. العام، 14 أجزاء، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السادسة، 1983.
- جودت (عبد الكريم يوسف)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب

الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، د.م.ج، الجزائر، 1992، 1992.

- سعيدوني (ناصر الدين)، من التراث التاريخي و الجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999. شنييتي (محمد البشير)، ”التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ”، الأصالة، عدد 1977، 41، ص 2-23.

- عز الدين (أحمد موسى)، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت و القاهرة، 1983.

- محمد وهيبة (عبد الفتاح)، جغرافية العمران، الإسكندرية، 1972.

المراجع باللغة الفرنسية:

Baradez (J) , Fossatum Africae , Paris 1949.

Cambuzat (P.L), L'évolution des cité du Tell en Ifrikya du 7è au 11 è siècle, t.1&2, Alger.1986.

Cherbonneau (A), « Notice et extraits du voyage d'El Abdéry, à travers l'Afrique septentrionale au septième siècle de l'hégire », Revue Algérienne et coloniale, avril, 1860, pp.282 – 303.

Dahmani (S) « Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'Est du Maghreb central du 9è au 12è siècles », 110è Congrès des Sociétés Savantes, Montpellier, 1985; 3è Colloque sur l'Histoire et l'Archéologie d'Afrique du nord, pp337-350.

Decret (F) et Fantar (M): L'Afrique du nord dans l'antiquité, des origines au 5è siècle. Paris. 1981.

Golvin (L); Le Magrib central à l'époque des Zirides. Paris. 1957.

Lombard (M) ; L'Islam dans sa première grandeur, Paris. 1971

Le Tourneau (R) « L'Occident musulman du milieu du VIIè siècle à la fin du XVè siècle », Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, t.XVI, Alger 1958. pp 147-176.

Marçais (G), « La Berbérie du 7è au 15è siècles », Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, t. 1, Alger, 1957, pp17- 22.

Si Lakhdar (M) « Les étapes du pèlerin de Sidjilmassa à la Mecque et Médine », 4<sup>è</sup> Congrès de la Fédération de la Société de l'Afrique du Nord. Alger. 1951

الهوامش:

1Dahmani.S. Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'est du Maghreb central du 9<sup>è</sup> au 12<sup>è</sup> siècle, 110<sup>è</sup> congrès des sociétés savantes, Montpellier, 1985....p337.

2الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1983 ص150.  
3 ابن عذارى المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول، ط1983، 3.ص.26.

4عبد الرحمن الجيلالي، نفسه، ص.135.

5 رشيد بورويبة، مدن مندثرة، سلسلة فن وثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، ش.و ن ت، الجزائر، 1981ص. 27. تصدير الحبوب واستيراد غبرة الذهب والجلود.

6عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية العمران، ص.79.

\* إنسان كولومنانا ( سيدي الحسنى) بالقرب من تاهرت و إنسان باليكاو المعروف باسم إنسان تغنيفين الخ....

7Marc.Côte , L'Algerie ou l'espace retourné, Constantine, 1993 p91.

8Marc.Côte , L'Algerie....p.94

9سعيدوني ناصر الدين، المسالك و الدروب في الهضاب العليا....، ص.1

10 نفسه.

11جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ص.193

12جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ص.195، أنظر أيضا محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص.233

13نفسه، ص.193. أنظر أيضا جودت، ع، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص.55.

14E. Pauty , “Villes spontannées et villes créées en Islam, Annales de l' Institut d'Etudes Orientales, t IX, 1951, p67

15Salama, P, Les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger, 1951



16Courtois. C ,Les Vandales et l'Afrique, Paris,1955.161

17Baradez.J , Fossatum africae, Paris, 1949,p150

\*كانت تسمى بمدن الساحل آنذاك

18الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام .ج1، ص.127.(1983)

19المرجع نفسه، ص.128.

20الجيلالي ،ع، تاريخ....ج1، ص 128/129

2183 M ; l'Islam dans sa première grandeur , p. Lambard

22Idem, p.84

23باشا سويسي نجاة ، التجارة في المغرب الإسلامي، من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية،1976،ص.101.

24عبد الفتاح محمد وهيبة ،جغرافية العمران.....، ص 79 .

25الإدريسي، المغرب العربي ، من كتاب نزهة المشتاق ،تحقيق حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983 ص 110.

26نفسه ، ص 111.

27نفسه ، ص 119. أنظر أيضا ، العربي إسماعيل، " القلعه..."،مجلة الثقافة ع:30، ص،25.

28الإدريسي المرجع السابق، ص 105

29نفسه، ص 106

30نفسه، ص 118 - 119.

31Lombard, M , op.cit. p,157.

32عبد الفتاح محمد وهيبة ، جغافيا العمران.... ، ص 45

33Le Tourneau , R , les villes... ,P19



## الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني

مداخلة الأستاذ : بن جبور محمد - قسم التاريخ - جامعة معسكر

### 1- إنتشار الأمراض والأوبئة:

لقد أجمعت الكتابات التاريخية أن الجزائر قد شهدت تدهورا اقتصاديا وتراجعا عمرانيا طيلة النصف الثاني من القرن السابع عشر (17م) والنصف الأول من القرن الثامن عشر (18م) بعد ذلك ساءت الأوضاع الإقتصادية وأقفرت الأرياف والمدن من سكانها وتكاثرت الأعراض والأوبئة الفتاكّة مما أثر سلبا على حالة السكان الصحية والمعاشية وترك آثارا سيئة على أوضاعهم الإجتماعية [01].

إبتداء من أواخر القرن الثامن عشر (18م) تراجع عدد سكان المدن وتناقص سكان الأرياف مما تسبب في ضعف القوة العسكرية [02] أدى هذا الوضع إلى تناقص عدد التجار وقدرة الحرفيين والصناع وانعدام الأيدي العاملة في ميدان الزراعة.

و تعود أسباب هذا التردّي والتدهور الاجتماعي إلى انتقال العدوى وإنتشار الأمراض من الأقطار المجاورة بسبب صلة الجزائر ببلدان البحر الابيض المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها التجارية مع أوروبا وارتباطها الروحي بالمشرق الإسلامي [03].

مما ساعد على إنتشار هذه الأمراض وتفشيها في البلاد انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى.

وقد أحصى لنا سعد الله صيدلية واحدة كانت موجودة بمدينة الجزائر والجزائر قاطبة، وكانت تعتمد على الأعشاب الطبيعية. وكان الأتراك يعتمدون على أطباء أجانب، واعتمدت المؤسسة العسكرية على طبيب جراح كان يسمى باش جراح أما الجزائريون فكانوا يتداوون بالأعشاب، أو بالسحر والشعوذة في مداواة المرض أو التماائم والأحجبة. والتقرب إلى الأولياء ومن بين هذه الأوبئة التي تفشت في أوساط المجتمع الجزائري :

الطاعون:لقد عد الطاعون من أخطر الأمراض التي عانى منها المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الاجنبية المقيمة بالبلاد لقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة مع الأوبئة المستوطنة بالمنطقة تسببت في إنبهار ديمغرافي وأدت إلى تدهور الوضع الصحي الذي اثر بدوره سلبا على إقتصاديات البلاد تاركا

تشوهات خطيرة في البيئة الاجتماعية[04].

لقد أضر الطاعون بالأوضاع الصحية للجزائر العثمانية وارتبط بالعوامل الأخرى التي أثرت على الوضع الصحي للسكان مثل الإضطرابات الجوية والتقلبات المناخية وفترات الجفاف والفيضانات بالإضافة إلى اجتياح الجراد وما نتج عنه من الزلازل والحرائق وما نتج عنها من دمار وخراب للمباني[05].

و مما زاد الأحوال الصحية سوءاً أن الحكام العثمانيين لم يهتموا بميدان الصحة ولم يعطوها الأهمية التي تستحقها فمن ذلك أنهم ولم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد انتشار هذه الأمراض[06]، أما أماكن العلاج فكانت محصورة حول بعض المصحات والملاجئ مثل زنقة الهواء وملجأ الأمراض العقلية المخصص للأتراك بالإضافة إلى مارستانات[07] رجال الدين المسيحيين التي كانت تنفق عليها الدول الأوربية[08] كما أن الباشاوات لم يهتموا بالجوانب الصحية من جهة ولم يفرضوا الحجر الصحي من جهة أخرى على الوافدين إلى الأيالة الجزائرية.

و الملاحظ أن الأوبئة كانت تتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما وأنها في بعض الأحيان استمرت لبضع سنوات كما حدث خلال أعوام 1798-1784 كما مني القرن السابع عشر (17م) بانتشار الأوبئة في مختلف جهات البلاد مدة حوالي 39 سنة أما القرن الثامن عشر (18م) فقد ظهرت أثناءه الأوبئة[09] من عام 1700م حتى عام 1799، ولقد أشارت بعض المصادر الفرنسية إلى عدة أنواع من الأمراض التي كانت منتشرة في الأيالة، كان في مقدمتها الطاعون، الكوليرا، التيفوس، الجدري، السل، ولقد تأصلت هذه الأمراض نظرا لانتشار المستنقعات بالمدن وانعدام القواعد الصحية، خاصة النقص الكبير في العقاقير، فالطاعون وحده كان يؤدي إلى هلاك من 300 إلى 400 نسمة في اليوم، فمن عام 1740م إلى عام 1743م فتك بحوالي 10000 نسمة.

وبالنسبة لوباء عامي 1792-1798 فإنه أضر بجميع الجهات لاسيما وهران والجزائر وقسنطينة. وفي سنتي 1817-1818 انتشر الوباء في الجزائر وقضى على أكثر من 14000[45]. وهكذا أصبح وباء الطاعون[10] من مظاهر البيئة الجزائرية فتكرر ظهوره بها باستمرار وقد كان مرتبطا بحركة الأسطول الجزائري واحتكاكه الدائم بموانئ المشرق التي كان مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون، حتى عدت الجزائر من مراكزه الدائمة وبيئاته المفضلة وهذا ما عبر

عنه «بنزاك» «Panzac» بقوله: وباء الطاعون من الظواهر المستمرة والدائمة في الجزائر العثمانية «[11]» [La peste est une constante de l'Algérie ottomane]. علما بأن الایالة كانت لها صلات وثيقة بالمناطق المجاورة التي كان يأتي منها الطلبة والحجاج والبحارة والتجار من تونس، طرابلس أو إفريقيا.

لقد أصبحت عدوى الطاعون تنتقل بسرعة في جميع جهات البلاد، ومسافة انتشاره قدرت بحوالي 200 إلى 400 كلم سنويا وقد يستغرق إنتقالها أحيانا أسابيع قليلة لإجتياح منطقة ما تبعا لشدته وللكتافة السكانية في المنطقة التي تتعرض له [12]. ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي انتشر مرض الطاعون بسرعة مذهلة أضر كثيرا بالوضع الصحي للایالة الجزائرية أكثر من المناطق المجاورة، كتونس ومراكش. ومع حلول القرن الثامن عشر (18م) فقد تكرر وباء الطاعون وبلغ مجموع السنوات التي انتشر خلالها الطاعون أثناء هذا القرن 63 سنة في مدينة الجزائر وحدها خاصة من 1717 إلى 1758م، حيث انتقل إلى مناطق بعيدة كالقالة وعنابة وقدرت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر، سنة 1740م ما بين 200 و400 وفاة يوميا. ومن عام 1778 إلى 1804، انتشر وباء الطاعون في جميع الجهات وكان شديد الوطأة على السكان حيث أدى إلى تراجع كبير لعدد سكان الایالة وبين سنوات 1805-1815، زاد في حدته حدوث المجاعات التي تعتبر أثارها الديمغرافية أخطر من بعض الحروب التي عاشتها البشرية.

لقد كانت أوبئة القرنين السابع عشر (17م) والثامن عشر (18م) أكثر حدة وشدة من التي إجتاحت الجزائر أثناء القرن السادس عشر (16م)، إذ تشير العديد من التقارير العسكرية والمراسلات القنصلية إلى إستمرار «الوباء الفتاك» أو «الوباء الخطير جدا» [13] لفترات متعاقبة تناهز الواحدة منها 15 إلى 20 سنة وتعقبها عادة فترة خمود لا تتجاوز الست سنوات [14].

## ب- الكوارث الطبيعية

### 1-الزلازل:

مع ازدياد وطأة وباء الطاعون وتفشييه في أرجاء الایالة الجزائرية، كانت تتعرض لسلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة والتي تسببت في تخريب وتحطيم بعض المدن، واسفر

عنها في أحيان كثيرة خسائر في الأرواح والممتلكات كزلزال مدينتي الجزائر والمدينة سنة 1632، والذي فتك باغلب سكان مدينة الجزائر، وزلزال عام 1665 والذي صاحبه خسوف الشمس وتأثرت به حتى السواحل الأوربية بالإضافة إلى زلزال 1676.

أهم الزلازل:

لقد تعرضت السواحل الجزائرية إلى عدة زلازل عنيفة وقوية خلفت عددي القتلى وخسائر جسيمة فمنها.

1- زلزال 1716: الذي تخرّب من جرائه مدن شرشال وبجاية ومدينة الجزائر وتكررت نتيجة هزات إرتدادية طويلة ايام الثالث (3) والخامس (5) والسادس والعشرين (26) من شهر فبراير وقد هلك من سكان الجزائر تحت الانقراض ما لا يقل عن 20000 نسمة حسب بعض المصادر [15].

نظرا لاشتداد حدة الزلازل اضطر الاهالي للخروج إلى ضواحي المدن ومنها ضواحي مدينة الجزائر بعد أن تهدمت منازلهم، مما جعل الداي يصر على معاقبة اللصوص، والقضاء على أعمال الفوضى التي صاحبت هذه الزلازل ثم تكرر حدوث الزلازل بمدن مليانة وعنابة والجزائر أعوام 1723-1724 وتضررت شرشال من جراء زلزال 1735.

2- زلزال 1755: يقال عنه زلزال لشبونة [16] وهو زلزال قوي شمل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فلم يبق منزل لم يتأثر بحدته في مدينة الجزائر، وقد أدى هذا الزلزال إلى إنقطاع المياه وتهدم الخبايا، وقد صاحبه ظهور الحرائق للبعض الأحياء وشيوع أعمال النهب والفوضى لمدة شهرين استمر فيها تكرار الهزات الإرتدادية الارضية.

3- زلزال 1760: كسابقيه كان شديدا وعنيفا خرب مدينة البليدة [17] واضر ضررا بالغا بمدينة الجزائر فاضطر السكان للبقاء في العراء.

4- زلزال 1790: لقد ضرب هذا الزلزال مدينة وهران وأدى إلى هلاك أكثر من 5000 نسمة، وانقطاع المياه وتهديم المباني وكان ذا فائدة على الجيش الجزائري الذي كان يحاصر المدينة تمهيدا لاسترجاعها من أيدي الإسبان [18]. ولقد اضر هذا الزلزال بالقدرات العسكرية الاسبانية التي كانت محصنة بالبرج الأحمر والمرسى الكبير، ومكنت الأتراك من دخول المدينة فيما بعد عام 1792م.

5- زلازل 1818 و 1825: لقد تعددت الزلازل في الجزائر بحيث ضربت أغلب المدن

الساحلية والمناطق القريبة من مدينة الجزائر، منها الزلازل الذي ضرب الأطلس البلدي وأدى إلى هدم الدور والمساكن وخراب مدينة البليدة [19] والذي دامت هزاته من 2 إلى 6 ماي 1825 وأسفرت عن هلاك أكثر من 7000 قتيل [20]. وقد تركت هذه الكوارث الطبيعية نتائج سلبية على الوضع الديمغرافي للبلاد وعلى الحالة الصحية، كما اثرت في نفسية الجزائريين وأدت بهم إلى النقمة من الحكام والثورة عليهم محملين إياهم أسباب المصائب والمعاناة.

2- الفيضانات والحرائق: لقد اعتبر الجزائريون الفيضانات والحرائق من أهم الآفات والكوارث التي أضرت بالجزائر خلال العهد العثماني، بحيث تسببت في حدوث مجاعات وإخفاء الأقوات وهلاك الكثير من السكان.

لقد أُلِفَ الجزائريون حدوث المجاعات إثر سنوات القحط والجفاف وفي أعقاب زحف الجراد الأمر الذي كان يؤدي إلى إنتشار الأمراض وتكاثر الأوبئة.

و من الفيضانات التي تعرضت لها الجزائر خلال فترة الدراسة تلك التي تميزت بفداحة خطرها وذلك خلال سنوات 1727-1731-1733-1734-1736-1740-1753-1755-1757-1791-1812-1816 [21]. ومن نتائج هذه الفيضانات تضرر الحياة الاقتصادية، وتفشي الأمراض القاتلة وإتلاف المحاصيل الزراعية وتدمير المباني، وتناقص عدد السكان، وقد تسببت هذه الكوارث في تدمير السكان نتيجة نقص الأقوات وغلاء أسعارها، وانعدام الأمن، وتدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وبقيت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة وتحول جزء من هذه الملكيات إلى مؤسسة الأوقاف [22].

3- الجراد والجفاف:

مع ازدياد حدة الزلازل وانتشار الفيضانات شهدت الايالة الجزائرية آفات أخرى تمثلت في غزو الجراد وانتشار الجفاف مما أضر أيما ضرر بالجزائر إبان العهد العثماني إجتماعيا وصحيا وإقتصاديا وتسبب في إخفاء الأقوات وهلاك كثير من السكان.

وفيما يخص سنوات زحف الجراد فمن أكثرها ضرر خلال أعوام 1710-1716-1724-1725-1760-1778-1779-1780. الدراسة

وبالنسبة للسنوات التي عرفت فيها البلاد إنتشار الجفاف فكانت في الفترات الممتدة من 1734

إلى 1737 ومن عام 1778 إلى 1779 وكذلك سنة 1800 وأعوام 1800-1807-1816-1819[23].  
4- المجاعات:

عاغشت الجزائر في أواخر العهد العثماني مجاعات انعكست آثارها سلبا على الوضع الاجتماعي والصحي والاقتصادي للبلاد منها مجاعة 1778 و1779م والتي قيل عنها أن الناس كانوا يموتون بالملئات في شوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة[24] وكذلك الشأن بالنسبة لمجاعة 1787 و1789م التي كان من أسبابها الجراد مع الوباء ويمكن الإشارة إلى مجاعة 1794 التي اتسمت فيها الأوضاع بالتردي والفوضى وغلاء الأسعار وغياب الأقوات[25]. أدت إلى انتشار الفوضى وانعدام الأمن وتفشي النهب وغلاء الأسعار ومات الناس جوعا، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنه في عام 1756م، مات أكثر من 1656 نسمة في مدينة الجزائر وقسنطينة.

وفي النهاية يمكن أن نذكر أنه هناك بعض المحاولات التي قام بها بعض الحكام الأتراك للاهتمام بالوضع الصحي وتحسينه في الولاية الجزائرية كمحاولة صالح الباي عام 1787م والتي أراد بها منع انتشار وباء الطاعون، فأقام حزاما صحيا على مدينة عنابة، ومحاولة الباي عثمان عام 1794م، والمتمثلة في بناء مستشفى وإقامة حزام صحي وفرق الحجر على السفن، كما سعى إلى استيراد القمح من أوروبا وتوزيعه على السكان مجانا، ومن بين إصلاحاته كذلك أنه قام بإلغاء الضرائب التي كانت مفروضة على الجزائريين.

#### الهوامش والمراجع:

[01] سعيدوني ناصر الدين، نفسه.

[02] «أوجاق أو «الوجاق»: تعني بالتركية في الأوساط الجزائرية موقع النار أو الموقد، وهو إسم تنظيمي مستعار للجيش الإنكشاري العثماني ولقد تمردوا على الباشاوات في القرن السابع عشر (17م) واستولوا على السلطة الفعلية ولم يبق للباشاوات سوى وجود رمزي كممثلين سامين للسلطان ولقد انتقلت هذه السلطة الفعلية إلى طائفة الرياس في أواخر القرن نفسه.

[03] انتقلت إلى الجزائر مختلف الأمراض كالكوليرا « Le Cholera » والتيفوس « La Typhus » والجدي « La variolle » والطاعون « bubons La maladie à »

[04] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 124.



[05] القشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 1 سنة 2001 ص 134.

[06] القشاعي موساوي فلة: المرجع السابق لمزيد من التفاصيل ينظر -BOUBAKER Said : La Peste dans les pays du maghreb attitudes face au fléau et impact sur les activités commerciales 16,18ème siècles In,R.H.M 2ème année n° 7980-, mai 1995.

أنظر أيضا

-El Kachai MOUSSAOUI Fella : Situation sanitaire et démographique du Beylik de Constantine 1791-1837 In, les actes du 7ème symposium international d'études ottomanes sur la société et l'état dans le monde ottoman publications fondation Témimi : pour la recherche scientifique et l'information zaghouan Tunisie , Septembre 1998.

[07] لم يفرض نظام الحجز الصحي لا على السفن ولا على الأشخاص باستثناء محاولة صالح باي، قسنطينة العام 1787 فرض حزام صحي حول عنابة ومنطقتها ليمنع إنتقال العدوى إلى مدينة قسنطينة.

[08] يقصد بها الأديرة، دير أو Monaster.

[09] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 125.[10] نفسه ص 126.

[11] نفسه ص 127.

[12] القشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، المرجع السابق ص 136

[13]Panzac Daniel : la peste dans l'empire ottoman 1700-1850, ed Peters leuven, 1985, P212.

[14] القشاعي موساوي فلة: المرجع السابق ص 138.

[15]El Kachai MOUSSAOUI Fella : OPCIT, P68.

[16] تشير إلى ذلك التعبيرات الآتية

- « نتج عن الوباء موت كثير حتى خلت المدن والقرى »
- « قحط عظيم ووباء مفرط »
- « وباء مات فيه خلق كثير »
- « مجاعة قحطت الجزائر قحطا عظيما »
- « وكان الوباء وقد إشتعلت ناره.....وقت الضحى وصل مائة جنازة... »
- « وباء هلك فيه من الناس حتى عجزوا عن دفن أموات لهم »
- « خلت الدور وعمرت القبور »
- « الطواعين المتتالية هي إستمرار للطاعون الأعظم وهي أقل فتاكة منه... »
- « وباء عظيم الحيوية الكبيرة أو القوية عام البروبو »
- « خلال طاعون 1786 أخلت البلاد وأفنت العباد »
- « القحط الشديد ومسغبة عامة »
- « الوباء جعل الناس يأكلون بعضهم بعضا »
- « عدد الموتى يزداد من يوم إلى آخر »
- « اثناء الطاعون الجارف خلت الديار والمنازل »
- « كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس »
- القشاعي موساوي فلة، المرجع السابق ص 136.
- ينظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ص ص 144-151، ينظر أيضا بلحميسي مولاي :
- الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر ش ون ت 1979 ص 39.
- [17] BOUBAKER Said : La peste dans les pays du maghreb ,OPCit P323
- Berbrugger: un mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 jusqu'au 1819 In
- xploration scientifique de l'Algérie , Paris imp Royale TII..1847
- [18] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 128.
- [19] أهمها: Devoux: quelques tempêtes à Alger in R.A. T.15 1871, pp 339-352.
- [20] بسبب وقوع محوره بالقبور منها « لشبونة ».
- [21] حول زلزال البليدة، ينظر مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص 155.
- [22] بذل كل من حسان باشا (1563) ومحمد قوصة (1606) وشعبان الزناي (1686)

والباي إبراهيم (1687) عدة محاولات لإنقاذ وهران والمرسى الكبير وتحريرها من الإسبان وتحمس حتى الكتاب والشعراء فلهبوا حماس الناس بأشعارهم وفي العام 1707 حشد الباشا محمد بكداش جيشا جرار به المدينتين للتحرير الأول سنة 1708 واستبشر الناس وفرحوا، ولكن الإسبان احتلوها مرة أخرى لمدة حوالي 60 عاما أخرى ثم عازمت الجزائر وصممت على إزالة الفرحة الإسبانية من جسمها وحشد الباي محمد بن عثمان الكبير قوات عسكرية كبيرة وأجبر الإسبان على الجلاء عنهما بصفة نهائية العام 1792.

[23] مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ص 155.

[24] سعيدوني ناصر الدين: ص 129، ينظر خريطة الزلازل في ملحق الدراسة

[25] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 129.



## علاقة جمعية العلماء المسلمين بنواب فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة (1931-1936).

أ. محمد بكار/ جامعة حسيبة بن بوعلي/ الشلف.

أعد الاستعمار الفرنسي جملة من القرارات السياسية الجديدة في الجزائر لمكافحة من ضحوا بأرواحهم في سبيل فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، وجاءت إصلاحات 4 جانفي 1919 ضمن هذا السياق فاتحة باب التمثيل النيابي لبعض الجزائريين، مع حرية تشكيل النوادي والجمعيات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي. لكن كيف تعامل الاستعمار وإدارته مع الحركة الوطنية الجزائرية؟ وكيف كانت ممارسة مختلف الجمعيات الجزائرية لهذا الحق السياسي؟ وكيف كانت طبيعة العلاقات بين التيارات الجزائرية في هذه الفترة من التاريخ المعاصر؟ وللإجابة على هذه التساؤلات بحثنا في تلك العلاقة التي جمعت بين جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ونواب فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة ما بين: (1931-1936)، وظهرت عدة جوانب ميزت الحركة الوطنية آنذاك كصعوبة الممارسة السياسية من جهة، ودسائس الاستعمار وأذنابه من المعمرين والجزائريين أصحاب المصالح، الذين كرسوا حياتهم خدمة للسياسة الاستعمارية، وإحباط أي مبادرة جزائرية ترمي إلى تحقيق الوحدة بين الجزائريين.

لقد اعتقد الكثير من المؤرخين الفرنسيين أن جمعية العلماء الجزائريين المسلمين المؤسسة في 5 ماي 1931 أنها تمكنت من استثمار جهود معتبرة في المجال الثقافي والتعليمي، بينما عاب عليها البعض الآخر سيرها على هامش الحركة الوطنية الجزائرية. كما كانت في نظر الإدارة الاستعمارية مجرد جمعية دينية وثقافية، أسقطت منها الطابع السياسي الذي كانت تمثله بسن قوانين ردعية، فمنع العلماء من إلقاء الخطب في المساجد، وأغلقت المدارس الحرة التابعة للجمعية عبر التراب الوطني. إلا أن الواقع أظهر عكس ما قيل خاصة لما نتبع نشاط الجمعية، وسيرة ممثلها المؤسسين أمثال: الشيخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، ومحمد خير الدين، والطبي العقبي، وغيرهم كثير. وردا على هؤلاء يمكن القول أنه كانت للجمعية مساهمات سياسية بعيدة الأفق لم ينتبه إلى فعاليتها إلا بعد مرور عقدين من زمن تأسيسها. ومن بين الأهداف المحققة

على سبيل الحصر فقط: تمكن الجمعية من تكوين جيل جزائري قادر على تحمل الميراث الثقافي ومقومات الشخصية الوطنية للأمة الجزائرية، وتبني الجمعية برنامجا عمليا معاديا لسياسة التغريب المنتهجة من قبل الاستعمار الفرنسي داخل البلاد، بنشر العلم والتعليم العربي، وبناء مدارس موازية للمدارس الفرنسية كخطة حضارية لمواجهة الصراع التاريخي بين المسلمين والمسيحيين، بالإضافة إلى تأسيسها للنوادي، ونشرها لصحافة ذات نوعية، وتوعية الجماهير بواسطة منابر المساجد، كما كان لجمعية العلماء الفضل الكبير في ظهور

مؤرخي الجزائر الأوائل ونقصد بالطبع مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني<sup>1</sup>.

لم نعثر على أي تقارب سياسي جمع بين جمعية العلماء المسلمين وفيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة ما بين (1931-1933)، رغم أن الفيدرالية تأسست سنة 1930. ومن بين أسباب فتور العلاقة إن لم نقل نفور العلماء الجزائريين من النواب، هو أن نواب القسم الثاني باعوا ضمائرهم إلى الإدارة الفرنسية مقابل ضمان الفوز في الانتخابات، كما أن أفكارهم تمحورت حول جر الشعب الجزائري نحو الإدماج الكلي مع فرنسا بما يحتويه من تخلي عن الأحوال الشخصية. ولهذا وجدت أفكارهم معارضة قوية من أفراد الشعب الذين اعتبروها مقدمة لسلخ الأمة من مقوماتها الأساسية خاصة الإسلام والعروبة. كما أن جمعية العلماء المسلمين التي ترأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس لم تتحمس لأي تعاون ممكن مع نواب الإدماج، حيث اعتبروهم مجرد متعاطفين مع الاستعمار وإدارته<sup>2</sup>. ومن منطلق هذا الحكم لم يمثل نواب هذه الفترة إلا أنفسهم بحكم أقليتهم داخل المجتمع، وانتمائهم إلى الطبقة الأرستقراطية، وتمسكهم بالثقافة الغربية التي تعلموها في المدارس الفرنسية، مما أبعدهم عن هموم المجتمع الجزائري وخصوصياته الحضارية، وتقاليده المحافظة عبر العصور.

كما شهدت الفترة ذاتها تطور تيار إصلاحي اندماجي داخل فيدرالية النواب الجزائريين، متكون من شباب طموح ومثقف من دعائه الدكتور محمد الصالح بن جلول، والصيدلي فرحات عباس. ففي ظرف قصير تمكن ابن جلول وأتباعه من النواب المتحمسين سحق منافسيهم من الجيل القديم في انتخابات المفوضيات المالية، والانتخابات البلدية أمثال الباشاغا محمد بن باديس المنبوذ من قبل القسنطينيين، وابنه مولود بن باديس، وسبق أن كانت هناك منافسة منذ القديم بين عائلتهما وعائلة ابن جلول رغم قرابة النسب،

والتي لم تنته بعد.3 لم يكتف ابن جلّول بهذا الانتصار وعزز مركزه بإبعاد شريف سيسبان، زعيم دعاة الإدماج، وتمكن من أن يحل مكانه على رأس فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة سنة 1933. وتزامن هذا النجاح الكبير بإصدار السلطة الفرنسية الاستعمارية مرسوم ميشال المشثوم في فبراير من السنة نفسها، مما كان سببا في التضيق على جمعية العلماء المسلمين بعد سنتين من تأسيسها، بمنع علماء الإصلاح من استعمال منابر المساجد، وإغلاق المدارس الحرة، ومنع إصدار الجرائد.4 كانت هذه المناورة الفرنسية محكا حقيقيا للنواب الجزائريين، وبداية التقارب بين دعاة سياسة الاندماج وعلماء الإصلاح في قسنطينة. حاول نواب فيدرالية المنتخبين داخل جلسات المجالس المنتخبة الدفاع عن الجمعية ومطالبة الإدارة بإلغاء مرسوم فبراير، وإصلاح الوضع الاجتماعي للجزائريين المسلمين، ولما أدركوا أن الإدارة عاجزة عن إنصاف جمعية العلماء والشعب الجزائري، عزموا الذهاب إلى الحكومة الفرنسية بباريس لكي تستجيب إلى مطالبهم. لكن زيارتهم الأولى لباريس يوم 19 جوان 1933 فشلت، ومن أهم المطالب التي حملوها للسلطات:

- حرية ممارسة الشعائر الدينية، واحترام التعليم الديني.

- عدم التضيق على المساجد حتى لا يحرم المسلمون من واجهم الديني مثل الآخرين.5  
وبسبب عدم استقبالهم هناك من قبل السلطات السياسية أحس النواب بالإحباط، مما دفعهم إلى استعمال أسلوب الاستقالة الجماعية من مختلف المجالس المنتخبة يوم 5 جويلية 1933 للضغط على الإدارة، كما توقفوا عن تقديم الولاء للشخصيات الرسمية، وامتنعوا عن التصويت على الميزانية داخل المفوضيات المالية.

هكذا إذن تمكن نواب فيدرالية المنتخبين من اكتساب شعبية كبيرة داخل العمالة، وصعد نجم رئيسهم بعد حركة الاستقالة الاستعراضية، وظهرت بادرة التقارب بين جمعية العلماء المسلمين وفدرالية المنتخبين المسلمين تلوح في الأفق. لكن الأمر لم يكن سهلا في البداية، لأن مهمة إقناع معارضي الاندماج من الإصلاحيين كانت صعبة خاصة فيما تعلق بالجمع بين الاندماج والأحوال الشخصية. كما حاول سكان عمالة قسنطينة، وجمعية العلماء المسلمين دفع ابن جلّول وفيدرالية المنتخبين المسلمين للذهاب أبعد من سياسة الاندماج.6 لهذه الغاية وقفت جمعية العلماء إلى جانب الفيدرالية تدعم قوائم مرشحها مع الدعاية لها وسط الجماهير الشعبية والتصويت عليها.

ومن الأعمال المشتركة بين جمعية العلماء المسلمين وفدرالية المنتخبين المسلمين، هو التفافهم الكبير الذي سادهما خلال أحداث 3-6 أوت 1934 الدامية بين الجزائريين المسلمين، ويهود مدينة قسنطينة. ففي هذه الظروف وقف كل من عبد الحميد بن باديس، وابن جلول سويا لتهدة الغاضبين من الجانبين، وحاولا معا إخماد نار الفتنة المشتعلة منذ سنوات بينهم. كانت استفزازات اليهود مألوفة ويومية داخل المدينة، لم يسلم منها حتى الشيخ عبد الحميد بن باديس نفسه، فهو الذي هاجمه شباب يهود سنة 1932، ورموا بعمامته في ساقية، ولتفادي المواجهة لم تقدم أي شكوى، بينما أشعرت الإدارة بالحدث. 7 شارك العلماء والنواب والأخبار في اجتماع بمسجد المدينة وتعاون الجميع من أجل تلطيف الأجواء، وتهدة نار الحقد والغضب. وسهر ابن جلول وابن باديس الليالي يطوفان المدينة للتأكد من عودة الهدوء إلى الأحياء الشعبية. ورغم هذا الدور، إلا أن النواب المعمرين اتهموا فيدرالية المنتخبين المسلمين، وجمعية العلماء المسلمين بالوقوف وراء الأحداث، وحتى الحاكم العام سار معهم لما راسل وزير الداخلية. 8 ورغم الكيد اكتسبت فيدرالية المنتخبين ود جمعية العلماء المسلمين خلال الأحداث وبعدها، وأشاد العلماء بدور ابن جلول، والشيخ عبد الحميد بن باديس بإعادة الطمأنينة للمدينة. 9 ومما سبق، وخلال مساندة العلماء لفيدرالية النواب بمناسبة حملة انتخابات 14 أكتوبر 1934، تعرض الشيخ محمد خير الدين، ومرافقيه من العلماء، ووفد من النواب إلى الاعتداء ببسكرة لما قاموا بدعم الدكتور سعدان مرشح النواب في البلدية. وقاد هذه العصابة المسلحة المعتدية «الحفناوي دبابش» وأنصاره لتفويت الفرصة عليهم، كما قامت فرقة من رجال الشرطة المسلحة تساندهم، وسقط خلال هذه المواجهة جرحى من بينهم الشيخ محمد خير الدين، والدكتور سعدان. 10 والأحداث نفسها عرفتها المدينة في انتخابات 15 ماي 1935 وقف وراءها الباشا «بوعزيز بن قانة» وأنصاره انتهت بتزوير قائمة النواب العاملين للبلديات. لكن في قسنطينة فازت قائمة فيدرالية المنتخبين المسلمين بفضل المناصرين للفدرالية خاصة جمعية العلماء الموجودة بقوة.

حاول رئيس فيدرالية النواب المسلمين «ابن جلول»، تبني مبادرة سياسية جديدة لجمع شمل الحركة الوطنية تحت زعامته. لهذا وجه دعوة عامة يوم 15 مارس 1936 في جريدة الدفاع (LaDéfense) لتأسيس حزب، إلا أن فكرته لقيت معارضة من قبل العلماء،



وبشكل خاص من قبل الشيخ عبد الحميد بن باديس. ويعود سبب الخلاف أن العلماء رؤوا أنه من المستحسن تجسيد الفكرة في تنظيم مؤتمر إسلامي يجمع الجميع مكان الحزب. 11 لكن السبب الرئيسي في اتخاذ العلماء هذا الموقف هو محاولتهم قطع الطريق أمام ابن جلول والنواب دعاة الاندماج. 12 وبعد سوء تفاهم اتخذ العلماء زمام المبادرة، وبدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس في الاتصال بزعماء التيارات السياسية، والشخصيات الوطنية. واستطاع أن يقنع الجميع بفكرة المؤتمر ومن بين هؤلاء: ابن جلول، فرحات عباس، من فدرالية المنتخبين المسلمين، وطاهرات، من الحزب الشيوعي الجزائري. وحول انضمام رئيس النواب الجزائريين إلى المؤتمر الإسلامي قيل الكثير، فهناك من أرجع سبب انضمامه إلى انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات الفرنسية، وانتظاره دعم منها في مشواره السياسي، وهناك من ظن أن ابن جلول التحق إلا لما علم أنه سيتأخر المؤتمر. 13 لكن المؤكد من هذا أن ابن جلول استطاع أن يقنع العلماء بطرحه الاندماجي الذي كان يمثل مع نواب الفيدرالية، لهذا لم تتجاوز مطالب المؤتمر مطالب فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة. أما السبب الذي جرّ العلماء للعمل بجانب دعاة الاندماج، هو أملهم في رؤية الجبهة الشعبية تنصف الجزائريين، وتمنحهم الحقوق نفسها التي استفاد منها من قبل معمر الجزائري. كما علق الشيخ عبد الحميد بن باديس في بداية حياته السياسية آمالا في التعاون مع الإدارة الفرنسية لما يخدم الجزائريين المحرومين. لهذا حرص - فيما يبدو من النصوص - على التودد لفرنسا كي تمنحه فرصة الاتصال بالشعب الجزائري كما نرى في العدد الأول من جريدة (المنتقد) أو العدد الأول من (الشرعية) وهو ما أعاده أيضا في العدد الأول من (البصائر) في سلسلتها الأولى. 14 كان التودد عند رئيس جمعية العلماء إلا مراوغة منه، وهذا من أجل استمالة الإدارة، لكن سذاجته أملت عليه استعمال لفظ «الأمة»، والأمة طبعاً هو اعتراف ضمني بمقومات الشعب الجزائري، هذه المقومات التي ستفرض نفسها ذات يوم للمطالبة بالانفصال والاستقلال.

وكما كان متوقعا عمل العلماء والنواب جنبا إلى جنب من أجل إنجاح المؤتمر الإسلامي في شكله ومضمونه، وتشكلت لهذه الغاية النبيلة لجنة من الشخصيات الهامة المعروفة داخل القطاع القسنطيني تحضيراً للمناسبة. وفي يوم 16 ماي 1936 أصدر نداء إلى كافة الجزائريين يدعوهم إلى الوحدة، والعمل، والتسامح حتى تنجح المبادرة. 15 وذكر

الشيخ محمد خير الدين في مذكراته الكيفية المنظمة التي تأسس بموجبها المؤتمر الإسلامي في الجزائر العاصمة، وكيف خاض من مثله في جميع المسائل التي عرضت على المؤتمر، وكيف اتفق الجميع على نظام المؤتمر، ومكتبه، وخطبائه، كما أشار إلى الاتفاق الإجمالي الذي وقع حول إسناد رئاسة المؤتمر إلى ابن جلول، والنيابة للشيخ عبد الحميد بن باديس، وكذا تأليف المكتب من النواب، والعلماء، والشباب.16 ونسجل هنا أن المؤتمر الإسلامي الأول لقي معارضة من دعاة الإدماج القدماء، والذين استثناهم المؤتمر لمواقفهم المعروفة. وللتشويش على المؤتمر اتهموا العلماء ونواب فيدرالية المنتخبين المسلمين بمحاولتهم جلب التيار الإصلاحي المنتشر في المشرق العربي.17 أما زعيم حركة «النجم» مصالي الحاج فبرر عدم التحاقه بالمؤتمر بسبب تواجده في سويسرا آنذاك، مما استحال عليه الاطلاع على مطالب المؤتمر السياسية، لكنه أرسل برقية أيد فيها المؤتمر، وقدم مساندته لكل المطالب التي بإمكانها تحسين وضع الشعب الجزائري المسلم، كما لم ينس رفضه للتمثيل النيابي النسبي للجزائريين.18

انعقدت جلسات تحضيرية للمؤتمر في ظروف حسنة يوم 6 جوان 1936 بالجزائر العاصمة، وفي يوم 7 جوان بقاعة الماجستيك، افتتحت الأشغال بصفة رسمية عل الساعة التاسعة صباحا. وكانت رسالة العلماء واضحة بعد أن أثنى الجميع على المطالب المتبنية، وعلى أهمية المؤتمر، واتفق الجميع وبحذر على تطبيق الاندماج دون الموافقة على برنامج فيوليت.19 ومن خطباء جمعية العلماء المتدخلين الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، ولامين العمودي. وفي المساء عين المؤتمر أعضاء الوفد المكلف بحمل المطالب المتفق عليها إلى سلطات باريس. كما عينت لجنة مكونة من 66 عضوا كجهاز تنفيذي مسير للمؤتمر خلال شهر جويلية، وتمثل مهمتها في طبع مطالب المؤتمر باللغتين العربية والفرنسية، والقيام بجولات عبر التراب الوطني لتأسيس لجان محلية، وتعريف الشعب الجزائري بالمؤتمر وقراراته. حاول العلماء، والنواب المسلمون، والشيوعيون إعطاء صبغة وطنية للمؤتمر بكل الأبعاد، وتوحيد جميع القوى السياسية الممثلة للمجتمع الجزائري باستثناء «النجم» طبعا. وبعد وصول وفد المؤتمر المكون من 18 عضوا يوم 19 جويلية 1936 إلى فرنسا بواسطة الباخرة «تمقاد» حمل المطالب التالية للسلطات الفرنسية:

- إلغاء القوانين العنصرية المطبقة على الجزائريين.

- ربط الجزائر بفرنسا مع احتفاظ المسلمين المتجنسين بالشخصية الإسلامية.

- تحسين وضع الجزائريين الإداري والقانوني.

كما تبني المؤتمر مطالب تعلقت بحرية التعليم، والصحافة، والصحة، والأجور، واستغلال الأراضي، وتوزيع ما هو غير مستغل منها على الفلاحين الجزائريين. ولم تنس مطالب الوفد العفو على من سجنوا خلال أحداث أوت 1934، وتسوية عدد المقاعد المخصصة للمسلمين والمعمرين بما فيها الانتخابات المحلية والبرلمانية، مع ضمان الحرية النقابية، وحرية السفر إلى فرنسا والخارج.20

وأثناء تواجد وفد المؤتمر في العاصمة الفرنسية، حدثت اتصالات بين العلماء، وبعض المناضلين من «النجم» في حضور بعض النواب من بينهم فرحات عباس، وفي غياب طبعاً ابن جلول الذي يمقت هذه الحركة وزعيمها بحكم انتمائهم إلى الشيوعية حسب اعتقاده. ومن نتائج الاتصالات المتكررة التي جرت بالنزل الكبير الباريسي، هو أنها أحدثت شرخاً في تلك العلاقة الفتية بين العلماء والنواب بعد عودة الوفد إلى الجزائر. وعن فحوى ومضمون هذه اللقاءات فإنها تطرقت بشكل عام إلى كيفية إقناع جمعية العلماء بعدولها عن تبني مشروع «بلوم-فيوليت» الذي يكرس الاندماج النسبي، وعزل العلماء عن جماعة النواب، وبالأخص إبعاد ابن باديس عن الدكتور محمد الصالح بن جلول. فحسب ظنهم لم تكن سياسة الإلحاق سياسة ثورية قادرة على مقاومة الاحتلال، وتحقيق الاستقلال، لهذا شوشوا على خطاب ابن جلول الذي ألقاه في نادي «فوبورغ» بباريس.21 ونظراً لشخصية ابن جلول المتميزة بعدم الرد على المعارضين لسياسته سواء كانوا من النجم أو من الشخصيات الجزائرية أمثال مالك بن نبي الذي شهد له بذلك لما حاوره في مقر إقامة الوفد. أما مصالي الحاج فاتقى بابن جلول مصادفة بباريس، وعاتب زعيم «فيدرالية المنتخبين المسلمين لعمالة قسنطينة» على المطالب غير الكافية، وتحمس أمامه لفكرة الوطن والدولة الجزائرية، فرد عليه ابن جلول أن الوطنية هي تأمين الرغيف في المعدة أولاً.22

ومن خلال حديث الرجلين تتضح رؤية كل منهما إلى الأمور السياسية المتعلقة بالاستعمار والجزائريين، لكن الملاحظ في كل هذا هو نزعة الزعامة التي نالت منهما، خاصة مصالي الحاج لطبيعة الفترة حيث كان يسعى وراء مجد ممكن بحكم أفكاره الثورية، وظروف إقامته في المهجر، أي في أجواء باريسية أين الحرية والديمقراطية، وهو الشيء المفقود بالنسبة

للعلماء، ونواب فيدرالية المنتخبين المسلمين بحكم النضال داخل الجزائر، أين السلطة المتسلطة للإدارة الاستعمارية، واللوبي الكولونيالي الرافض للتغيير.

ويضاف إلى هذا التباعد والتفرقة بين تيارات الحركة الوطنية، هو معارضة المعمرين الذين أقاموا الدنيا لما انعقد المؤتمر الإسلامي، وعملوا المستحيل للقضاء عليه، ولما نفذوا خطتهم الدنيئة، وقتل مفتي الجزائر، وسجن من العلماء كل من الطيب العقبي بتهمة التحريض على القتل، وعباس التركي بتهمة الرد على رسالة وجهها المغتال إلى الحكومة الفرنسية للنيل من المؤتمر. 24 وكما كان متوقعا سقط المؤتمر في الفتور بعد رجوع الوفد الممثل له فارغ اليدين من سفريته، باستثناء الوعود الكاذبة للسلطات الفرنسية. كما كان الاجتماع الكبير المنعقد في الملعب البلدي بالعاصمة يوم 2 أوت 1936 فرصة لأضداد النواب، والعلماء للبروز إلى الواجهة على حساب مجهودات غيرهم، وبأقل التكاليف. ومن بين هؤلاء مصالي الحاج الباحث على شعبية ابن جلول، والذي طاب له المقام بعد تصدع المؤتمر، وراح يؤسس مع أتباعه فروعاً جديدة لحركتهم، وفي قسنطينة بالذات زادت عن ثلاثين فرعاً، ثم تقرب من العلماء، وانتظر فرصة أخرى للإطاحة بالحركة الاندماجية.

إنّ خوف ابن جلول من أي تقارب قد يحدث بين العلماء، وأتباع مصالي الحاج في باريس كان منطقياً، وهو ما حدث فعلاً باستثناء الطيب العقبي الذي قاسم ابن جلول طرحه الاندماجي، وكان من المتمسكين علانية ببرنامج بلوم-فيوليت. 23 وهذا ما شكل فعلاً أصل الخلاف الذي كان بين العقبي وبين الشيخ ابن باديس، وازدادت العلاقة بينهما سوء بعد حادثة مقتل مفتي الجزائر الشيخ كحول من طرف عكاشة وعصابته. دافع ابن جلول على الطيب العقبي لأنه واحد من المقربين إليه، ولأنه عارض معه تدخل مصالي الحاج يوم 2 أوت، وأقر أمامه أن الجزائريين فرنسيين. 25 كانت شكوك رئيس فيدرالية النواب الدكتور ابن جلول في البداية موجهة للعلماء حول مقتل المفتي، حتى أن ظنونه كانت حول صدام محتمل قد يحدث بينهم وبين الطريقيين مما قد يؤدي إلى حرب دينية. 26 ومما أزم العلاقة أكثر بين ابن جلول، والعلماء ما نقلته الجريدة الفرنسية (Marseille Matin) يوم 12 أوت 1936 حيث فند رئيس فيدرالية المنتخبين علاقته بجمعية العلماء، واعتبر أن أيديهم مخضبة بالدماء. 27 وكلفه هذا التصريح استنكار العلماء في جريدة الدفاع (La Défense)، ومجلة الشهاب التي اعترفت أن رئاسته للمؤتمر كانت محترمة ومعترف بها من قبل الجميع،

لكنه أثناء ذلك كان يرى نفوذ جمعية العلماء في ازدياد، وكان يخاف أن تدور دائرة الضوء يوما من الأيام على زعامته فتخرجها إلى الهاوية. 28 ورغم الانتقادات الموجهة إليه حافظ ابن جلول على طبيعة علاقته بالعلماء، وأرسل من باريس برقية تهنئة للطبيب العقبي، وعباس التركي بعد خروجهما من السجن يوم 15 أوت 1936.

ومن منطلق سرعة الأحداث، يمكن القول أن الحبل الذي جمع العلماء بفيدرالية المنتخبين انقطع إلى الأبد، وازداد الشرخ عندما نقلت جريدة الأمة تصريحاً آخر لابن جلول في الجريدة الفرنسية (La Brèche)، ذكر فيه وبلمحة شديدة أن الجسور قطعت يوم 2 أوت 1936، وأنه وأتباعه سيلاحقون كل من هو غير فرنسي. 30 هكذا تراجع دور العلماء، والنواب معا بعد مقتل المفتي، وأصبحت الساحة السياسية فارغة للنجم بتكثيف مصالي الحاج نشاطاته بعد الحادثة. وطاب له المقام في الجزائر بدوراته الميدانية لعدة مدن جزائرية، واستغل اللفتور السياسي داخل الجزائر لصالحه، واكتسب قاعدة جديدة من المناضلين جدد. كما حاول جلب العلماء إلى صفه بتصريحاته خاصة لما ذكر في يوم 27 نوفمبر 1936 بالمهجر أنه ليس مثل ابن جلول الذي أراد منع العلماء من ممارسة السياسة، فالعلماء أحراراً في ممارستها. 31 ومرة أخرى أخطأ العلماء لما تعاونوا مع الشيوعيين، فبعد خروج ابن جلول ونواب فيدراليته من المؤتمر أصبحوا لا يتحكمون في الأمور نتيجة سيطرة الحزب الشيوعي على المؤتمر الإسلامي الثاني الذي انعقد في جويلية 1937، ورغم وجودهم القوي، عجزوا على إنجاحه لنقص كفاءتهم السياسية، أما النواب الذين انساقوا وراء فرحات عباس، لم يعجبهم هيمنة الحزب الشيوعي، فساهموا هم أيضاً في إضعافه بتقاعسهم.

وقد بينت الظروف الصعبة مما ذكرناه أن العلاقة بين العلماء والنواب فرضتها المصلحة الضيقة الآنية، فكل منهما انتظر دعماً معنوياً من الآخر للخروج ظافراً من اللعبة السياسية. فالنواب رؤوا في العلماء الجانب الروحي الذي يمكنهم استغلاله لمآرب سياسية خاصة القدرة على جمع الجماهير وتعبئتها. أما العلماء فقد رؤوا في النواب سند قوي لهم بحكم مراكزهم النيابية، وقدرتهم على إيصال صوت الجمعية إلى الإدارة والسلطة الفرنسية. كما كان ابن باديس يستشير رئيس النواب في الأمور السياسية في كثير من المسائل الخاصة بجمعية العلماء. لكن المكائد والدسائس بينت هشاشة العلاقة التي جمعتهم من جهة، وأظهرت أن أطرافاً أخرى كانت تترصد لهذه العلاقة، وتعمل في الخفاء من أجل تشتيت الرابطة بين

العلماء والنواب. وفي الوقت نفسه لعبت إدارة شؤون الأهالي دورها في حبك خيوط الجريمة بتفاني حتى تمكنت مع المعمرين من ربح المعركة، ونالوا بخططهم المدروسة من التيارات السياسية الجزائرية في ظرف وجيز دون أن يتنبأ أحد إلى أن الصراع الحقيقي هو بين الإدارة الاستعمارية وأذنانها من المعمرين، والبعض من المحظوظين الذين باعوا ضمائرهم من أجل تحقيق مصالحهم، وبين الجزائريين رغم ما يحملوه من أفكار وتوجهات سياسية.

### الإحالات:

1- Gilbert Meynier, Histoire Intérieure du FLN(1954-1962), Casbah édition, Alger, 2003, p.53.

2- أنيسة بركات، الحركات السياسية خلال سنة 1936 في الجزائر، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، العدد9، الجزائر، 1980، ص.50. وأنظر أيضا: رابح التركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.65.

3- A.W.C, Note sur Les Réformes Désirée par La Fédération Des Élus Indigènes du Département de Constantine, 17 Avril 1937.

4- Claude Collot, Henry-Jean Robert, Le Mouvement National Algérien: Textes(1912-1954), 2ème éditions, O.P.U, Alger, 1981, p.40.

5- Ibid.

6- محمد بكار، محمد الصالح بن جلول(1893-1985)، رائد الحركة المطالبة في الجزائر، ط1، دار الأصول للطباعة والنشر، الجزائر، 2009، ص ص: 46-38.

7- Mohammed El-Aziz Kessous, La Vérité Sur le Malaise Algérien, Préface du Docteur Bendjelloul, Propriété de l'Auteur, Bône, 1935, p.85.

8- Charles-Robert Agéron, Histoire de l'Algérie Contemporaine (de l'Insurrection de 1871 au Déclenchement de La Guerre de Libération 1954), 1<sup>ère</sup> édition, Tome I, Presse Universitaire, Paris, 1979, p.426.

9- Mahfoud Kaddache, Histoire du Nationalisme Algérien, Question Nationale et Politique Algérienne (1919-1951), Tome I, 2<sup>ème</sup> éditions, Entreprise Nationale du Livre, Alger, 1993, p.316.

10- محمد خير الدين، مذكرات، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر بدون تاريخ، ص.285.

11- Claude Collot, Henry-Jean Robert, Le Mouvement National Algérien, op.cit, p.64.

12- Mohamed Medjaoud, L'Action Réformiste de l'Association des Oulémas Musulmans Algériens (1920-1940), Thèse de doctorat, Université Paul Valéry, Montpellier III, Année 1991-1992, p.234.

13- ابراهيم مهديد، الحركة الوطنية الجزائرية في القطاع الوهراني خلال عقد الثلاثينات (النهضة والصراع السياسي)، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تحت إشراف الدكتور الصم المنور، جامعة وهران، جوان 1986، ص ص: 122-228. وأيضا:

Charles-Robert Agéron, Histoire de l'Algérie Contemporaine, op.cit, p.437.

14- عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام..وقضايا..ومواقف)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص.153.

15- محمد بكار، محمد الصالح بن جلول (1893-1985)، رائد الحركة المطالبة في الجزائر، المرجع السابق، ص.76.

16- محمد خير الدين، مذكرات، المرجع السابق، ص.331.

17- نفسه، ص.330.

18- Renaud De Roch Brune, Les Mémoires de Messali Hadj (1898-1938), préface de Ahmed Ben Bella, Post faces de Charles-André Julien, Charles-Robert Agéron, Mohammed Harbi, édition Jean Claude Lattes, Paris, 1982, p.214.

- 19- محمد بكار، المرجع السابق، ص.78.
- 20- محمد بكار، نفسه، ص ص:79-78.
- 21- عبد الحميد زوزو، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (-1919 1939)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص ص:140-138.
- 22- Habiba Zerkine, The Fédération of Élected Muslims of the Département of Constantine, Thèses doctorat N° 5472, Vol:II, Université de Washington, 22 May 1994, p.316.
- 23- A.W.O, Problèmes Nord Africain, 2<sup>ème</sup> éditions, Carton N° 4481.
- 24- Mohamed Medjaoud, op.cit, pp:247-248.
- 25- Habiba Zerkine, op.cit, p.322.
- 26- أحمد مريوش، الشيخ العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف الدكتور أبو القاسم سعد الله، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، بوزريعة: 1991-1992، ص.233.
- 27- البصائر، السنة الأولى، العدد33، 4 سبتمبر 1936.
- 28- مجلة الشهاب، م12، ج8، نوفمبر 1936.
- 29- أحمد مريوش، المرجع السابق، ص.359.
- 30- جريدة الأمة، العدد 87، السنة الثانية، 25 أوت 1936.
- 31- Renaud De Roch Brune, op.cit, p.237.



## الأوضاع الصحية والكوارث الطبيعية في الجزائر عشية الاحتلال

د/ توفيق دحماني - قسم التاريخ - جامعة الجزائر

يسعدني أن أشارك اليوم، في هذا الملتقى، بمدخلة في أحد محاور الموضوع المذكور أعلاه. وأبدأ مدخلتي بالقول: لا بد أن أثنى في البداية، بحسن اختيار المنظمين للملتقى، الذي طرحوه للبحث، والمتعلق بـ: «الوضع الصحي في الجزائر خلال الاحتلال».

إن طرح هكذا مواضيع للبحث في ملتقى وطني، تبدو جديدة، وتدل على رغبة جلية من منظميه على الاعتناء بماضي البلاد، وبمستقبلها أيضا، لأن البحث في الماضي وحده غير ذي نفع، ما لم يكن ذلك بهدف الاستفادة من دراسة ذلك الماضي في المستقبل. وهو ما يبدو أن المنظمين قد عملوا به، وهم يطرحون موضوع الملتقى للبحث.

وإذا كانت كل المحاور المقترحة مهمة، وجديرة بالبحث، فإن المحور المتعلق بـ: «الوضع الصحي في الجزائر قبل الاحتلال»، هو الذي ارتأيت أن أطرقه، بما تيسر لي من وقت قصير إلى تاريخ الصحة.

وقد أردت أن أطرق هذا الموضوع وفق منهج تركيبي تحليلي ونقدا؛ ذلك أنني وفي إعدادي لهذه المدخلة عدت إلى المصادر المحلية، فلم أجد ما يشفي غليلي. ثم طرقت باب الأرشيف، فلم أجد الشيء الكثير؛ ذلك أنه سواء الوثائق المحفوظة في الأرشيف الوطني للجزائر (بئر خادم)، أو مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية لا تطرق هذا الباب، ولا تتعرض إلى الأوضاع الصحية، إلا على شكل إشارات وتلميحات بسيطة. كل هذا حتم علي العودة إلى ما كتبه الفرنسيون، رغم ما فيه من تحامل كبير على الجزائر في العهد العثماني.<sup>(1)</sup> وكل هذا بهدف تبرير الفرنسيين لاحتلالهم البلاد الجزائرية، وكذا الادعاء بنشر الفكرة المعروفة القائلة: نشر الحضارة، ورسالة الرجل الأوروبي الأبيض وغيرها.

فالمراجع الفرنسية، ومن أخذ عنها تصف الجزائر العثمانية، بأنها شهدت تقهقرا اقتصاديا واضمحلالا اجتماعيا، واكمه سوء الأحوال الصحية والمعاشية خلال القرنين الرابع عشر، والخامس عشر، بعد الحروب الطويلة وما نجم عنها من خراب للمدن والعمران. وفي هذا

الصدد قال ناصر الدين سعيدوني عن بعض المدن: «أصبحت دلس وهنين مجرد خرائب».<sup>(2)</sup> وأن العثمانيين عند مجيئهم وجدوا العديد من الأمراض المتجذرة.<sup>(3)</sup>

ويذكر الكثير من الفرنسيين أن: هذه الأرض كانت محرومة، وكان سكانها متجمعين ومكدسين فوق بعضهم البعض إلى حد كبير، ويتضورون جوعا، والبلاد مخربة، وتعج بالأوبئة والجوائح المفزعة والمهولة. والجزائر كانت تدفع ضريبة فادحة من شتى الأمراض المعدية. التاريخ ممتلئ بالأمثلة والنماذج المؤلمة والحزينة في تلك الفترات البائسة، ألم كان يحل بغتة ويشكل فجائي، ومقدار حدته كان مرعبا وفظيعا ومخيفا.

ثم يضيفون بأن العثمانيين، كانوا يستخفون بالأخطار، ويستهترون بها. أما فرنسا فأرض المؤسسات السخية المعطاءة، والأفكار المؤثرة المحبة للغير، سكبت على الأرض الإفريقية جزءا من طاقتها وعزمها؟! <sup>(4)</sup>

ويذكر أن الجزائر في العهد العثماني ما لبثت أن تحسنت أوضاعها طيلة القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، بعد قدوم الأندلسيين الموريسكيين، واستقرارهم في الجهات الساحلية، لاستصلاح الأراضي وتعمير المدن والقرى. فتوسع عمران مدن: الجزائر، ودلس، وتنس، وشرشال، والقليلة، والبليدة، والمدية، ومليانة، وعنابة، وقسنطينة، ووهران، وتلمسان، ومستغانم، وقلعة بني راشد، ومازونة، وزمورة، وغيرها. وانتشرت إلى القرى والعمارة الريفية القريبة منها.<sup>(5)</sup>

ولم يطل هذا التحسن كثيرا، إذ عرفت البلاد ركودا اقتصاديا وانكماشا عمرانيا، طيلة النصف الثاني من القرن السابع عشر، والنصف الأول من القرن الثامن عشر. وبعد ذلك ساءت الأوضاع الاقتصادية، وأقفرت الأرياف والمدن من سكانها، وتكاثرت الأمراض والأوبئة الفتاكة، مما أثر سلبا على حالة السكان الصحية والمعاشية، وترك أثارا سيئة على الأوضاع الاجتماعية.<sup>(6)</sup>

وابتداء من أواخر القرن الثامن عشر، تضائل عدد سكان المدن، وتناقص سكان الأرياف. مما تسبب في ضعف قوة الأوجاق<sup>(7)</sup> وأدى هذا الوضع إلى تناقص عدد التجار، وقدرة الحرفيين والصناع، وافتقار الأرياف إلى اليد العاملة الزراعية.

والظاهر أن ذلك التدهور يرجع إلى انتقال العدوى، وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة، بسبب صلة الجزائر ببلدان البحر الأبيض المتوسط، وانفتاحها على أقاليم

السودان، وعلاقتها التجارية مع أوروبا، ارتباطها الروحي بالشرق الإسلامي.<sup>(8)</sup> وما ساعد على انتشار هذه الأمراض واستيطانها في البلاد أيضا، وجود المستنقعات بالسهول الساحلية، وحول المدن الكبرى.

ويذكر «مارشيك» (*Marchika*) أن الحروب، والقوافل التجارية، والحجاج، وكل أسباب تنقل السكان، كانت تنشر الأمراض، وتزيد من ظهورها ودوامها بشكل مستمر. كما أن تهاون الحكومات وعدم اكتراثها إزاء الطاعون، غالبا ما كان يظهر للعيان. ولم تكن سلطات الإيالة تعتمد ترتيب صحي، عدا عن السفن والبضائع والمسافرين المصابين بأعراض الحساسية والتلوث العدوي. أما باقي المدن العربية، فلا يمكن تخيل مدى قذارتها! ولم تكن سلطات الإيالة تعتمد ترتيب صحي، عدا عن السفن والبضائع والمسافرين المصابين بأعراض الحساسية والتلوث العدوي. أما باقي المدن العربية فلا يمكن تخيل مدى قذارتها.<sup>(9)</sup>

وبالرجوع إلى المعلومات التي أوردتها بعض المصادر، نستنتج أن الأدوية والعقاقير المحضرة، كانت غير متوفرة، وحتى الصيدلية الوحيدة في مدينة الجزائر، كانت لا تتوفر إلا على بعض العقاقير والحشائش. وكان الباش جراح «القائم» علما يجهل مواصفاتها وفوائدها الطبية.<sup>(10)</sup>

#### 1- وباء الطاعون:

شكل وباء الطاعون، أخطر مرض عانى منه الجزائريون خلال العهد العثماني، وتعرضت إلى ضرباته الحادة، كل العناصر الأجنبية المقيمة في البلاد. فقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة، مع الأوبئة المستوطنة بالمنطقة، وتسببت في انهيار ديموغرافي، وأدت إلى تدهور الوضع الصحي، الذي أثر بدوره سلبا، على اقتصاديات البلاد، تاركا تشوهات خطيرة في البيئة الاجتماعية.<sup>(11)</sup>

ولقد أثر وباء الطاعون على الأوضاع الصحية في الجزائر العثمانية، وارتبط بالعوامل الأخرى، التي أثرت على الوضع الصحي للسكان مثل: الاضطرابات الجوية، والتذبذبات المناخية، وفترات الجفاف والفيضانات، بالإضافة إلى اجتياح الجراد، وما نتج عن الزلازل والحرائق، وما ترتب عن كل ذلك من تخريب وتدمير.<sup>(12)</sup>

ومما زاد الأحوال الصحية سوءا أن الحكام العثمانيين، لم يهتموا بميدان الصحة، ولم يعطوها الأهمية التي تستحقها؛ فمن ذلك أنهم ولم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد تنامي هذه

أما أماكن العلاج فكانت محصورة حول بعض المصحات والملاجئ مثل: زنقة الهواء، وملجأ الأمراض العقلية المخصص للعثمانيين، بالإضافة إلى مارستانات رجال الدين المسحيين، التي كانت تنفق عليها الدول الأوروبية.<sup>(14)</sup>

وما يمكن ملاحظته أن الأوبئة، كانت تتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما، وأنها في بعض الأحيان استمرت لبضع سنوات كما حدث خلال أعوام: 1784-1798.<sup>(15)</sup> وأدى وباء عامي 1792-1798، بالإضرار بجميع جهات البلاد.

كما اشتدت حدة الأمراض، وعمت جميع أرجاء البلاد بين سنتي: 1804 إلى 1808. ويذكر أنه وقعت جائحة أو وباء سنة 1816 واستمرت حتى سنة 1822 حيث انتشرت في كل أرجاء إفريقيا الشمالية؛ من طرابلس حتى مراكش، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصحراء. كانت قاتلة، وبقيت خالدة في الذاكرة الشعبية للسكان.<sup>(16)</sup>

ففي سنة 1817 في مدينة الجزائر لوحدها، تسبب الوباء في قتل 2048 ضحية خلال شهر واحد فقط، وكان يؤدي بحياة حوالي 150 ضحية في اليوم في بعض الأحيان. وفي سنة 1818 وصل مجموع عدد الموتى إلى 7951. وفي سنة 1819 مات خلال ثمانية أشهر 2927. وفي سنة 1822 سنة أفول الوباء وصل عدد القتلى 2272 أيضا.<sup>(17)</sup>

وبين سنتي 1817-1818 انتشر الوباء في الجزائر، وقضى على أكثر من 14000.<sup>(18)</sup> وهكذا أصبح وباء الطاعون من مظاهر البيئة في الجزائر، وتكرر ظهوره باستمرار.<sup>(19)</sup> وقد كان مرتبطا بحركة الأسطول الجزائري، واحتكاكه الدائم بموانئ المشرق، التي كانت مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون، حتى عدت الجزائر من مراكزه الدائمة وبيئاته المفضلة. وهذا ما عبر عنه «بنزاك» «Panzac» بقوله: «وباء الطاعون من الظواهر المستمرة والدائمة في الجزائر العثمانية».<sup>(20)</sup>

ولقد أصبحت عدوى الطاعون، تنتقل بسرعة في جميع جهات البلاد، ومسافة انتشاره قدرت بحوالي 200 إلى 400 كلم سنويا. وقد يستغرق انتقالها أحيانا أسابيع قليلة، لاجتياح منطقة ما، تبعا لشدته، وللكتافة السكانية في المنطقة التي تتعرض له.<sup>(21)</sup> وقد تكرر وباء الطاعون، وبلغ حدا كبيرا، ففي مدينة الجزائر توزع في الفترة المدروسة،

كما يلي:

- بين سنتي: 1778-1804، انتشر في جميع الجهات، وكان شديد الوطأة على السكان.
  - وبين سنتي: 1805-1815، زاد في حدته، حدوث المجاعات، التي تعتبر أثارها الديموغرافية، أخطر من بعض الحروب.
- ولقد كانت أوبئة القرنين السابع عشر والثامن عشر، أكثر حدة وشدة من تلك التي اجتاحت الجزائر أثناء القرن السادس عشر. إذ تشير العديد من التقارير العسكرية والمراسلات القنصلية، إلى استمرار «الوباء الفتاك»، أو «الوباء الخطير جدا».<sup>(22)</sup> لفترات متعاقبة تناهز الواحدة منها 15 إلى 20 سنة، وتعقبها عادة فترة خمود لا تتجاوز الست سنوات.<sup>(23)</sup>

#### ب- الكوارث الطبيعية:

##### ١- الزلازل:

لقد رافق اشتداد الطاعون وانتشاره بالقطر الجزائري خلال العهد العثماني، سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة، والتي تسببت في تخریب بعض المدن وتحطيمها. وأسفر عنها في أحيان كثيرة خسائر في الأرواح والممتلكات.<sup>(24)</sup>

ولقد تعرضت السواحل الجزائرية إلى عدة زلازل عنيفة وقوية، خلفت عددا من القتلى، وخسائر جسيمة، ومن أهمها.

- 1- زلزال 1790: حدث هذا الزلزال بوهران، وكان ذا فائدة جليلة على الجيش الجزائري، الذي كان يحاصر المدينة، تمهيدا لاسترجاعها من أيدي الإسبان.<sup>(25)</sup>
- 2- زلازل 1818 و 1825: تكررت الزلازل في الجزائر، بحيث عمت أغلب المدن الساحلية والمناطق القريبة من مدينة الجزائر. ومنها الزلزال، الذي ضرب الأطلس البليدي، وأدى إلى هدم الدور والمساكن، وخراب مدينة البليدة،<sup>(26)</sup> والذي استمرت هزاته الارتدادية من 2 إلى 6 ماي 1825 وأدت إلى هلاك أكثر من 7000 قتيل.<sup>(27)</sup>

وقد تركت هذه الكوارث الطبيعية، نتائج سلبية على الوضع الديموغرافي للبلاد، وعلى الحالة الصحية. كما أثرت في نفسية السكان، وأدت بهم إلى النقمة على الحكام، والثورة عليهم، محملين إياهم سبب البلاوي والمأساة.

## ٢- الفيضانات والحرائق:

اعتبرت الفيضانات والحرائق، من أهم الآفات والكوارث، التي أضرت بالجزائر خلال العهد العثماني، بحيث تسببت في حدوث مجاعات، واختفاء الأقوات، وموت الكثير من السكان.

وقد اعتاد الناس حدوث المجاعات إثر سنوات القحط والجفاف، وفي أعقاب زحف الجراد. الأمر الذي كان يؤدي إلى انتشار الأمراض وتكاثر الأوبئة.

ومن الفيضانات التي عرفتها الجزائر في أواخر العهد العثماني، تلك التي تميزت بفداحة خطرهما وذلك خلال سنوات: 1791، 1812، 1816.<sup>(28)</sup>

ونتيجة لهذا تضررت أوضاع الجزائر الاقتصادية. ومما زاد الطين بلة سوء تصرف بعض الحكام، وانعدام الأمن، وشيوع الاضطراب، الذي ارتبط بظهور الأمراض الفتاكة، والحوادث الطبيعية المدمرة. الأمر الذي أدى إلى تشتت كثير من سكان الجزائر وهلاكهم، واشتداد الضائقة الاقتصادية، بفعل غلاء الأسعار، وشح الأقوات، وإتلاف المزروعات.<sup>(29)</sup> وبذلك تناقص عدد سكان، وبقيت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة، وتحول جزء من هذه الملكيات إلى مؤسسة الأوقاف.<sup>(30)</sup>

## ٣- الجراد والجفاف:

عرفت الجزائر آفات أخرى، إضافة إلى الزلازل والفيضانات، تمثلت في غزو الجراد،<sup>(31)</sup> وانتشار الجفاف.<sup>(32)</sup> مما أضّر بالجزائر اجتماعيا واقتصاديا وصحيا، وتسبب في اختفاء الأقوات، وهلاك كثير من السكان.

## ٤- المجاعات:

ذكر عبد الرحمن الجيلالي أن: الجزائر ما كادت تنتهي وتستريح من ويلات الحرب المحزنة، حتى فاجأها الجذب والقحط بكامل البلاد، وأصبحت تعاني من أزمة مجاعة حادة وخائفة، ارتفعت فيها الأسعار، وغلا المعاش غلاء فاحشا، حتى بلغ يومئذ سعر الصاع الجزائري؛ وهو وزن 34 كيلوغرام تقريبا من البر. فمات الناس جوعا، واستمر الحال على ذلك بضع سنين. وكان محمد الكبير باي وهران، يأتي بالقمح من بلاد أوربا، ويوزعه على الأهالي مجانا، وأعطى المزارعين والفلاحين من دفع الضرائب والخراج عن أراضيهم.<sup>(33)</sup>

وقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني عدة مجاعات، كان أثرها وخيما على الوضع

الاقتصادي والاجتماعي والصحي للبلاد. ويمكن الإشارة إلى مجاعة 1794 التي اتسمت فيها الأوضاع بالتردي، والفوضى، وغلاء الأسعار، وغياب الأقوات.<sup>(34)</sup> وفي بداية القرن الموالي، فقدت المواد الغذائية في الأسواق نتيجة المجاعة، وارتفعت الأسعار، حتى غدا القمح يباع بأثمان مرتفعة، وأنشد كثير من الناش يقولون:

القمح يابا هي اللون \*\* من شبعتك لا زيادة

أنت قوت كل مسكين \*\* بك الصلاة والعبادة.<sup>(35)</sup>

وبعد احتلال الجزائر من قبل الفرنسيين، الذين ادعوا نشر الحضارة في أوساط الجزائريين. وما يدل على ذلك نورد قول الماريشال «بيجو»، أن فتح الجزائر لن يكون مثمرا، ما لم يتم استعمارها. وأن المستعمر متقد دائما، وأقل فخرا من انتصاره في المعارك، إلا عند ارتكازه على بعض الأشياء المفيدة لفرنسا بالدوام:

«La conquête serait stérile sans la colonisation... Je serai donc: colonisateur ardent, car j'attache moins de gloire à vaincre dans les combats, qu'à fonder quelque chose d'utilement durable pour la France.»<sup>(36)</sup>

لكن رغم هذا الزعم، فإن له ما يدحضه، بدليل انتشار العديد من الأمراض في أوساط الجزائريين، ذكرت في الدراسات الفرنسية، ومن تلك الأمراض نذكر:

1- حمى المستنقعات (Paludisme): فحسب الكاتب الفرنسي «جان ترمسال»، فإن الأطباء الفرنسيين العسكريين، كانوا في حدود سنة 1830، منعزلين عن حمى المستنقعات، التي كانت من بين الأمراض المستوطنة المتجذرة (endémique). وفي سنة 1834، بدأت الأبحاث العيادية الإكلينيكية، وعلم المداواة والعلاج، تتم بعناية عن طريق: «التقماط»، أو بالالتفاف حول قماش، يجهز من قبل الأقارب، وبصيغ متعددة ومتقطعة، مستمرة ومتناوبة. ثم أنشئ دفتر خاص أو قائمة كينية (Quinine) لمعالجة التعفنات، والعدوى المستنقعية. وهذه الأعمال سجلت تاريخا مهما في تاريخ علاج حمى المستنقعات، واستحقت الجدارة والثناء عليها، وتكرست بعرفان وطني، ثبت في قانون 25 جوان 1888.<sup>(37)</sup>

2- الطاعون (La peste):

3- التيفوس الطفحي (Typhus exanthématique):

4- حمى التيفوس (fièvre typhoïde):

5- الكوليرا (*Le choléra*):

6- الزهري (*La syphilis*):

7- مرض السل (*La tuberculose*):

8- الحمىراجعة (*Fièvre récurrente*):

9- حمى البحر الأبيض المتوسط (*Fièvre méditerranéenne*):

10- الحصبة (*Rougeole*):

11- مرض (*KALA AZAR*): مرض ينتقل عن طريق الكلب، تعفن ناب ينقل بالبرغوث،

وهذا المرض كان نادرا في الجزائر.

12- دمل الشرق (*Bouton d'Orient*):

13- الرمد الحبيبي (*La trachome*):

14- خمول القرحة (*Chancre mou*):

15- الجدري (*La variole*): الذي تعود أصوله إلى إفريقيا.<sup>(38)</sup>

وأخيرا نختم مداخلتنا بالقول: إنه وفي غياب معطيات تاريخية مأخوذة من مصادر محلية جزائرية عربية، وكذا الوثائق الأرشيفية والمخطوطات، فإن نظرنا عن الأوضاع الصحية والمعاشية، والكوارث الطبيعية، تبقى نسبة ومشوهة طالما أنها مأخوذة من المراجع الأوروبية، والفرنسية بالذات، التي تحاملت على تاريخ الجزائر من كافة مناحي الحياة العامة، وما هذا الموضوع إلا جزء من كل، تعرض للتحريف والتزييف، بغية تحقيق المآرب الاستعمارية كما ذكرنا أعلاه.

وللتدليل على ذلك، أختتم مداخلي بما جاء في أحد المصادر؛ وهو كتاب: مذكرات أسير الداى، قنصل أمريكا في المغرب، لـ «جيمس ليندر كاثكارت»، الذي ذكر بأن الجزائريين كانوا يعالجون أنفسهم، بأن يلقوا بأجسامهم في البرك والمستنقعات، للمداواة بالعلق. فذكر أنه مرا يوما فوق حصانه، بأحد الأشخاص، وقد التصقت بجسده أزيد من ثمانين علقة.

ومن هنا جاءني التساؤل التالي، وبكل روح علمية نقدية، كيف بإنسان يمر على صهوة جواد بشخص مغمور بالماء، ويتمكن من إحصاء عدد العلقات الصغيرة المذكورة؟؟؟

كل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه أعلاه؛ من تحامل المصادر والمراجع الأوروبية على الجزائر في العهد العثماني، وإظهار شتى المساوئ التي ألصقوها بالعثمانيين وحكمهم للجزائر.<sup>(39)</sup>



وفي ظل عدم وجود مصادر تدحض كل ما ذهب إليه الفرنسيين، فإننا لا نملك إلا أن نذكر ما جاؤوا به، والأخذ به وتحفظ شديد، ولو أننا نعلم أن الشعب الجزائري المسلم كان في ظل الحكم العثماني يطبق ما جاء من تشريعات، وضعها الإسلام في مفهوم التربية الصحية، والاعتناء بالنظافة وغيرها.

#### هوامش:

<sup>1</sup> يذكر الكتاب الفرنسيين أن الجزائر كانت تعاني من الحروب والغزوات والنهب وهجمات البرابرة وإهمال الأتراك وتهاونهم. والفرنسيون، عند نزولهم في سيدي فرج يوم: 13 جوان 1830، ورثوا تركة كبيرة. وحسبهم أن كان كل شيء كان يسير في جهة تخريب ما بناه القدماء، وترك الفنون تتداعى حتى أشرفت على الانهيار وانتشار البؤس والشقاء، ولم يكن حظ السكان، إلا في جني محاصيل الحبوب التي تشعرهم بالسعادة.

وهذا ما جعل الحاكم العام الفرنسي للجزائر «ستيغ» (Th. Steeg) يقول بأن: «كل شيء عدا بعض المدن الممنوعة المدافع عنها كانت جيدة، إلا السوء ضد بلاد البربر، التي كانت متروكة للفوضى. اقتصاديا كان الجذب والقحط، وسياسيا الهرج والاضطراب». انظر / - Th. STEEG, ancien Gouverneur général de l'Algérie, 5<sup>e</sup> Conférence Nord-Africaine, Rabat, 4 Juillet 1928.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة، م.و.ك، ج2، الجزائر 1988: ج2، ص123.

<sup>3</sup> Dr JEAN TREMSAL, UN SIÈCLE DE MÉDECINE COLONIALE FRANÇAISE EN ALGÉRIE (1830-1929), 2eme Ed., IMPRIMERIE. ALOCCIO, 4, RUE ANNIB, Tunis, 1929, p7.

<sup>4</sup> عن هذه الأقوال وغيرها انظر /

- Dr JEAN TREMSAL, op.cit, p7.

<sup>5</sup> ناصر الدين سعيدوني: دراسات، مرجع سابق. وينظر كذلك / - مذكرات أحمد الشريف الزهار، نقيب الأشراف، نشر أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م، ص: 80.

<sup>6</sup> ناصر الدين سعيدوني: نفسه.

<sup>7</sup> أوجاق أو «الوجاق»: تعني باللغة العثمانية، موقع النار أو الموقد، وهو اسم تنظيمي

مستعار للجيش الإنكشاري العثماني.

<sup>8</sup> انتقلت إلى الجزائر مختلف الأمراض كالكوليرا «Le Cholera»، والتيفوس «La Typhus»، والجذري «La variolle»، والطاعون «La maladie à bubons».

<sup>9</sup> J. MAHCHILKA La peste en Afrique septentrionale. Histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830.

<sup>10</sup> ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق ص: 124.

<sup>11</sup> فلة القشاعي موساوي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 1 سنة، 2001، ص: 134.

<sup>12</sup> نفسه. ولمزيد من التفاصيل ينظر /

- Said BOUBAKER: «La Peste dans les pays du Maghreb attitudes face au fléau et impact sur les activités commerciales 16, 18ème siècles», In, Revue d'Histoire Maghrébine, 2ème année, n° 79-80, Mai, 1995.

- Fella El Kachai MOUSSAOUI: «Situation sanitaire et démographique du Beylik de Constantine 1791-1837», In, Les actes du 7ème symposium international d'études ottomanes sur la société et l'état dans le monde ottoman, publications fondation Témimi pour la recherche scientifique et l'information, Zaghuan, Tunisie, Septembre 1998.

<sup>13</sup> لم يفرض نظام الحجز الصحي لا على السفن ولا على الأشخاص، باستثناء محاولة صالح باي قسنطينة فرض حزام صحي حول عنابة ومنطقتها، ليمنع انتقال العدوى إلى مدينة قسنطينة عام 1787.

<sup>14</sup> ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص: 125.

<sup>15</sup> نفسه: ص: 126.

<sup>16</sup> J. MAHCHILKA, op.cit, p 310.

<sup>17</sup> Dr JEAN TREMSAL: op.cit, p 5.

<sup>18</sup> ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص: 127.

<sup>19</sup> فلة القشاعي موساوي: وباء الطاعون، مرجع سابق، ص: 136.

<sup>20</sup> «La peste est une constante de l'Algérie ottomane». Voir - Daniel Panzac:

La peste dans l'empire ottoman 1700-1850, Ed. Peters Leuven, 1985, p: 212.

<sup>21</sup> فلة القشاعي موساوي: مرجع سابق، ص: 138.

<sup>22</sup> تشير إلى ذلك التعبيرات الآتية: «نتج عن الوباء موت كثير حتى خلت المدن والقرى»؛ «قحط عظيم ووباء مفرط»؛ «وباء مات فيه خلق كثير»؛ «مجاعة قحطت الجزائر قحطا عظيما»؛ «وكان الوباء وقد اشتعلت ناره... وقت الضحى وصل مائة جنازة...»؛ «وباء هلك فيه من الناس حتى عجزوا عن دفن أموات لهم»؛ «خلت الدور وعمرت القبور»؛ «الطواعين المتتالية هي استمرار للطاعون الأعظم وهي أقل فتاكة منه...»؛ «وباء عظيم الحيوية الكبيرة أو القوية عام البروبو»؛ «خلال طاعون 1786 أخلت البلاد وأفنت العباد»؛ «القحط الشديد ومسغبة عامة»؛ «الوباء جعل الناس يأكلون بعضهم بعضا»؛ «عدد الموتى يزداد من يوم إلى آخر»؛ «أثناء الطاعون الجارف خلت الديار والمنازل»؛ «كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس». انظر / - فلة القشاعي موساوي: مرجع سابق ص: 136. - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص: 144 - 151. - مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص: 39.

<sup>23</sup> - BOUBAKER Said: op.cit, p: 323.

- Berbrugger: un mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552, jusqu'au 1819, In exploration scientifique de l'Algérie, Paris imp. Royale TII 1847.

<sup>24</sup> كزلزال مدينتي الجزائر والمدينة سنة 1632، والذي قالت بشأنه بعض الروايات أنه أهلك جل سكان مدينة الجزائر، وزلزال عام 1665 والذي صاحبه خسوف الشمس وتأثرت به حتى السواحل الأوربية بالإضافة إلى زلزال 1676 الذي دام عدة أشهر، وتسبب في الثورة ضد الداوي الذي نقم عليه الأهالي واتهموه بسوء الطالع. انظر / - ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص: 128.

<sup>25</sup> كان من الباشاوات الذين بذلوا جهودا في فتح وهران كل من حسن باشا (1563)، ومحمد قوصة (1606)، والباي إبراهيم (1687) وغيرهم. ولذلك تحمس الكتاب والشعراء، فألهبوا حماس الناس بأشعارهم. وفي العام 1707 حشد الباشا محمد بكداش جيشا، حرر فيه المدينتين التحرير الأول سنة 1708، واستبشر الناس وفرحوا. ولكن الإسبان احتلوها مرة أخرى لمدة 60 عاما أخرى، ثم عزمت الجزائر وصممت على إزالة الفرحة الإسبانية من جسمها؛ فحشد الباي محمد بن عثمان الكبير قوات عسكرية كبيرة وأجبر الإسبان على الجلاء عنهما بصفة نهائية عام 1792. انظر مثلا / - أحمد الشريف الزهار: مصدر سابق، ص: 155.

- A. Devoulx: "Quelques tempêtes à Alger", in, Revue Africaine. T5, Alger,

<sup>26</sup> أحمد الشريف الزهار: مصدر سابق، ص: 155.

<sup>27</sup> ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص: 129.

<sup>28</sup> نفسه.

<sup>29</sup> ناصر الدين سعيدوني: «فحص مدينة الجزائر»، في، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة، م. و. ك، 2 ج، الجزائر، 1988، ص: 143.

<sup>30</sup> ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، م. و. ك، الجزائر، 1984، ص: 71.

<sup>31</sup> كانت أكثر سنوات زحف الجراد، ضررا، خلال أعوام قبيل فترة الدراسة: 1760-1778-1779-1780. انظر المرجع نفسه.

<sup>32</sup> انتشر الجفاف في البلاد؛ سنوات: 1800، و 1807-1816-1819. انظر / - نفسه، ص: 130.

<sup>33</sup> تاريخ الجزائر العام، 3 ج، د.م. ج، الجزائر، 1982، ج 3، ص: 261.

<sup>34</sup> وقبيل ذلك نذكر: مجاعة: 1778-1779م، التي قيل عنها أن الناس كانوا يموتون بالمئات في شوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة. وكذلك الشأن بالنسبة لمجاعة 1787، و 1789م، التي كان من أسبابها الجراد مع الوباء. انظر / - أحمد الشريف الزهار: مصدر سابق، ص: 144. - محمد صالح العنثري: سنين القحط والمسغبة ببلاد قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2330.

<sup>35</sup> راجع / - مسلم بن عبد القادر: خاتمة أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات وال نوادر، أو تاريخ بايات وهران المتأخرين، تحقيق رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص: 64. وانظر كذلك - محمد صالح العنثري، المصدر نفسه، ص: 43.

<sup>36</sup> Alger, le 22 février 1841 Rapporté par DE BAUDICOUR, Histoire de la colonisation de l'Algérie, p. 59.

<sup>37</sup> Dr JEAN TREMSAL: op.cit, p 10-11.

<sup>38</sup> J. L. G. Guyon: Histoire chronologique des Epidémies du Nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours.

- J. MAHCHILKA op.cit.

- Dr JEAN TREMSAL: op.cit.

<sup>39</sup> انظر في ذلك / - جيمس ليندر كاثكارت: مذكرات أسير الداي - كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب-، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

## دور المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية (1954\_1962) المرأة العباسية نموذجا

أ/ كركب عبد الحق- جامعة سيدي بلعباس-

لقد تبنى الشعب الجزائري الجهاد الذي اكتسب أبعاد دينية وتاريخية، وقد حث عليه الإسلام وهذا بقوله تعالى: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»(1).

### أولا: التحاق المرأة الجزائرية بالثورة التحريرية

إن الإيمان بالثورة جاء من خلال جيش التحرير الوطني وهو ثوري وهذا يعني أنه يضم أغلبية ساحقة من الشبان الذين يدفعهم الإيمان وتربطهم أواصل الأخوة وهؤلاء الشبان لا تتجاوز أعمارهم خمس وعشرون سنة حملوا على عاتقهم الثورة واسم جبهة التحرير الوطني ويخرج منهم الضباط والقادة العسكريين، والمسؤولين من مئات المواطنين المجاهدين ونمس هذا الإيمان بالثورة في ما قاله أحد المجاهدين: «هل يحسب المستعمرون أن أولئك الذين صعدوا إلى الجبال سوف ينزلون منها دون أن يحصلوا على الاستقلال. ولو فرضنا أنه لم يبق بالجزائر إلا امرأة عمياء فإنها لن تتردد في حمل السلاح والكفاح من أجل وطنها ولو فرضنا أن هذه المرأة بدورها قد سقطت شهيدة الواجب فان الجزائر التي أبيد وطنها وأحرقت غاباتها سوف تثور حجارتها على المستعمر الطاغية»(2).

هذا وقد يعتبر الجهاد والإيمان بالقضية من الأسباب الرئيسة التي جعلت الشعب الجزائري يلتف بالثوار ويناصر الثورة ويساندها. ومن مميزات الثورة الجزائرية أنها شعبية شارك فيها الرجل والمرأة، الشاب والشابة، فإذا كان الرجل يتصف بالقوة والشجاعة فهذا لا يعني أنه خاض لوحده الثورة التحريرية، بل كانت المرأة دوما إلى جانبه(3) والسبابة إلى العمل والجهاد والتضحية والاستشهاد(4).

ومن الدوافع التي عجلت بالمواطنات من الانضمام إلى جيش التحرير الوطني هو اكتشاف العدو لأعمالهن السياسية والفدائية، وأما الطالبات فأتاحت لهن الفرصة بالالتحاق بالجيش بعد الإضراب الذي شنه الطلبة في 19 ماي 1956، ومنهن من قد حملن السلاح فداء لأرواح إخوتهن وذويهن فالتحقن بالثوار بعد أن أحرق العدو قراهن وعذب

أهلهم(5)أو من الجزائريات من كن يعانين الفقر المدقع والحاجة الماسة إلى لقمة العيش في ظل القوانين الاستعمارية الجائرة، لم يجدن مخرجاً إلا بالتوجه نحو الجبال والانخراط في صفوف الثورة وما أكثر ما كن يعانين من هذا الوضع المزري.(6)

ومن هذا ندرك الأوضاع الصعبة والظروف غير الملائمة التي عاشتها المرأة الجزائرية والتي أدت بها إلى الانخراط في الثورة وأن تمارس أعمالاً كثيرة داخل جيش التحرير الوطني.

#### ثانياً: كيفية اتصالاتها بالمجاهدين

لقد تمت طريقة الانضمام عن طريق الاتصال بالجيش أو جبهة التحرير الوطني، وبعد ذلك تقوم القيادة الثورية بالموافقة على انضمامها داخل صفوفهم، وهذه الاتصالات القائمة بينهما يجب أن تجري في سرية شديدة، فيتكفل بها أحد المجاهدين، ثم يرافقها أحد المسبلين إلى المسؤول عن الاتصالات الخاصة بمركز المجاهدين للنظر في شأنها وتدريبها وتعليمها.

في أغلب الأحيان تبعث الفتيات إلى التدريب والتكوين قبل انضمامهم في الجيش فيتعجن نحو القواعد الخلفية الموجودة على الحدود المغربية أو التونسية ويتم تلقينهن في المجال الطبي والعسكري السياسي، كما وعمل جيش التحرير على معرفة مدى صبر الفتيات بإبقائهن فترة طويلة في تلك القواعد الخلفية وبالتالي يتم اختيار المناضلة الكفاء.

فقد استقبل جيش التحرير الوطني المرأة بكل فخر واعتزاز واثقا من أنها سوف تتحمل الصعاب كأخيها الرجل، وأكبر دليل على ذلك ما قامت به الفتيات في 19 ماي 1956 عندما تخلين عن مقاعد الدراسة والتحقت بإخوانهن في صفوف جيش التحرير الوطني وهذا يدل على التطبيق والإخلاص لمبادئ ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 المجيدة(7).

كما توقف ميثاق مؤتمر الصومام 1956(8)عند مشاركة الحركة النسائية اذ يقول:«إننا نحیی بتأثیر وإعجاب الشجاعة الثورية المتحمسة التي عبرت عنها الفتيات والنساء والزوجات والأمهات وجميع أخواتنا المجاهدات اللاتي تشاركن فعليا وبالسلح أحيانا في النضال المقدس لتحرير الوطن»(9).

#### ثالثاً: مهام المرأة في المجتمع الجزائري إبان الثورة

الكل يعلم بأن المرأة نصف الرجل، وأي مجتمع لا يعي هذه الحقيقة هو مجتمع غير جدير بالحياة الكريمة، وطبيعي أنه يكون جديراً بها ونصفه مشلول، والرجل الذي يغير

هذه الحقيقة يعتبر غير واع ويعتبر غارقا في بحر من الأنانية والكبرياء تجاه المرأة التي ولدتها وتجاه المرأة التي لا يستطيع أن يعيش عيشا عاديا وطبيعيا بدونها.

ومن هذا المنطلق لا يمكن لنا فصل دور المرأة عن دور الرجل إلا في حالات وقد لعبت المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية دورا كبيرا في الجبال والقرى وفي المدن، كما كانت لها بصمتها في مراكز جيش التحرير الوطني فأدت دورها في كل ما منح لها. فمنذ انطلاق الشرارة الأولى للثورة استجابت المرأة لنداء الواجب وبدأت تتلقى نظام الثورة ضمن الخلايا النضالية أين تكونت سياسيا وثقافيا (10) ملقيا عليها أعباء كثيرة من مسؤوليات الصراع المسلح وكانت عند حسن الظن بها.

وقد اشتركت جنديّة وممرضة ومسؤولة عن التموين والسلاح ومسؤولة عن الاتصالات السرية في جميع جبال الولايات الست، زيادة على دورها المعروف في المدينة كفدائية (11) ومسبلة (12)، ومنهن أيضا المجندات غير المتعلّقات ومعظمهن من سكان البادية وقد لعبن دورا هاما في إعداد الطعام والشراب لهم في الجبال عندما يقصدون الناحية للقيام بمهام عسكرية مختلفة، إضافة إلى القيام بغسل ثياب المجاهدين والسهر على تربية أبناء الشهداء واليتامى وحفظ الأسلحة والمواد الغذائية (13) ومن مواقف المرأة الريفية أيضا تلك الفتيات التي تبرعن بكل مهرهن وأجهزتهن إلى الثورة (14) وهنا تجدر الإشارة أن المرأة المدنية تلقت صعوبات كبيرة في الخروج من البيت والتنقل عكس المرأة الريفية التي تستطيع الخروج وذلك يعود لقلة المراقبة العسكرية المستمرة وكثرتها في المدن (15).

وللانتقام منها قام الاستعمار الفرنسي بإلقاء القبض عليها بكل الطرق، وهو يشعر بانتصار كبير يسجله كلما وقعت واحدة منهن بين يديه مستعملا معها أبشع أساليب التعذيب وقد بذل الجلادون قصارى جهدهم لتشويه جسمها وانتهاك عرضها وحرمتها وتجريدها من كل الصفات الإنسانية رغبته في ذلك اكتشاف أسرار الثورة ومحاولة إخضاعها وإجبارها على الخيانة منتهجا في ذلك تعذيبا نفسيا وجسديا (16).

#### رابعا: دور المرأة العباسية إبان الثورة الجزائرية

لقد كانت المنطقة الخامسة \_سيدي بلعباس\_ تواكب نفس المسار وتعيش نفس الحدث متفاعلة مع الأحداث والظروف السياسية، ولا بأس أن نعرض قليلا على الوضع العام لمنطقة سيدي بلعباس قبل قيام الثورة، إن وضع كل منطقة يختلف عن مثيلتها من حيث التعبئة

السياسية وهذا لاعتبارات بيئية وجغرافية وإستراتيجية وكذا وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ومن هذا المنظور ساهمت كل منطقة من مناطق التراب الوطني بالقسط الذي أتيج لها لإنجاح مسيرة الثورة الجزائرية(17).

أما من ناحية الأوضاع الاقتصادية فقد كانت غالبية سكان سيدي بلعباس تعيش من السخرة والرعي والفلاحة عند الكولون حيث أن بعد استيلاء المستعمر على الأراضي الخصبة أصبح أصحاب الأرض الشرعيون يعملون في هذه الأراضي عند الكولون مقابل أجور زهيدة وأكثر من ذلك فالبعض من هؤلاء كانوا يعيشون مع عائلاتهم في مزارع الكولون لخدمتها ورعاية مصالحها في غير أوقات العمل، ضف إلى ذلك عدد ساعات العمل وأيام العمل والراحة التي كانت غير معترف بها لدى الكولون(18).

أما في المجال الاجتماعي فقد عاش المستوطنون الأوروبيين في فيض من الرخاء والرفاهية وفي كنف السعادة والأمن والاستقرار فكانت مدينة سيدي بلعباس المدينة المفضلة للفرنسيين على شاكلة باريدهم الكبرى من حيث طيب المقام والإبداع وهذا بسبب تواجد أسلاك الأمن من جيش ودرك وشرطة إضافة إلى فيالق اللفياف الأجنبي التي وفرت الحراسة والاستقرار والهدوء، عكس الجزائريين الذي كان مأواهم الفقر والأهل والمرض والحرمان في الأحياء الفقيرة في كل من حي القرابة، بريانطو، قمبيطة، وسيدي الجيلالي، وسيدي عمر، وفيلاج تيار، و فيلاج الريح وغيرها وهي كلها أحياء كانت تعبر عن المعاناة التي كان يعيشها سكان سيدي بلعباس في ظل الاحتلال، هذه هي الحالة الخطيرة التي وصل إليها سكان المنطقة والتي تعكس الوضع العام الذي آل إليه المجتمع الجزائري من جراء السياسة الاستعمارية(19).

أما عن تنظيم الثورة ففي الواقع أن منطقة سيدي بلعباس-كما وأن أشرنا لذلك كانت تتميز بكونها إحدى مراكز الاحتلال الرئيسية وأشهر المناطق تواجدا للمعمرين والمستوطنين إلى جانب الثكنات العسكرية من مراكز للجيش الفرنسي واللفياف الأجنبي والاحتياطيين والمتعاونين والاستخبارات الفرنسية والشرطة هذا من ناحية ومن ناحية ثانية كان الأوروبيون يمثلون ثلث السكان بالمنطقة وبذلك أصبحت مركزا رئيسيا لهم(20).

هذا الأمر زاد من صعوبة إقامة تنظيمات سياسية وعسكرية لقيادة جبهة التحرير في المنطقة، لقد عاشت منطقة سيدي بلعباس غليان سياسي في فترة الحركة الوطنية



الجزائرية مما أدى بمناضليها إلى الاتصال بمناضلين من مناطق مجاورة التنسيق مع قادتها في أمر الثورة وتوفير جميع الشروط المادية والبشرية لإنجاحها ميدانيا وهذا عن طريق تنظيم الإعلام والاتصالات ونشر الوعي السياسي لدى مواطنيها بنشر وتوزيع المنشائر الإعلامية لدى الجماهير بهدف تعبئتها وتجنيدتها لصالح الثورة.

وكغيرها من مناطق التراب الجزائري، اعتمدت منطقة سيدي بلعباس إبان الثورة و عيشتها تنظيما سياسيا وعسكريا محكما ودقيقا يعتمد أساسا على العمل الفدائي والعسكري المسلح في المناطق الخاضعة لنفوذها سواء من المدن أو الأرياف(21)، ونجاح هذا التنظيم بعث السرية المطلقة والدقة المتناهية في التنظيم تفاديا للوقوع بين أيدي الإدارة الاستعمارية التي ضربت سياجا حديديا من الرقابة والتفتيش في المناطق العسكرية وتركت قيادة المنطقة وفقا لمبدأ اللامركزية من جهة ولصعوبة الاتصال وخطورته من جهة ثانية، ولضمان سير عملها عملت على إقامة شبكة من الأفواج العاملة ضمن الخلايا التي ربطتها هي الأخرى بالاتصالات المستمرة حتى تحافظ على سلامة التنظيم السياسي وفعاليته وخصصت لهذا العمل الدؤوب والخطير أفرادا يتوفرون على الشجاعة والإقدام والإيمان القوي، وقامت قيادة جبهة التحرير بالمنطقة بتنظيم جميع مرافق الحياة عسكرية كانت أو مدنية(22).

غير أن تأخر قيام الثورة في الجهة الغربية من البلاد يرجع إلى الأسباب المعروفة منها التواجد الأوروبي المكثف في المنطقة الغربية ومنطقة سيدي بلعباس على الخصوص وكذلك قلة مصادر التموين بالسلاح والمعدات العسكرية.

لكن على العموم فإن الجو العام بمنطقة سيدي بلعباس كان يوحى بتقبل واحتضان سكانها للثورة وعلى غرار مناطق الوطن الأخرى التي ضربت أروع الأمثلة في النضال و التضحية تلبية لنداء الواجب نداء اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954(23).

كل هذا لم يكن مقتصرًا على الرجال فقط بل نرى مشاركة عنصر فعال وهي المرأة الجزائرية التي ساهمت في الكفاح المسلح، والمعانات الوحشية التي عانتها على أيدي الغاصبين والمجرمين.

وعلى غرار المدن الأخرى من القطر الوطني، شكلت خلايا نسوية في مدينة سيدي بلعباس بالرغم من القبضة الحديدية التي طوقت أعناقها سكان المدينة، نظرا للوجود

المكثف للفيف الأجنبي، فبعد أن تلقت تكويننا سياسيا و تدريبا عسكريا بالإضافة إلى تربصات في التمريض، و الإسعافات الأولية راحت جميلات سيدي بلعباس تقمن بالمهام التي أسندت إليها، جمع المؤن (24) وعملية التمريض لدى المجاهدين والفدائيين، داخل المدينة وخارجها في القرى، بل حتى في أعال جبال المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة، وأن العديد منهم شارك بمسالة فائقة في العمليات الفدائية والاشتباكات العديدة والمعارك الطاحنة التي دارت رحاها في قلب المدينة أو في أعال الجبال كجبل الموكسي وعساس، تسالة، الضاية(25)، وجبل قدبرات وغيرها. كما اعتبرت همزة وصل بين المدن والأرياف، وهي وظيفة جديدة أسندت لها، وهذا ما عرفناه عن المرأة في منطقة سيدي بلعباس مما يدل على مشاركة العنصر النسوي بها.

وحتى يضطلع القارئ الكريم على مدى مساهمة المرأة أثناء الثورة المباركة نحاول تقديم نماذج عن جميلات سيدي بلعباس اللواتي سقطن بميدان الشرف إلى جانب أشقائها الرجال في سبيل حرية وكرامة هذا الشعب الأبى(26) ونلاحظ أن أكثر من 14 فدائية (27) استشهدت في ميدان الشرف في مدينة سيدي بلعباس وحدها، هؤلاء النسوة اللواتي أظهرن شجاعتهم ومقاومتهم بالمنطقة نذكر منهم بابا أحمد الزهراء 1957، عراس رقية 1960، صورية بن ديمراد 1961، ذراع فاطمة 1962، عظيم فتحة 1961، الطيب إبراهيم شريفة 1962، والطيب إبراهيم فتحة شقيقة هذه الأخيرة والتي لازالت على قيد الحياة، والتي سوف تدلي بحقائق حول مشاركتها في الثورة التحريرية بالمنطقة الخامسة من الولاية الخامسة.

#### خامسا: شهادة الأنسة الطيب إبراهيم فتحة المدعوة «جميلة»

المولودة بتاريخ 12 ابريل 1944 بسيدي بلعباس من أسرة محافظة إذ كان أبوها يحفظان القرآن الكريم، من بين العائلات الفلاحية ببلدية القعدة التابعة لولاية معسكر قبل أن تقطن بسيدي بلعباس، عندما بلغت فتحة سن السادسة دخلت المدرسة الابتدائية وبالضبط مدرسة «موليار»(28) لتتابع دراستها بعد ذلك بتكميلية البنات (الكاينة حاليا) وفي سن العاشرة من عمرها كانت هوايتها المفضلة متابعة الأحداث السياسية، بقراءة الصحف التي كانت تشتريها بالنقود التي كانت يمنحها إياها والدها لشراء الحلويات وكانت تزاوّل دروسها باللغة العربية وأصول الدين الإسلامية بمدرسة جمعية العلماء المسلمين لأن

والدها كان عضوا بهذه الجمعية ونظرا للوضعية الاجتماعية التي كانت تعيشها أسرة فتيحة أجبرت على ترك الدراسة (29) لتعمل كممرضة عند الطبيب اليهودي «بن سيمون» الذي كانت له عيادة في شارع «موليار» تعالج وتوفر الدواء (30).

#### سادسا: الاتصال والالتحاق الفعلي

في سن الرابع عشر من عمرها انضمت إلى المنظمة المدنية بالولاية الخامسة الناحية الثالثة المنطقة الخامسة وكان نشاطها إلى جانب أختها الشهيدة طيب إبراهيم الشريفة، يقتصر على تمويل المجاهدين بالأدوية، وهكذا جاء اليوم الذي حلمت به حيث تسلمت الرسالة من «سي عبد القادر» يطالبها فيها بالالتحاق بالجبل ككاتبة وممرضة ناحية فقررت قبل الذهاب عند المجاهدين أخذ كل الأدوية الموجودة بالعيادة، إلى جانب بعض أدوات الجراحة ومسدسين كان ذلك سنة 1957، فشحنت أمتعتها على متن عربة «كارو» لتتوجه إلى مزرعة المعمر «موروا» ببلدية تسالة التي كانت مركز للمجاهدين وعند خروجها من المدينة كادت أن تقع في شباك العساكر لولا ذكاؤها الفائق إذ زعمت لرئيس الفرقة اللفيف الأجنبي بمركز العبور أنها متوجهة إلى «الوالي الصالح سيدي محمد بن علي» للتبرك فيه فتجنبت التفتيش، فمكثت بالمزرعة طول النهار ترعى الأغنام خشية من اكتشاف أمرها منتظرة حلول الليل لتتصل بقائد الناحية.

#### سابعا: نشاطها العسكري

كان نشاط «جميلة» متركز على ناحية سيدي بلعباس، متنقلة من مخبأ إلى مخبأ آخر مع رفقاءها في السلاح، وبعد سنة كاملة قضتها في الجبل حيث شاركت في عدة اشتباكات وعمليات فدائية حيث حدث اشتباك الذي كانت بصحبة «سي فوضيل» و«سي زين الدين» و«سي منور»، بعد أن انقسم الفوج إلى فوجين، فوجدت «جميلة» نفسها ورفاقها محاصرين من قبل رجال الجندرمة والليف الأجنبي فوقع اشتباك بين المجاهدين وعساكر العدو ودام ساعة ونصف، كان الاشتباك عنيفا لدرجة أن المجموعة فقدت اثنين من المجاهدين «سي الفضيل» و«سي منور» وجرح آخرين بجروح بليغة «كزين الدين» كما أصيب الطيب إبراهيم فتيحة بجروح خطيرة من جراء 17 رصاصة أصابتها في جسدها إلى جانب شظايا قنبلة نقلت على إثرها إلى المستشفى.

### ثامنا: اعتقالها وتعذيبها

تم اعتقالها في زنانات العدو حيث قضتها بين أيدي جلادي المكتب الثاني لمدة 25 يوما والى ثكنة اللفيف الأجنبي 10 أيام ثم مركز الفرز بربوصالادو 30 يوما عذبت عذابا شديدا، وبعده سجنّت بسيدي بلعباس لمدة ثلاثة أشهر، ثم حولت إلى سجن وهران أين حكمت عليها المحكمة العسكرية بالضبط يوم 17 أكتوبر 1961 إلى 10 سنوات سجننا نافذة ثم بعد الاستئناف خفف عنها السجن حيث حكم عليها هذه المرة بثلاث سنوات، سجننا ليطلق سراحها يوم 30 ابريل 1962.

### تاسعا: بعد الاستقلال

وبعد الاستقلال مباشرة وظفت بالقطاع الصحي وكلفت بعدة مهمات اجتماعية خاصة على المستوى البلدي و الولائي و الوطني و تابعت نضالها إلى جانب إخوتها في الاتحاد النسائي و منظمة المجاهدين، ثم نائبة مديرة الصحة للولاية لمدة 11 سنة ثم مديرة القطاع الصحي لبلدية ابن باديس قبل التقاعد، و لا تزال تقوم بعدة أعمال إنسانية اتجاه المعوقين واليتامى والعجزة(31) ومستعدة لمزيد من التضحية في سبيل حرية الوطن وكرامته.

هذه المجاهدة لم يسمع عنها في يوم من الأيام أنها تشتكي من وضعيتها الاجتماعية المزرية، وعندما كنت في صدد مساءلتها واستجوابها عن جهادها روت لي نضالات الأخريات، الدمعة بعينها والقلب مملوء بالحسرة وكأنها لازالت تعيش مع الشهداء الأبطال رحمهم الله.

ومن هنا نعتقد أن الجيش الفرنسي كان يظن أن المجتمع الجزائري لا يسمح للمرأة الخروج عن التقليد و بالتالي مستحيل تكليفها بمهام خطيرة كالتي كلفت بها، ونسي الاستعمار أن عزيمة الشعب الجزائري كانت أقوى من كل القيود، التي وضعها في طريقه، وأن الثورة عند انتشارها في أوساط كل فئات الشعب حطمت كل «الطابوهات»، بإشارة من جبهة و جيش التحرير الوطني، توافدت فتيات المدن بأعداد قليلة في بداية الأمر، رغبة منهن في المساهمة الفعالة في الكفاح كيفما كان الثمن ليضاعف عددهن شيئا فشيئا، واللواتي رغم صعوبة الموقف، والعوائق إلا أنها أحرزت نصرا عظيما على العدو وكان ذلك على حساب تضحيتها بنفسها، وبذلك تحملت المرأة الجزائرية على وجه العموم والمرأة العباسية على

الخصوص مسؤولياتها كاملة فأدت الرسالة وبلغت الأمانة كأم ومجاهدة ومسبلة وفداية ومواطنة غيرة على دينها ووطنها من أجل هذا الوطن الغالي، و لكي تنعم الجزائر بالحرية والاستقلال.

## الإحالات:

- 1- سورة الصف، الآية 11.
- 2- طلاس(مصطفى)، العسلي( بسام)، «الثورة الجزائرية»، طلاس للدراسة والترجمة والنشر، دمشق، 1984، ص 434.
- 3 - مجلة أضواء، العدد الأول 1998، نشرة إعلامية تاريخية فصلية تصدر عن مديرية المجاهدين لولاية سيدي بلعباس، مصلحة المحافظة على التراث التاريخي والثقافي، ص 30.
- 4- بوالطمين(الأخضر)، «الفداء نظامه ودوره في ثورة التحرير»، مجلة أول نوفمبر، عدد 45، السنة 1980، من إعداد المنظمة الوطنية للمجاهدين، ص 64.
- 5 - بركات(أنيسة)، «محاضرات ودراسات تاريخية حول الجزائر»، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1995، ص 101.
- 6- بوصفصاف(عبد الكريم)، «المرأة الجزائرية قيمة من قيم الثورة الجزائرية»، مجلة القيم الفكرية والإنسانية في الثورة التحريرية (1954-1962) الجزء الأول، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، أفريل 2003، ص 8.
- 7- جويده (جاري)، «وقفات في الأدوار الريادية للمرأة الريادية إبان الثورة التحريرية»، مجلة القيم الفكرية والإنسانية في الثورة التحريرية (1954-1962) الجزء الأول، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003، ص 113.
- 8 - يعد مؤتمر الصومام محطة تاريخية هامة في مسار الثورة الجزائرية، حيث اهتم في مناقشته بمسألة تقييم المرحلة المقطوعة من حياة الثورة الجزائرية، معتنيا بإعادة تنظيم هياكلها السياسية والعسكرية والإدارية، وتجديد الفئات الشعبية وتعبئتها في تدعيم الكفاح المسلح الذي يبقى مستمرا، كما اهتم بوسائل العمل والدعاية بالإضافة إلى تقديم مشروعا سلميا لتسوية القضية الجزائرية الذي يكرس الاستقلال.

9- مقتطف من ميثاق مؤتمر الصومام، وحول منهج الصومام في موضوع الحركة النسائية، أنظر:

- العسلي(بسام)، المجاهدة الجزائرية والإرهاب الاستعماري\_طبعة خاصة، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 2010، ص221.
- 10- مجلة أضواء، المرجع السابق، ص 30.

11 - الفداء: تعني كلمة فداء في مصطلح الثورة التحريرية فداء النفس وتقديمها تضحية سواء لنيل الغاية أو الاستشهاد، والفداء ما هو إلا أسلوب من أساليب الكفاح المسلح فرضته ظروف حتمية وهو في نفس الوقت ممارسة شاقة مليئة بالخطر لا يقدم عليه إلا ذو الإيمان الخالص والإرادة القوية، والشجاعة النادرة من أجل تحقيق الأهداف المرجوة وقد اعتمدته جبهة التحرير الوطني منذ إعلانها الثورة المسلحة خاصة في المدن الكبرى، بحكم ظروفها وطبيعتها، لمزيد من المعلومات أنظر:

- بومالي(أحسن)، «إستراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى1954/1962»، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع بالمؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة روية، الجزائر، ص106، أنظر كذلك: بوالطمين (جودي الأخضر)، الفداء نظامه ودوره في ثورة التحرير»، المرجع السابق، ص ص(287،291).

- قليل(عمار)، «ملحمة الجزائر الجديدة»، الجزء الأول، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م، طبع دار البعث، قسنطينة الجزائر ص ص(310-311).

- مرتاض(عبد المالك)، «دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية1954-1962»، طبع المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، ص64.

- 12- العسلي(بسام)، «المجاهدة الجزائرية والإرهاب الاستعماري»، طبعة خاصة 2010م، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ص 30.

- 13- قديد (هند)، «دور المرأة أثناء الثورة التحريرية»، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، كفاح المرأة الجزائرية، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1998، ص 125.

- 14- بوصفصاف (عبد الكريم)، المرجع السابق، ص 10.
- 15- جنيدي (خليفة)، «حوار حول الثورة»، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1986، ص 431.
- 16- الحناشي (عبد اللطيف)، «الحياة اليومية للمساجين السياسيين التونسيين بالسجون الفرنسية بالجزائر»، سياسة التعذيب الاستعمارية إبان الثورة الجزائرية وتداعياتها المعاصرة، ملتقى وطني، مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر، 2006، ص 190.
- 17 - حلوش (عبد القادر)، «شهادات حول الحرب التحريرية»، دفاتر التاريخ المغربية، لعدد 1988، مخبر تاريخ الجزائر وإفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، معهد علم الاجتماع، جامعة وهران، ص ص (68-80)، ولمزيد من التفاصيل حول موضوع التعذيب الاستعمارية إبان الثورة التحريرية أنظر:
- نجادي (بوعلام)، «الجلادون 1830-1962»، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات ANEP، ص ص (270، 271)، أنظر الحصة التي نشطها الأستاذ الباحث «بوعلام نجادي» بمقر إذاعة سيدي بلعباس حول جرائم فرنسا في منطقة سيدي بلعباس، بمناسبة إحياء ذكرى السادسة والأربعين لاسترجاع السيادة الوطنية.
- 18- بلعربي (خالد)، «تساؤلات حول دور المدينة الجزائرية في مناهضة الاحتلال الفرنسي- سيدي بلعباس نموذجا»، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 121، السنة الثالثة والثلاثون، مارس 2006، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ص ص (11-19).
- 19- بلبوري (سيد أحمد)، «مدينة سيدي بلعباس ودورها في اجتماع القادة قبل تفجير الثورة»، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830/1962، الجزء الثاني، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، ص ص (147-157).
- 20- حلوش (عبد القادر)، «الثورة الجزائرية في منطقة سيدي بلعباس من خلال الشهادات الشفوية»، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830/1962، الجزء الثاني، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، مكتبة

الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، (150\_157).

21- حلوش (عبد القادر)، «شهادات حول الحرب التحريرية»، المرجع السابق.

حلوش (عبد القادر)، المرجع السابق 22-

23- حلوش (عبد القادر)، «الثورة الجزائرية في منطقة سيدي بلعباس \_من خلال الشهادات الشفوية\_»، المرجع السابق.

24- حيث كلفت بجمع الأموال والألبسة العسكرية ثم جمع الأسلحة والذخيرة، إضافة إلى تحضير الطعام للمجاهدين وإعطاء المعلومات الكافية فيما يخص تحركات العدو وتعالج المجروحين وتوفير الأدوية وغيرها من الواجبات.

25- كلها جبال حصينة وكثيفة بالأشجار، مما ساعد المجاهدين على التمرکز الجيد والتحصن بمواقعها المنيعة .

26- مجلة أضواء تاريخية، العدد 3، ص 29.

27- AINAD TABET (Redouane), op, cit, p389 .

العربي التبسي حاليا. 28 -

29- مقابلة مع الطيب إبراهيم فتيحة، في بيتها، يوم 03 فبراير 2009.

284., op, cit, p ) Redouane (AINAD TABET30 -

31- مقابلة مع الطيب إبراهيم فتيحة، في بيتها يوم 10 فبراير 2009.



## الدور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمعالم

### الأثرية

من إعداد الأستاذ: بن زغادي محمد جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان-

منذ القدم ارتبط بناء شخصية الإنسان في أبعادها الأربعة: البدنية، الفكرية، النفسية و الروحية بالعمران روحاً و مادةً فعلماء النفس ذهبوا في أغلب المواقف إلى إرجاع مشاكل بناء الشخصية إلى المسكن الذي نشأ فيه ذلك المرء، لأن الجسم البشري يحتاج إلى متطلبات أربعة، أولاً بدنية: تتمثل في الشمس والهواء والمتعة البصرية، ثانياً: فكرية تتمثل في الهدوء والتركيز، ثالثاً: نفسية: تتمثل في الاستقرار والطمأنينة والسكينة رابعاً: روحية: تتمثل في الخشوع والإيمان، لذلك اهتمت جل الحضارات الغابرة بالجانب المعماري، فحضارة القرن الحادي والعشرين ركزت اهتمامها على العمارة، حيث استفادت من نتاج تجارب وخبرات الحضارات الغابرة في جميع الميادين، فالمبادئ التي اعتمدتها حضارة المصريين والرومانيين واليونانيين منطلقاً في مجال البناء والتشييد تحقق به تطوراً معمارياً في الحضارات اللاحقة كما أن نظرة المنظمات الدولية نحو المخلفات المادية قد تغيرت وأصبحت في عرف عصرنا تراثاً إنسانياً ملكاً للبشرية جمعاء، ونتيجة لليقظة الثقافية أصبح حماية التراث المادي من الأولويات التي تسهر عليها منظمة الأمم المتحدة، حيث عقدت المؤتمرات و سطرت القوانين والتوصيات من أجل الحفاظ الدائم على المعالم الأثرية لتبقى همزة وصل بين ماضي الأمة وحاضرها. وإذا ما تصفحنا هذا العالم، نكاد لا نجد بقعة تخلو من بصمة الأسلاف، ففي الجزائر مثلاً تتواجد العديد من المعالم الأثرية ذات الأصل المختلف من فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة الإسلامية مروراً بالفترة الرومانية والوندالية والبيزنطية مؤكدة على مدى الرقي والتطور الذي وصلت إليه تلك الحضارات كما أنه توجد سبعة معالم مصنفة في لائحة اليونسكو كتراث عالمي وهي: قلعة بني حماد، حضيرة الطاسيلي ناجر، وادي ميزاب بغرداية، تيمقاد بباتنة، القصبة بالجزائر العاصمة، جميلة بسطيف، تيبازة بحوضها الفينيقي. وإلى فترة قريبة أصبحت المعالم والمواقع التاريخية منبعاً وركيزة لأي بلد من بلدان العالم في تحقيق النمو ودفع قاطرة التنمية المستدامة، هذه الأخيرة التي شاع استخدامها في الآونة

الأخيرة كمرادف للمستمرة وإن كانت الاستدامة تعني الاستمرارية لكنها أوسع دلالة إذ تعتبر رؤية شاملة إستراتيجية لا تقع في وحل الشره وضيق الأنانية وهي كذلك الاستعمال المثالي لجميع مصادر الحياة للمستقبل البعيد مع التركيز على حياة أفضل في الحاضر والمستقبل، كما أن مجالاتها متعددة من مجال ثقافي واقتصادي واجتماعي.و هي كذلك عملية داخلية تستند إلى الثقافة الخاصة بالبلد.

### أ- الدور الثقافي:

لطالما كان تراث الأمم ركيزة أساسية من ركائز هويتها الثقافية، وعنوان اعتزازها بذاتيتها الحضارية في تاريخها وحاضرها؛ ولطالما كان التراث الثقافي للأمم منبعاً للإلهام ومصدراً حيويًا للإبداع المعاصر ينهل منه فنانونها وأدباؤها وشعراؤها، كما مفكروها وفلاسفتها لتأخذ الإبداعات الجديدة موقعها في خارطة التراث الثقافي، وتتحول هي ذاتها تراثاً يربط حاضر الأمة بماضيها، ويعزز حضورها في الساحة الثقافية العالمية، لذلك تعتبر المعالم الأثرية بما تحمله من بعدٍ تاريخي وجمالي شواهد ملموسة عمّا أبدعه الأسلاف في مضمار الفن المعماري، إذ تكتسب المقومات الأثرية قيمة ثقافية منفردة حسب كل أمة وذوقها الفني وانتمائها العرقي، ولقد عرف الأنثروبولوجي « تايلور » TAYLOR الثقافة أنها ذلك الكل المركب من العقائد والفنون والأخلاق والعرف وسائر القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع<sup>(1)</sup>، كما عرفها « راد كليف براون » RAD KLIFF BRAOUNE بقوله أن الثقافة هي العملية التي يكتسب من خلالها الفرد المعرفة والمهارة والأفكار والمعتقدات والأذواق والعواطف وذلك عن طريق الاتصال بأفراد آخرين أو من خلال أشياء أخرى كما أنه يكتسب الأعمال الفنية. ويمكن التمييز بين نوعين من الثقافة الأولى مادية والتي تدل على كل الماديات التي يصنعها الإنسان في المجتمع لسد حاجياته.

أما الثانية فهي الثقافة اللامادية أو المعنوية وهي تتمثل في الأفكار والمعتقدات والعلوم والفنون والنمط المعيشي، هذا الأمر الذي نستشفه من خلال زيارة المعالم الأثرية التي تعتبر متعة ذهنية رفيعة فليست مشاهدة الآثار أو دراستها مجرد وسيلة للهروب من الحاضر أو التنقيب عن الماضي فقط ولكن هي بمثابة خطوة مهمة لفهم أنفسنا فبالإطلاع إلى الوراثة على طول الطريق الذي قطعه أمة من الأمم يكون فهمها أكبر لمستقبلها. وذلك باعتبار المعالم الأثرية سجلاً مرئياً بالغ الدقة، وتُعد الرغبة في ارتياد تلك الشواهد الأثرية المادية من

قبل الإنسان قديمة، فقد قطع هيروديث آلاف الأميال للبحث بحماس عن تاريخ الشعوب التي اتصل بها<sup>(2)</sup>، وواصل الإنسان تلك الرغبة حتى الوقت الحاضر، كما أن المعالم الأثرية تعمل على تعميق الانتماء القومي، وتساهم في بناء الشخصية الإنسانية إضافة إلى أنها شواهد محسوسة تعين الباحث على دراسة تطور الحضارات والفنون عبر الزمن وهي مادة خصبة للبحث العلمي الأثري وكذلك لإغناء المعلومات التاريخية، لأنها تلقي الضوء ساطعاً على المستوى الحضاري والثقافي الذي عاش فيه الإنسان إبان فترة من الزمان مجسدة بذلك صورة للإنسان على المستوى الفكري والعقائدي وإمكانياته المادية وذوقه الفني في تشكيل عمارته، كما أنها لا تخلو من الموضوعية التي قلما اتصف بها مؤرخ أو غيره، لذلك كانت الوسيلة التي تضمن فهماً أكبر وصورة ذهنية أوسع عن إجمالي المعتقدات والانطباعات والأفكار التي خلفها القدامى، وهي تعمل كذلك على الترويج النفسي والجسدي ليعود المواطن إلى عمله أكثر نشاطاً وحيوية، ومن خلالها تلتقي ثقافات الشعوب لتنعش النفوس الباحثة عن التجديد والتير لدرجة أن وصفها المفكر بيفارنوس أنها «غذاء الروح والنفس»<sup>(3)</sup>، كما أنها تعزز من تجسيد الهوية الثقافية هذه الأخيرة مأخوذة من «هو» بمعنى جوهر الشيء وحقيقته إنها كبصمة الإنسان التي يتميز بها عن غيره. وتُعرّف الهوية أيضاً بمعنى «التفرد» فالهوية الثقافية تعني التفرد الثقافي بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك، وميل، وقيم، ونظرة إلى الكون والحياة.

إن مفهوم «الهوية» لا يجب أن يؤخذ بالبساطة العفوية، إذ لا يزال يلفه الكثير من الغموض، فهناك من المفكرين مَنْ يصل به الأمر إلى حد القول بأن الهوية لا وجود لها أصلاً، ذلك أن الهوية الشخصية تُفترض أن يبقى الإنسان نفسه على مر الزمن، أما الهوية الجماعية فهي أكثر إشكالية إذ تفترض (التماثل التام) في: (نحن) الجماعية، بينما البشر مختلفون تبعاً لطبيعة الظروف التي تكونوا في إطارها، وتبعاً للبيئة التي يحيون فيها ومكوناتها الحضارية والثقافية والاجتماعية، وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي «ديول ريكور» بالقول: «.... إن أهواء الهوية متجذرة فينا بعمق، وليس هناك أي شعب يعاني منها أكثر من شعب آخر.....».

الهوية الثقافية هي تعبير عن الحاجة إلى الاعتراف والقبول والتقدير للإنسان، كما هو في تفردّه وتميزه. ففي الهوية الثقافية تشتغل جدلية الذات والآخر وتعيد كل جماعة بشرية

تأويل ثقافها من خلال اتصالاتها الثقافية بماضي الأسلاف عبر ما خلفوه من عمائر و مدن و مصنوعات في مختلف مجالات الحياة ، لذلك أمكن اعتبار الثقافة كائن جماعي حي يتحول ويتغير من الداخل على ضوء تغير المصادر النابعة من أسلافنا، ومن الخارج بفعل أشكال التأثير الخارجي الناتج عن علاقة الفرد بالمحيط... وأيضاً "كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهزاً ونهائياً. وهي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم وأيضاً باحتكاكها سلباً وإيجاباً مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما.

كما تناول المفكر علي سالم فكرة الهوية من خلال علاقة الذات بنفسها وبالآخر وأكد أن المرء يولد بمفرده: ويموت بمفرده، لكنه لا يحيا إلا مع الآخرين وبالآخرين وللآخرين، ذلك أن الشعور الفردي لا ينطوي على أي انفصال مطلق عن عالم (الغير) الذي هو من مقومات الوجود الإنساني.

وأمام مختلف التأثيرات كالعولمة التي تعني هيمنة ثقافة واحدة ونهاية التاريخ والماضي، تبقى الشواهد الأثرية بما تكتسبه من مقومات ثقافية، السبيل الوحيد للحد من مثل تلك التأثيرات.

### ب- الدور الاجتماعي:

تعتبر المعالم الأثرية والمواقع التاريخية بما تحمله من بعد تاريخي وحضاري ذاكرة جماعية للأمة، ككل فهي عبارة عن نشاط اجتماعي وإنساني مارسه الأسلاف وخلفوه كسجل اجتماعي مرئي لذلك كان لها دوراً اجتماعياً يبرز في النقاط التالية:

### - تأمين وحدة التراب الوطني:

إن تواجد أي معلم في أي منطقة من الوطن يعتبر مرجعاً تاريخياً للوطن ككل. إذ يزيد من تماسك أفراد المجتمع لنفس الانتماء الذي ينقله إليهم المعلم الأثري أو الموقع التاريخي الأمر الذي يزيد من وحدة التراب الوطني، ربما يكون الشعور بالانتماء، خصوصاً هذه الأيام، إحدى أهم القضايا التي تتطلبها «المواطنة»، في اعتقادنا أن الانتماء بحاجة إلى «مرجعية» يعود الإنسان لها كلما شعر أنه بحاجة إلى مكان يضمه وناس تؤويه، لذلك عندما سألني أحد الزملاء عن الشعور بالانتماء، وهل يمكن أن نصنع هذا الشعور أم أنه موجود في قلوب وعقول الناس وما علينا إلا أن نكتشفه ونظهره على السطح، قلت له أن السؤال يصب في

صلب فلسفة عملنا في مركز التراث العمراني، فهل نحن نعمل من أجل المحافظة على ما تبقى من تراثنا العمراني ونحاول أن نستثمر هذا التراث وننميه ونطوره كي يكون محطة سياحية جاذبة، أم أن دورنا أكبر بكثير وأن علينا مسؤولية وطنية كبيرة وهي إعادة الشعور بالانتماء إلى الأرض وإلى الوطن؟ ومع ذلك فإن هذا السؤال يحيلنا إلى سؤال آخر هو: هل لدينا المقدرة التي تجعلنا نقوم بهذا الدور؟ في اعتقادي الشخصي أن تحريك الشعور بالانتماء لا يعتمد على الإمكانيات بقدر ما يعتمد على الإيمان بالفكرة، إذ مثلاً الزيارات المتكررة التي يقوم بها أبناء الوطن إلى أي معلم أثري مهما كان منعزلاً يجعله جزءاً لا يتجزأ من أرض الوطن.

#### - دعم النسيج القومي للمجتمع:

وذلك عن طريق الاحتكاك المتبادل بين أبناء المجتمع الواحد من خلال التقائهم في الزيارات السياحية لتلك المعالم والمواقع التاريخية حيث تزيد فرص التفاهم والتبادل الثقافي<sup>(4)</sup>.

#### - زيادة تماسك الأسرة كوحدة اجتماعية:

وهي مرتبطة بالنسيج القومي للمجتمع فمن المعروف أن قرار السياحة إلى الآثار من القرارات الجماعية وبالتالي يمثل قرار السفر عملية اتصال متكاملة بين أفراد الأسرة، فجماعية القرار تحقق جماعية تنفيذه مما يحدث حواراً أسرياً وتقارباً اجتماعياً، نفس الوضع يتحقق في الرحلات الجماعية للجماعات والمؤسسات إلى تلك الآثار حيث يتدعم الفهم الثقافي والتقارب الاجتماعي.

#### - الترويج عن المواطنين وإزالة مظاهر التعب والإرهاق:

مما يجعلهم أكثر حيوية وذلك لارتياحهم للمواقع والمعالم الأثرية. لا شك أن التراث يمثل الذاكرة الحية للفرد وللمجتمع ويمثل بالتالي هوية يتعرف بها الناس على شعب من الشعوب، كما أن التراث بقيه الثقافية والاجتماعية يكون مصدراً تربوياً وفنياً وثقافياً واجتماعياً، ذلكم أن تراكم التراث يُكوّن الحضارة، وتراكم المعلومات يُكوّن الذاكرة، وهذه الذاكرة بدورها كما تقول: الباحثة تمبل كريستين في كتابها «مدخل إلى دراسة السيكولوجية والسلوك» هي التي تمكّننا من فهم العالم، إذ تربط بين خبرتنا الراهنة، ومعارفنا السابقة عن العالم وكيف مع مرور الزمن تحولت تلك الخبرات إلى إنتاج جماعي يخزن بصمات الأفراد والجماعات، لذلك يمكن اعتبار كل معلم أثري جدار متين لحفظ هويتنا، ومحرك لنا في الاستمرارية والوجود.

إن فقدان التراث يعني فقدان الذاكرة، هذه الأخيرة التي تساعد على اتخاذ القرار، فالفرد الفاقد لذاكرته لا يستطيع أن يستدلّ على باب بيته، فكيف وحاله هكذا أن يستطيع صنع مستقبله، ويطور ذاته، ومثلما ينطبق هذا على الفرد ينطبق على الشعوب.

إن التراث الثقافي وكما هو معروف لدى الباحثين، والمختصين يحتوي على جانبين أولهما الملموس المادي ممّا أنتجه السابقون من مبانٍ، ومدنٍ، وأدواتٍ، وملابس وغيره، وثانيهما التراث الغير الملموس كالمعتقدات، والعادات، والتقاليد، والطقوس، واللغات وغيرها، وهو ما يُطلق عليه الموروث الشعبي، فالحفاظ على هذين العنصرين هو حفاظٌ على هوية الأمة وذاكرتها ويعني أيضا الحفاظ على المنتجات التي نستطيع من خلالها أن نقيس مستوى الحضارة لهذه الأمة أو تلك.

### ج- الدور الاقتصادي:

منذ الأمد البعيد، حظيت الآثار المعمارية باحترام وتقدير الأمم الراقية، إذ يورد لنا الرحالة العربي عبد اللطيف البغدادي في كتابه ~الإفادة والاعتبار~، المؤلف في القرن الثاني عشر للميلاد موقف السلطات في الدولة العربية الإسلامية بقوله: «... وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها، وكانوا يفعلون ذلك حتى تبقى تاريخاً يتنبه به على الأحقاب، ومنها أنها تدل على شيءٍ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه...»<sup>(5)</sup>. من هنا تتجلى صفة الإنسانية في التراث، حيث يعتبر حلقة من حلقات الحضارة البشرية التي تمازجت وتكونت عبر التاريخ وتطور الأمر في وقتنا الحالي، إذ أمكن أن تتيح المدن التاريخية بمعالمها الأثرية عنصراً حيوياً للاستمرارية والاستقرار، فإرث الماضي يساعد على تنمية المستقبل، لذلك أصبح التراث المادي رافداً من روافد الاقتصاد للأبي بلد من البلدان في هذا العالم، وذلك عن طريق السياحة، هذه الأخيرة التي ارتبط مفهومها بالمسافة التي يقطعها الإنسان من مكان إلى آخر أي أن السياحة كانت مجرد حركة تنقل أشخاص يرغبون في أداء مهام معينة<sup>(6)</sup>، أما العالم الألماني جويبر فرديلر فقد أعطى تعريفاً للسياحة بقوله: « السياحة ظاهرة عصرية تنبثق من الحاجة المتزايدة إلى الراحة وإلى تغيير الهواء وإلى مولد الإحساس بجمال الطبيعة ونمو هذا الإحساس إلى الشعور بالبهجة والمتعة والإقامة في مناطق لها طبيعتها الخاصة<sup>(7)</sup>، وفق الإحصائيات الصادرة عن منظمة

السياحة العالمية باتت السياحة الثقافية حوالى 37% من إجمالي سوق السياحة العالمي، أي ما يوازي ثلث إجمالي النشاط السياحي في العالم، ما يشير إلى أن السياحة الثقافية أصبحت من أبرز أنواع السياحة، وأنها تنمو بشكل سنوي بمعدل 15%، تعتبر المنجزات الحضارية منذ القديم من أهم العناصر في عملية الجذب السياحي فهي تؤلف المادة الخام للصناعة السياحية التي تعتبر صناعة القرن الواحد والعشرين، فحسب وصف منظمة السياحة العالمية في تقريرها الصادر عام 2003 أحرزت المعالم الأثرية تفوقاً كبيراً في منظومة الاقتصاد العالمي مما جعل منها منافساً خطيراً لصناعاتي البترول والاتصالات في نهايات القرن العشرين، لأن الخلفية التاريخية والطرز المعماري الفريد، اللذان تحظى بهما يجعلها ذكريات تاريخية مرئية لحقب الحضارات القديمة، وهي بذلك تجلب ما يقارب 12% من السياحة الدولية، لذلك كانت جزءاً من الموارد الاقتصادية المهمة لأي دولة في العالم، إن المتتبع للتطور السياحي الدولي يستطيع الجزم بأن السياحة الثقافية ساهمت إيجاباً في اقتصاديات دول عديدة، فهي محرك قوي للمد السياحي الذي ينجر عن عائدات ضخمة، فمثلاً منطقة الشرق الأوسط زارها ما يقارب 30,41 مليون سائح حيث بلغت حصتهم السوقية 4,4% من حجم السياحة العالمية أما الإيرادات السياحية التي حصل عليها فقد وصلت إلى 12,9 بليون دولار بنسبة 2,7% من الدخل السياحي العالمي، وتشير المنظمة في تقريرها السنوي أن حصة مصر تمثل ربع حصة منطقة الشرق الأوسط، وفي الأردن يوفر القطاع السياحي بأنواعه ما يقارب 55 ألف منصب عمل حسب إحصائيات وزارة السياحة والآثار لعام 2003<sup>(8)</sup>، و مثلاً بأوربا مجلس السياحة يتبع مجلس الحكومة، تأكيداً منهم على أهمية الدور الذي تلعبه السياحة في الاقتصاد الوطني فبالسياحة تنشط بقية القطاعات الأخرى كالتجارة والصناعة بما فيها الحرف التقليدية والمواصلات والفنادق، وذلك عبر الوظيفة الاستهلاكية التي يقوم بها السائح، الأمر الذي يضمن دخول العملات الصعبة، ولهذا يمكن اعتبار الصناعة السياحية صناعة منظمة ومنضبطة شأنها في ذلك شأن الصناعات الأخرى، وحسب توقعات العالم الأمريكي جون نيبزرت فإن اقتصاد العالم في القرن الواحد والعشرين ستقوده ثلاثة صناعات خدمية وهي صناعة الاتصالات، وصناعة تكنولوجيا المعلومات، وصناعة الخدمات السياحية، حيث أشارت مثلاً بعض التقارير أن هذه الأخيرة أصبحت أكبر صناعة تصديرية في الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة 8,4 بليون دولار، تليها

صناعة السيارات بـ 61 بليون دولار وهي بذلك أكثر الدول إيراداً لهذا لم تعد السياحة تلك الرحلة التي يخرج فيها الإنسان لمدة معينة ليمضي وقتاً مريحاً بل أصبحت صناعة خدمات ضخمة نمت خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية على مستوى العالم لتصبح القاطرة التي ستقود النشاط الاقتصادي خلال السنوات القليلة المقبلة<sup>(8)</sup>، وتعمل السياحة بجميع أنواعها خاصة الأثرية على تنشيط الصناعات المختلفة ذات الارتباط المباشر أو غير المباشر بالسياحة مثل الصناعة الحرفية، النقل، زيادة على ذلك تضمن إنفاق مالي للمناطق السياحية الأكثر استقطاباً للزوار وذلك لإجراء عملية ترميم وصيانة دورية، الأمر الذي يشكل انتعاشاً لتلك المناطق، ضف إلى ذلك فهي تعمل على التخفيف من حدة مشكلة البطالة في المناطق السياحية وذلك بخلق فرص عمل ترفع مستوى المعيشة لديهم، كما أن بعض المؤسسات السينمائية تعتمد على إدماج المعالم الأثرية والمواقع التاريخية ذات الصبغة الحضارية ضمن الصناعة السينمائية باعتبارها تحمل إلى المشاهد صورة واقعية لما كان يحدث أيام الأسلاف على المستوى الاجتماعي والصناعي والعمراني ومن أمثلة ذلك ما قام به الإيطاليون في استخدام مدرج فيرونا الأثري لإخراج فيلم من العهد الروماني، حيث وضعت السلطات الأثرية هذا البناء تحت تصرف مؤسسة السينما التي بعثت الحياة الرومانية إلى المدرج من جديد وذلك من خلال إكمال زخارفه وتزويده بالتمائيل اللازمة المألوفة في العهد الرومان وقد تم ذلك بمواد خفيفة من الكرتون أو الخشب رسمت عليه العناصر المعمارية والزخرفة والتمائيل المفقودة أو التي يحتاج المشهد السينمائي إلى تجسيدها<sup>(10)</sup>، وهكذا كانت هذه الوظيفة أو الدور الذي تقوم به هذه الآثار عملاً جديداً من خلاله يمكن اكتساب دخل يحقق مبدءاً إحياء المباني التاريخية وربطها بعجلة الحياة وذلك عبر الإنفاقات المالية التي تستفيد منها في مجال الترميم والصيانة الدورية، الأمر الذي يضمن بقاءها شاخصة على مر الزمان، وللصناعة السينمائية دور غير مباشر في مجال الدعاية الإعلامية لتصبح بذلك تلك المعالم الأثرية أكثر استقطاب سياحي. في حين باتت السياحة الثقافية تمثل وفق الإحصائيات الصادرة عن منظمة السياحة العالمية أيضاً حوالى 37% من إجمالي سوق السياحة العالمي، أي ما يوازي ثلث إجمالي النشاط السياحي في العالم، ما يشير إلى أن السياحة الثقافية أصبحت من أبرز أنواع السياحة، وأنها تنمو بشكل سنوي بمعدل 15%



### قائمة المراجع:

- 1- يوسف (أمال) ، الممارسات الثقافية في الوسط الحضري، دراسة في البناء الاجتماعي لمدينة الغزوات، رسالة ماجستير، تخصص أنثروبولوجيا، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2002. ص: 24.
- 2- الظاهر (نعيم) ، سراب (إلياس)، مبادئ السياحة، دار المسيرة، عمان، الأردن 2001، ص: 142.
- 3 - الطائي (حميد عبد النبي) ، أصول الصناعة السياحية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ط2، الأردن 2006، ص: 38.
- 4- محمد (الصيرفي)، التخطيط السياحي، ط1، دار الفكر الجامعي، مصر 2007. ص: 51.
- 5- عبد القادر (الريحاوي)، المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق - سوريا 1972
- 6- الطائي (حميد عبد النبي ) مرجع سابق ، ص: 38.
- 7- الظاهر (نعيم) ، إلياس سراب، مرجع سابق، ص: 29
- 8- المرجع نفسه ، ص: 25
- 9- الظاهر (نعيم) ، سراب (إلياس)، مرجع سابق، ص- ص: 79 - 80.
- 10- الريحاوي (عبد القادر) ، مرجع سابق، ص: 47



## الجزائر وحركة التحرير الفلسطيني «فتح» من خلال جريدة الشعب

الأستاذ: شبوب محمد/جامعة الشلف

01/ لمحة تاريخية:

اختلفت الردود وتعددت الآراء فلسطينيا وعربيا على انطلاق العمل المسلح الذي باشرته حركة فتح، فبعض الأنظمة العربية رأى في فتح شعبة من شعب الإخوان، واعتبرها قوم آخرون أنها ليست من الشيوعية ببعيد، ومنهم من رأى أن أعمالهم لها عواقب وخيمة ستجر المنطقة إلى أتون حرب ليست مستعدة لها الآن، وفي مقابل ذلك استبشر بها آخرون على أنها نواة لعمل تحرري فلسطيني، ومن هؤلاء الجزائر (1).

كانت الثورة الجزائرية الملمم الأول لفكرة تأسيس فتح، فقد مثلت جبهة التحرير الوطني نموذجا يحتذى به بالنسبة لقادة فتح المؤسسين، وقد تفاعل قادة فتح مع الثورة الجزائرية (2)، حيث تعرف جمال عبد الرؤوف (القدوة الحسيني)، الشقيق الأكبر لياسر عرفات أثناء ترأسه لمكتب المغرب العربي في مقر الهيئة العربية العليا في القاهرة، إلى معظم قادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وقد كان القدوة أيضا عضوا في جمعية الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية والتي قام من خلالها بتوثيق الصلة بمحمد خيضر وقد دعت الجزائر- التي كانت تساند فلسطين حتى وهي تخوض حربها المسلحة ضد فرنسا- (3)، عند استقلالها فتح لحضور احتفالات استقلال الجزائر، والتي حصل ياسر عرفات خلالها على موافقة بن بلة الذي يعتبر أول حاكم عربي يستقبلهم (4)، على فتح أول مكتب للحركة في العاصمة الجزائرية، والذي تولى مسؤولية إدارته بعد افتتاحه رسميا في 23 سبتمبر 1963 « خليل الوزير» (5).

طور خليل الوزير علاقة فتح بالحكومة الجزائرية بحيث تم تعيين 1000 مدرس فلسطيني في نظام التعليم الجزائري، كما حصل على 150 منحة دراسية للفلسطينيين في الجامعات الجزائرية، فشكلوا مع المدرسين مصدرا لإمداد فتح بأعضاء جدد، وقام الجيش الجزائري في صيف سنة 1964 بتدريب ما بين 100 و200 فلسطيني على حرب العصابات، وقد أتاح مكتب الجزائر لفتح ربط علاقات وصلات لا تقدر بثمن مع حركات التحرر الأخرى، فقد

قابل خليل الوزير وزيرة خارجية الجبهة الوطنية لتحرير جنوب الفيتنام السيدة بنه ، أثناء زيارتها للجزائر ، كما قابل ارنستوتشي غيفارا الذي تعهد بتقديم دعم كوبي(6).

كما زار الوزير وعرفات بوساطة الجزائر الصين في 15 مارس 1964 لإجراء محادثات مع «لجنة التضامن الأفرو-آسيوي». والتي توجت بافتتاح مكتب فلسطين في بكين، وأثناء هذه الزيارة حضيا باستقبال «ماوتسي تونغ» رئيس الحزب الشيوعي وقررت فلسطين إثر هذه الزيارة مقاطعة إسرائيل، وزار الوزير في طريق عودته فيتنام الشمالية، وقد عاد الوزير بعد ثلاثة أشهر إلى الصين لاستلام هبة بقيمة 7000 جنيه إسترليني(7)، كما قدمت الجزائر للحركة شحنات من الأسلحة عبر القواعد الجوية السورية(8).

## 02/ فتح و الكفاح المسلح(9)

استلهمت حركة فتح العمل الفدائي من جبهة التحرير الجزائرية. وهذا ما أعلنه قادة فتح أنفسهم أكثر من مرة، أن انتصار الثورة الجزائرية، كان إلهاما حقيقيا للشعب الفلسطيني في قيام ثورته المباركة.

ولم يخيب قادة الجزائر المستقلة قادة الثورة الفلسطينية-المقتبسون من هدي ثورتهم-فقد أيد الجزائريون قيادة وشعبا هذه الحركة الفدائية، وهذا ما يقر به المتصفح لجريدة الشعب في تلك الفترة.

أول ما نُشر على صفحات الجريدة عن العاصفة كان .الجناح العسكري لفتح .بعد انطلاقها بـ15 يوم ورغم بساطة أول عملية لهذه القوات فان الجريدة أوردتها في سياق العمل الكبير الذي أربك قادة إسرائيل فقالت:«بطبيعة الحال فقد فوجئت سلطات تل أبيب بهذه العملية، و قد كشف قائد القوات الإسرائيلية الجنرال «دافيد الازار» عن وجود منظمة فدائية عربية داخل إسرائيل، و اشتباك أفرادها مع القوات الإسرائيلية أثناء تسللهم إلى داخل الأراضي العربية المحتلة(10). ثم توالى الجريدة في نشر الأخبار والبيانات والنداءات عن هذه الحركة وفي تعريف الجريدة لهذه الحركة قالت:« أن الاسم الحقيقي لهذه الحركة العاصفة يرمز له بحروف «فتح» اختصارا لعبارة «حركة تحرير فلسطين» وعرفت باسم العاصفة لما تقوم به من عمليات خاطفة داخل الأراضي المحتلة»(11)، وأضافت:«إنها حركة أعضاؤها من الفدائيين الفلسطينيين تعمل داخل الأرض المحتلة وتقوم بأعمال تدمير مواقع العدو... ولا يمر يوم إلا وتقوم بعملية تدمير جديدة في المستعمرات الواقعة

تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي»(12).

وبدخول ثورة العاصفة في فلسطين عامها الثاني كتب جريدة الشعب تحت عنوان « قوات العاصفة تحقق انتصارات هامة ضد العدو » حيث قالت: « وفي هذا اليوم تحتفل الجماهير الفلسطينية ومعها الجماهير العربية بالذكرى الأولى للثورة التي فجرتها طلائع قوات العاصفة في الدقائق الأولى من الفاتح جانفي 1965، ولهذه الذكرى معنى خاصا لدى كل من يهمه أمر القضية الفلسطينية وخصوصا الشعب الجزائري الذي آمن أن الثورة المسلحة هي الطريق الوحيد لتحقيق الاستقلال».(13)

وبعد عام من العمل الفدائي، وبعد أن فرضت فتح نفسها على الساحة الفلسطينية من خلال الكفاح المسلح، رأت الجزائر في ذلك إعادة للقضية الفلسطينية إلى وضعها الصحيح؛ على اعتبارها قضية احتلال يجب تصفيته، وهذا ما أكدته الجريدة بقولها: «وخلال عام كامل من الثورة المسلحة المعتمدة على السرية المطلقة و العمل الفدائي، أثبتت العاصفة القضية الفلسطينية إلى وضعها الأساسي السليم كقضية وطنية تحريرية متكاملة، وبهذه الإمكانات حطمت العاصفة أسطورة قوة العدو وحصانته، ومناعته، وأثبتت إلى كل من يعوزه الإثبات أن العمل الفدائي الجدي يمكن أن يصيب في كل ليلة من العدو مقتلا»(14). وقد وجدت الجريدة في العمل الفدائي لحركة فتح والأحداث التي صاحبت ذلك، مجالا واسعا للتعبير عن موقفها، ولذلك دعت الجريدة دون موارد لدعم قوات العاصفة في وقت كانت فيه الحركة غير مرغوب فيها من كثير من الأنظمة(15)، فقالت: « فبعد عام كامل ، وبعد أن أثبتت الثورة جديتها وفعاليتها أصبحت تحتاج أكثر من التأييد العاطفي، وتصفيق الإعجاب لقد أصبحت الثورة بحاجة إلى المشاركة الجديدة من جميع فئات الثورة، لتبقى مشتعلة حتى النصر»(16).

### 03/ فتح والحرب الإعلامية

المتتبع لبيانات ونداءات قوات العاصفة من خلال جريدة الشعب يجد أنها نهجت أسلوب الحرب الإعلامية، والدعاية النفسية، و التغني بالانتصارات والبطولات، فنجد أن أرقام القتلى والجرحى في جانب العدو الصهيوني كان مبالغاه فيه،(17) فضلا عن تضخيم الخسائر المادية، فنجد في أحد أعدادها عنوانا عريضا « مقتل 16 إسرائيليا في معركة مع الفدائيين الفلسطينيين » جاء فيه: « أن العدو قد تكبد خسائر في الأرواح بلغت 16 قتيلا و 19 جريحا، وذلك في معركة نشبت بين الطرفين في 18 جانفي الحالي، و قد أصيب اثنان من المجاهدين، و قد تمكنت فرق أخرى من القوات الثورية من تدمير منشآت صناعية وبتروولية و نسف

الجبسور» (18)، وفي عدد آخر كتبت ما يلي: «تواصل قوات العاصفة كفاحها البطولي، فقد أغلقت قوة من المجموعة الرابعة التابعة لقوات العاصفة طريق بئر السبع، ووضعت فيه لغما تسبب في تدمير سيارة عسكرية تابعة للعدو، فقتل أكثر من 10 جنود وفي ليلة 26 نسفت قوة من المجموعة الثامنة خزان المياه لرئيسي لمنطقة عراق المنشية وقتل 14 جنديا يحرسونه» (19) مما دفع إسرائيل لمواجهة عمليات الفدائيين «إلى شراء أجهزة استكشاف إلكترونية من النوع الذي يستخدمه الأمريكيون في الفيتنام» (20).

كما ركزت بيانات قوات العاصفة على تدمير قنوات ومضخات المياه وذلك ربما لكون أول عملية لها جاءت ردا على تحويل مجرى نهر الأردن وربما لرمزية الماء وارتباطه بالأرض، فلا تكاد تجد بيانا أو بلاغا نشر في الجريدة إلا وتجد تفجير خزان أو إتلاف أنابيب فنجد «أن قوات المجموعة العاشرة قامت ليلة 25 جوان 1965 بنسف مركز توزيع المياه بمشروع المياه القطري في الأرض المحتلة فدمرته تماما وقد عرفت المنطقة بالمياه» (21). وفي عدد لاحق قالت: «إن القوات العاملة في الأرض المحتلة قامت في نهاية شهر سبتمبر بنسف محطتين لضخ المياه لقرية كفر قاسم» (22).

ومما يجدر الإشارة إليه هو تعدد أماكن إذاعة البيانات، وهذا ربما بغية إيصال صوت هذه الحركة الفتية إلى أكبر شريحة ممكنة من الوطن العربي، والتعريف بها، فقد نشرت الشعب البيان الذي أصدره مكتب القيادة العامة لقوات العاصفة في الجزائر والذي جاء فيه: «بينما كانت قوة من مناضلينا متجهة إلى هدف لها داخل الأرض المحتلة، اضطرت إلى الاشتباك مع دورية للعدو مؤلفة من خمسة آلات مصفحة ... و استخدمت في المعركة المدافع الرشاشة و القنابل اليدوية» (23).

كما تبنت الحركة في بياناتها الخطاب الجماهيري المباشر، فنجدها تخاطب الجماهير العربية «القيادة العامة لقوات العاصفة إذ تعلن عن فقد بطليها الشهيدين لشعبنا العربي الفلسطيني، وللأمة العربية لتعاهد الشهداء الأبرار أن تظل سائرة بقوة و صلابة في درب الكفاح المسلح، مؤمنة بأن التضحيات مهما عظمت لن تلين من قناتنا، بل ستزيدنا إصرارا على الكفاح و النضال في طريق التحرير حتى النصر» (24).

والمتتبع لبيانات وبلاغات قوات العاصفة يجد من خلالها أن قوات العاصفة تمثل جيش مقسم إلى فرق ووحدات، أكثر منه مجموعة من الفدائيين المدربين على عمليات الكر والفر، فنجد القيادة العامة لقوات العاصفة تصدر بيانا عن العمليات الحربية التي

قامت بها جاء فيه: «أن قوة من الفرقة 32 قامت بنصب كمين، قضت فيه على أحد عشر جندي إسرائيلي، كما قامت قوة من الفرقة 56 بنصب كمين، فقضت على جنود ناقلة وغنمت أسلحتها، كما قامت قوة من الفرقة 11 بهجوم على مستعمرة بيعاتلي و نسفت مركز المستعمرة» (25).

وقد شنت الجزائر هجوما إعلاميا على الأردن الذي يعاني فيه الفدائيون حسب الجريدة معاناة كبيرة من خلال تقييد حركتهم وملاحقتهم، و إبعاد البعض منهم<sup>(26)</sup> ، أما لبنان فلم يسلم هو كذلك من الهجوم الإعلامي عليه ففي بيان للعاصفة حول استشهاد المناضل «جلال كعوش» (27)، الذي اغتالته المخابرات اللبنانية في 10/01/1966 جاء فيه: «استشهد بأيدي عربية الوجه و اللسان ، أجنبية القلب و الولاء ، و أريق دمه في ثكنة الحلو ببيروت، إثر محاولة انتزاع اعترافات منه عن رفاقه في السلاح الذي يقومون بواجبهم المقدس» (28). الهوامش:

1. بالإضافة إلى سورية والتي أقام مؤسسو فتح وكوادرها الرئيسيين فيها صلات مبكرة بكبار المسؤولين وبالشخصيات السياسية ( 1962-1963)، على غرار ما فعل القدومي و غيره من البعثيين الذين انظموا إلى الحركة بعد الانفصال السوري سنة 1961، وبعد انقلاب 9 آذار (مارس) 1963، لم يكن هناك ما يشجع على إقامة تحالف بين النظام الجديد و فتح فالبعثيون كانوا يعرفون الخلفية الإخوانية لأفراد من قادة فتح، كما ظنوا في وجود ارتباطات لهم بالمملكة السعودية ،لكن تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في أيار (مايو) 1964 قلب الأوضاع، فالمنظمة في اعتقاد سورية ليست سوى مقلب قط في يدي عبد الناصر. وخلص حزب البعث الحاكم في سوريا في هذه الفترة، أن أفضل طريقة لإحراج عبد الناصر هي كشف عدم رغبته في مواجهة إسرائيل، وقد صرح مسؤول بعثي كبير بأنه سيمرغ أنف عبد الناصر في طين فلسطين فهناك ستكون نهايته ، وقد وفرت فتح الوسيلة الملائمة لهذا الغرض.

وقد ظلت سورية أهم ساحة بالنسبة لفتح، وجعل عرفات من دمشق قاعدته الرئيسية، وقد قدم حافظ الأسد قائد سلاح الجو خدمة جليلة للحركة إذ سمح بانتقال شحنات السلاح الجزائرية إلى الحركة عبر القواعد الجوية السورية.

أنظر: يزيد صايغ، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2002، ص ص: 174-176 .

2. جريدة الشروق اليومي، «حوار مع القائد الفتحاوي مروان البرغوثي» ، ع 3112

، 11/11/2010 ، ص.12.

3. جريدة الشعب، ع 331، 31/12/1963، ص.3.
4. محمد خليفة، حديث معرفي شامل مع أحمد بن بلة ، دار الترنايف للنشر،(د م ن)، 1985، ص.269.
5. يزيد صايغ، الكفاح المسلح و البحث عن الدولة ، مرجع سابق، ص.172 .
6. محمد خليفة، مرج سابق، ص.270 .
7. يزيد صايغ، مرجع سابق، ص.173.
8. المرجع نفسه، ص.176.
9. حسب أبو عمار كان من المفروض أن تنطلق أول رصاصة سنة 1964، ولكن كان في قيادة فتح رأيان مختلفان: الأول يستعجل الانطلاقة، والثاني : يدعو إلى التريث والتروي وفي نفس السنة اجتمع المجلس العسكري سرا، في القدس مرة وفي عمان مرتين وصوت أعضاء المجلس على عدم الموافقة على الانطلاقة عام.1964 ويضيف أبو عمار « كان أعضاء المجلس العسكري الذين يؤيدون اقتراح تأجيل الانطلاقة يقولون إننا في حاجة إلى 500 قطعة سلاح لكي نبدأ و 50 إلى 60 ألف دينار وكنت أنا وأبو ماهر» عضو القيادة المركزية» من أنصار الاستعجال. وحينما اختلفنا رفعا الأمر إلى اللجنة المركزية التي أخذت بوجهة نظر الآخرين، و هنا أذكر هوارى بومدين، قابلته في وزارة الدفاع عام 1964 وقال لي :« اذهب وأطلق طلقة واحدة ثم عد إلي». وربما شابه هذا الانقسام في وجهات النظر بين المترئين والمستعجلين ما جرى للجنة الـ22 في التحضير لاندلاع ثورة نوفمبر في الجزائر، وإن كان الجزائريون قد حسموا أمرهم، بإعلان الثورة، وعدم التأجيل، فإن قادة فتح قد توصلوا إلى حل وسط يخرجهم من هذا الاختلاف المحتدم بين وجهتي نظر الطرفين، هذا الحل هو أن تكون الانطلاقة باسم آخر هو «العاصفة» فإذا وفقت تبنتها الحركة كجناح عسكري، وإذا فشلت تستمر فتح في النضال ويقال أنهم «شوية شباب متحمس» على حسب تعبير أبو عمار.
- وقد تم الاتفاق على أن تكون الانطلاقة في 01/01/1965، ولكن بعض المناضلين أقسموا أن يفجروا الثورة عام 1964، لذلك كانت أول عملية في دير نحاس على الساعة 11 مساء يوم 31/12/1964، وقد استشهد قائد هذه العملية تحت التعذيب وهو الشهيد رمضان البنا، وهو من الذين أقسموا على أن تبدأ الانطلاقة عام1964أنظر:
- محمود درويش، أحمد عبد الرحمن، «حوار مع أبو عمار»، شؤون فلسطينية، ع86،



1979، ص.17.

- صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، دار الجيل، عمان، ط2، 1996، ص ص:18-76.
10. الشعب، عدد 647، 16/01/1965، ص.05.
11. الشعب، عدد 727، 14/04/1965، ص.05.
12. الشعب، ع 1370، 18/05/1967، ص.03.
13. الشعب، ع 945، 01/01/1966، ص.07.
14. الشعب، ع 945، 01/01/1966، ص.07.
15. اعتبر الرئيس جمال عبد الناصر، قرار فتح ببدء الكفاح المسلح ضد إسرائيل في هذا الوقت بالذات غير ذي جدوى، ورأى ضرورة تأجيل هذا الموضوع بسبب انشغال القوات المصرية في اليمن، وإن الظرف قد لا يكون مناسباً لمناوشات على الجبهة السورية تتسع و تفرض على مصر أعباء لا تحتملها الظروف حينئذ، لكن فتح باشرت بالقيام ببعض العمليات انطلاقاً من الجبهة السورية، رأت فيها القاهرة علامة تصرف غير مسئول في وضع غير ملائم، وقد أصدر القائد العام للقيادة العربية الموحد، الفريق أول علي عامر في مارس 1965، أصدر تعليمات إلى نظرائه العرب، بضرورة إلقاء القبض على أعضاء فتح بحجة انتمائهم إلى جماعة الإخوان المسلمين المحظورة.
- و قد حاول قادة فتح الالتقاء بعبد الناصر، لكن محاولاتهم كانت دون جدوى وإن نجحوا في الالتقاء«بشمس بدران» وزير الحربية المصري، غير أن اللقاء لم يسفر عنه شيء. انظر:
- يزيد صايغ : رفض الهزيمة: بدايات العمل المسلح في الضفة والقطاع - 1967، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1992، ص.56.
- الكفاح المسلح، مرجع سابق، ص.185.
- عصام الدين فرج، منظمة التحرير الفلسطينية (1964-1993)، مركز المحروسة، القاهرة، 1998، ص.142.
- محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب و إسرائيل : سلام الأوهام ( أوسلو ما قبلها و ما بعدها ) ، دار الشروق، القاهرة، ط 8، 2004، ص. 18.
16. الشعب، ع 945، 01/01/1966، ص.07.
17. لكن في حقيقة الأمر فقد بلغ عدد العمليات العسكرية التي شنتها العاصفة إلى غاية حرب حزيران خلال سنتين ونصف من انطلاقها، بلغت 200 عملية فقط، لم تكن

أكثر من عمليات إزعاج بسيطة إذ لم توقع في صفوف الإسرائيليين أكثر من 11 إصابة، لكنها في المقابل ساهمت في إثارة التوتر العام و الرعب و عدم الشعور بالأمن. أنظر: - محسن محمد صالح ، فلسطين: دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، مركز الاعلام العربي، القاهرة، 2003، ص 390.

- يزيد صايغ، رفض الهزيمة، مرجع سابق، ص.8.

18. الشعب، ع 655، 26/01/1965، ص.1.

19. الشعب، ع 815، 02/08/1965، ص.1.

20. الشعب، ع 1131، 03/12/1966، ص.1.

21. الشعب، ع 854، 16/09/1965، ص.05.

22. الشعب، ع 876، 13/10/1965، ص.05.

23. الشعب، ع 1170، 23/09/1966، ص.05.

24. الشعب، ع 1170، 23/09/1966، ص.05.

25. الشعب، ع 903، 13/11/1965، ص ص:01-05.

26. الشعب، ع 1229، 01/12/1966، ص.01.

27. جلال كعوش ( 1924 - 1966 ) :أول شهيد فلسطيني على الأرض اللبنانية ، ولد في قضاء صفد عام 1924 تلقى تعليمه في قريته ، وتخرج من مدرسة صفد الثانوية عام 1944، وفي عام 1948 انخرط في صفوف المجاهدين ، وكان قائدا لفرق شباب القرويين في الجليل الشمالي من فلسطين، ثم التجأ مع عائلته إلى لبنان وعام 1956 عاد لمقاتلة الغاصبين أثناء العدوان الثلاثي فقام بعده عمليات فدائية جريئة، وفي عام 1957 قام بنسف السفارة الفرنسية بيروت ردا على الجرائم التي ارتكبتها الجنود الفرنسيون بحق الشعب الجزائري فحكمت عليه محكمة لبنانية بـ 15 سنة، ولكنه استطاع الهروب من سجن بعلبك سنة 1958 لينظم إلى الثوار في منطقة صيدا، ليصبح بعد مدة القائد العسكري لهذه المنطقة .

في بداية الستينات انضم إلى حركة فتح فاعتقلته عناصر المكتب الثاني اللبناني بتاريخ 28/12/1965، وحاولت هذه العناصر أن تنتزع منه المعلومات، عن رفاقه الذين يقومون بواجبهم المقدس فتم قتله، شيعت جنازته في 10/01/1966. وكانت جنازته حافلة مهيبة ودفن في مقبرة صيدا. أنظر: محمد عمر حمادة، موسوعة أعلام فلسطين، ج 2 ، دار الوثائق، طبعة خاصة بالقدس عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، ص ص: 72-73.

28. الشعب، ع 961، 20/11/1966، ص.54.

## المعارضة الفرنسية للحرب الاستعمارية في الجزائر

1962-1954

د/ علوان أمال -جامعة الجيلالي اليابس

إنّ الثورة الجزائرية خلقت شرخا عميقا داخل المجتمع الفرنسي بين مؤيد ورافض للحرب الفرنسية داخل الجزائر، هذا الرفض بدء خلال السنوات الأولى من الثورة الجزائرية قليلا ومحتشما، ليتوسع ويكبر بالموازاة مع تواصل وتطور الثورة التحريرية الجزائرية وما لاقته من قمع واضطهاد استعماري فرنسي، تطور هذا الرفض وأصبح تيار معارضة ضم قاعدة واسعة من المجتمع الفرنسي تنادي بصوت واحد «أوقفوا الحرب في الجزائر»، فما هي الدوافع الحقيقية للتيار المناهض للحرب داخل الجزائر؟ ماهو دوره في فرض المفاوضات كخيار سلمي ومشرف لفرنسا؟

إنّ دوافع تبني هذا الموقف كانت مختلفة ومتعددة، بحيث يصعب في الكثير من الأحيان الفصل بينها، نحن من خلال هذا الحيز الضيق سنحاول رصد أبرز أشكال المعارضة الفرنسية وتفسير دوافعها قدر المستطاع.

يرى بعض المؤرخين أن الانطلاقة كانت مع المفكرين الذين أيقظوا الضمير الفرنسي، ثم الفكر الذي تميز بطابعه الأخلاقي والإنساني<sup>1</sup> ثم رجال الدين فيلهم المجندين، عند الطبقة المثقفة الفرنسية المعارضة للحرب في الجزائر نجد دافعين أساسيين يصعب الفصل بينهما أو ترجيح أحدهما على الآخر هذين الدافعين هما: صحوة الضمير الإنساني الرافض لكل ظلم وجور ولو ضد المجتمع المنتسبين إليه وبين دافع حب فرنسا والغيرة على مبادئ ثورتها « الحرية ، العدالة والإخاء» وصورتها بين الأمم وهي التي اقترفت أبشع أنواع التنكيل بشعب أعزل ذنبه الوحيد أنه أراد الإنعتاق من قيد العبودية وناشد الحرية والاستقلال .

1-دافع إنساني ضد سياسة التعذيب والقمع : إنّ عمليات التعذيب في الجزائر كانت منتهجة من قبل عناصر الشرطة قبل اندلاع ثورة التحرير 1954، بيد أنّ الصحافة اهتمت بملف عمليات التعذيب بعد اندلاع الثورة وما عقبها من حملة الاعتقالات والتعذيب التي

شنتها الإدارة الاستعمارية ضد الجزائريين، فجاء أول رد فعل رافض لتلك الممارسات من مسؤولي 15 منظمة شبابية بالجزائر 2 بإرسال رسالة 3 إلى الحاكم العام للجزائر بتاريخ 20 نوفمبر 1954، جاء فيها بعد طلبهم محاكمة ومعاقبة مسيبي أحداث نوفمبر، المطالبة بعدم استخدام القمع وعمليات التمشيط التي من شأنها أن تزرع الشقاق بين العرقين الجزائري والأوروبي، وتأجج نار الحقد والكراهية، وأن الحل يكمن في الاتفاق والتفاهم المتبادل.

ألفاظ وعبارات الرسالة الموجهة إلى الحاكم العام فضحت ممارسات الإدارة الاستعمارية كمصطلحي «القمع» و«العمليات التمشيطية»، لكنها جلبت لمحررها بيار برتيس «Jean-Pierre Pertus» سخط الإدارة و الكولون مما اضطر أسقف الجزائر «ديفال» (Duval) أن يعيده وعائلته إلى فرنسا.

بعد أسابيع من نشر الرسالة وبالتحديد في 20 نوفمبر 1954 قام «بيار شولت» 6 بترتيب لقاء بين أسقف الجزائر «ديفال» ومناضلين وطنيين منهم مستشارين بلديين عاصميين تعرضوا لتعذيب من قبل أجهزة الأمن الفرنسية عقب تفجيرات الفاتح نوفمبر، هذا اللقاء كان سببا مباشرا في إصدار «ديفال» يوم 17 جانفي 1955 نص يدين فيه التعذيب مستشهدا بأقوال البابا الثاني عشر 7.

في بداية الثورة قلة من فرنسي الجزائر رفضوا العنف والقمع الجماعي الاستعماري الفرنسي المسلط على الجزائريين لأنهم كانوا قد اطلعوا بداية الخمسينات على أحوال الجزائريين وما عانوه من غبن ومآسي، فعرضتهم مواقفهم تلك لسخط الإدارة الاستعمارية حيث ألقى القبض على «بيار شالوت» وعلى أخته «آن ماري» وأخريات مثل «دونيس ألبرت» Denise Walbert و«إفلين لافالات» Évelyne Lavalette التي عذبت و«أندري غاليس» Gal- André lice التي ألقى عليها القبض يوم 06 مارس 1957 خلال معركة الجزائر والتي سجنّت لسته أشهر بتهمة إيواء المجاهدين 8، وآخرون طالهم ما طال الجزائريين من تعذيب وقتل وأبرز مثال هنا هو حالة «موريس أودان» المساند لثورة التحرير، والفارين من الجيش الفرنسي لعدم اقتناعهم بصواب ما كان يحدث من تقتيل للأبرياء العزل.

لم يقتصر الرفض للحرب الاستعمارية في الجزائر عند المحاضرات والندوات أو تأليف الكتب بل تعداها إلى المشاركة في العمليات الفدائية، ضمن هذا الصدد يقول المجاهد «عبد

القادر قروج» 9هناك العديد من الأسماء التي شاركت في معركة الجزائر، تظل مجهولة إلى اليوم سيما الأوروبيين... كان من بين المساعدين لي في مهام أوروبيين، من بينهم يمكنني ذكر «جورجيو أكابورا»، «أندري كاستل» 10. «ويضيف قائلا كما كان هناك أوروبيون في المجموعة التي كنت أشرف عليها أذكر «هنري دوكلار» «فيليكس كولوجي» ..... من العمليات التي قام بها هذا الأخير حرق مستودع للحلفاء التي كانت في طريقها إلى فرنسا.. 11 «دون أن أنسى النساء اللاتي شاركن في وضع القنابل، حيث كان في المجموعة التي أشرف عليها عدد من النساء الأوروبيات اللاتي كن يضعن القنابل منهن «إيما ناهون» التي كانت تشتغل بالإذاعة.»

هذه الأسماء وغيرها تؤكد أن عدد من الأوروبيين 12 بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة كان لهم الدور الفعال في ثورة التحرير 13.

2- الدافع الثاني هو الغيرة على سمعة فرنسا ومكانتها الدولية: وكما سبق وأسلمنا يصعب فصله عن الدافع الأول، غير أننا نستشفه من مصطلحات خطاباتهم أو كتاباتهم، أبرز ما أثار سخط واستنكار بعض الأوساط الفكرية الفرنسية الأحداث التالية:

أ- معركة الجزائر: «La Bataille d'Alger» التي خاضها المظليون بقيادة الجنرال «ماسو» «Massu» من جانفي إلى سبتمبر 1957، بأمر من الحاكم العام، «لاكوست» صاحب سياسة «ربع الساعة الأخيرة»، وقد ارتكب فيها أبشع أعمال القتل والتعذيب والتدمير ضد المدنيين.

ب- الاعتداءات المتكررة على دول الجوار وخرق المواثيق الدولية وهو ما تجسد في:

- القرصنة الجوية الفرنسية واختطاف الطائرة المغربية المتجهة من مراكش إلى تونس يوم 22 أكتوبر 1956، والتي كانت تُقِلُّ خمس زعماء من الثورة الجزائرية (أحمد بن بلة- محمد بوضياف- حسين آيت أحمد- محمد خيضر- مصطفى الأشرف) اعتقادا منها أن ذلك سيقضي على الثورة الجزائرية وكأنها ثورة زعماء و أشخاص 14!

- مشاركة فرنسا كل من بريطانيا وإسرائيل في العدوان الثلاثي يوم 29 ماي 1956 ضد مصر للإنتقام من زعيم الثورة المصرية «جمال عبد الناصر» الذي اهتمته بالرأس المفكر

والمدير للثورة الجزائرية، «فالدقة التي ميزت الأحداث أكبر من عقول الأهالي»<sup>15</sup>.  
-قصف ساقية سيدي يوسف التونسية في 08 فيفري 1958 بدعوى ملاحقة الثوار  
الجزائريين، أودى بحياة 79 مدنيا بينهم 11 امرأة و 20 طفلا وجرح أكثر من 138 شخص ،  
ودمر مرافق القرية تدميرا كاملا.

هذه الإجراءات والممارسات فضحت النظام الإستعماري الفرنسي القائم على أساس  
اللاإنسانية، بيد أنها أيقظت ضمائر زمرة من مثقفي المجتمع الفرنسي وهي تلك الفئة  
المؤمنة بمبادئ الثورة الفرنسية «الحرية، المساواة والإخاء»، هذا التيار الذي مثله المفكر  
والفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» في كتابه الشهير «عارنا في الجزائر» حملته نظرتة حول  
الممارسات التي يقوم بها الجيش الفرنسي في الجزائر باسم الأمة الفرنسية، ووصفها بأنها عار  
كبير على فرنسا الحضارة ومبادئ ثورتها :حيث يقول في كتابه«...نحن فرنسي المتروبول  
ليس لنا إلا درس واحد نتعلمه من هذه الأحداث، إنّ الاستعمار يعمل الآن على تهديم  
ذاته، لكنه مازال يعكر الجو، إنه عارنا وهو يهزأ بقوانيننا...»<sup>16</sup> أما الندوة الصحفية التي  
نشطها بالعاصمة الإيطالية «روما» والتي كان موضوعها «الديمقراطية الفرنسية والمشكل  
الجزائري»<sup>17</sup> والتي عبر خلالها عن أفكاره ومواقفه حيال ما يحدث حينئذ في الجزائر، أثرت  
في الكثير من المثقفين الفرنسيين ذوي الاتجاه اليساري، إلى جانب جون بول سارتر نجد  
المؤرخ شارل أندري جولييان الذي أكد وجود الأمة الجزائرية وضرورة الابتعاد عن أطروحة  
الجزائر فرنسية<sup>18</sup>، وفرنسيس جونسون (Francis Jeanson) <sup>19</sup>، الذي جعل من جريدته  
«حقيقة من أجل» «vérité pour» منبرا لفضح جرائم التعذيب وتجاوزات الجيش الفرنسي  
في الجزائر، هذا وقد أصدر بالتعاون مع زوجته «كولات» كتابا عن حرب الجزائر بعنوان  
«الجزائر خارج القانون» والذي نبه فيه الرأي العام العالمي إلى خطر الاستعمار وإلى شرعية  
الثورة الجزائرية، وكتاب «حربنا» الصادر سنة 1960 والذي رد فيه على الذين أخذوه على  
دعم أعداء بلاده، لم يكتفي «جونسون» بالأقوال بل ساند الثورة الجزائرية فقد أسس  
تنظيم سري يعرف باسمه في 12 أكتوبر 1957، كما يعرف هذا التنظيم أيضا باسم «حملة  
الحقائب»، الذي ضم مجموعة من الفرنسيين والأوربيين الذين آمنوا بحق الشعب الجزائري  
في نضاله ضد سياسة بلادهم، وقد جعلوا من أوربا ميدانا لنشاطهم كنقل الأموال خارج  
التراب الفرنسي لشراء الأسلحة وبعثها إلى الثوار الجزائريين.

3- المراعين للمصالح الإقتصادية: لقد كانت نفقات الحرب في الجزائر طائلة جدا، وكانت الحكومة الفرنسية تخفي تلك الحقيقة المرة على الفرنسيين بشهادة واحد ممن شغلوا كرسي رئاسة الوزراء ، إنه «منديس فرانس» الذي صرح أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في نوفمبر 1957 قائلا: «إن مصاريف حرب الجزائر شيء غريب حقا، والشعب الفرنسي يجهل تماما هذا الشيء الغريب ، وكل ما يقال له هو أنّ الثورة الجزائرية ستنتهي قريبا». 20. فالآلة الاستعمارية الفرنسية فشلت في القضاء على الثورة الجزائرية، التي أنهكت خزائنها العامة و أوصولتها في بداية 1958 إلى حافة الإفلاس، الأمر الذي دفع بفرنسا إلى الإستنجاد بالولايات المتحدة الأمريكية، لطلب قرض مالي كبير منها لتمويل حربها في الجزائر، حتى على المستوى السياسي فإن الثورة الجزائرية استطاعت بالرغم من حالة الطوارئ والحصار، والخطوط الجهنمية أن تدخل فرنسا في أزمة سياسية حقيقية وخندق ضيق إذ توالى تساقط الحكومات ، فمنذ صيف 1954 حتى شهر أفريل 1958 شهدت فرنسا تعاقب ستّ وزارات، ومنذ 1954- 1962، شهدت فرنسا ثماني حكومات، بعضها لم يعمر سوى أيام . استطاعت الثورة الجزائرية فرض نفسها على الرأي العالمي بسبب مشروعية مطالبتها، كما استمالت إليها جزءا من أبناء غريمتها ، وسرعان ما تحولت المواقف الفرنسية الفردية الراضية للحرب في الجزائر إلى مواقف جماعية فتيار معارضة مع إختلاف أسباب و دوافع الرفض، ونجحت في الضغط على ساستهم حتى يجنحوا للحل السلمي.

الهوامش:

1- محمد الأمين بلغيث: موقف المثقفين الفرنسيين من التعذيب والسجون والمحتشدات أثناء الثورة الجزائرية، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، العدد 05، 2001، ص 193.

2- الرسالة وقعت من قبل التنظيمات التالية:

-les Guides de France (Françoise Becht), le MLAJ, les Francs et Franches Camarades, les Boys Scouts Musulmans Algériens et les Scouts Musulmans Algériens , la JOC, l'ANEJI, l'AJAAS (l'Association de la jeunesse algérienne pour l'action sociale), les EIF, les EDF, la JEC, la JECF, l'Association catholique des étudiants d'Alger, les Scouts de France, (Pierre Roquebert, commissaire de la province d'Alger), et les CEMEA.

3- الرسالة نشرت ابتداءً من 25 نوفمبر في أغلب الصحف اليومية والأسبوعية مثل: 25 نوفمبر بجريدة «L'Effort Algérien»، وفي جانفي 1955 بجريدة «La Route»، كما نشرت في شهر ماي من نفس السنة بجريدة

« Feux de France »

4- Alain Michel : « Juifs français et scouts, les Éclaireuses et Éclaireurs israélites de France de 1923 à nos jours », thèse d'histoire, université de Paris I, 1993, p. 225.

5- قام بتحرير الرسالة إلى جانب «جون بيار برتيس» كل من : «بول غوندي» (Paul Rendu) و «ميشال غيقال» (Michel Rigal).

6- «بيار شولت» (Pierre Chaulet) طالب في الطب ومرشد بالكشافة الفرنسية (les Scouts de France S.D.F)، كان عضوا بارزا بـ «جمعية الشبيبة الجزائرية للعمل الاجتماعي» (L' AJAAS) التي شهدت النور في ربيع 1952، نظمت هذه الجمعية لقاءات فصلية بين مختلف الشباب (أوربيين ومسلمين) لمناقشة مواضيع البطالة، المجاعة، الاستعمار، كان يحضر هذه اللقاءات ما بين 300 إلى 400 شاب، كما اطلقت نشاطات اجتماعية في الأحياء المعوزة بالعاصمة: لتقديم الاستشارات الاجتماعية، تعليم الأميين، الفحص الطبي المجاني الذي كان يقوم به «بيار شولت». أنظر:

6- Armande Blasselle : témoignage sur les GDF à Alger dans Le scoutisme. Quel type d'hommes ? Quel type de femmes ? Quel type de chrétiens ?, Paris, Cerf, 1994, p. 413-420.

7- Pierre Chaulet : Le Soir d'Algérie, 29 janvier 2001

8- Raphaëlle Branche : La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, 1954-1962, Gallimard, 2001, pp. 126, 127, 128, 132, 142.

9- عبد القادر قروج: مسؤول عن حزب الشيوعي الجزائري بمنطقة تلمسان ، إلتحق بصفوف الثورة التحريرية يوم 14 جويلية 1955، من أبطال معركة الجزائر، كان على رأس 13 مجموعة فيدائية، تحت القيادة المباشرة لياسف سعدي، حكم عليه بالإعدام، أطلق صراحه يوم 21 ماي 1962.

س- بلقاضي و ح- بوزيان : حوار مع عبد القادر قروج: «الثورة تأكل أبناءها»، الخبر الأسبوعي، عدد خاص، العدد 296، السنة السادسة، من 10/30 إلى 11/05/2004، ص 11.



10- أندري كاستل: المعروف بـ: «مراد كاستل» عمل إلى جانب بلعيد عبد السلام في وزارة الصناعة بعد الإستقلال.

11- نفسه.

12- ضمن هذا المجال يعقب السيد عبد القادر قروج: «يحز في نفسي التجاهل الذي يلقاه هؤلاء الذين ساهموا بأرواحهم وعائلاتهم وكل ما يملكون من أجل قضية آمنوا بها، في اعتقادي أنه يجب أن يكون الاحتفاء بهم أكثر من الثوار الجزائريين، فعلى قلتهم يجب أن يكون تكرمهم كبيرا، من واجبنا إعادة الاعتبار لكل الأجانب الذين وقفوا إلى جانب ثورة التحرير منذ الاستقلال فنحن نتجاهل أصدقاء الثورة»

13- أغلب الأوربيين المساهمين في الثورة اختاروا البقاء في الجزائر بعد الإستقلال، أمثال «فيليكس كولوجي» الذي يقول عنه المجاهد عبد القادر قروج: «هذا الأخير الذي ما يزال على قيد الحياة، وبالرغم من زواجه بجزائرية وإقامته بالجزائر إلا أنه ما زال لم يحصل على الجنسية الجزائرية، حتى أن زواجه تم بالفاتحة فقط لأنه لا يحمل الهوية، فقد انتزعت منه وهو يسعى اليوم من أجل الحصول عليها من جديد...» ينظر نفس المقال للمجاهد عبد القادر قروج.

14- لكي نفهم ردة الفعل التي أحدثتها عملية القرصنة نلقب في صفحات الوثيقة التي أرسلها رئيس البعثة الفرنسية الدائمة لدى هيئة الأمم المتحدة إلى وزير الخارجية «كيمو» في 23 أكتوبر 1956: «البيان الصادر من المجموعة الإفريقية الآسيوية والذي وصف الفعل الفرنسي بأنه عمل استبدادي سيؤدي إلى تعكير إضافي للسلام وإلى زعزعة الأمن في شمال إفريقيا، وسيعيق الطريق للتوصل إلى حل سلمي لقضية الجزائر، وتحقيق طموحات الشعب الجزائري، إن ردود الفعل الأولية ليست في صالح فرنسا.» حسن شحاته : حصة أرشيفهم وتاريخنا : حلقة عن الثورة الجزائرية، قناة الجزيرة ، جويلية 2010.

15- نشرت الصحافة الفرنسية أن المملكة الليبية ومصر هما اللتان تحركان التشويش وتدعمان التمرد من أجل الانفصال عن «الوطن الأم»، لأنهما غير راضيتين عما حققته الجزائر الفرنسية من تقدم وازدهار. ينظر : محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج2، إتحاد الكتاب العرب 1999، ص 27.

16- أحمد منغور: موقف الرأي العام الفرنسي من الثورة الجزائرية 1954-1962، دار التنوير، 2008: ص 207 .

17- المجاهد: «الفوضى في فرنسا»، المجاهد، العدد 110، 11/12/1961، ص 12.

18- نفسه، ص 208.

19- فرنسيس جونسون: من مواليد مدينة «بوردو» الفرنسية عام 1922 حائز على إجازة في الآداب و دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة، انضم سنة 1943 إلى القوات الفرنسية في شمال إفريقيا، عهد إليه «سارتر» بإدارة مجلة «الأزمة الحديثة» ما بين (1951-1956)، كتب بانتظام في جريدة الجمهورية التابعة لحزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري U.D.M.A .

20- عمار قليل : ملحمة الجزائر الجديدة ، ج2، دار البعث، قسنطينة ، ط1، دون تاريخ: ص 129.

## المسألة اللغوية في تونس: مقارنة سوسيو- سياسية

أ.د. سالم لبيض- أستاذ علم الاجتماع السياسي -جامعة تونس المنار

مدخل:

لقد تفتن ابن خلدون منذ أكثر من ستة قرون إلى أن المسألة اللغوية كانت دائما موضوع اتصال تختلط فيه اللغات فتفقد نقاوتها وقد تحيد عن أصولها. وجاء في قوله «..وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل، فلأن البعد عن اللسان إنما هو مخالطة العجمة، فمن خالط العجمة أكثر كانت لغته عن اللسان الأصلي أبعد..» (ابن خلدون: 1999)، وهي بذلك تكون موضوع هيمنة سرعان ما تتحول إلى نوع من الامبريالية اللسانية والمصطلح، لكالفي (calvet: 1974)، خاصة لما تربط اللغة بالهيمنة الاستعمارية ومؤسساتها التي تضع سلما تراتبيا لغويا بموجبه أقصيت اللغات الوطنية لتحل محلها لغات الدول الاستعمارية. وفي الفترة ما بعد الاستعمارية نشأت على تلك الأرضية المختلة ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي بورديو بالسوق اللغوية (Bourdieu: 1982) التي لا تخضع لفكرة العرض والطلب، القاعدة التي لا تحكم السوق الاقتصادية فقط وإنما تخضع لروابط القوة والهيمنة التي تستخدم آليات المنافسة والصراع والاختراق اللغوي، مما يؤدي إلى محاصرة اللغات الوطنية في بلدانها إلى أن يبلغ بها الأمر حد الموت والاندثار كما حصل مع كثير من لغات المجتمعات الأصلية في إفريقيا. فهل يصدق ذلك على الوضع اللغوي في تونس؟

### -الجدور التاريخية للمسألة اللغوية في تونس:

تعالج هذه الورقة إحدى الإشكاليات المفصلية في التاريخ الثقافي والسياسي والنخبوي في تونس وهي القضية اللغوية وعلاقتها بالمشروع الوطني كحاضن لمسألة الهوية عموما بمقومها الرئيسيين اللغوي والديني. فالعلاقة بين اللغة العربية والقرآن هي علاقة جدلية تقوم على توفير العربية المعرفة اللغوية لفهم كتاب الإسلام المقدس ويتولى هذا الكتاب الحفاظ على تلك اللغة من الاندثار في ظل ما تعرضت وتعرض له من حروب لغوية استهدفت وجودها طيلة فترة الهيمنة الغربية على العالم التي بدأت مع احتلال فرنسا للجزائر واستمرت إلى يوم الناس هذا. ويستمد اصطلاح القضية اللغوية مشروعيتها من

نواح تاريخية وأخرى سياسية وثالثة فكرية وثقافية. من الناحية التاريخية شكلت اللغة موضوعا للجدل والصراع في تونس منذ أن استعان المشير احمد باي الذي حكم تونس في منتصف القرن التاسع عشر ببعض المدرسين الإيطاليين والفرنسيين في تدريس العلوم الحديثة بالمدرسة الحربية بباردو التي أسسها سنة 1946 وفق النموذج الأوروبي عامة والفرنسي خاصة، مكرسا اللغة الفرنسية كلغة تدريس رئيسية، بعد أن عمل على جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة لكنه فشل في ذلك الخيار الذي صاحبه محاولة أخرى تمثلت هذه المرة في تغيير المذهب الديني الرسمي للدولة من المالكية إلى الحنفية.

ولم تتحول اللغة الفرنسية إلى منافس حقيقي للغة العربية إلا بعد دخول الاستعمار الفرنسي وتخرّج باكورة المدارس الفرنسية ونظيراتها الفرنكو- عربية ليبدأ الصراع بين نخبتين واحدة ذات تكوين فرنسي تنظر إلى العربية على أنها عتيقة متخلفة غير قادرة على أن تكون حمّالة للعلوم العصرية، وأنتصر لهذا الاتجاه في أوساط حركة الشباب التونسي التي تأسست سنة 1906، والحزب الدستوري الجديد بقيادة بورقيبة الذي تأسس سنة 1934، وأخرى من خريجي جامع الزيتونة الذين يدرسون العلوم الدينية ويرون في العربية لغة مقدسة ولكنهم كانوا يطالبون بتحديث التعليم الزيتوني ليتضمن تدريس العلوم العصرية باللغة العربية، وهو ما لم ترتضيه الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

ومن الشواهد على ذلك الصراع الجدل العميق الذي سيحدث انقساما حقيقيا بين كتلتين من النخب، الأولى من صنيعه الاستعمار والثانية معادية له ولتابعيه عداا مطلقا. بدأ الصراع سنة 1909 وتحديددا على اثر مقال بقلم « باش حانبه» اعتبر فيه اللغة العربية عاجزة عن أن تكون لغة علم جاء فيه «نحن لا يسعنا إلا الاعتراف بأن اللغة العربية لا تزال في حالتها الراهنة أبعد ما تكون عن التكيف مع الأفكار العلمية. ولا بد من قسط كبير من الشجاعة للاطلاع بهذا الرأي الذي لا أشك في أنه سيثير فوق رأسي صواعق الشوفينية المحافظة. صحيح أن اللغة العربية ثرية بالمفردات وذات معين لا ينضب، وأنه من الممكن أن نصنع منها يوما ما وسيلة جيدة للدراسات العلمية، إذ علينا أن لا ننسى أن حضارة مشرقة قد ولدت فيها وتطورات بواسطتها. ولكن الشعوب التي تتكلمها تشكو اليوم مع الأسف الفقر المدقع في الأفكار. ولذلك يجب قبل شيء تثقيف الأفكار وهذه بدورها ستتولى تثقيف اللغة. إلا أن سنوات طويلة ستمر قبل أن تدرك هذه اللغة تطورها الكامل في بلادنا

على الأقل ولا فائدة في أن يقال للأهالي أن العربية العامية يمكن أن تعوض الفصحى لأنها عليها مزية الاستعمال. أولا لأن هذه العربية العامية لا تكتب، ولم تنتج بعد شيئا وتبدو غير صالحة للتعبير عن الأفكار المجردة والأحاسيس الرفيعة بسبب ضيق ألفاظها وثانيا لأنها تختلف من بلد إلى بلد بل من جهة إلى أخرى وأخيرا لأنها تزداد كل يوم فسادا بسبب ما يدخل إليها من الكلمات الأجنبية. وهكذا فإن العامية المحكية في الجزائر محشوة بالكلمات محرفة غالبا عن الفرنسية والإيطالية والاسبانية».

إلا أن تلك الأفكار التي عبر عنها «باش حانبه» وردت كما هي على لسان المستعرب الفرنسي «شارل نوال» في محاضرة ألقاها في شهر فيفري من سنة 1909 بمعهد قرطاج ونشرت بالمجلة التونسية في نفس السنة حملت عنوان «هل العربية لغة حية»؟ وأعلن فيها موت اللغة العربية. ولكن تلك المسألة لم تمر مروراً عادياً إذ سرعان ما نشرت العديد من المقالات بجريدة الصواب عمل أصحابها على الذود على اللغة العربية. فتلك اللغة لا تخلو من قدسية فهي ترتبط بالدين وهي لغة القرآن وأي مساس بها هو مساس بالدين نفسه هذا ناهيك أنها اللغة الوطنية باعتراف جماعة التونسي أنفسهم ففي مقال نشر في جريدة الصواب بعنوان «أسفي عليك يا أم اللغات» وصف أصحاب ذلك الرأي «بالكفر الصريح الذي لا يستتاب قائله». وفي مقال ثان وصفوا «بالشرذمة عدوة اللغة العربية الباحثة على حتف أمتها بمعاولها إما جهلاً بمقام اللغة بين الأمم أو لحاجة في النفس وإنما في الضمير نعوذ بالله من الخيانة ومنازع الخيانة».(بوقمرة : 1985)

لقد أسس ذلك الصراع الذي عرفته تونس في بداية القرن العشرين لما أطلقنا عليه القضية اللغوية التي أخذت أبعاداً عديدة ومتنوعة شقت القوى السياسية والنخب الفكرية في تونس خلال كامل القرن المنقضي والعشرية الأولى من القرن الجديد لتلقي بظلالها على النقاش المصاحب للثورة التونسية التي أنطلقت يوم 17 ديسمبر 2010.

#### - هيمنة الفرنسية وظهور الازدواجية اللغوية:

إن جوهر القضية اللغوية متأت من الازدواجية اللغوية التي تعيشها تونس منذ أن خضعت للاحتلال الفرنسي وقد كان الأمر طبيعياً أن تنشر الأمة الحامية (فرنسا) لغتها وتجعل منها لغة الدولة والاقتصاد والإدارة والثقافة، وتعمل على تقويتها لتضعها في موضع الهيمنة، فالأمر يتعلق بصراع تاريخي مع العرب والعربية ناهيك عن طبيعة الاستعمار

الفرنسي الذي يعطي مكانة مهمة للفرنسية كوسيلة لهيمنة واستلاب الذات المستعمرة ثقافيا، وينفي عن الغير المختلف الحق في لغته الوطنية أو حتى المحلية كما فعلت وتفعل بالمجتمعات الإفريقية وبمختلف مستعمراتها القديمة في خارجها وبالمجموعات المحلية ذات الخصوصية الثقافية في فرنسا نفسها.

لقد عرفت فرنسا المناقشات المتعلقة بالقضية اللغوية منذ قيام الثورة الفرنسية وتحديدًا منذ سنة 1794 تاريخ سن قانون الثورة الفرنسية اللغوي الذي صوت له برلمان الثورة وبموجبه عُمت اللغة الفرنسية ومُنعت اللغات الجهوية. وجاء في المادة الثالثة من ذلك القانون «إنه ابتداء من تاريخ نشر هذا المرسوم، كل عقد عمومي، أو خاص، لابد من أن يحرر بالفرنسية وحدها، ويمنع نشره بلغة جهوية. إن كل موظف أو محرر ضبط عام، كل عون حكومي يقوم ابتداء من هذا التاريخ، بتحرير أو تقديم أو توجيه أو توقيع محاضر، أو عقود، أو أعمال أخرى، بلغة غير اللغة الفرنسية، يقدم أمام محكمة الجنج بإقامته، ويعاقب بستة أشهر سجنًا، وبالطرد من الوظيفة».

إن هذا القانون ينص صراحة على أن استعمال لغة غير الفرنسية في فرنسا يعد جريمة مآل صاحبها السجن والطرد من الوظيفة وهي من أقصى العقوبات قبل السجن المؤبد والإعدام، ومع ذلك فإن الجماعات الجهوية والأعراق الأخرى التي تخضع لحكم الدولة الفرنسية بقيت تناضل من أجل حقها في استعمال لغاتها المحلية طيلة قرنين كاملين، لكن الحكومة الفرنسية والجمعية الوطنية وهي السلطة التشريعية لم تستجب لتلك المطالب وقامت بقمعها بواسطة قانون جديد لا يغلق الباب أمام اللغات الجهوية فقط وإنما يحول دون هيمنة اللغة الانكليزية التي بدأت تتسرب إلى الفضاء العام الفرنسي وإلى الاستعمال اليومي.

فقد صدر في فرنسا سنة 1994 قانون يسمى قانون لزوم الفرنسية جاء فيه ضرورة منع استخدام ألفاظ وعبارات أجنبية في كل الوثائق والمستندات والإعلانات المسموعة والمرئية المعروضة على الجمهور وكل مكاتبات الشركات العاملة على الأرض الفرنسية، وبوجه خاص فإن الإلزام باستخدام اللغة الفرنسية يلزم المحلات التجارية والشرائط الدعائية التي تبث عبر الإذاعة والتلفزة. واشترط القانون على البلديات والمصالح الحكومية ألا تمويل سوى المؤتمرات والندوات الدولية التي تكون الفرنسية لغتها كما منع نشر أعمال أية مؤتمرات

دولية يشارك فيها باحثون أجانب ما لم تتضمن ملخصات بالفرنسية. وقد تضمن القانون المعروف بقانون توبون الذي حظي بالأغلبية الساحقة لأعضاء المجلس التشريعي الفرنسي، مواد جزائية وعقوبات مالية لمن يخالف أحكامه. (سعدي: 1998)

وفي نفس الإطار رفض مجلس الشيوخ الفرنسي يوم 2008/06/18 الاعتراف باللغات الجهوية بفرنسا، وذلك بإضافة مادة بالدستور تعترف بهذه اللغات كلغات وطنية، ونص التعديل الدستوري المطلوب: إن اللغات الجهوية تنتمي إلي التراث الوطني للأمة. رفض مجلس الشيوخ اقتراح هذا التعديل، واعتبر الاعتراف بهذه اللغات تهديدا للوحدة الوطنية.. وقد جاءت فتوى الأكاديمية الفرنسية أي مجمع اللغة الفرنسية الشهير متفقة مع قرار مجلس الشيوخ. ففي فرنسا عدة لغات جهوية منها: البروتون، والجرمانية، والكاتالينية والباسكية، والكورسية، والأويل، داخل فرنسا؛ كما توجد لغات بخارج فرنسا بالمناطق التي تتبع السيادة الفرنسية كلغات الكاريبي، ولغة الكانك وغيرها. والذين يؤيدون الاعتراف بهذه اللغات يعتبرون عدم الاعتراف مخالفة لميثاق أوروبا حول لغات الأقليات التي ترفض دائما الحكومة الفرنسية المصادقة عليه. ومن المعلوم أنه سبق أن جرت محاولة الاعتراف بهذه اللغات في شهر جوان سنة 1999 على يد رئيس الحكومة الاشتراكي ليونيل جوسبان، لكن الرئيس جاك شيراك رفض، وعرض الموضوع على مجلس الوزراء الذي رفض اقتراح جوسبان، وخرج السيد شوفينمان وزير الداخلية من الاجتماع ليعلن: الاعتراف باللغات الجهوية معناه بلقنة فرنسا. (سعدي: 2008).

على تلك الأرضية وبلاستناد إليها كخلفية أيديولوجية لا تخلو من شوفينية تتعامل الدولة الفرنسية على مر الأزمنة وفي ظل الحكومات المتعاقبة على اختلاف ألوانها السياسية يمينية كانت أو يسارية مع اللغة الفرنسية فتتظر إليها كلغة سيدة لا تقبل المنافسة حتى من لغات هي أقرب أن تكون روافد لها، لكنها في الآن نفسه تصر على مشاركة اللغات الأخرى فضاءاتها الوطنية أو أن تكون بديلا لتلك اللغات في أوطانها. ورغم نجاحها في تحقيق ذلك الهدف في عدة مجتمعات إفريقية فإنها لم تستسلم في بلدان المغرب العربي التي طال احتلالها لها ليستمر 130 سنة في الجزائر و76 سنة في تونس و44 سنة في المغرب. لكن المفارق وغير الطبيعي هو أن يأتي المشروع الوطني أو الدولة الوطنية في تونس التي خلفت الدولة الاستعمارية محافظة على تفوق الفرنسية وعلى دونية العربية وأن تسفه أحلام

الحركة الوطنية التي قدم عناصرها التضحيات بالنفس والمال من أجل إنهاء الاحتلال لتكون لغة المشروع الوطني ولغة دولته هي العربية.

وبعد نصف قرن من توقيع اتفاقيات الاستقلال مع الدولة الاستعمارية القديمة وفك الارتباط معها وفق ما جاء في المعاهدات التي تم توقيعها، نجد الفرنسية تتمتع بقانون خاص فهي ليست لغة أجنبية وإنما هي لغة ثانية تحظى بوضع متميز، وهذا يبرز من خلال ما تحظى به اللغة الفرنسية من استعمالات سياسية وإدارية بالإضافة إلى مكانتها المتميزة جدا في المنظومة التربوية كما سنتناول ذلك لاحقا. مع أن الدستور الذي أسقطته ثورة تونس لم ينص على ما تحظى به الفرنسية من مكانة هامة، لكن النخبة الفرانكفونية التي حكمت تونس خلال النصف قرن المنقضي قد جعلت من دافعي الضرائب التونسيين ينفقون على تلك اللغة الأجنبية بمثل ما يُنفق على العربية أو أكثر.

هذا الوضع المتميز يبرز من خلال تعلم 98.6 بالمائة ممن هم في المدارس التونسية للغة الفرنسية بقطع النظر عن مدى إتقانهم لها في مسيرتهم التربوية وفي مسار حياتهم العامة أم لا. كما يبرز الوضع المتميز في تحويل تونس إلى بلد ينتج الفرنسية وينمها ولا يكتفي باستهلاكها من خلال العدد الكبير لأقسام الفرنسية المنتشرة في كافة مؤسسات التعليم العالي المتصلة بالآداب والعلوم الإنسانية ناهيك عن تدريسها في أغلب الشعب والاختصاصات التي تتولاها الجامعة التونسية فلا نبالغ إذا قلنا بأن 350 ألف طالب يدرسون بتلك الجامعة يتلقون دروسا في الفرنسية وهو ما لا يحدث حتى في بلدان الفرنسية فيها هي اللغة الأم وليست اللغة الأجنبية أو الثانية. وفي توزيع الانتشار الجغرافي في تونس يتبين أن العاصمة وبعض مناطق الشمال التونسي تأتي في أولوية الترتيب لاسيما بعد غلق المدرسة الفرنسية بصفاقس، أما فيما يتعلق بتوزيعها الاجتماعي فإن الفرنسية تحظى بأهتمام كبير من قبل الطبقات المترفة والطبقة الوسطى لكنها لا تجد مكانة مرموقة لدى الشرائح الشعبية الواسعة الانتشار (Damien ; Delvinquiere : texte non publié)، بالرغم من وجود 1200 مؤسسة فرنسية في تونس تشغل 106 آلاف بين كوادرو وعمال. ولا يدخر المعهد الفرنسي للتعاون جهدا في دعم الفرنسية من خلال الدورات التكوينية التي يوفرها لشرائح مختلفة ومنح الدراسة في فرنسا المقدمة للطلبة والدعم المالي للأنشطة الثقافية في مجالات السينما والمسرح وتظاهرات المجتمع المدني والندوات العلمية التي تقيمها الجامعات ومراكز البحوث،



فتونس بالنسبة لفرنسا هي جزء لا يتجزأ من الفرانكفونية ومنظمتها الدولية. وفي المستوى الإعلامي تدعّمت الفرنسية التي لها إذاعة خاصة في تونس بظهور راديو موزايك وشمس وأكسبراس وهي إذاعات تبث في تونس الكبرى وأحوازها، وجوهرة الراديو الذي يبث في مدن الساحل المحظوظة وهذه الإذاعات التي ظهرت في إطار موجة إعلامية مرتبطة بتدخل العائلة الحاكمة لبن علي وأسرته ومقربيه في المجال الإعلامي تميزت بلغة تندمج فيها العامية المتداولة بالعاصمة مع الفرنسية وتداول الموسيقى الغربية مع بعض الأغاني الشرقية. وقد استمرت تلك الخيارات بعد الثورة مع شيء من التغيير في الخط التحريري من الترويج لبن علي ونظامه إلى الترويج لنوع من الحداثوية الفوقية المتماهية مع الغرب أكثر من التماهي مع المحيط.

### - المنظومة التعليمية كآلية منتجة للازدواجية اللغوية:

لقد شكل مجيء نخبة سياسية وفكرية متشبعة بالنموذج الفرنسي ومؤمنة به وموالية لفرنسا وثقافتها ومنظومتها الرمزية والقيمية إلى هرم السلطة واستمر ذلك 30 سنة مع حكم بورقيبة و أكثر من 20 سنة مع بن علي، حفاظا على تفوق الفرنسية في المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية والجامعية، ولم يكن التعريب سوى شعار رُفِع في فترات تاريخية اتسمت بالأزمة أو في بعض المراحل المفصلية مثل إصلاح التعليم سنة 1958 بقيادة محمود المسعدي القادم من المؤسسة النقابية والحامل معه برنامجها الاقتصادي والاجتماعي المتضمن رؤية تربوية. ولكن ذلك المشروع حافظ على تفوق الفرنسية صراحة ولم يعط للعربية مساحة تذكر إذا ما استثنينا استخدام العربية كلغة أو تدريس بعض المواد الأدبية. فقد تأثر تدريس اللغات وخاصة الفرنسية أيما تأثر بخلافات بورقيبة السياسية مع الأشقاء العرب ورد الفعل على القومية العربية التي كان يتزعمها الرئيس المصري جمال عبد الناصر لاسيما بعد تصريحات بورقيبة في أريحا سنة 1965 الداعية إلى الاعتراف بدولة الكيان الصهيوني. فقد كان الجدل يدور حول تدريس الفرنسية بداية من السنة الثالثة ابتدائي ولكن ذلك الصراع ومزيد من ارتقاء هرم النظام في أحضان الدولة الحامية القديمة قد دفع بالفرنسية لتدرس بداية من السنة الأولى سنة 1968 ثم بداية من السنة الثانية سنة 1971 وبعد ذلك العودة إلى السنة الثالثة سنة 1976 ثم العودة بها من جديد إلى السنة الثانية سنة 1986 بعد أن تعرضت المنظومة التعليمية للنقد بسبب ما اعتبره المنتقدون تعريبا سريعا

ومبالغا فيه (Kammoun R:2006). استمر الأمر نفسه مع مجيء محمد الشرفي اليساري التوجه في ظل حكم بن علي، الذي مسك وزارة التربية والعلوم ما بين 1989 و1994 وتقدم خلال تلك الفترة بمشروع للإصلاح التربوي حمل اسمه بعد أن صدر في شكل قانون حامل عدد 41 - 91 عن وزارة التربية والعلوم ناصبًا على أن يكون تدريس كافة المواد العلمية والإنسانية باللغة العربية في كامل مراحل التعليم الأساسي(نص المنشور عدد 41- 91 الصادر عن وزارة التربية والعلوم بتاريخ 7 - 10 - 1991)، لكن تقييم موضع اللغات فيه وأهمية الفرنسية يستدعي المقارنة مع العربية في المنظومة التربوية في تونس. فمن خلال التأمل في النصوص التطبيقية لذلك القانون وخاصة في باب توزيع الحصص والضوابط يبرز ارتفاع نسبة الحصص المخصصة للفرنسية وضواربها في الابتدائي والثانوي، إذ تغطي الفرنسية 41 ساعة وتصل العربية إلى 57 ساعة بفارق يساوي 16 ساعة. وتحظى الفرنسية بخمس ساعات في كل سنة من سنوات التعليم الأساسي وهو نفس التوقيت المخصص للغة العربية مع أن الأولى لغة أجنبية والثانية هي الوطنية بتنصيب من دستور البلاد. في السنتين الأولى والثانية من التعليم الثانوي تدرس العربية على امتداد أربع ساعات ونصف في حين أن الفرنسية تحظى بثلاث ساعات ونصف لكل سنة بالإضافة إلى ثلاث ساعات مخصصة للغة الإنكليزية وبذلك يكون ما تحظى به اللغات الأجنبية ست ساعات ونصف مقابل ثلاث ساعات ونصف للغة العربية، ويضاف إلى ذلك توقيت المواد العلمية والتقنية التي تدرس بدورها بالفرنسية وهي مواد تمسح عشر ساعات ونصف من التدريس. أما في السنوات الثالثة والرابعة ثانوي فإن التوقيت المخصص للعربية يساوي ما هو مخصص للفرنسية في كافة الشعب مع فارق طفيف في شعبة الآداب ومع سبق الفرنسية في الشعب العلمية والتقنية مقارنة بالمواد الأدبية والتي تصل إلى 10 ساعات، مما يجعل توقيت الفرنسية كمادة ولغة تدريس تتراوح بين 17 و24 ساعة أسبوعيا، ذلك أن الفرنسية تلازم دراسة التلميذ في مختلف الشعب بينما تقتصر العربية على بعض المواد التي لا توجد في كل الشعب والتي تمثل مواد اختيارية مثل الفلسفة والتفكير الإسلامي والتاريخ والجغرافيا والتربية المدنية.

إن الاستنتاج الرئيسي من قراءة خارطة الساعات والضوابط المخصصة للغة الفرنسية في علاقتها باللغة العربية ينتهي بنا إلى الإقرار بأن ما جاء في باب المبادئ الأساسية من قانون

جويلية 1991 فيما يتعلق بتروسيخ الوعي بالهوية الوطنية التونسية والانتماء الحضاري العربي الإسلامي وتربية الناشئة على الوفاء لتونس هو من قبيل التضليل التاريخي لأن الشخصية التي ينتجها النظام التربوي بخصائصه المحددة سلفا هي شخصية لا تستطيع الاعتراف بلغتها الوطنية وبالانتماء إلى الحقل الثقافي الذي تنتجه تلك اللغة. ذلك أن أبسط ما سينتهي إليه خريج ذلك النظام التربوي هو أن اللغة العربية لا تستطيع أن تكون لغة العلم والتعلم وبالتالي فهي لغة قاصرة وأن البديل تجسده اللغة الفرنسية. وبما أن اللغة تشكل إطارا ثقافيا لنموذج مجتمعي بأكمله فإن خريج المدرسة التونسية سيجد في المجتمع الفرنسي وفي الثقافة الفرنسية البديل بل المطمح الذي يرى فيه التونسي حلا لكافة مشاكله خاصة وأن النسبة الغالبة من الشباب الذين تلفظهم المؤسسة التربوية التونسية في مختلف مراحلها يجدون في الهجرة إلى فرنسا خير ملاذ بعد أن يدفعوا من حياتهم ضريبة الهجرة السرية للبعض وضريبة الكرامة للبعض الآخر الذي استطاع الدخول إلى الأراضي الفرنسية والاستقرار بها مؤقتا أو نهائيا.

ولعلنا لا نفهم التناقض بين ما يعلنه النظام التربوي في تشديده على الهوية والانتماء وما يستبطنه من تحريض ضد هذا الانتماء وخلق نوع من الازدواجية إلا من خلال التمعن في تطبيقات تلك المبادئ العامة في مستوى البرامج التربوية وفي أفكار وخلفيات مهندس ذلك المشروع الوزير الأسبق "محمد الشرفي". بعد ذلك بست سنوات حين انتهى إلى أن "العالم العربي يحتوي أمما لكل أمة أنانيته الخاصة" وأن مشروع الوحدة العربية هو مشروع يعسر إنجازه في الوقت الراهن فليس للمدرسة أن تدعو له أو أن تقف ضده... وأن الفتح الإسلامي يعرض على الدارسين عرضا تمجيديا وجدانيا فهو لا يقدم بصفته حدثا تاريخيا بل هو الفتح المبين بانتصار المسلمين على الكفار... وأن الطفل يربى على روح القومية العربية الإسلامية ليعيش عند التخرج من المدرسة واقع الوطن التونسي.. وهو ما يشكل عاملا من عوامل انفصام الشخصية، هذا الانفصام الذي لا يمكن تجاوزه إلا باسترجاع التلميذ التونسي ماضيه وأن "يوطن" تاريخه ويستعيد امتلاك مجد قرطاج وجلالة حضارة تونس خلال القرون الأولى من الميلاد على حد قوله. (الشرفي: 2002).

ميزة ذلك المشروع الذي أُعيد استنساخه فيما بعد فيما يعرف بمدرسة الغد 2002 – 2007 أو إصلاح الإصلاح كما تم تداوله أنه حافظ على تفوق الفرنسية على العربية وأضاف

لها بعض اللغات الأجنبية الأخرى مثل الانجليزية التي دخلت إلى التعليم الابتدائي بعد أن كان تدريسها مقتصرًا على التعليم الثانوي قبل أن تلحق بالإعدادي.

عموما فإن الاختلال يبرز صارخا في موقع اللغتين في الزمن المدرسي المخصص لكل منهما ناهيك أن إقرار تدريس أغلب المواد بالعربية طيلة المرحلتين الأساسية والإعدادية لينقلب الأمر كليا إلى نقيضه في المرحلة الثانوية والجامعية قد جعل من المتعلم والطالب ضحية لذلك الاختيار الذي كان يفضي إلى نوع من الخريجين الجامعيين و من المتسربين من المؤسسة التربوية لا يتقنون العربية ولا الفرنسية كتابة وقراءة أو أي لغة أخرى، وهذا في حد ذاته يمثل نوعا من التشويه للشخصية الأساسية للفرد وتأسيسا لأنماط عديدة من الأمية بما في ذلك أمية القراءة والكتابة، والاهتزاز في الانتماء الوطني والبحث عن بديل لذلك وجده الكثير من الشبان في الهجرة المكثفة إلى فرنسا بوصفها الجنة الموعودة ماديا وثقافيا بما في ذلك اللغة الفرنسية. ولعل كل ذلك مرده عدم الثقة في اللغة العربية كلغة علوم ومعارف عصرية خاصة وان النخب التي تولت تسيير وزارات التربية والتعليم العالي قد تلقت تعليمها بالجامعات الفرنسية ولم تخف ولاءها للفرنسية كلغة وثقافة وازدراءها واستهجانها للعربية وكل ما يمت لها بصلة من معرفة وفكر وآداب وفنون وعلوم، ناهيك أن أغلبها لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس التونسية على علمها اللغوية وإنما يرسلونهم إلى المدارس الفرنسية في تونس وخارجها.

ويستوجب على الدارسين الانتباه إلى أن الفرنسية لا تنافس العربية في المدارس والمؤسسات التربوية التونسية العمومية فقط وإنما تبرز تلك المنافسة في نوع من التعليم الابتدائي الخاص بأبناء الطبقات الميسورة الذي ينتشر في العاصمة وضواحيها وتدرّس فيه الفرنسية بداية من السنة الأولى ابتدائي وفق مقررات بيداغوجية فرنسية وبأعباء مادية باهضة جدا، وفي الدروس الإضافية في الفرنسية التي يتلقاها عددا كبيرا من التلاميذ التونسيين سنويا يقدر عددهم بـ 13 ألف تلميذ ويؤمنها مركز اللغات التابع للمعهد الفرنسي للتعاون بتونس، وكذلك من خلال المؤسسات التعليمية الفرنسية المنتصبة في تونس وفي بعض المدن الكبرى والمحظوظة. وهذه المؤسسات تتبع وزارة التربية الفرنسية وتدرّس كافة المواد باللغة الفرنسية وعلى كافة المستويات أي في المدارس الابتدائية والإعدادية والمعاهد الثانوية وبرامج التدريس لديها هي المعتمدة من قبل وزارة التربية الفرنسية وهي بمثابة

الكيبوتزات (مستعمرات) التربوية الفرنسية على الأراضي التونسية ولا يدخلها إلا من توفرت فيه شروط معينة مثل الجنسية الفرنسية وإتقان اللغة الفرنسية إتقاناً جيداً والقدرة على الدفع.

لكن اللافت هو تنامي عدد التلاميذ التونسيين الذين يتلقون تعليمهم في تلك المدارس رغم ارتفاع معاليم الدراسة غير المقدور عليها إلا من قبل الطبقات المحظوظة مادياً. ويبدو أن النخب التي اختارت المدارس الفرنسية لتعليم أبنائها تتباهى بهذا الاختيار الذي يفتح أبواب الدراسة الجامعية في الخارج وخاصة في فرنسا والدول الفرنكفونية في أوروبا وكندا، على ما في ذلك من مخاطر متأتية من انفصال المتعلم عن ثقافته ولغته الأم فينتهي به المطاف إلى عدم إجادتها وبالتالي الاندماج الكامل في الثقافة الفرنسية وفي منظومتها القيمية والأخلاقية التي لا شك أنها مختلفة أو متناقضة مع «الثقافة التونسية بمضامينها العربية الإسلامية» فينتهي الأمر إلى نوع من القطيعة بين الابن وعائلته ومحاولة الانصهار في الثقافة الغربية التي كثيراً ما تحتضنه وهو في سن العطاء لتلفظه وهو في سن الشيخوخة أو حتى الكهولة.

### - الإشكال اللغوي والجدل السياسي الذي لا ينتهي:

إن موقف النخب التربوية يضعنا في مواجهة ما تتعرض له العربية من تحد في المجال السياسي لاسيما في النصوص المؤسسة. فقد انطلقت أولى معاركها في المجلس القومي التأسيسي سنة 1956 الذي وضع الدستور سنة 1959 متضمناً في بنده الأول "تونس دولة حرة العربية لغتها والإسلام دينها.."، وذلك بعد نقاش دام ثلاث سنوات في صلب المجلس حظيت مسألة الهوية بالنصيب الأوفر منه ومرجعه الحرب الأهلية التي عاشتها تونس بين شقين رئيسيين في الحركة الوطنية الأول يقوده بورقيبة ذو الميولات الغربية واللسان الفرنسي الغالب والنظرة الأردنية للدين والأعراف والطقوس المحلية والذي وصل به الأمر إلى حد وصف الصلاة بأنها "زقزقة مياه" وإنزال الرأس للأرض وكون المصلي "يكب ويقعد"، ودعا إلى التخلي عن الحج لما ينجر عن ذلك من نزيف للعملة وتعويضه بالحج إلى مقام الصحابي "أبي زمعة البلوي" بالقيروان (الهيلة: 2000). والثاني يقوده بن يوسف المدافع عن فكرة تحرير تونس ضمن بقية بلدان المغرب العربي وخاصة الجزائر المستثنية من الاستقلال آنذاك، وهذا الفريق يدافع عن عروبة تونس وإسلامها وارتباطها بمحيطها

العربي. وبالرغم من أن الفريق الثاني لم يكن ممثلاً في المجلس التأسيسي بسبب مطاردته ومحاكمته من قبل حكومة بورقيبة، فإن تمثيل خياله silhouette كان حاضراً لدى الكثير من النواب، بل منهم من كان يوسفياً لكنه انقلب بورقيبياً، وبسبب ذلك كانت النقاشات والمطارات تستبطن تيار الهوية الحاضر الغائب .

ولكن ذلك الإقرار لم يحسم موضوع الهوية واللغة العربية على وجه الخصوص ولم يمنعه بأن يحتل النصيب الأكبر في المناقشات الفكرية والسياسية وأن يتحول إلى مسألة وطنية كبرى يوم أن اعتلى بن علي السلطة سنة 1987 أي بعد 31 سنة من الاستقلال وبعد 29 سنة على وضع الدستور وتضمين ذلك لوثيقة الميثاق الوطني سنة 1988 التي أمضت عليها غالبية قوى المجتمع المدني والأحزاب السياسية لما اعتقدت أن بن علي سيجري إصلاحات حقيقية تصديقا لما وعد به. لكنه سرعان ما تنكر لتلك الوعود بمجرد أن سيطر على العملية السياسية بواسطة المكنة الأمنية الرهيبة التي استخدمها في القضاء على كل من خالفه في الرأي والعقيدة السياسية والأيدولوجيا.

لقد بقيت الهوية العربية الإسلامية مجرد شعار يستخدمه السياسي ويناور به طيلة الخمسين سنة المنقضية وإذا كانت المعادة جلية في الفترة البورقيبية حيث لم يتوان بورقيبة في الدفاع عن العامية مثل قوله «إن اللغة التي يتكلمها الشعب ويفهمها كل تونسي مهما كان نصيبه من الثقافة ومهما كانت الجهة التي ينتمي إليها ومهما تباينت الجهات ليست الفصحى بل العامية لذلك من حق الأدب الشعبي والشعر الشعبي أن يحتلا مكانهما عند الشعب وأن يكونا هما أدبه وشعره»، ومن ثمة فإن العربية تحتل مرتبة الدونية بعد الفرنسية والعاميات التونسية، فإن تعامل حكومة بن علي كان براغماتيا في تناول القضية اللغوية إلى درجة إقرار إجراءات يمكن أن توصف بالراديكالية في مستوى تعريب الإدارة تمثلت فيما يلي:

تحجير اعتماد أي لغة أجنبية في المراسلات الموجهة للمواطنين التونسيين ؛

تحجير استعمال أي لغة أجنبية في الأعمال الداخلية الخاصة بالإدارة والمنشآت العمومية من مناشير وقرارات ومذكرات وتقارير ومراسلات بين الإدارات التونسية وذلك ابتداء من غرة جانفي من سنة 2000 المنقضية ؛

إتمام تعريب المطبوعات الإدارية قبل موفى 31 ديسمبر 2000 ؛

إتمام تعريب المنظومات الإعلامية في الإدارة والمنشآت العمومية وذلك في أجل لا يتعدى

31 ديسمبر 2000 ؛

الانتهاء من إعداد المعاجم اللازمة لتوفير رصيد معرفي من المصطلحات العربية في جميع

مجالات المعرفة وذلك قبل موفى شهر ديسمبر 2001 ؛

لا يمكن استعمال المطبوعات والمنظومات الإعلامية التي لا تستعمل اللغة العربية إلا إذا

اقتضت ذلك مصلحة عامة وذلك بعد 31 ديسمبر 2000 ؛

رفع تقرير إلى الوزير الأول حول تطبيق هذا المنشور مع ذكر الصعوبات إن وجدت

وتقديم مقترحات في شأنها وذلك قبل 31 ديسمبر 2000 (منشور عدد 45 من الوزير الأول

إلى السادة الوزراء وكتاب الدولة والولاة والرؤساء المديرين العامين للمنشآت العمومية

ورؤساء المجالس البلدية، موضوعه اللغة العربية في الإدارة، مؤرخ في 29 أكتوبر 1999)

لقد جاءت تلك القرارات في ظروف اتسمت بنوع من عدم التوافق السياسي بين فرنسا

والحكومة التونسية ويلاحظ أن مثل تلك الإجراءات كانت تُتخذ في ظروف سياسية تشهد

فيها العلاقة بين الأمة الحامية القديمة والحكومة التونسية عدم استقرار في العلاقة، لكن

الأهم هو أن تلك القرارات التي قد تتخذ لصالح اللغة العربية مثلما جاء في دستور 1959

أو في الميثاق الوطني لسنة 1988 أو في المنشور عدد 45 لسنة 1999 المشار إليه سلفاً،

كثيراً ما تبقى ورقية شكلية لا تدخل حيز التطبيق والممارسة والتفعيل. ولعل مرجع ذلك

هو الموقف من اللغة العربية التحقيري الذي ترسب في وعي تكنوقراط الدولة سواء من

طرف كبار المسيرين أو صغارها، المبني على خلفية سياسية قديمة تعتبر أن العربية عاجزة

على أن تكون لغة تواكب العصر والتقدم. وهذا الموقف يمكن أن نجده لدى التقليديين

والمتدينين من رجال الإدارة التونسية ويمكن أن نجده عند المتأثرين بالثقافة الفرنسية

الذين درسوا في المؤسسات التربوية الفرنسية في تونس وفي خارجها. لكن الأهم هو موقف

النخب السياسية من اللغة العربية التي لم تختلف في غالبيتها بين حكومي بورقيبة وبن علي

إذ كانت نخبا فرانكفونية معادية للعربية ولانتماء تونس العربي الإسلامي ولقد تجرأ البعض

منها على إعلان ذلك صراحة.

وبعد 23 سنة من مجيء بن علي والإطاحة به من قبل انتفاضة 17 ديسمبر 2010 التي انتهت ثورة شعبية في 14 جانفي 2011 تبرز قضية اللغة والهوية وكأنها لم تناقش البتة طيلة تلك الفترات بما يعني أن تضمينها للنصوص المؤسسة كانت شكلية ولم تأخذ أبعادا حقيقية في مؤسسات الدولة وبرامجها، هذا إذا استثنينا بعض المؤسسات الموصوفة بالتقليدية مثل وزارة العدل وجهاز القضاء.

ويبرز ذلك بحدّة كبيرة في برامج الأحزاب السياسية القديمة منها والناشئة حديثا بعد 14 جانفي التي يضع أغلبها في سلم أولوياته الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية لتونس. وفي حين أقر قانون الأحزاب لسنة 1988 الذي تم وضعه بعد سنة من صعود بن علي إلى هرم السلطة، في فصله الثاني «على أن يعمل الحزب السياسي في نطاق الشرعية الدستورية وعليه أن يحترم ويدافع بصورة خاصة عن الهوية العربية الإسلامية...» واعتبر في فصله الثالث أنه «لا يجوز لأي حزب سياسي أن يستند أساسا في مبادئه أو أهدافه أو نشاطه أو برامجه على دين أو لغة...» (قانون الأحزاب منشور بالرائد الرسمي عدد 31 بتاريخ 6 ماي 1988 ص 715) على أرضية أن اللغة والدين هما مقومان جامعان لكل التونسيين ولكن بخلفية اقصائية للأحزاب اللغوية أي القومية والعروبية والأحزاب الدينية أي الإسلامية، فإن المرسوم الجديد الذي أصدرته هيئة تحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي البرلمان غير المنتخب وصادق عليه الرئيس المؤقت السابق فؤاد المبرز والممثل في المرسوم المنظم للأحزاب السياسية (مرسوم عدد 87 لسنة 2011 مؤرخ في 24 سبتمبر 2011 يتعلق بتنظيم الأحزاب السياسية)، قد طمس مسألة الهوية بالكامل وألغى الفصلين المتعلقين بإقرار الهوية العربية الإسلامية لتونس كأحد شروط قبول أي حزب أو رفضه. ولعل ذلك يعود إلى السيطرة الكاملة لأحد الأحزاب السياسية وهو حركة التجديد اليسارية وريثة الحزب الشيوعي التونسي على الهيئة التشريعية للقوانين المنظمة للحياة العامة في ظل غياب برلمان منتخب بعد أن تم حل المجلسين التشريعيين وإلغاء العمل بالدستور وهي بعض مطالب الثورة التي تحققت، والمعروف أن هذا الحزب لا يعترف بهوية تونس العربية الإسلامية وإنما ينحو إلى التعدد في الهوية التونسية الإفريقي والمتوسطي وربما الفرنسي بسبب تعاقب الحضارات والثقافات التي عرفتها تونس. ومن مؤشرات ذلك هو عدم الحديث بالعربية في اجتماعات هذا الحزب وإعطاء الأولوية للفرنسية لتلها الدارجة التونسية. لقد



نجح ذلك اللون السياسي في إلغاء فصلي الهوية العربية الإسلامية من المرسوم المتعلق بالأحزاب السياسية لكنه فشل في إلغاء التنصيص على الهوية العربية الإسلامية لتونس في وثيقة العهد الجمهوري الصادرة عن نفس الهيئة، الذي جاء فيه «تؤكد الوثيقة أن تونس دولة ديمقراطية، حرة، مستقلة، ذات سيادة، والإسلام دينها، والعربية لغتها، والجمهورية نظامها، وأن هوية الشعب التونسي: عربية، إسلامية، متفاعلة تفاعلا خلاقا مع قيم الحداثة والتقدم»، وكما فشل نفس الاتجاه في مقاومته تضمين رفض التطبيع مع الدولة العبرية ضمن العهد المذكور وهو ما يعتبر من القضايا المتعلقة بالهوية. ويفسر النجاح والفشل بالزخم الكبير والصراع الحاد في داخل الهيئة لما ناقشت وثيقة العهد الجمهوري في حين استقال ثلثها وباتت المراسيم تمرر تمريرا لما ناقشت القانون المنظم للأحزاب ونظيره المتعلق بالجمعيات.

وتعتبر مسألة اللغة والهوية من القضايا التي تنال إجماع الأحزاب السياسية أو أغلبها الساحق ومع ذلك فقد لعبت دورا مهما في الفرز الانتخابي الذي شهدته تونس يوم 23 أكتوبر الذي أفضى إلى تشكيل المجلس التأسيسي. إن المهتمين بالمشهد السياسي يقرون بأن التصويت لم يكن على أساس البرامج الانتخابية للأحزاب وإنما تم على أساس الموقف من الهوية بشقيها اللغوي والديني وهو النهضة الحزب الإسلامي والمؤتمر من أجل الجمهورية الحزب العروبي في المراتب الأولى في الترتيب لشعور الناخب بنوع من المصادقية في خطابهم تجاه مسألة الهوية التي تعرضت لاعتداءات مباشرة في وسائل الإعلام المرئية إبان الحملة الانتخابية التي سبقت يوم 23 أكتوبر 2011.

ولقد حظيت قضية اللغة بمناقشات عديدة في المجلس التأسيسي وفي المنابر الموازية للمجتمع المدني ووسائل الإعلام لاسيما الإشكال الذي طرأ حول استعمال نائبة عن حزب التكتل الفرنسية في مداخلتها بسبب عدم معرفتها بالعربية لإقامتها في فرنسا. لقد أثارت تلك الحادثة جدالا كلاميا في داخل المجلس ولغطا كبيرا في وسائل الإعلام والشبكات الاجتماعية حول الموقف من العربية وهي مقدمات للنقاش العميق الذي من المفترض أن يشهده المجلس التأسيسي والذي سبقته نقاشات وردود أفعال حول موقف راشد الغنوشي رئيس حركة النهضة ومنظرها من الفرنسية ورؤية المنصف المرزوقي الرئيس الحالي للدولة التونسية للعربية.

- موقف الغنوشي من الفرنسية: اعتبر راشد الغنوشي «التعريب أساسي ونحن عرب» وأضاف «أصبحنا نصف عربي نصف فرنسي (فرانكو اراب) وهذا تلوث لغوي»، لكنه لا يعتبر ذلك موقفا من اللغات الأجنبية عموما قائلا «نحن نشجع تعلم اللغات خصوصا أكثرها حيوية دون إن نفقد هويتنا» (تصريح في إذاعة اكسبريس أفم بتاريخ 26 أكتوبر 2011). وهذا الموقف لم يثر حفيظة الحكومة الفرنسية التي تعتبر تونس إحدى مستعمراتها القديمة ومجال تدخلها الحيوي وعضو المنظمة الدولية للفرانكفونية فقط وإنما أثار جدلا واسعا في صفوف النخب الفرنكفونية التونسية التي تعتبر الفرنسية غنيمة حرب حسب عبارة الجزائري كاتب ياسين لا يمكن التنازل عنها وهي خط أحمر لا يمكن مساسه بل ينبغي المحافظة عليها حسب رأيهم.

- موقف المنصف المرزوقي: نشر المنصف المرزوقي الذي يتولى مهام رئيس الدولة التونسية وهو الرجل المنتخب من قبل المجلس التأسيسي – برلمان الثورة التونسية- نشر في 2011/11/6 وقبل أن يقع انتخابه رئيسا بحوالي شهر مقالا على موقع الجزيرة نت بعنوان أي لغة سيتكلم العرب في القرن المقبل؟ لخص فيه وضع اللغة العربية اليوم في تونس والمشاكل التي تعانيها ومدى قدرتها على أن تهنض وتحتل موقعا في أوطانها. وخلاصة رؤية المرزوقي تتمثل فيما يلي:

\*- لقد وقع التحرر النهائي من كل قواعد الكتابة وعلى رأسها الكتابة بالأحرف العربية، والذروة هي كتابة اللهجة التونسية -تتخللها جمل فرنسية- بالأحرف اللاتينية، مما يعطي في نوادي الحوار هريسة لغوية أصبحت تستعصي على الحل ويصعب قراءتها إلا بمشقة بالغة، الشيء الذي يدفع مباشرة إلى المرور إلى ما يبدو مكتوبا بالعربية أو بالفرنسية. وهذا الخليط اللغوي لا ينحصر في الفايسبوك وإنما بات هو القاعدة في الإذاعات الحرة وفي إحدى القنوات التلفزيونية الخاصة هي نقمة على اللغة العربية على حد قول المرزوقي.

\*- قد نكون بحاجة في يوم قريب لجمعية للدفاع عن اللغة العربية في تونس. ويتساءل المرزوقي هل ستمنح السلطات رخصة لمثل هذه الجمعية، وأغلب الأحزاب السياسية أصبحت تعتمد العامية في إشهارها السياسي، مديرة الظهر للغة التي جمعت شملنا في هذا البلد وجمعت شمل شعبنا مع بقية شعوب الأمة؟ أضف لهذا أن الدولة نفسها قدمت "القدوة" وهي تنشر على الملأ الدعوة للتسجيل في القوائم الانتخابية شعارا بالعامية "وقيت

باش تقيّد "أي حان الوقت للتسجيل.

\*- لا يوجد تناقض أو تنافس بين فصحي وعامية، فليس هنالك عامية، إنما هي عاميات متعددة، لمن يطالبون بكتابة «اللغة التونسية» ركيزة هويتنا الوطنية المزعومة، كيف سنكتب «أنا»؟ أتصبح «ناي» كما يقول سكان الوطن القبلي أم أننا ننقشها «آني» كما يقول أهل الساحل، أو نرّجّح «آني» كما يقول الجنوبيون، ولم لا يستقر بنا المطاف عند «نا» كما يقول أهل قفصة؟

\*- العربية هي لغة فريدة من نوعها حسب المرزوقي، إذ تملك خلافا لكل لغات الدنيا نوعا من التأمين على الحياة، فطالما بقي القرآن ستبقى العربية تتطور وتتراكم حولها عاميات لا تبعد عنها، مثلما تحوم الكواكب والأجرام حول الشمس. ومما يجعل المقارنة أيضا غير واردة أنه في الوقت الذي تتوسع فيه هذه اللغة الجبارة، نرى العاميات تقترب منها شيئا فشيئا، مما يضعنا في حالة تاريخية لا علاقة لها بما عرفته أوروبا في بداية نهضتها من تطلّح تدريجي عن لغة سيسرون Cicéron 43.106 قبل الميلاد لفائدة اللغات المحلية.

\*- العربية هي العمود الفقري للأمة، ولا وجود لها إلا بوجوده، فأمتنا خلافا لكل الأمم، لا تسكن أرضا وإنما تسكن لغتها. وهذه الأخيرة هي القاسم المشترك الأول والأخير لكل شعوبها. ومن ثم فإن كل إضعاف للغة هو ضرب لوجود هذه الأمة وحتى ضرب للشعوب.

\*- العربية هي التي تفتح أمام كتاب تونس ومغنيات لبنان وشعراء العراق... إلخ «سوقا» تفوق أضعافا تلك السوق البالغة الضيق للعامية التونسية أو اللبنانية أو العراقية. ومن ثم ضرورة تنميتها والدفاع عنها بكل الوسائل التعليمية والقانونية لمصلحة شعوب ستفقد الكثير إن هي اختارت الانغلاق على هويتها القطرية.

\*- إقرار اللغة العربية لغة رسمية للدولة يعني أن مهمة الدولة حماية وتطوير هذه اللغة.

\*- لا مجال لاعتبار اللهجات المحلية عدوا أو منافسا للفصحي وإنما هي فروع من الجذع المقدس يجب الحفاظ عليها وتنميتها، مع إعطاء عناية خاصة للتراث الشعري الشعبي. أما عندما تتعايش العربية في الفضاء المشترك مع لغات محلية غير عربية الأصول، مثل الأمازيغية في الجزائر والمغرب والبولارية في موريتانيا فإن من واجب الدولة تنمية هذه اللغات وتشجيعها بل وحث الناطقين بالعربية على تعلمها لأنها جزء من التراث المشترك، إذ لا أخطر ولا أكذب من الخلط بين اللغة عنصر ثقافيا موحدًا وبين الانتماء إلى «عرق»

عربي لم يوجد يوما. ونحن العرب منذ الأزل شعوب مختلطة تندافع في شرايينها دماء أعراق وأعراق.

\*- من بين أخطاء الاستبداد وخطاياها (باستثناء واحد هو الاستبداد السوري حسب المرزوقي) اعتبار العربية غير قادرة على أن تكون لغة العلم، والحال أنه لا توجد أمة ازدهرت بلغة غيرها. هذا الخطأ الإستراتيجي جعل منا أمة تابعة ثقافيا وسياسيا واقتصاديا لم تتكلف حتى عناء الترجمة، والحال أن مجهود الترجمة كان بداية النهضة العربية الأولى. (المرزوقي: 2011).

لقد أثار مقال المرزوقي نقاشا طويلا على صفحات النت في موقع الجزيرة (232 تعليق) وفي غيرها من صفحات التواصل الاجتماعي. واللافت للانتباه هو القدرة التشخيصية للمشاكل الحقيقية التي تعاني منها العربية في تونس وخاصة العاميات الجديدة المتشكلة في بعض الأحياء الراقية في العاصمة حيث تدمج فيها الفرنسية بدون صعوبة تذكر وبدون إحساس بالمسؤولية تجاه المسألة اللغوية. والمفارقة في تلك اللغة التي تكتب بحروف اللاتينية في الإرساليات القصيرة للهاتف المحمول وفي فضاءات التواصل الاجتماعي وخاصة الفايسبوك وتستخدمها كثيرا من الإذاعات المحلية في العاصمة وبعض المدن الكبرى، المفارقة أن مستعمليها ومنهم شريحة واسعة جدا ممن تلقت تعليما جامعيًا لا يشعرون بالمسؤولية تجاه اللغة العربية وتوفير الحماية الضرورية لها من التشويه ومن منافسة لغات أخرى وخاصة الفرنسية.

لقد وقف المرزوقي على العلاقة الضرورية بين العربية والأمة واعتبر الأولى العمود الفقري للثانية، وأقر ضرورة حماية الدولة للغة العربية وتطويرها لكن موقعه قد تغير اليوم إلى هرم السلطة السياسية وهذا يعطيه الفرصة لتحويل أفكاره من مجرد طوباويات تقوم على التمني إلى سياسات قابلة للتنفيذ بأي دور سيلعبه لفائدة اللغة العربية وهو في موقع الرئاسة لاسيما وأن نظيره وأحد أسلافه وهو الرئيس بورقيبة لم يدخر جهدا في تنفيذ قناعاته وأيديولوجياته في حماية اللغة الفرنسية على حساب العربية في يوم ما من تاريخ تونس؟

## التحديات التي تواجه العربية في تونس اليوم:

- تحدي العامية : لا توجد عامية واحدة في تونس وإنما توجد عاميات متعددة مختلفة من جهة إلى أخرى وحتى في الجهة الواحدة. ولعل ذلك يرتبط بعوامل عدة من بينها الطبيعة الحضرية أو الريفية للسكان وتأثير المناطق التخومية، فلفة الجنوب الشرقي المتاخم للحدود مع ليبيا هي أقرب إلى اللهجة التي يتكلمها سكان طرابلس وهذا بطبيعة الحال راجع إلى العلاقات المفتوحة التي كانت سائدة تاريخيا في مستويات عدة أسرية وعشائرية وتجارية وعلمية وحتى قضائية قبل أن يقع رسم الحدود التونسية الليبية سنة 1910 وبعدها. وينسحب الأمر نفسه على اللهجات التي يتكلمها سكان المناطق المحاذية للجزائر فهناك اشتراك في المنظومة الاصطلاحية وفي طريقة النطق وموسيقاه.

ولكن مع ذلك فإن العاميات المنتشرة في تونس وإن تنوعت واختلفت شيئا ما فإن أصولها العربية تبدو متأكدة إذ أن أغلب مصطلحاتها وحتى نحوها وصرفها هو عبارة عن عربية غير مقننة. وعندما نتأمل في أصول الكلمات المستخدمة كثيرا ما نجد لها تأصيلا وتفسيرا في معاجم اللغة القديمة مثل الصحاح أو لسان العرب أو غيره، باستثناء الكلمات التي دخلت من الفرنسية مع الاستعمار الفرنسي لتونس أو الإيطالية أو المالطية يوم أن كانت تونس منطقة جذب للعمالة من تلك البلدان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لكن الهام هو أننا لا نستطيع الحديث عن عامية واحدة موحدة يمكن أن تنافس العربية أو تكون بديلا لها كما يحلم بذلك بعض الرافضين للعربية والمعادين لها. ولقد أنتجت تلك العاميات شعرا شعبيا متميزا لكنه يمثل رافدا للعربية وليس بديلا عنها، فالشاعر الشعبي ينظم الشعر الملحون لكنه شعر موزون ومقفى وله معنى من حيث تمثله لقضايا الناس لقرب الشاعر الشعبي منهم والتصاقه بهم وللدور التاريخي الذي تولاه هذا الشعر في المحطات التاريخية المتعلقة بتونس وبمحيطها العربي فالشعر الشعبي هو إحدى تعبيرات الثقافة العربية وليس الوطنية بمعناها القطري فقط ، علما أن الشاعر كثيرا ما يكون قادرا على كتابة الشعر بالعامية والفصحى إذا كان متحصلا على الحد الأدنى من المستوى التعليمي أما إذا كان محدود القراءة والكتابة فإنه يضع شعرا بالعامية ويحفظه بما تضمنه له موهبته الشعرية. والشعر الشعبي يكاد يمثل الاستثناء الوحيد في كتابة العاميات ذلك أننا لا نكاد

نعثر على أجناس أخرى من الكتابة بالعامية إذا ما استثنينا المحاولات الصحفية الخجولة التي تم إنتاجها في بعض الصحف في بداية القرن العشرين أو التي أُنتج بعضها الآخر في ظل حكم بن علي وبعد الثورة. لكن هذا النوع من الكتابة بقي محدودا جدا ويجد القراء في المناطق الداخلية للبلاد صعوبة في فهمه. ولكن الثابت هو أن العامية بوصفها بديلا للعربية لم تجد تأصيلا علميا من قبل دعائها عبر تدريسها في الجامعات أو كتابة أعمالهم الأكاديمية بها بدل العربية والفرنسية وذلك لأنهم يعلمون أنها ستواجه بالاستهجان وستبقى طي الرفوف ولن يطلع عليها أحدا ناهيك أنها لم تراكم ولو النزر القليل من الأعمال المنشورة التي يمكن استخدامها كمراجع.

لكن من الضروري الإقرار بأن العربية في تونس تواجه مشكلين رئيسيين، الأول هو تشكل نوع جديد من العامية في تونس العاصمة هي خليط هجين بين مصطلحات قادمة من العربية وأخرى من لغات عديدة مثل الفرنسية والإيطالية والانكليزية وتخللها جملا كاملة بالفرنسية وليس مجرد كلمات. والخطر الذي يهدد العربية في هذا المستوى هو كتابة هذه العامية الجديدة بالحروف اللاتينية وانتشارها في الاستعمال اليومي للرسائل القصيرة التي ترسل بواسطة الهاتف المحمول وكذلك استخدامها في المناقشات والتعليقات وفي الجدل الدائر في الفضاء الافتراضي من فايس بوك وتويتر ويوتوب وغير ذلك. وهذا النوع ينتشر لدى شريحة واسعة وعريضة في تونس من شباب الجامعات والتعليم الثانوي وكذلك من عامة الناس الذين لم تسعفهم المدرسة في تعلم الكتابة بالعربية أو الفرنسية أو حتى الانكليزية. والمفارق في ذلك النوع من الكتابة الذي بات واسع الانتشار أنه لا يخضع لرقيب أو قاعدة معينة. وهو نوع من الكتابة يشعر أصحابه بالخلج الشديد والإحراج عندما يخطئون في كتابة الفرنسية أو نطقها بينما «يكسرون» العربية بعامياتها آلاف المرات في اليوم دون أي تأنيب ضمير.

لقد استقرت هذه «اللغة الجديدة» عامية تونس العاصمة وبعض المدن الكبرى مستخدمة في بعض الإذاعات الجديدة التي تبث محليا ووطنيا من ذلك موزيك وشمس وأكسبرس وجوهرة كما أشرنا الى ذلك سلفا، فالمتابع لهذه الإذاعات التي باتت تمتلك تغطية جغرافية واسعة بعد أن كانت مقتصرة على تونس العاصمة ويتابعها جمهورا واسعا من الشباب، وتعطي مساحة كبيرة للفرنسية والانكليزية عبر بث أغانيها وتستخدم لغة حوارية

ممزوجة فيها كثير من العامية واللغات الأجنبية وقليل من العربية. ولم يقتصر الأمر على الإذاعات المسموعة وإنما شمل إحدى التلفزيونات التي ظهرت في السنوات القليلة الماضية وهي تلفزيون نسمة التي لا تخفي عداؤها لعروبة التونسيين ولغة العربية معتبرة إياهم بربرا أو متعددي الأعراق والثقافات والهويات، ومترجمة ذلك في نشراتها الإخبارية التي تبث بالدارجة وفي البرامج الحوارية ناهيك أنها تحمل شعار «نسمة قناة المغرب الكبير» وهي بذلك تعود بالنقاش السياسي إلى ما قبل توقيع اتفاقية وجدة سنة 1958 بين فصائل الحركات الوطنية المغاربية التي أقرت بالمغرب العربي الكبير وأكدت اتفاقية اتحاد المغرب العربي لسنة 1988.

**تحدي البربرية:** المشكل الثاني الذي سيواجه العربية في تونس هو مشكل البربرية حتى وإن لم يشكل الناطقون بها سوى عددا محدودا لا يتجاوز 0.5 بالمائة من سكان تونس مندمجين ثقافيا واجتماعيا في النسيج الوطني. ولكن تنامي النزعة البربرية في الجزائر والمغرب وأخيرا في ليبيا، وما يتلقونه من دعم من المنظمات البربرية العاملة في أوروبا والمدعومة بدورها من الحكومات الغربية بات يلقي بظلاله على الواقع اللغوي في تونس. ومن أبرز ذلك ظهور جمعيات بربرية بعد الثورة وعقد مؤتمرا كبيرا بجزيرة جربة التي ينتمي بعض سكانها إلى الإثنية البربرية وإلى المذهب الأباطي الخارجي الذي يحتمي به تاريخيا بربر جبل نفوسة في ليبيا ومزاب في الجزائر. نظم هذا المؤتمر الكونغرس البربري العالمي بحضور نشطاء بربر من دول كثيرة وقد بات المطلب الرئيس لهذه الأنشطة هو الاعتراف باللغة البربرية وتدريسها في المدارس وإدخالها في النسيج اللغوي المعترف به من قبل الحكومة التونسية على الرغم من المشاكل الكبيرة التي يلاقها تدريس البربرية في المغرب والجزائر بعد الاعتراف بها لغة وطنية هناك. وهذا المطلب يعود إلى عدة سنوات خلت عندما تمكنت منظمة تمازغة البربرية الناشطة في فرنسا من تحويله إلى مطلب يتعلق بحقوق الإنسان دخل في مشمولات مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان وقضايا الشعوب الأصلية ولغاتها، الذي استجوب الحكومة التونسية في ذلك بما يعنيه من تدويل لمسألة لغوية هي البربرية (لببض:2011).

**-تحدي اللغات الأجنبية:** المشكل الثالث الذي تعانیه العربية في تونس هو صراعها مع قوى منظمة ومدعومة ماليا وإعلاميا. فالفرنسية التي أفتكت لها مكانا كبيرا في تونس رغم أنها تحمل معها اراث الاستعمار الثقيل ونوعا من الغموض في الهوية لدى مناصريها باعتبارهم

ليسوا فرنسيين ولا يمكن لفرنسا أن تقبلهم وتدمجهم مهما بلغ حذقهم للفرنسية، تجد دعما ماليا ولوجستيا ودعائيا من الحكومة الفرنسية ومن المنظمة الفرانكفونية العالمية على الرغم من عجزها على المنافسة العالمية مقارنة بالانجليزية أو حتى لغات أخرى، ولعل الجدول التالي يعكس لنا وضع العربية مقارنة بكل من الفرنسية والانجليزية من خلال الأقسام المدرسة للغات الثلاث وعدد المدرسين بالجامعات التونسية وفق أرقام وزارة التعليم العالي :

اللغة	عدد الأقسام بمختلف الكليات	مدرسون قارون برتب جامعية	مدرسون متعاقدون برتبة مساعد تعليم عال	مدرسون ملحقون من التعليم الثانوي	مدرسون أجانب	مجموع المدرسين
العربية	8	254	47	27	1	329
الفرنسية	12	324	93	636	14	1067
الانجليزية	12	226	107	952	21	1306

تبين تلك الأرقام أن حجم المشتغلين باللغتين الأجنبيةتين يزيد مرتين بالنسبة للفرنسية وثلاث مرات بالنسبة للانجليزية مقارنة بالعربية، وهو ما يعني أن اللغة الوطنية تحتل مرتبة الدونية وينفق عليها أقل بكثير مما ينفق على غيرها من اللغات بالرغم من عدم وجود وثيقة دستورية أو قانونية تنص على ذلك. ولعل الخلفية التي حكمت الواقع اللغوي والمتمثلة في دخول عالم الحداثة والتقدم بما يعنيه ذلك من استقلال اقتصادي وتنموي ومن عدالة اجتماعية ومن حريات خاصة وعامة وديمقراطية تداولية، لا يتم إلا بامتطاء ظهر تلك اللغات الحية والثقافات التي أنتجتها. لكن هذه المقولة أسقطتها الثورة التونسية التي أعادت النقاش إلى نقطته الأولى حول حقيقة الحداثة التي عاشتها تونس في ظل الأنظمة التي سادت خلال الخمسين سنة المنقضية والتي عاشت على وقع شعار الانفتاح على الخارج بما في ذلك اللغوي منه. والسؤال الذي بات حاضرا بشدة هو هل تتحقق الحداثة في ظل الانفتاح على اللغات الأجنبية وطمس العربية كلغة وطنية؟



إن إنفاق التونسيين من دافعي الضرائب على الفرنسية أو حتى الانجليزية بالحجم الكبير الذي نشاهده اليوم في المؤسسات التعليمية الثانوية والجامعية التي تؤمن جل دروسها بغير العربية باستثناء النزر القليل من الآداب والعلوم الإنسانية يعد نقضا لمطالب الحركة الوطنية في جعل العربية لغة وطنية وليست قومية فقط، بوصفها اللغة التي تعرضت للطمس الاستعماري في إطار ضرب معالم الشخصية الوطنية، وهي مطلب للفئات الشعبية التي لا تعرف الفرنسية ولا تستعملها، ولقد بينت الثورة أن تلك الفئات تختلف عن النخب الفكرية والسياسية في مطالبها، إذ كانت هذه الأخيرة تدعو إلى إصلاحات بينما كانت الشرائح الشعبية تطالب بتغيير جذري للواقع السياسي بما في ذلك السياسات اللغوية المعتمدة من قبل الحكومات المتداولة في حكومي بورقيبة وبن علي. ولم تتوان تلك الشرائح على اعتبار النخب القاطنة في الأحياء الراقية في ضواحي تونس التي تستعمل الفرنسية أو عامية العاصمة في تخاطبها اليومي في منازلها وفي مقاهيها وفي مختلف أنماط تواصلها، بأنها لا تشبه عامة الشعب. وهذا الاختلاف في التشابه لا يقتصر على المستوى المادي أو الفكري أو نمط العيش وإنما يشمل أيضا اللغة المتداولة والمستعملة، وقد عبر «الطاهر ليب» عن تلك الحقيقة في مقال كتبه في مطلع الثمانينيات من القرن المنقضي قائلا «العربية هي لغة الجماهير العربية الوحيدة خلافا للنخب الفكرية والسياسية التي يمكنها الاتصال بلغة أجنبية والعربية هي التي تضمن تفتح الجماهير محليا وعربيا وعالميا. أما إذا اعتبر مجتمع ما أنه متفتح دون أن تفتح جماهيره العريضة فهذه مجرد تسمية» (ليب: 1982).

- تحدي الشارع اللغوي : تخوض العربية في تونس معركة أخرى مسكوتا عنها هي معركة الشارع. ولا تصارع العربية الفرنسية فقط في الشارع من حيث تسمية الأنهج والأزقة والأحياء والشوارع، وإنما تصارع الهجين اللغوي المشكل من العامية المخترقة بالفرنسية. لم تتغير تسميات كثيرة مع مغادرة الفرنسيين تونس سنة 1956 إذ بقيت تلك التسميات تحيل على أبطال ومدن ووقائع هامة فرنسية وليس على ما يناظرها وطنيا تونسيا أو عربيا. ولما تشكلت الأحياء والأنهج الجديدة في ظل «دولة الاستقلال» وجدت التسميات العربية من جديد نفسها وجها لوجه مع التسميات والرأسمال الرمزي الأوروبي والغربي، فبالقدر الذي ظهرت فيه أسماء شخصيات تاريخية وطنية أو عربية ظهرت معها أسماء أعلام غربية. وهذا يعود إلى دور النخبة المسيرة للبلديات المتولوية أمر

تنظيم شأن الشارع. لكن الاختراق الفاضح الذي تعاني منه العربية في علاقتها بالفرنسية وبالعامية هو الواجهات الإعلانية للمحلات بأصنافها، إذ لا يقتصر الأمر على المحلات والمؤسسات الخاصة التي كثيرا ما تكتفي بإعلانات مكتوبة باللغة الفرنسية أو هي معربة إلى العامية، ولكن الأمر بات ملازما لمؤسسات الدولة ويا فطاتها الإشهارية والإعلانية حيث تكون لدى بعض المؤسسات بالفرنسية فقط وتكون لدى أخرى مزوجة وهذا في أفضل الأحوال. إن اللغة المستخدمة في الإعلانات والإشهار تعكس بدورها نوعا من استبطان التبعية الثقافية والشعور بالنقص والولوع بالتشبه بالغالب كما يقول ابن خلدون، إذ لا مبرر لذلك الاستعمال سوى الشعور الباطني بالغلبة والسلوك الظاهر المبني على المحاكاة لنموذج معين يُعتقد تحت هيمنة أيديولوجيا الحداثة الغربية والفرنسية منها أن الكتابة بالفرنسية خاصة تمثل انخرطا في تلك الحداثة، وهذا السلوك لا يقتصر على عامة الناس وإنما يظهر بشدة لدى النخب المتعلمة النافذة في المؤسسات الإدارية التي تتولى تخطيط المدن ورسم معالمها وتغض الطرف عن التلوث اللغوي الذي ساد في الشارع التونسي رغم وجود القوانين التي يمكن أن تحد منه.

#### خاتمة:

يقف هذا العمل الذي يستخدم التحليل السوسيو-سياسي للمسألة اللغوية في تونس على حقيقة مفادها أن الدولة التونسية إبان مختلف مراحلها لم تكن إلى جانب اللغة العربية بوصفها اللغة الوطنية للمجتمع وإن أقرت ذلك دستوريا في دستور دولة الاستقلال. وقد نجد تبريرا لمثل تلك المواقف إبان حكم البايات أو الحكم الاستعماري لكن لا نجد تبريرا لوقوف الدولة المستقلة إلى جانب اللغة الاستعمارية القديمة على حساب العربية اللغة الوطنية حتى وإن كانت الفرنسية لغة حداثا كما يقولون والعربية لغة ماضوية أو لغة أدبية في أحسن الأحوال. ولقد مرّ قرن من الزمان والعربية تواجه تلك العلاقة المختلة في موقف الدولة التي من المفترض أن تكون التعبير السياسية للمجتمع بما في ذلك لغته الوطنية، وبالتالي حمايتها وتنميتها والنهوض بها. لكن الأمر انتهى إلى أن تخلق اللغة العربية آلياتها الذاتية التي هي من صنع المجتمع نفسه لتتمكن من البقاء والاستمرارية في مواجهة المنافسة غير النزيهة التي فرضتها السوق اللغوية. فالفرنسية المنافس الرئيس للعربية تقف وراءها الدولة الفرنسية والمنظمة العالمية

للفرانكفونية ماليا ولوجستيا ولها استراتيجيات محددة مفادها أن من يمتلك لغة شعب يمتلكه بالكامل وذلك في مواجهة مقولة هامة وهي أن اللغة أم العلوم وكل شعب يحقق أمنه واستقلاله اللغوي بإمكانه بناء كيان قادر على الاستقلال الحقيقي وهذا هو جوهر التحدي الحقيقي أمام الثورة التونسية التي جاءت لتثبت استقلال تونس بعدما تبين أن الذي حدث سنة 1956 كان استقلالا شكليا لا غير.

### قائمة المراجع:

- ابن خلدون (عبد الرحمان) تاريخ العلامة ابن خلدون، المقدمة (مجلدان) القاهرة بيروت 1999
- بوقمرة (محمد هشام)، القضية اللغوية في تونس، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تونس 1985
- سعدي(عثمان) البربر الأمازيغ عرب عاربة ط1 دار الملتقى للطباعة والنشر ليماسول-قبرص -بيروت -لبنان 1998 (نص قانون الثورة الفرنسية اللغوي 1794 ونص قانون لزوم الفرنسية 1994 في الملحق)
- عثمان سعدي القدس العربي، بتاريخ 2 جويلية 2008
- نص المنشور عدد 41- 91 الصادر عن وزارة التربية والعلوم بتاريخ 7 - 10 - 1991
- الشرفي (محمد)، الإسلام والحرية، دار الجنوب للنشر تونس 2002
- الهيلة (محمد الحبيب)، «بورقية والإسلام» ضمن كتاب الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنية مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات أفريل 2000
- المرزوقي المنصف، أي لغة سيتكلم العرب القرن المقبل ؟ مقال منشور في الجزيرة نت على الرابط

<http://www.aljazeera.net/NR/EXERES/8C6519EE-E85C-4F8C-BB8A-2EB47F726517.htm>

- لبيض، سالم الأقلية البربرية في تونس، المركز العربي للدراسات السياسية والاجتماعية 2011
- لبيب (الطاهر)، «العجز عن التعريب في مجتمع تابع»، المستقبل العربي عدد 7 جويلية 1981

- Jean Louis Calvet ; Linguistique Et Colonialisme ; Payot Paris 1974

- **Pierre Bourdieu ; Ce Que Parler Veut Dire : L'économie Des Echange Linguistique ; Fayard Paris 1982**
- **Diversité linguistique en Tunisie : Le français a-t-il perdu de sa suprématie ? FIPLV WORLD CONGRESS 2006 GOTEBORG – SWEDEN 15-17 JUNE 2006**
- **Damien Audrey ; Delvinquiere Chekir Johanna ; la politique linguistique en Tunisie le français en situation de francophonie )texte non publié( partielle**

## الأسرة والمجتمع وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة أية علاقة؟

الدكتور حلوش مصطفى- جامعة سيدي بلعباس

### مقدمة

تواجه الأسرة اليوم تحديات عديدة، اجتماعية وثقافية وأخلاقية، زاد من حدتها ما يشهده المجتمع من تحولات فكرية واجتماعية واقتصادية، متزامنة مع اتساع نطاق العولمة، والذي من مظاهره الانفتاح على الثقافات الأخرى الغربية والشرقية، بسبب تطور وانتشار وسائل الاتصال التكنولوجية: كالقنوات الفضائية التليفزيونية، وشبكة المعلومات الدولية، ومن ثم فالأسرة اليوم مطالبة بمواجهة التحديات التي تفرضها عليها وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة، دون أن تحرم نفسها من الاستفادة مما توفره هذه الوسائل الإعلامية والتواصلية من فوائد وخدمات، كل ذلك يدعو إلى التساؤل عن كيفية مواجهة الأسرة تلك التحديات، وما هو دور وسائل الإعلام المحلية السمعية البصرية خاصة في مرافقة جهود الأسرة في مواجهة تأثيرات وسائل الإعلام العالمية، وما دور الأسرة في التعامل مع ما يرد إليها من أفكار وقيم عن طريق وسائل الإعلام والتواصل الأجنبية؟

### 1- الدور الإيجابي لوسائل الإعلام والتواصل المعاصرة في حياة الأسرة والمجتمع:

تؤدي وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة وظائف وأدوار عديدة، ومؤثرة في حياة الأفراد والأسرة والمجتمع، ويمكن أن نحصى هذه الأدوار فيما يلي:

أ- توعية الأسرة بما يحيط بها من مشكلات اجتماعية وتربوية وصحية، ومساعدتها على حلها، وتبصيرها بما لها من حقوق، وما عليها التزامات، حماية لها من مؤثرات داخلية وخارجية.

ب- تدعيم دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية، عن طريق برامج تربوية والتوعية الاجتماعية.

ج- مناصرة الأسرة في قضاياها الأساسية من خلال عرضها على المجتمع وإبلاغ رسائلها إلى المجتمع عامة، وإلى المعنيين بشؤون الأسرة خاصة بهدف فهمها، وتقديم العون لها في

تحقيق أهدافها المتعلقة بتماسك الأسرة، وانسجام أفرادها فيما بينهم (انسجام الأسرة داخليا) واندماجها مجتمعيًا في إطار ثقافة المجتمع الأصلية (انسجام الأسرة خارجيًا)

د- تلبية حاجات أفراد الأسرة في التعرف على ما يجري في العالم من أحداث في كل مناحي الحياة: المعرفية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية...إلخ.

هـ - إعلام الأسرة بما يجري في محيطها المحلي و العالمي، وتمكينها من التواصل مع هذا المحيط بما يساهم في تطويرها مع الحفاظ على مبادئ المجتمع والثقافة التي تنتمي إليها، فقد كسرت هذه الوسائل حواجز الزمان والمكان، وسرعت من وتيرة التفاعل الفكري والاجتماعي والثقافي.

و- البرامج التعليمية التي تقدمها وسائل الإعلام تمثل سندا تعليميا لإنجاح العملية التعليمية من خلال رفع المستوى التعليمي للتلاميذ والطلاب، وفي هذا المنوال يقول «ميالاري». «إن الإعلام الآلي هو تقنية في خدمة المشروع البيداغوجي» (1)، ويرى «حسين حمدي الطوبجي» «أن تكنولوجيا الاتصال اللاسلكي من بين مبادئ الهامة في التعليم توفير فرص التعليم مدى الحياة» طبعًا هذا لمن له رغبة أو حاجة في تعميق معارف وتطوير خبراته. (2)

ز- تمكين الأسرة من استشراف المستقبل والإعداد له، حتى لا تكون الأسرة فريسة تقلبات اجتماعية واقتصادية...إلخ، وتغيرات ثقافية هي غير مهيئة لمواجهةها أو التكيف معها.

## 2- الدور السليبي لوسائل الإعلام والتواصل المعاصرة في حياة الأسرة والمجتمع:

إن أخطار وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة على تفكير أفراد الأسرة، وقيمهم، وصحتهم النفسية، وعلاقاتهم الاجتماعية لم يعد خافيا، خاصة تلك الوسائل الشائعة الانتشار كالقنوات التلفزيونية الفضائية، وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ومن هذه الأدوار السلبية الخطيرة التي يكمن أن تعزى لوسائل الإعلام المعاصر ما يلي:

### 2-1- المجال الفكري والثقافي: إن وسائل الإعلام المعاصر، وعلى رأسها التلفاز

والإنترنت بما تتميز به من قوة التأثير البصري والسمعي، يجعلها قادرة على توجيه أفكار أفراد الأسرة والمجتمع كبارهم وصغارهم الوجهة التي تخدم مصالح من يقومون على هذه الوسائل، وبما يتعارض مع ثقافة الأسرة المستمدة من ثقافة المجتمع، فالثقافة الالكترونية

التي تروج لها البرامج الأجنبية تفلت من الرقابة، فتندفق المعلومات والقيم بدون انتقاء بما يعزز الغزو الثقافي الأجنبي.

**2-2- المجال الاجتماعي:** انصرف أفراد الأسرة معظم الوقت إلى مشاهدة البرامج التليفزيونية، أو وسائل التواصل الإلكتروني صار من أسباب ضعف العلاقات الأسرية والاجتماعية «فقد أحدثت وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة عزلة وقطعية اجتماعية بين أفراد الأسرة، وحتى بين أفراد المجتمع، «فاستبدل الأفراد الأهل والأصدقاء بأهل وأصدقاء افتراضيين يتواصلون عبر وسائل الإعلام والتواصل الإلكتروني» (3)، وتشير نتائج دراسة قام بها «بورناس و هيل» إلى «أن استعمال الحاسوب الآلي نشاط فردي، قد يشكل هذا الجهاز خطرا يتمثل في عزل الطفل، وترجيح تنمية سلوكات مضادة للمجتمع» (4)

**2-3- المجال السلوكي:** إن الأبناء الذين يفتقدون علاقات اجتماعية قوية ومستقرة بالعائلة والأصدقاء والبيئة المحيطة، والذين لا يخضعون لرقابة وتوجيه كافيين من الجماعة، قد تملأ برامج العنف التي يشاهدونها في التلفزيون الفراغ الموجود في حياتهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه الأفكار وسلوك الشخصيات التي تمثل أدوار العنف في الأفلام هي بمثابة موجهات لهم ونماذج للسلوك، فمشاهدة أفلام العنف من شأنها تكوين اتجاهات لدى المشاهدين خاصة فئة الأطفال والمراهقين في استعمال العنف في حل مشكلاتهم، فالأفراد في هذه المرحلة العمرية من حياتهم معروفون بميلهم للتقليد، مما يجعلهم طعما سهلا للبرامج الإعلامية غير الملائمة، وهذا ما أشارت إليه نتائج الدراسة التي قام بها الباحثون «إرون، هيزمان، لافكويتز ووالدير» «هناك ارتباط إيجابي بين مشاهدة الأطفال في سنهم التاسع للقطات العنف التي بثت على شاشة التلفاز والسلوك العدواني لهؤلاء الأولاد في سنهم التاسع عشر» (5)

**2-4- مجال الصحة النفسية:** في المجال النفسي كثيرا ما تسهم برامج التلفزيون، والمضامين التي تبثها مواقع الانترنت في تكوين اتجاهات غير مرغوب فيها لدى أفراد الأسرة، خاصة نحو بعض القضايا والأشخاص، كما أنها تركز الخمول الذهني، والتبذل الانفعالي وبدرجة أخص عند مشاهدة أفلام العنف، والأفلام التي تعج بالسلوكات غير الاجتماعية وغير الأخلاقية. إن الإدمان على برامج التي تبثها وسائل الإعلام والاتصال يستنفذ من طاقات الأطفال والشباب الذهنية والنفسية، وأحدث الدراسات في جامعة «هارفارد» تبين

أن مشاهدة الشباب التلفاز لفترات طويلة أكثر من ساعتين ونصف ساعة يوميا يزيد من احتمالية حصول الكآبة لديهم بعد سنوات، وكل زيادة ساعة في المشاهدة اليومية ترفع من نسبة حصول الكآبة بـ 8% ، فإن الأشخاص الذين لديهم استعداد للكآبة هم أكثر ميولا للتلفاز والمزيد من الكآبة» (6)، كما تشير بعض الدراسات «أن الانقطاع المفاجئ لمدمني التلفاز يؤدي إلى أعراض انسحابية مثل القلق والعصبية المفرطة» (7).

**5-2- المجال التربوي:** إن الأطفال يقضون ساعات طويلة في مشاهدة البرامج الترفيهية خاصة، وهي في أحيان كثيرة تتميز بهزالة مضمونها المعرفي والتربوي، وأمام جاذبية الصور والألوان يضحي الطفل متلقيا سلبيا لمجموعة من الأفكار والقيم والمعايير الغربية عن بيئته، إلى جانب هدر الوقت الذي كان من الأجدى استغلاله في القيام بالوجبات الدراسية المنزلية، وترى الباحثة «ماري وين» «أن التلفاز مع ما يعود به على الطفل من فوائد، وما له من إيجابيات فهو أشبه بالمخدرات، فهو يسلب الطفل المشاهد إرادته، ويعوده الاسترخاء العقلي، ويقلل من قدرته على التركيز والفهم، وهذا ما يؤثر على تحصيله الفكري ونمو شخصيته» (8). وإن البرامج الوافدة من المجتمعات الأخرى عبر وسائل التواصل والإعلام الفضائية من شأنها «أن تربك صيرورة التنشئة بجعلها مزدوجة المرجعية» (9)

### 3- دور الأسرة في مواجهة التحديات التي تفرضها عليها وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة:

على الأسرة اليوم أن تنظر في تراجع دورها التربوي لصالح مؤسسات اجتماعية كالإعلام، ولا تدع هذه الوسائل المؤثرة الفرصة لتشكيل الأذهان وإنتاج المجتمع كما تريد، وأن تدرك أن التنشئة السليمة للأبناء هي التي تكون تحت إشراف الآباء والأمهات عن طريق التوجيه والإرشاد، ولقد كشفت دراسات حول الصحة النفسية من «وجود علاقة بين أنماط التفاعل الأسري، والعلاقات الأسرية وبين ما يصاب به الأبناء من اضطرابات نفسية وانحرافات سلوكية» (10). وعلمها أن تعي أنها مهددة بتفككها عاطفيا على الأقل بسبب ما يأتيها من أفكار وقيم من الخارج عن طريق الفضائيات ومواقع الانترنت، وفي الوقت ذاته يجب أن تعي أهمية استفادتها من التطور الحاصل في مجال تكنولوجيات الإعلام والاتصال، وتسخيرها لتحقيق أهدافها، وتلبية حاجات أبنائها إلى فهم ما يحيط بهم محليا



وعالميا، ولتحقيق ذلك لابد من توفر القدرة لدى الأسرة على التمييز بين الجوانب السلبية والايجابية فيما تنقله وسائل الإعلام والاتصال التكنولوجية من محتويات، ثم اتخاذ بعض الإجراءات في مواجهة المد الثقافي الخارجي و من بين هذه الإجراءات ما يلي:  
أ- إيجاد قدر من الاتفاق بين الوالدين في النظرة إلى وسائل الإعلام وفي أساليب التعامل معها.

ب- انتقاء البرامج التلفزيونية ومرافقة الأبناء أثناء مشاهدتها، وحجب المحطات والمواقع التي تقدم برامج غير المناسبة للأطفال والمراهقين، والتي تمس قيم المجتمع الدينية والثقافية والاجتماعية، وتحديد الوقت المناسب لمشاهدة الأبناء للتلفاز، استخدام الانترنت.

ج- تشجيع الأسرة أبناءها على الطالعة، وممارسة الرياضة والهوايات المفيدة، وتدريبهم على استثمار وقت فراغهم بما يعود عليهم بالنفع، بدلا من مجالسة التلفاز والانترنت لفترات طويلة.

د- مساعدة الأبناء على فهم مضامين ما يقدم لهم من مادة إعلامية، حتى لا يكون نصيبهم من

المشاهدة فقط صور جذابة لا معنى لها عندهم.

هـ- جعل استخدام وسائل الإعلام مع الأبناء نشاطا عائليا، ومناقشة الأبناء الأطفال فيما يشاهدونه ويسمعونه من برامج.

#### 4- دور المجتمع في مواجهة التحديات التي تفرضها وسائل الإعلام والتواصل المعاصرة على الأسرة والمجتمع:

لا شك أن غزو وسائل الإعلام والاتصال السمعية البصرية للأسرة والمجتمع أمر واقع، فلا أحد ينكر تأثير هذه الوسائل في بناء العقليات، وتشكيل الاتجاهات، وتكوين السلوكات، هذا ما يفرض على الأسرة والمجتمع الوعي بأهمية هذا التأثير ومضامينه واستراتيجياته، والاستعداد لمواجهة وتوجيهه بما يخدم أهداف المجتمع والأسرة والأفراد. وهذا يتطلب من المجتمع تدعيم إنتاج المضامين الثقافية والإعلامية المحلية، تناول قيم وتاريخ وحضارة المجتمع، فلا يمكن مواجهة ما يتدفق من الخارج عبر وسائل الإعلام والاتصال التكنولوجية من أفكار وقيم وسلوكات مع بقاء المجتمع في وضعية المستهلك لما يرد إليه عبر تلك

الوسائل المهيمنة.

ورغم أن وسائل الإعلام والاتصال المعاصرة أصبحت في عالمنا اليوم وسطا افتراضيا للتنشئة الاجتماعية، إلا أنه على المجتمع بكل مؤسساته خاصة الأسرة والمدرسة أن تعزز دورها الأساسي في رعاية الأفراد وتأهيلهم اجتماعية، وصياغة شخصية الناشئين بالشكل الذي يجعل شخصيتهم سوية متوافقة مع ذاتها والبيئة الاجتماعية التي تعيش في كنفها. وثمة حقيقة يجب توضيحها، ألا وهي أن تجاهل التحديات المرتبطة بوسائل الاتصال الحديثة أو التراخي في مواجهتها يجعلها تتسع وتزايد، كما أن التحويل من مخاطر هذه الوسائل يقدم صورة مخالفة للواقع قد تضر أكثر مما تنفع، وهذا ما يجعل التمسك برؤية معتدلة ومتوازنة خلال التصدي للتحديات الثقافية المختلفة أمرا مطلوباً.

وأخيرا يمكن القول إن تقوية شبكة العلاقات داخل الأسرة وفي المحيط العائلي والمجتمعي يؤمن الأسرة من مخاطر التأثيرات السلبية لوسائل الاتصال الحديثة، ويتيح لها استغلال هذه وسائل بشكل يحقق أهدافها خاصة التربوية منها.

الهوامش:

(1)-Rachel Cohen,( 1987) Les jeune enfants la découverte de l'écrit et l'ordinateur, presses universitaires de France.

(2) حسين حمدي الطوبجي (1983) التكنولوجيا والتربية، دار القلم، الكويت، ص149

(3) سكيمة إبراهيم بن عامر(2010) رؤية مستقبلية لأدوار وسائل الاعلام في تمكين الأسرة العربية من أدوارها استراتيجية مجلة البيت الليبية نموذجا، مؤتمر الأسرة والإعلام العربي، المجلس العربي للطفولة والتنمية.

(4)-Rachel Cohen,( 1987) Les jeune enfants la découverte de l'écrit et l'ordinateur, presses universitaires de France.

(5)- Ernest. R. Hilgard, Rita L. Atkinson , Richard C. Atkinson, traduit par David Bélanger (1980), Introduction à la Psychologie, Edition Etude Vivante, Montréal P376.

(6) محمد عبد الكريم الشوبكي، (2012) تأثير التلفاز على حياتنا، Ejabat. Google .com

- (7) محمد عبد الكريم الشوبكي (2012) تأثير التلفاز على حياتنا، Ejabat. Google .com
- (8) أحمد محمد معتوق (1996) الحصيلة اللغوية ، دار عالم المعرفة، الكويت، ص 98
- (9) هدى علي علوي، 2010 دور الإعلام العربي في تعزيز ونشر الاتجاهات المعاصرة لأسرة، مؤتمر الأسرة والإعلام العربي، المجلس العربي للطفولة والتنمية.
- (10) أحمد محمد مبارك الكندي (1993) علم النفس الأسري، مكتبة الفلاح، ص 18

#### المراجع

- 1-أحمد محمد مبارك الكندي (1993)، علم النفس الأسري، دار الفلاح، الكويت
- 2-أحمد محمد معتوق (1996) الحصيلة اللغوية، دار عالم المعرفة، الكويت
- 3-حسين حمدي الطوبجي (1983) التكنولوجيا والتربية، دار القلم، الكويت.
- 4- محمد عبد الكريم الشوبكي (2012) تأثير التلفاز على حياتنا، www. Wathakhar. net
- 5-هدى علي علوي (2010) دور الإعلام العربي في تعزيز ونشر الاتجاهات المعاصرة للأسرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية، قطر
- 6- سكيمة إبراهيم بن عامر (2010) رؤية مستقبلية لأدوار وسائل الإعلام في تمكين الأسرة العربية من أدوارها إستراتيجية مجلة البيت الليبية نموذجاً، المجلس العربي للطفولة والتنمية، قطر
- 7- Ernest. R. Hilgard, Rita L. Atkinson , Richard C. Atkinson, traduit par David Bélanger (1980), Introduction à la Psychologie, Edition Etude Vivante, Montréal Paris.
- 8-Rachel Cohen,( 1987) Les jeune enfants la découverte de l'écrit et l'ordinateur, presses universitaires de France.



## فاعلية الأنشطة والوسائط الثقافية في تنمية المعرفة والسلوك البيئي ( الطفل في الطور الإبتدائي كنموذج )

أ.حمروش دليلة جامعة الجيلالي ليايس – سيدي بلعباس

تعتبر الأنشطة التي يمارسها الطفل أثناء تعامله مع البيئة المحيطة به من المكونات الأساسية لتثقيفه وتعليمه خاصة إذا ما ارتبطت بالبرامج التي تقدم له من خلال وسائط الثقافة المتنوعة، فالطفل، يتعلم من خلال العمل والتطبيق و ممارسة الأنشطة، وتزيد فاعلية هذه الأنشطة إذا ما تم تقديمها له باستعمال وسائط الثقافة، حيث تساعد هذه الوسائط في بلورة المعلومات والنماذج السلوكية المرغوبة أثناء ممارسة النشاط، وبذلك يستطيع الطفل أن يستنتج ما ينبغي أن يصل إليه ويتمكن من الحصول على المعرفة والمعلومات من خلال اللعب و التجريب والمشاهدة وما يرافقها من عمليات التحليل والتفكير العلمي المنظم، بالإضافة إلى تعلم كيفية الربط بين ما يخرج به من معرفة وبين الظروف العملية التي أدت إلى ظهورها، وخلق نوع من المرونة والاستعداد لتغيير ما لديه من مفاهيم وسلوكيات إذا ما تغيرت ظروف المجتمع وطريقة الحياة فيه.

ومن هذا المنطلق برزت الحاجة إلى ربط الأنشطة بوسائط الثقافة والتعامل معها كإطار عام لأي برنامج يهدف إلى تنمية المعرفة والسلوك البيئي لدى الطفل، إذ أن ربط وسائط الثقافة بالأنشطة البيئية يتيح لمنفذي البرامج البيئية إمكانية ترجمة المبادئ الخاصة بالتربية البيئية إلى غايات ملموسة وواقع محسوس، وهذا ما أكد عليه نبيل على(1) :«حيث أوضح أهمية الربط بين تلك المبادئ البيئية والغايات المرجوة من البرنامج سواء أكانت المبادئ الإنسانية أم الإيمانية أو مبدأ التربية للعلم ومبدأ التربية للعمل بالإضافة إلى مبدأ التربية المتكاملة ومبدأ التربية للحياة» ، وكلها مبادئ أساسية لعملية التربية البيئية حيث تزيد فاعليتها من خلال استعمال مجموعة الوسائط الثقافية وربطها بأنشطة بيئية حسب إمكانيات وخصائص ومميزات كل وسيط، خاصة وأن هذه الأنشطة ووسائط الثقافة تعمل على إمداد الطفل بالمعلومات و المفاهيم البيئية من خلال تكوين إطار معرفي حول القضايا البيئة مما يتيح له التعامل مع المفاهيم البيئية المجردة التي تمر به ضمن مقررات المنهج

المدرسي وما يتعرض له من مواقف بيئية في المجتمع المحيط، بالإضافة إلى ما تنقله له وسائل الإعلام والتثقيف في المجتمع، وبالإمكان تلخيص هذه الأهمية في النقاط التالية:

## 1. تكوين إطار معرفي يساعد على فهم القضايا البيئية

يؤدي تعرض الطفل لأكثر من وسيط ثقافي في الوقت نفسه إلى تكوين مخزون من المعلومات المتنوعة، ومنها المعلومات البيئية التي تزايدت بشكل ملحوظ بعد تنامي الاهتمام بقضية البيئة ومشكلاتها وانعكاساتها على حياة وبقاء الإنسان وبقية الكائنات، فقد أشارت بعض الدراسات إلى أن تعرض الأطفال لأكثر من وسيط يؤدي إلى ارتفاع معدل الاحتفاظ والتخزين لأكثر قدر من المعلومات والمواقف والخبرات والقيم والاتجاهات المطلوب إكسابها له، بعكس لو اقتصر الأمر على المنهج الدراسي أو على وسيلة دون الأخرى (2)، كما تؤكد هذه الدراسات على أن استعمال أكثر من وسيلة لاكتساب المعلومات يساعد في تحولها إلى رموز وصور ذهنية طويلة المدى يمكن استعادتها في الوقت المناسب وترجمتها لمواقف وسلوكيات بيئية بممارسة أنشطة متعددة تنبع من وجود عوامل دافعية مناسبة لممارسة هذه الأنشطة وتحقيق التكامل بينها وبين الوسائط.

وفي هذا الإطار استعمل أحمد الأمين علي (3) برنامجا مقترحا للأنشطة المدرسية، وقام بقياس تأثيره بتطبيق اختبار للمعارف البيئية، واستطاع من خلال البرنامج تنمية المعارف والاتجاهات الإيجابية لدى تلاميذ المرحلة الأساسية في ليبيا.

## 2. توصيل المعلومات البيئية للأطفال وإعلامهم بها

تعمل الأنشطة ووسائط الثقافة على تمكين القارئ بالاتصال، سواء أكان فردا أم مؤسسة إعلامية، من توصيل المعلومات البيئية المرغوبة للأطفال تبعا للموقف التعليمي، ووضعها في نظام معين مترابط ومتكامل، وذلك لتحقيق الأهداف المرجوة والتغلب على المشكلات التي تعوق تحقيق هذه الأهداف، ومن هذا المنطلق أوضحت دراسات كل من عبد الله الطويرق وسمية عبد الحميد (4) مدى الصعوبة في التعامل مع وسائط الثقافة بشكل منفصل عن الأنشطة المصاحبة لها خاصة في ضوء خصائص عصر المعلوماتية وتقنيات الاتصال التي أحدثت قفزة في ميدان الاتصالات، باعتبار أن هذه الوسائط تشكل جزءا فاعلا في حياة الأطفال الذين يمثلون جمهورا عريضا لتلك الوسائط وأكثر الفئات تعرضا واقتناعا بالرسائل الإعلامية التي تبثها.

أما دراسة يعقوب يوسف (5) فقد ركزت على فاعلية الدور الإعلامي للمؤسسات البيئية في توصيل المعلومات البيئية للأطفال وإعلامهم بها، حيث توصل الباحث في دراسته إلى بيان التأثير الواضح للمطبوعات والبرامج البيئية التي تصدرها المؤسسات والهيئات الحكومية وغير الحكومية في نشر المعرفة البيئية في المجتمع، كما أوضح التأثير الكبير لبرامج الجمعيات الأهلية من خلال أنشطتها الميدانية، وهذا يؤكد فاعلية الأنشطة وإمكانية الاستفادة من برامج المجتمع المدني في تنمية المعرفة والسلوك البيئي لدى الأطفال. كما تعمل الأنشطة وسائط الثقافة على رصد التغيرات البيئية التي تؤثر في حياة الأفراد والمؤسسات والمجتمع ككل وذلك من خلال تقديم المعلومات والخدمة الإخبارية المتعلقة بكل ما يحدث وما يمكن أن يكون له أثار عامة أو خاصة على البيئة المحلية، حيث يبرز دور هذه الوسائط في رصد المتغيرات البيئية المؤثرة في حياة الأفراد.

ومن خلال دراسات كل من (أحمد حسين اللقاني، وفارعة حسن محمود، و عبد الله الطويرق (6) التي أوضحت أهمية استعمال الأنشطة ووسائط الثقافة في التربية البيئية باعتبارها أوعية ثقافية قادرة على رصد التغيرات البيئية المؤثرة في حياة الأطفال، إذ أن تفاعل الأطفال المباشر مع البيئة يؤدي في معظم الأحيان إلى اكتساب مهارات الكشف والبحث والتطبيق الفعلي لما تعلموه نظرياً، وبالتالي ينمي لديهم سلوكاً إيجابياً نحو البيئة وإيماناً بمسؤوليتهم تجاهها، خاصة وأن الأنشطة المطبقة باستعمال بعض وسائط الثقافة تسمح للأطفال بإجراء المقارنات بين المعلومات التي اكتسبوها وبين التطبيق اليومي الحياتي لها، إلى جانب أنها تنمي لديهم مهارات الملاحظة والقدرة والمشاركة وتقييم الحقائق وفحص العينات والتحليل والنقد وما إليها من مهارات أساسية وبذلك تساعد على تفهم البيئة والتعامل مع مواردها بوعي والعمل على حل مشكلاتها. ومن جهة أخرى فإن هذه الأنشطة والوسائط الثقافية تساهم في تفهم ورصد ظروف البيئة الداخلية المحيطة بالطفل، فقد بينت نتائج الدراسة البيئية المبكرة التي أجراها (7) Braun أثر استعمال اللعب والمحاكاة كوسائط ثقافية في تغيير جو حجرة الدراسة من خلال التعاون والمنافسة بين الأطفال، كما توصلت نتائج الدراسة إلى مجموعة من الآثار الإيجابية المتعلقة بالتفاعل بين التلميذ والمعلم، وبين التلميذ وزملائه، وبيئة الفصل، وقد قدم البرنامج أنماطاً من السلوك الإيجابي ليحتذي به الأطفال أثناء تفاعلهم، حيث انعكس أثر هذا البرنامج على أسلوب الأطفال في حل بعض

المشكلات البيئية داخل الفصل، إلى جانب تعزيز الحل التعاوني بينهم أثناء تعاملهم مع بعضهم ومع البيئة المحيطة.

### 3. نشر المفاهيم والقضايا البيئية وتعميمها

اعتمدت بعض الدراسات والبحوث البيئية على استعمال البرامج التليفزيونية في نشر المفاهيم والقضايا البيئية، نظرا لما يتمتع به التليفزيون من تأثير واضح على الأطفال، باعتباره وسيط محبوب ومرغوب ومؤثر في المتلقي، وقد تعددت الدراسات التي اعتمدت على هذا الوسيط، خاصة مع الأطفال، (8) سواء في نشر المعلومات البيئية وتعميم السلوكيات السليمة من خلالها، أو بتزويد الأطفال بخبرات ونماذج من السلوكيات الإيجابية التي تسهم في تشكيل وبلورة السلوك البيئي المرغوب، وذلك من خلال عرض النماذج الشخصية التي تشغل مكانه اجتماعية عالية، وتصوير السلوك البيئي لتلك الشخصية وردود أفعالها، أو في تدعيم المنهج المدرسي وتوصيل المعلومات للأطفال. ومن ناحية أخرى أكد كل من عاطف عدلي، أحمد زلط وفاتن الطنباري، (9) على أهمية استعمال الراديو كوسيط إعلامي مؤثر في تنمية المعرفة البيئية لدى الأطفال، وذلك لما يتميز به هذا الوسيط من مقدرة اتصالية تسهم بشكل فاعل في التثقيف البيئي للأطفال، خاصة إذا ما تم الاستفادة الجيدة من البرامج المقدمة من خلاله مثل القصص القصيرة والأغاني أو المؤثرات الصوتية التي تسهم إلى حد كبير في ترسيخ المعلومة لدى الأطفال، كما أكدت هذه الدراسات على ضرورة اشتراك الأطفال في إنتاج وإعداد وتقديم هذه البرامج من أجل زيادة فاعليتها، إلى جانب تسجيلها في أشرطة تتيح الفرصة لاستعمالها في الفصل أو أثناء الأنشطة العامة وتجمعات الأطفال. كما تلعب الكتب و المجلات بأنواعها دورا مهما في نشر الوعي البيئي حيث تبرز أهميتها في كونها وسيط ثقافي يتميز عن بقية وسائط الثقافة من حيث سيطرة الطفل على ظروف التعرض له وإمكانية قراءة الرسالة أكثر من مرة مما يجعله وسيطا ذا مقدرة عالية على معالجة الأمور المعقدة والمفاهيم التي تحتاج إلى تدقيق وإمعان، وقد بينت دراسة محمد فتحي عبد الهادي وآخرون (10) دور هذه الكتب في التربية البيئية، خاصة وأنها تعمل على توعية الأطفال وتنويرهم من خلال نشر المعلومات البيئية السليمة والنافعة و تنمي لديهم السلوكيات البيئية الايجابية والمرغوبة وترسيخ مبدأ الانتماء للبيئة وغرس القيم والمثل البيئية والالتزام بالمبادئ والأخلاقيات البيئية المسؤولة بشكل يمتد منهم إلى باقي أفراد الأسرة،



وبذلك تمكن الطفل من مواجهة الحياة والتعرف على الكون وتحديد موقعه ومكانته في هذا العالم وإثارة دوافعه وقدراته نحو مزيد من المعرفة البيئية ومزيد من الاكتشاف.

#### 4. المساهمة في التنشئة البيئية للطفل

تسهم الأنشطة ووسائل الثقافة في مساعدة الطفل على أن يكون عضوا فاعلا في المجتمع، وعلى التكيف مع الحياة الاجتماعية ومطالب التطور والتغيير. فقد أوضحت دراسة كل من نجوى عبد الحميد وجهان عبد السلام (11) الدور الفاعل لهذه الوسائط في تفهم الطفل لأسباب المشكلات البيئية المحيطة به مما يجعله يقف منها موقفا إيجابيا، ويعمل على إحلال السلوكيات الإيجابية لديه محل السلبية منها، كما تقدم هذه الوسائط للطفل ثقافة بيئية شاملة تتميز باندماجها واتصالها بالحياة اليومية بكل ما فيها من عمل وإنتاج وترويح.

#### 5. استكمال دور المدرسة في تعليم الطفل المفاهيم البيئية التي يحتاج إليها:

أكدت بعض الدراسات والأبحاث العلمية على أنه لا يكفي الاعتماد على المدرسة فقط لإكساب الطفل المعرفة البيئية، فقد توصلت (12) أن ما يكتسبه الفرد في المدرسة من معلومات يعد ضئيلا بالنسبة إلى ما يستقيه من معلومات ومعارف من الوسائط الثقافية التي يتعامل معها، خاصة وأن الأنشطة التي تقدم للطفل من خلالها تعد من المجالات الغنية بمصادر تثقيف الطفل، وهي تسهم بشكل كبير في تنمية مختلف جوانب شخصيته لما تحتويه من فرص عديدة تسهم في زيادة حصيلته المعرفية والسلوكية، ومن جهة أخرى أكدت دراسة Kelsse and Edward<sup>13</sup> () على أن ممارسة الأنشطة المدرسية بالاعتماد على استعمال الوسائط الثقافية كالإذاعة المدرسية والصحافة الحائطية والمسرح والأفلام التعليمية والرحلات الخلوية وما يصاحبها من أنشطة حركية، تؤدي إلى ارتفاع مستوى الطلاب المشاركين فيها في التحصيل الأكاديمي مقارنة زملائهم الذين لم يمارسوا هذه الأنشطة إلى جانب أنها تؤدي إلى زيادة تقدير الذات لدى الطلاب بالإضافة إلى تحسين مهارات القيادة وإثراء معارفهم وقدراتهم المختلفة. وبالمثل أشارت دراسة صفاء فوزي (14) إلى أن الطفل المصري يستعمل الوسائط الثقافية بشكل تكاملي، خاصة حينما يمارس الأنشطة الإعلامية داخل المدرسة، فهو لا يقتصر على استعمال وسيط دون الآخر رغم تباين حجم وكثافة التعرض لكل وسيط منها، وذلك وفقا للإمكانيات ومدى توفر الوسيط وأوقات التعرض لهذه الوسائط، وبذلك أمكن تنمية معرفته وسلوكه البيئي بشكل ملاحظ.

## 5. تعليم الأطفال أنماط السلوك البيئي المرغوب

تؤثر وسائط الثقافة بصفة عامة في تعليم الأطفال الأنماط السلوكية البيئية المرغوبة فالتلفزيون، مثلاً يساعد على تعليم الأطفال أنماط السلوك التي تضع نماذج للتوقعات المستقبلية الخاصة بتعاملهم مع البيئة في مواقف مماثلة، ويتم ذلك من خلال إعداد البرامج المتخصصة في مجال البيئة وتأليف المسلسلات والتمثيلات والأغاني المصورة إلى جانب استعمال الإشهارات وتوظيفها لخدمة القضايا والموضوعات البيئية، كما يستعمل الفيديو باعتباره أحد التطورات التكنولوجية التي ألحقت بالتلفزيون من أجل التحكم في زمن عرض الأفلام والبرامج التعليمية والأشرطة الوثائقية داخل الفصل واستعمالها كوسائط تثقيفية مدعمة للمنهج المدرسي، وفي هذا الإطار أوضحت دراسة عزة عبد المنعم زيدان، (15) مدى فاعلية برنامج نشاط معتمد على الإعلام التربوي لطلاب المرحلة الثانوية في معالجة المشكلات البيئية، حيث أسفرت نتائج تطبيق البرنامج عن فاعلية استعمال تلك الأنشطة في تنمية المعرفة البيئية لدى الطلاب وتكوين الوعي والاتجاهات الإيجابية نحو البيئة.

## 6. إكساب الطفل المهارات المعرفية والابتكارية المساعدة في التعامل مع

### قضايا البيئة

تسهم وسائط الثقافة في تعليم الطفل المهارات المعرفية و الابتكارية مثل التصنيف ومهارات الترتيب والتسلسل وإدراك العلاقات بين الأشياء والتمييز بينها، فقد أسفرت نتائج إحدى الدراسات عن التأثير الفاعل للبرامج الخاصة بالتربية البيئية التي اعتمدت على الأسلوب المتدرج في تقديم المعرفة البيئية للأطفال من خلال استعمال مجموعة من الأنشطة البيئية القائمة على عرض الصور والأشكال والرموز التي توضح الكثير من المفاهيم البيئية، بالإضافة إلى استعمال التلفزيون باعتباره وسيلة تعلم مؤثرة تعتمد على دمج أسلوب الإقناع والترفيه معاً من أجل مساعدة الطفل على تكوين الصورة الذهنية عن العالم الواقعي الذي يعيش فيه وربطه بعالمه الاجتماعي، وبالتالي يساعد الطفل في تحويل المفاهيم المجردة إلى خبرات محسوسة، وهذا يساعد في سهولة فهم واستيعاب الرسائل البيئية والموضوعات المتعلقة بها. ومن جهة أخرى أكدت دراسة (16)، Paterson and Kinny، على أهمية استعمال برنامج في التربية البيئية موجه للأطفال الروضة يعتمد على استعمال الوسائط الثقافية في تنمية

بعض المهارات المعرفية مثل التمييز والتصنيف والربط بين السبب والنتيجة، وإدراك العلاقات بين المتغيرات، حيث قدم الباحثان برنامجاً يعتمد على مجموعة من الوسائط الثقافية تتمثل في القصص و الرقص والموسيقى والزيارات الميدانية لجمع أشياء من البيئة، وقد أثبتت النتائج فاعلية الأنشطة البيئية ومناسبتها لتنمية مهارات الأطفال المعرفية التي تعتمد على الشكل واللون.

## 7. إشباع الحاجات المعرفية والوجدانية والمهارية لدى الأطفال وانعكاسها

### على أدائهم البيئي

في هذا الإطار أشارت دراسة محمد فؤاد محمد زيد، (17) إلى العلاقة الوثيقة بين ممارسة الأنشطة، خاصة الإعلامية منها، وبين نمو شخصية الطفل، حيث أوضحت نتائجها مدى فاعلية تلك الأنشطة في إشباع حاجات الأطفال المعرفية والوجدانية والمهارية والاجتماعية، وتأثيرها في تطور مهارات التفكير الناقد لدى الأطفال وانعكاسها الإيجابي على الأداء البيئي للطفل ظهر هذا واضحاً من خلال تحسن أداء الأطفال البيئي على المستوى العقلي والحركي والنفسي والاجتماعي بعد ممارستهم للأنشطة التي احتواها البرنامج المقدم إليهم. ومن جهة أخرى أكدت دراسة (Spencer) على دور وسائط الثقافة في تنمية الإدراك البيئي لدى الأطفال، باعتبار أن الإدراك البيئي مهارة عقلية تسهم في تطوير القدرات الذاتية الطفل وتتيح له، حين اكتسابها، القدرة على التعامل مع البيئة المحيطة به وإدراك أدواره ومسئوليته تجاهها وبالتالي إشباع حاجاته المعرفية والوجدانية والمهارية، وذلك من خلال استبدال الأسلوب التقليدي في التربية بأسلوب مبتكر يعتمد على استعمال الأنشطة ووسائط الثقافة في تنفيذ مشاريع بيئية تهدف إلى تنمية القدرات الذاتية والمهارات البيئية لدى الأطفال (18)

### تصنيفات وسائط الثقافة

تتعدد تصنيفات وسائط الثقافة وفقاً لطبيعة الدراسة ووفقاً لطبيعة المادة المقدمة والجمهور الذي يتعرض لها، حيث يستعمل كل باحث تصنيف خاص به يتوافق مع طبيعة دراسته والأهداف التي تسعى إليها، وقد قدمت الدراسات مجموعة من التصنيفات الخاصة بوسائط الثقافة تتمثل في الآتي:

## 1. التقسيم وفقاً لأسلوب معالجة المعلومات :

من خلال ما تحتاج إليه المادة الإعلامية أو ما تسعى إليه من أهداف، كمجموعة الرموز التي تشمل الوسائط اللفظية المتمثلة في حركات الجسم وتعبيرات الوجه ودلالات الألوان والإشارات ومهارات المخاطبة والحديث، ومجموعة الوسائل المتمثلة في الوسائط السمعية والبصرية كالصحف والراديو والتلفزيون والسينما وأجهزة الحاسوب، يركز هذا التقسيم درجة ما يوفره الوسيط من واقعية تتيح الفرصة للطفل للاحتكاك والإحساس بالواقع، وبالتالي يكون هذا الوسيط قادراً على مساعدته على الإحساس بالشيء المطلوب التعرف عليه أو دراسته والتعامل معه مباشرة، ومن ثم تنمية سلوكه ومعارفه البيئية بسهولة.

## 2. التصنيف وفقاً لطبيعة الوسيط وأدواته

قدم حسين حمدي الطوبجي في دراسته تصنيفاً لوسائط الثقافة وفقاً لطبيعة الوسيط وما يحتاج إليه من أدوات لتوصيل الرسالة الإعلامية للطفل، حيث اعتمد على تصنيف هذه الوسائط إلى وسائط تقليديه تشمل المسرح والمعارض والرحلات، ووسائط مكتوبة تشمل الكتب والصحف والمجلات، والوسائط المسموعة التي تشمل الأشرطة والراديو، وأخيراً الوسائط المرئية والمسموعة التي تشمل برامج التلفزيون وأشرطة الفيديو والسينما، وهو بذلك يؤكد على المميزات والخصائص التي تجعل اختيار الوسيط مناسباً لخدمة الهدف الذي يسعى إليه، وتحقيق التعلم والتثقيف المطلوب (19).

## 3. التصنيف وفقاً لفكرة الزمان والمكان

اعتمد إبراهيم إمام (20) في دراسته على تقسيم الوسائط الثقافية وفقاً لمفهوم الزمان والمكان، فقسمها إلى وسائط مكانية تشغل حيزاً من مكان مثل المطبوعات والصور واللوحات الفنية، ووسائط زمنية تتميز بالتسلسل في زمن محدد كالبرامج الإذاعية والتلفزيونية، بالإضافة إلى الوسائط المكانية الزمنية التي تشغل حيزاً مكانياً ووقتاً زمنياً في وقت واحد، مثل الأفلام والمسرحيات.

## 4. التصنيف وفقاً لنوعية الوسيط

قدمت دراسة أخرى تصنيفاً مختلفاً يعتمد على تقسيم هذه الوسائط إلى أربع مجموعات تتمثل في الوسائط الصوتية وتشمل الخطب والأناشيد والأغاني، والوسائط المطبوعة وتشمل الصحف والمجلات والكتب والنشرات والملصقات، أما الوسائط المرئية فتشمل التماثيل والأعلام والرموز والأزياء والشارات والعلامات التجارية، وأخيراً الوسائط الصوتية

المرئية التي تشمل التليفزيون والسينما والمسرح.(21)

## 5. التصنيف وفقا لتاريخ ظهور الوسيط

استعمل أحمد زلط (22) في دراسته تصنيفا يعتمد على تاريخ ظهورها من الأقدم إلى الأحدث، وتتمثل في الكتب والصحف والمجلات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، ويضاف إليها برامج الحاسوب والألعاب الالكترونية وشبكات الإنترنت. ومهما تعددت تصنيفات وسائط الثقافة التي قدمت في الدراسات العلمية المختلفة وتعددت بتعدد اهتمامات الباحثين وتخصصاتهم وطبيعة الموضوعات التي تعالجها هذه الدراسات إلا أن هذه التصنيفات تشترك فيما بينها في تصنيف متقارب ينظر إلى الوسيط من حيث طبيعته وما يحتاج إليه من أدوات وما يسعى إليه من أهداف وما يمتلكه من خصائص تناسب عمر الطفل وتناسب طبيعة الموقف الاتصالي والغرض من استعماله وكيفية توظيفه لخدمة التربية البيئية. لذلك يمكن تصنيف وسائط ثقافة الطفل المستعملة في التربية البيئية في أربع فئات كالآتي:

1. الوسائط التقليدية وتشمل: المسرح والمعارض والمتاحف والمخيمات والرحلات والزيارات.

2. الوسائط المكتوبة وتشمل: الكتب والصحف والمجلات والنشرات والمطويات.

3. الوسائط المسموعة وتشمل: برامج الراديو وأشرطة الكاسيت والاسطوانات المدمجة.

4. الوسائط المرئية والمسموعة تشمل: برامج التليفزيون و أشرطة السينما والفيديو.

5. الوسائط التفاعلية وتشمل: الألعاب الالكترونية وبرامج الحاسوب وشبكة المعلومات(الانترنت).

بناء على التقسيمات السابقة لوسائط ثقافة لطفل تم وضع تصنيف خاص بالدراسة الحالية يعتمد على اختيار أربع وسائط ثقافية ، تتمثل في المسرح البيئي والمخيم البيئي والصحافة البيئية والانترنت البيئي، حيث اعتمدنا على هذه الوسائط والأنشطة المطبقة لما لها من أهمية فعالة في تنمية المعرفة والسلوك البيئي لدى الطفل في الطور الابتدائي وذلك كالآتي:

## الوسيط الأول: المخيمات البيئية

تقسم المخيمات إلى أنواع تبعاً إلى الجهة أو الهيئة المنظمة ولطبيعة الأعضاء المشاركين أو بالنسبة للمدة أو نوعية النشاط أو الأغراض المقامة من أجلها أو لطبيعتها، وتعد المخيمات البيئية التي تهدف إلى صيانة الطبيعة وحماية البيئة والحياة الفطرية من أهم المخيمات البيئية حيث تشمل برامجها على المحاضرات وورش العمل والتطبيقات التي تهتم بمختلف جوانب حماية البيئة ومواردها الطبيعية، كما تعتبر المخيمات من أهم الوسائط الثقافية التي تسهم في تنمية المعرفة و السلوك البيئي لدى الأطفال، المشاركين فيها، وتبرز أهميتها في الآتي:

### 1. اكتشاف وتنمية إمكانيات الطفل الذاتية اللازمة للتعامل مع البيئة المحيطة:

تساعد المخيمات في اكتشاف تنمية الإمكانيات البدنية والذهنية والاجتماعية للفرد، كما تساعده على أن يعيش في تناسق وتوافق وتناغم مع ما توفره له الطبيعة من إمكانيات، ومن خلال الحياة مع الجماعة وتحت إشراف ريادة مؤهلة.

### 2. مساعدة الطفل على أن يتطور اجتماعياً أثناء ممارسة الأنشطة:

تسهم المخيمات في التطور الاجتماعي والديمقراطي للأطفال وذلك من خلال مشاركة الطفل في الأنشطة والبرامج التي تسهم في تربية فرد فاعل ومؤثر في حماية البيئة وصيانتها والدفاع عنها، وأن له رأى ودور في المساهمة الايجابية في المشاريع البيئية التي تهدف إلى خدمة البيئة والتفاعل المباشر مع عناصرها ومواردها، وهذا هو جوهر التربية البيئية

### 3. توعية الفرد بأهمية دوره في تنمية موارد البيئة والحفاظ عليها

أثبتت العديد من الدراسات البيئية بأن الفرد حينما يتحرك في نطاق بيئي محدد فهو يكتشف مدى قلة الإمكانيات التي توجد في البيئة، لذلك فإن تواجده في المخيم يبصره بدوره في تنمية هذه الموارد، ويساعده على تشكيل وتطوير اتجاهات وقيم وسلوكيات بيئية مرغوبة من اجل الحفاظ عليها، وبالتالي تكون مشاركته في تنمية هذه الموارد والمحافظة عليها مشاركة فعلية، ويكون دوره داخل المخيم دور فاعل ومؤثر في الطبيعة وفي العلاقات مع الآخرين، وقد أثبت دراسة ( Detra and James23 ) التأثير القوي لهذه المخيمات في توعية الأطفال بأهمية دورهم في صيانة البيئة وحمايتها وتشكيل الاتجاهات الايجابية نحوها ،

إلى جانب التأكيد على أهمية استعمال هذه المخيمات كوسيط ثقافي مؤثر في عملية البناء العام لتعليم النشء وترسيخ الاتجاهات البيئية الايجابية وتنمية السلوكيات المسئولة.

### الوسيط الثاني: المسرح البيئي

يتميز مسرح الأطفال عن الوسائط الثقافية والإعلامية الموازية له في القدرة على مخاطبة عقل الطفل ووجدانه في أشكال فنية متنوعة لا تتوفر عناصرها في الوسائل الأخرى، إذ أن المسرح من وسائط الثقافة المثالية للاتصال بالطفل، وهو كما يقول عنه أحد الباحثين وسيط ثقافي تتوفر فيه خصائص عديدة مثل الإيهام المسرحي وخيالات الأطفال ومواقفهم الانفعالية واندماجهم وتعاطفهم، واستعانت به بالنصوص الأدبية والدراما المبسطة، بالإضافة إلى قدرته على توظيف تقنيات الفنون المجتمعة من صوت وصورة وأزياء وهي خصائص توضح دور المسرح في غرس القيم الجديدة في أعماق الطفل، كما أنه يعتبر من الأدوات التربوية المهمة التي تسهم في تشكيل ثقافة الطفل، وتعمل على تنميته وتعليمه.(24)

يصنف مسرح الأطفال وفقاً لطبيعة الممثلين إلى مسرحيات يمثل فيها الأطفال أو مسرحيات تعتمد على العرائس بأنواعها أو مسرحيات يقدمها الكبار بمشاركة الصغار، كما قد يصنف وفقاً لطبيعة الأدوات الفنية المستعملة فيه والمتمثلة في العرائس بأنواعها وخيال الظل والمخلوقات الخرافية، بينما قد يصنف وفقاً للهدف منه إلى الدراما التلقائية ولعب الأدوار والدراما المبتكرة ومسرح المناهج والمواقف التمثيلية، وذلك لما يمتاز به كل نوع منها من مميزات تتيح استعماله بشكل سهل ومبسط في تنمية جوانب كثيرة من شخصية الطفل، ومن أهم هذه الجوانب التي يقوم مسرح الطفل بتنميتها الآتي:

#### 1. تطوير الخبرة التربوية والبيئية لدى الأطفال

اعتمد (Mohamed Hammed AbouElkhir,25) على الدراما التعليمية لتطوير الخبرة التربوية والبيئية لدى الأطفال بالمدارس الابتدائية، حيث توصل في دراسته إلى مجموعة من النتائج التي توضح دور العناصر الفنية المتضمنة في الدراما التعليمية في خلق بيئة مكانية وزمنية للموضوع البيئي المطروح على الأطفال، وبذلك يتم التعلم عن طريق العمل المقترن بالتفاعل المباشر، فإذا ما تم تطبيق هذا الأسلوب في برامج تسهم في تنمية المعرفة والسلوك البيئي، فإنه بالتأكيد سوف يؤدي إلى تنمية مهارات النقد والتحليل وتطوير خبرات الطفل البيئية التي تتوافق مع قدراته وإمكاناته الذاتية.

## 2. مساعدة الأطفال على معايشة الواقع البيئي وإدراك دورهم في صيانة البيئة:

يساعد المسرح الأطفال على معايشة الواقع ويدفعهم إلى أدراك دورهم في تغيير ذلك الواقع، وفي هذا الإطار استعمل أحد الباحثين من أجل تنمية أساليب التفكير لدى الأطفال، وتعليمهم كيفية احترام المثل البيئية النبيلة والالتزام بها والتخلص من المفاهيم البالية، وذلك من خلال إشباع الأطفال بروح الالتزام والمواطنة وتوسيع مداركهم وتهذيب وجدانهم وإرهاف أحاسيسهم وعواطفهم وإيقاظ شعورهم وإمتاعهم وإدخال الجمال إلى حياتهم وإعدادهم لأن يكونوا طاقات خلاقة.(26)

## 3. تنمية طاقات ومهارات الطفل الذاتية

يسهم المسرح في تنمية مهارات الطفل البيئية بشكل كبير، إذ أن الطفل يصبح قادرا من خلال مشاركته في الأنشطة المسرحية أو حضوره للعرض على التفاعل وتنمية شخصيته وقدراته، فالمسرح بإمكانياته وخصائصه ينمي القدرة على التعبير، وهو، كما يرى فاروق اللقاني يزيد من الحصيلة اللغوية لدى الطفل وينمي ملكة التذوق الفني لديه، سواء من خلال تدريبه على فن التمثيل والإلقاء المسرحي أو من خلال تزويده بمعلومات حول فنون الرسم والمناظر والإخراج وما إلى ذلك (27).

## 4. مساعدة الطفل على اتخاذ قراراته إزاء القضايا البيئية

يسهم المسرح في تدريب الأطفال على اتخاذ قراراتهم البيئية انطلاقا من تعرفهم على حقوقهم والتزامهم بواجباتهم البيئية، حيث يتوافق مسرح الطفل مع الطابع الاندماجي الذي يغلب على حياة وتصرفات الطفل، فهؤلاء الأطفال كما يذكر يعقوب الشاروني يهتمون بحركاتهم وتعبيراتهم وما يحدثونه من ردود فعل على بقية من يشاركونهم في التمثيل، وفي الوقت نفسه لا يهتمون كثيراً إذا ما شاهدتهم الآخرون أم لا، لأنهم في حقيقة الأمر يمارسون لعبة التمثيل أكثر من ممارستهم لحرفية التمثيل، وهذا يعني أن القاعدة الأساسية في كل هذا النشاط التمثيلي أن الدراما هي ما يفعله الطفل، وبذلك يصبح فاعلا في النشاط، وليس مشاهدا أو متلقيا فقط، وهذه من القواعد المهمة التي تساعد الطفل على إدراك الواقع البيئي وتحديد قراراته تجاه المشكلات البيئية التي يتعرض لها(28).



### الوسيط الثالث: الصحافة البيئية

تصنف صحافة الأطفال في تقسيمات متعددة وفقاً لأدوارها التي تؤديها، أو حسب سن الطفل الذي تتوجه له، ونوعية اهتمامات هؤلاء الأطفال، كما قد تقسم تبعاً لموضوعاتها أو شكلها الفني، وفي بعض الأحيان وفقاً للجهة التي تصدرها أو لدورية إصدارها خاصة وأن هذه النوعية من الصحافة المتخصصة تمتاز بخصائص معينة تجعلها تختلف عن بقية وسائل ثقافة الطفل، فهي تعتمد على الكلمة والصورة واللون في مخاطبة الطفل، بالإضافة إلى أن الانتظام الدوري هو خاصية ذات أهمية في صحف الأطفال، لأنه يميزها عن الكتابة المتقطعة المتباعدة التي يتميز بها الكتاب.

ولذلك يرى أحمد نجيب (29) أن صحافة الطفل تحتاج إلى تعامل وأسلوب خاص في إنتاج موادها لخصوصية جمهورها من الأطفال الذين لم يتجاوزوا السادسة عشرة من أعمارهم ممن يرتبطون عادة بأكثر من مجموعة أثناء التفاعل مثل العائلة وجماعة المدرسة وجماعة الأصدقاء، بالإضافة إلى تفاوت هذا الجمهور في المستويات البيئية والاقتصادية والاجتماعية، مما يجعله جمهور غير متجانس في صفاته ويحتاج إلى دقة ومهارة فائقة في الاتصال به. ونظراً لخصوصية هذا الوسيط، وتأثيره الواضح على جمهور الأطفال الذين يرتبطون عادة بمجلات خاصة بهم، فإن استعماله في التربية البيئية يحدث تأثيراً واضحاً ومرغوباً لدى الأطفال.

فقد أثبتت دراسة محب محمود الرافعي وآخرون (30) إمكانية استعمال صحافة الأطفال في التربية البيئية عن طريق نشر المعلومات البيئية وتفسير القضايا والمشكلات البيئية العالمية والإقليمية والمحلية ووضعها في قوالب محببة يطلع عليها الأطفال من خلال صحافتهم، وتزيد فاعلية هذا الوسيط باستعمال مجموعة من الأساليب التي تساعد في تنمية المعرفة والسلوك البيئي مثل الكتابة في الصحف والمجلات وتجميع القصصات لعمل أرشيف للمعلومات البيئية.

كما يرى أحد الباحثين بأن أهم أسلوب يمكن تطبيقه ضمن هذا الوسيط هو أسلوب الصحف الحائطية باعتبارها أسلوباً فاعلاً يتيح الفرصة لاستثمار قدرات الأطفال وتنميتها أثناء إعداد وكتابة تلك الصحف، كما أنها أكثر نفعاً وإمتاعاً للطفل إذا ما أعدها بنفسه تحت الإشراف التربوي، لأنها، حينئذ، تحقق أهداف التربية البيئية وفي مقدمتها تنمية

السلوك والتعليم والتثقيف ونمو الخيال والمعرفة بالقضايا البيئية المختلفة، وتعتبر صحافة الأطفال وسيلة قادرة على عرض الموضوعات البيئية وشرح جوانبها المختلفة فهي تساعد الطفل على تعميق معلوماته البيئية، وتغرس في نفسه حب الانتماء للبيئة والانحياز لها(31)، ويمكن تلخيص أهمية استعمال الصحافة في تنمية المعرفة والسلوك البيئي في الآتي:

## 1. تنمية المعرفة البيئية لدى الأطفال

أوضحت دراسة حول دور صحافة الطفل في تنمية المعرفة البيئية ، والتي انطلقت من نظرية فجوة المعرفة التي تفترض أن تزايد حجم المعلومات التي تنقلها صحافة الطفل عن المشكلات البيئية سوف يؤدي إلى ارتفاع مستوى المعرفة، وقد توصلت في دراستها إلى وجود علاقة ارتباطية موجبة بين كثافة تعرض الأطفال لمجلاتهم وزيادة المعرفة بالمشكلات البيئية الواردة فيها (32).

كما تعمل صحافة الأطفال على تهيئة المناخ لإمداد الأطفال بالمعرفة فقد أوضحت دراسة (Ann, Gerri & Pomerantez) تأثير الصحف والمجلات على تنمية المعرفة البيئية لدى الأطفال في الصفوف الثالث والخامس الابتدائي بولاية كارولينا الأمريكية، حيث هدفت الدراسة إلى تحديد مصادر المعلومات البيئية، والتعرف على أسباب المشكلات البيئية ودورها المتمثل في تنمية المعرفة البيئية وتوضيح أساليب الاتصال والسلوك البيئي لدى الأطفال، وذلك من خلال تحديد أثر المجلات باعتبارها وسائط تربوية رائجة في التربية البيئية، وقد توصلت نتائج الدراسة إلى أن مجلات الأطفال، خاصة المجلة موضع التحليل، هي المصدر الأول الذي اعتمد عليه الأطفال عينة الدراسة للحصول على معلوماتهم البيئية (33).

## 2. بناء القيم الاخلاقية البيئية لدى الطفل

أكد محمد السيد حلاوة، في دراسته على دور صحافة الأطفال في بناء شخصية الطفل وتبصيره بقراراته البيئية، باعتبار أن القراءات الأولى للطفل مهمة جداً في صنع قراراته وتصوراته وتكوين القيم الخاصة التي يبني عليها حياته، ومن بينها القيم البيئية الايجابية، بالإضافة إلى أنها تلبي احتياجات الطفل الفكرية والمهارية والأخلاقية، فالمجلة مثلاً، بما

تحتوى عليه من موضوعات متعددة، تسلى الطفل من جهة، وتساعد على تكوين العاطفة الإنسانية الراقية من جهة أخرى، وذلك من خلال عرض القضايا البيئية بشكل يمتع الطفل ويؤدى إلى انحيازه للبيئة وتبني مواقفها نتيجة لتنمية الجوانب الوجدانية لديه، خاصة حينما تعمل هذه الصحافة على إشباع حاجات الطفل ورغبته في حب الاستطلاع والتعرف على عناصر البيئة ومكوناتها، بالإضافة إلى الارتقاء بلغته من خلال الاهتمام بالنصوص التي تقدم بها المعلومات البيئية وبذلك تزيد حصيلته اللغوية ويتعرف على المفاهيم والكلمات والعبارات والجمال البيئية السليمة والصحيحة ويتدرب على تذوقها ويعرف كيف يستعملها أثناء عرض قضايا البيئة ونقلها للآخرين ومساهمتها في نشرها بين الأقران (34).

### 3. تنمية إحساس الطفل بمواطن الجمال في البيئة

توصلت إحدى الدراسات ، إلى أن صحافة الأطفال تنمي التذوق الفني لدى الطفل خلال تربية حواسه وتدريبها على تقدير مواطن الجمال وعناصر التجسيد الفني في الصور والألوان والإخراج، وبذلك فإنه بالإمكان الاستفادة من هذه الخصائص في تنمية وعي الطفل وإحساسه بالبيئة وتبصيره بمسؤوليته تجاهها، وبالتالي حث الأخلاق البيئية الإيجابية لديهم (35).

### 4. تكوين الاتجاهات البيئية الإيجابية نحو البيئة

توصل كل من سوزان القليبي وصالح مذكور، إلى أن الصحافة، باعتبارها سلطة جماهيرية، تؤدي رسالة مهمة في خدمة المجتمع، وتسهم بفاعلية في تكوين الاتجاهات الإيجابية نحو القضايا الملحة في المجتمع ومن بينها القضايا البيئية، كما أن هذه الصحافة تسهم في ترشيد المتلقي من خلال تقديم الحلول الأفضل لتلك القضايا والمشكلات باعتبارها مصدرا مهما يعتمد عليه المتلقي لاستقاء المعرفة البيئية وتعديل السلوك الممارس نحوها إلى الأفضل، لذلك فإن استعمالها مع الأطفال يسهم بشكل مؤثر في تنمية قدراتهم ومعارفهم وسلوكهم البيئي، كما تزيد فاعلية صحافة الطفل في تنمية المعرفة والسلوك البيئي من خلال مشاركة الأطفال في إنتاج هذه الصحف (36)، كما توصلت دراسة أخرى إلى حدوث نمو واضح في الاتجاهات البيئية لدى التلاميذ في المرحلة الإعدادية بعد ممارستهم للصحافة البيئية في المدرسة، إذ أن صناعة الصحافة البيئية المدرسية وتنفيذها وقراءة الأطفال لها يسهم

بفاعلية في تنمية هذه الاتجاهات ويساعد في توعية التلاميذ بقضايا البيئة المحلية وتنمية إدراكهم وإحساسهم بهذه القضايا ومعرفتهم بالعلاقات والمشكلات البيئية المحيطة (37).

#### الوسيط الرابع: مواقع الانترنت المتخصصة في المجال البيئي:

شهد مجال التربية البيئية تطورات مهمة في الآونة الأخيرة، إذ من المتوقع أن يكون لها تأثيرات كبيرة في مستقبل التربية البيئية، حيث أكدت دراسة (Christopher & Richard) على دور هذا الوسيط في تفعيل مبادرات إصلاح التعليم القائمة على المعايير الوطنية لتعليم العلوم بصفة عامة، وعلوم البيئة بصفة خاصة، والتطور الذي لحق بمصادر الثقافية في تدريس هذه العلوم سواء من خلال الاعتماد على الطرق التربوية الجديدة التي تهتم بإشراك الطفل فعلياً في عملية التعلم، أم بالاعتماد عليه كوسيط ثقافي يؤدي إلى تدعيم أهداف التربية البيئية ويسهم في تفعيل طرق التدريس التقليدية في المدارس الابتدائية، خاصة وأن هذه الشبكة تقوم بمجموعة من الوظائف الأساسية التي تسهم في تنمية الجوانب المختلفة لدى الطفل، وتعتبر برامج الكمبيوتر وشبكات المعلومات (الانترنت)، في الوقت الحاضر، من أكثر الوسائط الثقافية والاتصالية طغياناً على اهتمامات الأفراد وأكثرها استعمالاً وأخطرها تأثيراً على الأطفال فكرياً واجتماعياً ونفسياً وعملياً (38).

كما أوضحت دراسة حول برنامج (التعلم والبيئة) تفضيل الأطفال لاستعمال الكمبيوتر كوسيط ثقافي مفضل وذلك لبعده عن التقليدية وإضفاء جو من التشويق على التعليم البيئي، بالإضافة إلى فاعليته في الحصول على المعلومات والبحث عن المعرفة البيئية، وهذه من أهم دوافع استعمال الأطفال للكمبيوتر وشبكات المعلومات (39). وتتمثل أهمية الانترنت في تنمية المعرفة والسلوك البيئي في النقاط التالية:

#### 1. الارتقاء بالمستوي الثقافي البيئي للطفل

أكدت دراسة نجوى عبد السلام فهي أهمية استعمال الانترنت وبرامج الحاسوب في التربية البيئية للطفل باعتباره وسيط ثقافي يرفع من مستوى الطفل ويؤهله بصورة أفضل لمجال دراسته أو عمله في المستقبل، خاصة أن الانترنت يقوم بتنمية عادات التفكير المجرد لدى الطفل، وذلك حينما تجسد البرامج المدرجة في الشبكة أو الخاصة بالألعاب الالكترونية المفاهيم المجردة بصورة تسهل على الطفل استيعابها وتنمي لديه القدرة على التفكير التبادلي الذي يسمح له بالتعامل مع عدة بدائل محتملة في نفس الوقت وأن يتبع بصورة

متوازية أكثر من مسار لتسلسل الأفكار، ولهذا السبب فإن استعماله للارتقاء بالمستوى الثقافي البيئي وتوصيل القضايا البيئية للطفل يعد استثماراً فاعلاً لإمكانيات هذا الوسيط، ومن هذا المنطلق اهتمت بعض الشركات الكبرى بتسويق برامج الكمبيوتر وإبداع أنواعها وأشكالها، مثل تلك التي تمنح بين الترفيه والأهداف التثقيفية سواء أكانت ألعاباً أو كانت كتباً الكترونية، والاستفادة منها في تصميم المواقع الخاصة بقضايا البيئة على شبكة المعلومات، واستحداث الألعاب الإلكترونية التي تحمل في طياتها تربية بيئية للطفل (40).

## 2. إمداد الطفل بالمفاهيم والمعلومات البيئية

توصلت دراسة (Pawanteh and Rahim, 41) التي استهدفت التعرف على انطباعات استعمال الانترنت حول حقائق وهويات المراهقين الماليزيين، إلى أن من أهم دوافع استعمال المراهقين الماليزيين لشبكة الإنترنت هو الحصول على المعلومات بالدرجة الأولى، ومن ضمنها المعلومات البيئية، إلى جانب إقامة العلاقات الاجتماعية مع الأنداد وتبادل الحوار في غرف الدردشة. أما (Wang, Minjuan, 42) فقد أكد على دور مواقع الانترنت وأنشطته في تحديد نوع المعرفة البيئية المشتركة القائمة بين المراهقين، وتوضيح العوامل المختلفة التي تؤثر على بناء المعرفة لديهم باستعمال الانترنت، وقد دلت نتائج الدراسة على أن هناك نماذج مختلفة للتفاعل عبر المناقشات التي تتم عبر الانترنت وهي التي تسهم في بناء إطار المعرفة بأنواعها، ومن ضمنها المعرفة البيئية.

## 3. تنمية السلوك البيئي لدى الأطفال

أوضحت دراسة (محمد مصطفى كامل مروان، أهمية استعمال الألعاب الالكترونية جنباً إلى جنب مع الخدمات التي تتيحها شبكات الانترنت للأطفال مثل خدمات البحث والمراسلة والمنشآت الثقافية باعتبارها من أهم الأساليب التي يعتمد عليها الانترنت كوسيط ثقافي له تأثير واضح في تنمية وتدعيم السلوك البيئي وتكوين المعرفة لدى الطفل في كافة المجالات الحياتية، خاصة تلك المرتبطة بتواجده في البيئة المحيطة وتقديم خيارات ونماذج لأدواره في الحفاظ عليها (43). وفي هذا الصدد تؤكد نتائج دراسة أخرى على أهمية استعمال شبكة الانترنت والتعرف على نماذج ايجابية من السلوك البيئي والأنشطة والبرامج التي تسهم في تنميتها، خاصة وأن هذه الشبكة أصبحت وسيطاً اتصالياً قائماً بذاته وقادراً على احتواء

الصحافة والإذاعة والتليفزيون، بل أن بقية الوسائط أصبحت تعتمد على المعلومات والقضايا التي تطرحها شبكة المعلومات وذلك لما تتميز به هذه الشبكة من خصائص في نقل المعلومات بسرعة هائلة إلى عدد غير محدد من المتلقين(44).

#### 4. المساعدة في اتخاذ القرارات البيئية إزاء المشكلات المحيطة بالطفل

يؤدي استعمال الانترنت إلى تكوين قاعدة معلوماتية تهيئ الفرصة للطفل لاتخاذ قراراته واختيار الحلول المناسبة للحد من المشكلات البيئية، فبالرغم مما يقال عن النتائج السلبية للإفراط في ممارسة الألعاب الالكترونية وما تؤدي إليه من مشاكل عدم التوافق الاجتماعي والانعزال وزيادة السلوك العدواني وعدم التفريق بين الواقع والخيال، إلى جانب المخاطر الصحية الناتجة عن مدة بقاء الطفل أمام الجهاز وإمكانية إدمانه عليه، بالإضافة ما يحدثه الوسيط من تشويش في المعلومات لدى الطفل، إلا أن، أهمية استعمال الانترنت والألعاب الالكترونية في تنمية التفكير التبادلي المتوازن لدى الطفل إلى جانب تنمية التوافق العضلي والحركي والذهني ومساعدته على سرعة اتخاذ القرارات البيئية وتقوية استقلالته الفردية وتدعم قدراته على النقد والتخيل والتفكير الإبداعي الذي يؤهله لاتخاذ قرارات بيئية حكيمة إزاء المشكلات التي تقابله، خاصة إذ ما تم ربط العلم بالمجتمع و بحياة الطفل وتوضيح دوره في حل المشكلات البيئية والتركيز على أهمية دور العلماء والخبراء وتجاربهم الناجحة في المجالات العلمية والتكنولوجية ومحاكاة هذه التجارب والخبرات للاستفادة من التأثير الواضح للانترنت على مدركات الأفراد وعلى تنمية السلوك الفكري والثقافي لديهم.

#### 5. تطوير عملية التعلم البيئي لدى الأطفال

يساعد استعمال الانترنت على تطوير العملية التعليمية من خلال إدراج مواقع تعليمية وتثقيفية تسهم في تعزيز الطفل على التعلم الذاتي واكتشاف نقاط الضعف لديه واكتسابه للمعرفة البيئية، فقد أوضحت دراسة ( Vockell, Edward, )الإمكانات التفاعلية الفائقة لشبكة الانترنت، ودورها في جذب الطفل ودفعه للتعلم وفقاً لقدراته وسرعته في استيعاب المادة، خاصة إذا ما احتوت هذه البرامج على الموضوعات والتجارب والمفاهيم البيئية التي يصعب تنفيذها في الصف، كما أن هذه البرامج تدعم قدرة الطالب على تذكر المعلومات المدرسية التي ينبغي له حفظها، وتوصل إليه المعلومات البيئية التي يصعب متابعتها في الواقع (45).

ومن جانب آخر تخلص الطفل من عادات التلقي السلبي في التعلم، وبذلك فهو يساعد في تضيق الفجوة بين التعلم في المدرسة والتعلم في البيت، ويتم الاعتماد على مميزاته و إمكانياته في التفاعل المباشر مع الطفل، من أجل خلق دافع حقيقي للتعلم سواء من خلال تصميم برامج تعليمية تخاطب مستويات وعقول الأطفال، أو تنظيم أنشطة تهتم بالثقيف البيئي للطفل.

## 6. المساعدة في صقل القدرات الذاتية للطفل أثناء التعامل مع البيئة

### المحيط

يؤدي استعمال الانترنت إلى تنمية شخصية لطفل من خلال التركيز على عملية التعلم للتعامل مع التكنولوجيا، فقد أوضحت دراسة (Tubbs & Moss) أهمية استعمال شبكات الانترنت في صقل شخصية الطفل ومساعدته على تحمل مسؤوليته تجاه البيئة ومواردها و إعدادة لأدواره الوظيفية المستقبلية، كما أوضحت بأن تفاعل الطفل المباشر مع الأنشطة المدرجة على مواقع الشبكة يساعده على تطوير قدرة التعامل مع الآلة إلى جانب تكوين المفاهيم الخاصة بالتعامل مع برامجه، وبذلك يصبح الطفل ليس مجرد مشاهد كما هو الحال مع التلفزيون، بل يتعدى الأمر إلى تعامله مع الجهاز كمفكر ومستعمل للبرنامج الموجود أمامه على الجهاز فإذا ما احتوى هذا البرنامج على قضايا بيئية ومحاكاة ونمذجة للمشكلات البيئية فإنه سيسهم فعلياً في تنمية قدرات الطفل على التعامل مع البيئة المحيطة، ويعمل بفاعلية على تنمية المعرفة والسلوك البيئي لديه (46).

### قائمة المصادر والمراجع :

1. نبيل على، (2001): «الثقافة العربية وعصر المعلومات» سلسلة عالم المعرفة «267»، الكويت إبراهيم إمام، العلاقات العامة والمجتمع (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت).ص308-310
2. السيد سلامة الخميسي، (2000) « التربية وقضايا البيئة المعاصرة : قراءات عن الدراسات البيئية للمعلم» دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.ص 180 - نبيهة السيد عبد العظيم نايل،(2002):«مدى فاعلية ما تقدمه بعض وسائل الاعلام للاطفال من9-12) سنة لتنمية الاتجاهات الايجابية نحو البيئة»، دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس كلية البنات، القاهرة.

3. أحمد الأمين علي، (2005): «أثر تضمين البعد البيئي في برامج الأنشطة المدرسية اللاصفية علي تنمية المعارف والاتجاهات البيئية لدى تلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في ليبيا»، ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث البيئية، قسم التربية والثقافة، جامعة عين شمس، القاهرة.
4. عبد الله الطويرق، ط2 (1997): «علم الاتصال : دراسة في الأنماط والمفاهيم والم الوسيلة الإعلامية»، مكتبة العبيكان، الرياض. ص 246
- سمية عبد الحميد أحمد اسماعيل، فعالية برنامج تدريبي مقترح في التثقيف الصحي لمعلمات رياض الاطفال،(القاهرة: 1995، مؤتمر جامعة عين شمس عن الطفل والامان، مركز دراسات الطفولة، قسم طب الاطفال)
5. يعقوب يوسف علي محمد، (2002): « فعالية الدور الإعلامي للمؤسسات البيئية في تنمية الوعي البيئي لدى الشباب: دراسة ميدانية بدولة الإمارات العربية المتحدة»، رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة عين شمس، معهد الدراسات والبحوث البيئية، القاهرة.
6. أحمد حسين اللقاني، وفارعة حسين محمد، ط1، (1999): «التربية البيئية: واجب ومسئولية، عالم الكتب ، القاهرة ص235.
7. Bradley, J. and Waliczek, T.M. and Zalicek, J. M. (1999): "Relationship between environmental knowledge and environmental attitude of high school students", The journal of environmental education. Vol.31,
8. Chan, Kara,(1996):" Environmental attitudes and behavior of secondary students in Hong Kong, Journal article, Hong Kong, Environmentalist, vol. 16, no. 4. (سحر عبد الرحمن لبيب، 2003) نقلا عن
9. عاطف عدلى فهمى، (2005) : «إنتاج الوسائل التعليمية» مؤسسة نبيل للطباعة، القاهرة. ص333
- أحمد زلط، أدب الطفل العربي: دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل : (القاهرة : دار هبة النيل للنشر والتوزيع ، 1998). ص180
- فاتن عبدا لحميد الكنبارى، (1991): «صورة المراهق في الصحف القومية : دراسة تطبيقية»، دكتوراه غير منشورة جامعة عين شمس، معهد الدراسات العليا للطفولة..

ص92



10. محمد فتحي عبدا لهادى وآخرون, ( د.ت ) : «كتاب الأطفال», دار غريب للطباعة والنشر, القاهرة.ص42

11. نجوى عبدالحميد سعد الله, دراسات بيئية في المجتمع المصري, ط1 (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية, 2002) ص49

12. إيناس الشافعي محمد عبد الفتاح, (2001): «فاعلية برنامج نشاط في الدراسات الاجتماعية لتنمية الوعي الأثري لدى تلاميذ الصف الخامس الابتدائي», ماجستير غير منشورة, عين شمس, كلية التربية

13. Kelsse. Edward, Student goals for school activities, USA Virginia Association of secondary school principles, Division of student activities, 1994.

14. صفاء فوزي علي محمد, علاقة الطفل المصري بوسائل الاتصال الالكترونية: دراسة علي عينة من أطفال الريف والحضر بين (12-18) ماجستير غير منشورة (القاهرة:كلية الاعلام, 2003)

15. عزة عبد المنعم زيدان, (2002): «استخدام المدخل البيئي في برنامج نشاط للاعلام التربوي لطلاب المرحلة الثانوية واثره علي تنمية الاتجاهات البيئية لطلاب المرحلة الثانوية», ماجستير غير منشورة, جامعة عين شمس, معهد الدراسات والبحوث البيئية, القاهرة

16. Paterson, J.W. and Kinney, J.M., ( 1994) Experimenting now- learning unite of environmental cognitive skills according to colors, pictures, figures and symbols. Journal of experimental child psychology, vol.98 no. 47 pp. 102- 110

17. محمد فؤاد محمد زيد, (2002) : «العلاقة بين ممارسة الانشطة الاعلامية ومهارات التفكير الناقد لدى تلاميذ المرحلة الإعدادية», ماجستير غير منشورة, عين شمس, معهد الدراسات العلي للطفولة, القاهرة

18. Spencer, Christopher and Others, (1994): Evaluating environmental education in nursery and primary school, Environmental education AND INFORMATION, VOL. 3 NO. 1

19. حسين حمدي الطوبجي, ط9 (1984) : «وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعلم», دار القلم, الكويت.ص44

20. إبراهيم إمام, العلاقات العامة والمجتمع (القاهرة: دار الفكر العربي, د.ت). ص189-

21. سهير جاد، ط1، (2003): « وسائل الإعلام والاتصال الإقناع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ص61
22. - أحمد زلط، مرجع سابق. ص189
23. Petra Lindemann- Matthies, (2002): "The influence of an educational program on children's perception of biodiversity, The journal of environmental, vol. 33, no.2.
24. أحمد زلط مرجع سابق. ص234
25. Mohamed Hamed Abu El khir, (1994): The use of resources in development of learning the rough drama Leeds. Metropolitans University.
26. هاني عبد المحسن محمد جعفر، (1998): توظيف التليفزيون في نشر الوعي الصحي بين الأطفال: دراسة تجريبية علي عينة من الأطفال. دكتوراه غير منشورة، كلية الاعلام، جامعة القاهرة. ص13
27. فاروق اللقاني، (1995): « تثقيف الطفل»، منشأة المعارف، (در)، الاسكندرية. ص235
28. محمود حسن إسماعيل، ط1، (1996): «مناهج البحث في إعلام الطفل»، دار النشر للجامعات، القاهرة. ص88
29. أحمد نجيب، أدب الأطفال ( 1991 ) : علم وفن، دار الفكر العربي، 1991. القاهرة ص44
30. محب محمود كامل الرافعي، وآخرون، (2004): «من أجل بيئة أفضل»، (د.ر) القاهرة. ص89
31. خيرى خليل الجملي، ( 1996 ) : «الاتصال ووسائله في المجتمع الحديث، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، الإسكندرية. ص98-99
32. ملكة بدر الدين فرج السيد، (2001): «دور صحافة الاطفال في تنمية الوعي البيئي لدى الاطفال»، دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات العليا للطفولة، قسم الاعلام وثقافة الطفل، جامعة عين شمس، القاهرة.
33. Ann Pellowski, (1984): "the story vine", collier book, New York.
34. محمد السيد حلاوة، (2003): «مدخل إلى أدب الأطفال : مدخل نفسي واجتماعي»، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية. ص255

35. هدى محمد قناوى, (1990): «أُتدب الطفل», مركز التنمية البشرية, القاهرة. ص 94
36. سوزان القليني وصلاح مذكور, (2000) الاعلام البيئي: النظرية والتطبيق, (د.م) القاهرة ص 165
37. بلقيس عبد المنعم سعد, (1998): الصحافة المدرسية ودورها في تناول قضايا البيئة بمحافظة الدقهلية, ماجستير غير منشورة, معهد الدراسات والبحوث البيئية, عين شمس, القاهرة.
38. Christopher J. Moore and Richard A. Huber, (2001): Support of E.E from the national science education standards and the internet, The journal of environmental education. Vol.32, no.3.p 21-25
39. منال محمد ابو الحسن فؤاد, (2002): «دوافع استخدام الاطفال للحاسبات الالية وعلاقتها بالجوانب المعرفية», دكتوراه غير منشورة, جامعة عين شمس, معهد الدراسات العليا للطفولة, قسم الاعلام وثقافة الطفل, القاهرة.
40. نجوان حسين طاهر عبد الفتاح, (1999): تقويم السلوك البيئي لدى أطفال مرحلة ما قبل المدرسة, ماجستير غير منشورة, القاهرة, جامعة عين شمس, معهد الدراسات والبحوث البيئية. ص 93
41. Pawanteh, Latiffah, and Rahim, Samsudin- A, (2000): Who me? A Cyberteen: Implications of internet usage on realities and identities of Malaysian adolescents. Journal – Articles Asia Pacific-media educator. No.9, Jul- des. 2000.
42. Wang- Minjuan, (2001): The construction of shared knowledge in an internet- based shared environment for Expeditions: Astudy of external factors implying knowledge construction, PhD, (Unversity of Missouri- Clombia)
43. محمد مصطفى كامل مروان, (1995): «عنف وجريمة في ألعاب الأتارى», المجلة التطبيقية للأم والطفل, ع: 88, يونيو, القاهرة. ص 63-65
44. أحمد فضل شبلول, تكنولوجيا أدب الأطفال, (الأسكندرية, دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر, 1999). ص 55
45. Vockell, Euard, The computer in the classroom, 2ed (Newyork, Mitchell

Publishing , Inc, 1992)p 75

46. محمود حسن إسماعيل , دور وسائط الثقافة والإعلام في تشكيل الوعي الثقافي للطفل (القاهرة: مجلة الطفولة والتنمية, العدد الصفري, نوفمبر 1999). ص 85

## الامتداد التقليدي و الانسداد الحداثي قراءة للمجتمع الجزائري

الأستاذ براهيم بوعناني- جامعة الجيلالي الياابس

إننا نعتمد في تناولنا البحثي هذا الأسلوب الاجرائي الذي نراعي قوة البعد النفعي والذي تتميز به الطبيعة البشرية للإنسان مما يجعلنا نؤكد على مسلمة أن الاجتماع السياسي ليس حتمية طبيعية بل ضرورة اجتماعية وتاريخية تفرضها رغبة وإرادة الأفراد في البقاء، الأمر الذي يجعل مسألة التكوين أو البناء المجتمعي سياسيا تحدده وتفرضه حاجة هؤلاء الأفراد للاجتماع والدخول في علاقة تفاعلية متبادلة يتم بموجها المحافظة على مصالح الجميع دون نفي أو إقصاء للمصلحة الخاصة، هذه الحاجة تتغير مادتها وشكلها من زمان لآخر ومن واقع لآخر. إذن ليس الطبيعة الغريزية والعفوية هي التي تدفع بالأفراد للاجتماع وإنما الحاجات والغايات التي تؤسس لما هو اجتماع سياسي وهذا ما يؤكد «هوبز» في حديثه عن تشكل السياسة. من هنا جاء تحديدنا الأولي لمفهوم السلطة السياسية على أنها آلية اصطناعية أوجدها الأفراد في ظروف تاريخية محددة حتى يتجسد عبرها تحقيق مجموعة من الوظائف التي ينبغي أن تؤديها اتجاه المجتمع بالدرجة الأولى من منطلق وجود دائرة لما هو فضاء عمومي تلتقي داخله مختلف التناقضات والاختلافات وتتفاعل وتتنافس داخله العديد من القوى الاجتماعية المتميزة، ومن منطلق ما هو مصلحة مشتركة يحافظ من خلالها على إمكانية بقاء جميع المصالح الذاتية. في هذا الإطار يذهب هبرماس إلى التأكيد على أن العالم لا يمكن أن يتواجد كعالم مشترك إلا إذا تم إقامة حوار مع الآخرين، يساعد على العيش معا(1). من جهة أخرى تصنيف نمطية أي سلطة على أنها ديمقراطية أو استبدادية أو شمولية أو .... داخل أي تشكيلة اجتماعية يتحدد نظريا من خلال خصائص وخصوصية تلك الوظائف التي تؤديها تلك الآلية وعليه نعتقد في المرحلة الأولى أن بقاء أو تغيير نمط السلطة في شكلها وأهدافها ومبررات شرعيتها مرتبط ومرهون ببقاء أو تغيير تلك الوظائف التي تعبر من جهة ثانية عن طبيعة العلاقة بين المجتمع والسلطة، لكن

تفعيل هذه الوظائف وإعطائها البعد الإجرائي يشترط مبدئيا توفر مجموعة من المنابع التي توفر عدد من المصادر الضرورية لاشتغال تلك الآلية. إننا نعتقد أن بذور ومعطيات استمرارية إنتاج وفعالية نفس نموذج السلطة السياسية في الجزائر غير متعلق بالمكونات الداخلية للنموذج نفسه ولا بخصوصية التوجهات والاختيارات الاستبدادية والتعسفية التي تمارسها أجهزة السلطة (بالرغم من أننا نعتز بوجود وبقوة حضور هذا المستوى من التوجه)، بقدر ما هو مرتبط بالتكوينات البنيوية والترسبات السلوكياتية التي يحتفظ بها الأفراد عبر ما نسميه ببنية «الهابيتس السياسي» الذي يبقى هدفه إنتاج وإعادة إنتاج نفس أشكال العلاقات الاجتماعية النمطية والمغلقة ويتحدد دوره في إنعاش وانتعاش قوة البنى الاجتماعية التقليدية.

### في مفهوم التغير و اللاتغير:

لقد خلصت الدراسات السوسيولوجية إلى أن القوة التاريخية (2) لأي مجتمع تتحدد وتحقق عبر القدرة على إنجاز ثلاث عمليات أساسية: القدرة على التحديد، على الإنتاج وعلى التأقلم أو التحول، باعتماد أفراد المجتمع على أنفسهم وإرادتهم ولهذا يعتبر مفهوم التغير السياسي معطى أساسي و محوري ضمن مادة تاريخ الأفكار السياسية، تطرقت إليه بالتناول و التحليل الكثير من التوجهات النظرية و التيارات الفكرية الكلاسيكية منها والحديثة سواء بالنظر إليه من حيث أنه تعبير عن هدف أو غاية تفرضها الخصوصية التاريخية والاجتماعية لكل ما هو اجتماع بشري مهما كانت صورة بنيته التركيبية و مهما كانت صفة وطبيعة نسقية تنظيمه الداخلي و التي يتحكم في وجودها حتمية تراكم التناقضات والاختلافات على مستوى كل المجالات و الفضاءات التفاعلية مما يدفع بشكل إلزامي إلى إنتاج نموذج تلك المجتمعات التاريخية التي يدخل أفرادها في دائرة مفتوحة و منظمة من التنافس و الصراع و بالتالي ضمن وتيرة غير متوقفة من الحركية والديناميكية فتولد بذلك حالة لإنتاج ما هو جديد و للانتقال إلى ما هو مغاير يؤسس بدوره لتغيير قادم أو بالنظر إليه على أنه تجسيد لكل ما هو نتائج و إفرازات، لكل ما هو تراكم وتراتب للأحداث والوقائع ولمختلف إنتاجات الأفراد و القوى الاجتماعية المتعددة و تقع عبر وحدات

متتالية ومتراتبة من التمرحل التاريخي الطويل أو القصير يجعلها تتميز في شكلها و نمطها بالتنوع والاختلاف. من جهة أخرى ينبغي أن ننظر إلى التغير أنه مشكلة سوسيولوجية مادام أن الأفراد هم الذين يتغيرون ليس بصفة انفرادية و لكن جماعية عبر التغير في تفاعل علاقاتهم و في نظامهم الاجتماعي (3). رغم كل هذه الأهمية يظل موضوع التغير أو الديناميكية السياسية في نظر الدارسين قليل التناول و لم يتم التطرق إليه بالبحث بالقدر الكافي.

إذا كان مفهوم التغير السياسي يحمل كل هذه الأهمية المعرفية النظرية و كل هذه الدلالة الإجرائية العملية فإنه بالمقابل يصبح مفهوم اللاتغير كمعطى للتوقف و السكون وربما حتى كمعنى للرجوع و التراجع عن مستوى معين من التموقع داخل تاريخ تطور البشرية يصبح يأخذ أكثر أهمية وواقعية و يصبح يفرض نفسه على مستوى الحقل الأكاديمي كإشكال أساسي و إلزامي للبحث في مبرراته و خلفياته و منطلقاته خاصة إذا علمنا انه يتأسس ليس فقط كنقيض للأول (للتغير) و إنما كبديل عوضه في الوجود و النتائج و في الأسلوب و الطريقة بالنسبة لنفس التشكيلة الاجتماعية، من هذا المنظور يمكن أن نستنتج أن موضوع اللاتغير السياسي بخصوص المجتمعات العربية عامة يجسد أهمية مزدوجة الأولى علمية معرفية في كون أن هذه الإشكالية المعبر عنها وفق نماذج متعددة من الاستفهامات والتساؤلات شكلت من الناحية الفكرة و عبر مختلف مراحل التاريخ الحديث والمعاصر لهذه المجتمعات مجال اهتمام و تناول واسع من طرف العديد من الباحثين والدارسين بمختلف تخصصاتهم و توجهاتهم النظرية و المنهجية بل إنه تحول إلى مشروع بحث ضخم وفق جوانب فكرية ووفق مراحل و خطوات بحثية متتابعة و مترابطة سواء من حيث بعد انتمائها و تطورها التاريخي أو من حيث بعد تعدد و تداخل زوايا المقاربة فيها من فلسفي إلى سوسيولوجي إلى أنثروبولوجي وتاريخي و من حيث بعد الكثرة و التنوع في الفرضيات الاحتمالية التي يمكن أن تجيب عن العديد من الإشكاليات العامة بخصوص مسألة اللاتغير، في هذا الصدد يمكن أن نذكر كمثال مشروع بحث الدكتور محمد العابد الجابري المتعلق بإشكالية بناء العقل العربي.

## اللاتغير السياسي وإفرازاته على المجتمع:

هذه الوضعية لللاتغير السياسي فرضتها العديد من معطيات و شروط المفارقة بين واقع المجتمعات الأوروبية المتطورة وواقع المجتمعات العربية المتخلفة و نظرا لوضعية التكرار و الانتشار لظاهرة اللاتغير و اللاتجديد داخل هذه المجتمعات العربية في جميع مستوياتها ومجالاتها و عبر كل مراحل امتدادها التاريخي و المعاصر حتى تحول الأمر إلى نوع من الأزمة ليس في بعدها الاقتصادي و إنما من حيث اللامكانية في التغير و كأنها حالة مرضية مزمنة متوارثة (...العرب قاع دايرين هكذا....العرب عمرهم ما يطوروا...) فانعكست نتائجها سلبا على الحالة النفسية للأفراد تركتهم يشعرون بالفشل والاستسلام لواقع متسلط عليهم حتى أصبحنا نستعين بثقافة اللامكانية، اللافرصة، اللأمل في حدوث أي تغيير فانعكس ذلك على مستوى سلوكياتنا و مواقفنا و توجهاتنا دفع كل هذا إلى نوع من القبول الطوعي بالواقع كما هو دون حتى التفكير في تغييره (...تهدر ولا ما تهدرش غير كيف كيف...). أكثر من هذا إذا كان التغيير أسلوب يبني للأمال و الطموحات ويرسم للأهداف والغايات فإن اللاتغير يفرض مناخ مناسب للانتحار الجسدي و العقلي و للفشل، هذا ما كشفت عنه خيارات الشباب (الحراق) (...ياكلني الحوت و ما ياكلنيش الدود...). وكأننا نسينا أو تناسينا أنه يمكن بأي حال من الأحوال أن يحدث في فترة ما تغيير و اصطدما بقبول اللاتغير كواقع و كحتمية نتعامل معها من خلال أدوات و طرق الترفيع السياسي و ننظر بصورة الاستقرار كثبات مستمر على مستوى كيفية بناء الحقل السياسي و على مستوى أدوات وطرق اشتغال السلطة فمثلا التغيير في منصب الرئيس لا يقع إلا في حالتين استثنائيتين الموت أو الانقلاب. أمام هذه الوضعية يصبح البحث في سؤال هل يحدث تغيير؟ ضرب من الخيال و تأمل في المجهول و في المقابل يصبح سؤال لماذا لم يحدث تغيير في هذا النموذج أو ذاك، في هذه الوضعية أو تلك؟ له شرعية علمية تدفعنا أن نفحص في مجاهلها واستفهاماته.

حتى عملية التحديث التي اعتمدتها الكثير من المجتمعات العربية عامة و المجتمع الجزائري خاصة لم تسمح بالانتقال إلى ما هو جديد و إنما خلصت في النهاية إلى تفكيك و



تحطيم مختلف البنى الاجتماعية التقليدية دون وجود البديل لها، الأمر الذي أدى إلى فتح المجال لإعادة إنتاج واسعة لتلك الأشكال من التضامانات والاتحادات التقليدية التي كان يعتقد أنها زالت، لكن استمراريتهما تواجدت عبر ما هو لاشعور سياسي (4).

إن البحث في شروط الحداثة والتحديث في مسبات العصرية والمعاصرة ونحن لم نتخلص بعد من سمات وأوهام ماضينا المتميز بالسكون ولم نفقه لحد الآن لماذا كل هذا التقهقر والتسلط المادي والرمزي الذي يمارسه هذا الماضي بكل حيثياته على وجودنا السياسي والاجتماعي وعلى تواجده التاريخي لا يمنح لنا فرصة الخروج من دائرة التخلف. وعليه فعوض أن نهتم بالإجابة على سؤال لماذا لم تعرف المجتمعات العربية حداثة مادية كتلك التي عرفتها أوروبا؟ لماذا لم تحدث نقلة في نظمنا وأنظمتنا الداخلية؟ لماذا تخلفنا وتقدم الآخر؟ لماذا حالة الركود والتأخر هذه التي لم نستطع تجاوزها؟ ينبغي التركيز والاشتغال أكثر حول سؤال ماذا لدينا كواقع سوسيولوجي؟ لماذا مازالت السلطة السياسية إلى يومنا هذا تجد عبر ديمومتها وديناميكيته أنماطا تنظيمية وأساليب تسييرية وأدوات توظيفية تنتمي إلى أشكال النظم الاجتماعية التقليدية والأطر التضامنية الميكانيكية؟ لماذا احتفظنا رغم كل هذا الامتداد التاريخي ورغم كل هذه التحولات الكمية ضمن مخيلتنا وعبر وعينا وتصورنا بخلفيات ومخلفات نمط تفكير تقليدي ما قبل عقلاني، أنساقه الثقافية الرمزية تتعارض مع ما ندعي أنه تمدن وتحرر ومع ما نجلبه ونستهلكه من تداعيات التكنولوجيا والتقنية؟

النقطة الاستيمولوجية التي تفرض نفسها علينا مثل ما يرى الأستاذ عدي لهواري هي أن ننظر للظاهرة السوسيولوجية على أنها حقيقة اجتماعية قائمة بذاتها وأن لا نحكم عليها بالإلغاء والإقصاء بل أن نفهمها ونبحث في خلفياتها الأنثروبولوجية والاجتماعية (5). نعتقد أنه ينبغي علينا أن نوجه بحوثنا واهتمامنا المعرفي وانشغالنا الفكري أكثر بالمجتمع وقضايا الواقعية وأن نعمل على تحويل مشكلاته وتساؤلاته الميدانية إلى إشكاليات بحث ودراسة ميدانية منطلقها الأساسي وموجهها الأولي ليس غاية فلسفية أو صياغة نظرية ولكن حاجة إجرائية وضرورة تاريخية يستفيد من نتائجها الأفراد وتمد

المجتمع بالإمكانات و الأدوات الضرورية و الكافية لإحداث الإقلاع الحداثي و الحضاري.

قائمة المراجع:

- (1) حمادوش رشيد، مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة- امتدادية أم قطيعة، دار هومة للطباعة و النشرن الجزائر، 2009، ص 80.
- (2) Alain Touraine, Pour la sociologie, Ed du seuil 1974, P94.
- (3) Michel Crozier-Erhard Fridberg, L'Acteur et le Système, Ed du Seuil, 1977, P 379.
- (4) Burhan Ghalioun, L'islamisme et l'impasse de la modernité, Revue Peuples Méditerranéens, N° 70-71, 1995, P18.
- (5) Addi Lahouari, L'Algérie et la démocratie, Ed La Découverte, Paris 1995, P 11.

## عقلية الجزائري و أفعاله

### محاولة لرصد صورة الجزائري المشخصة في اليومي

فكروني زاوي - جامعة جيلالي ليابس .

يطرح الجانب الفكري والمعرفي للفاعلين، منظومة من الإشكاليات، وتركيبية معقدة من التحديات. وفي عمق هذا الجانب، بأبعاده الإشكالية، يأخذ مفهوم العقلية، بمكوناته الثقافية وبنيته المعرفية، صورة مركبة تتقاطع فيها مختلف مظهرات العالم الاجتماعي. وإذا كانت العقلية - أو كما يسميها البعض بالذهنية - تشكل جوهر هذه التحديات ومنطلقها، فإن دراستها وتحليل مقوماتها ورصد مضامينها، يشكل اليوم واحدا من أهم التحديات المنهجية التي تواجهها - عموما - سوسيولوجيا المعنى حاليا. فعلى خلاف ما كان شائعا في البحوث المتعلقة بمواضيع الهوية مثلا. أصبح اليوم موضوع الممارسة و الفعل و السلوك الاجتماعي لا يتغيا التدقيق و الاستقصاء فحسب، بل يتغيا كذلك التأمل الواصف المثير للسؤال. السؤال حول ما أعتبر لمدة طويلة كتمظهرات عامة و بسيطة لأثر عوامل و بني قبلية للأفراد، و الحق أن تلك التمظهرات أصبحت تبدو اليوم للكثير من المهتمين بشؤون الهوية أكثر تعقيدا مما كان يعتقد. مما جعل بعض الباحثين يتناولون العقلية أو المنظومة المعرفية أو الذهنية بوصفها مدخلا منهجيا (1) لفهم ممارسات و سلوكات الفاعلين وتحليل مكوناتها ورصد مقومات وجودها و استمراريتها.

من هنا أكتفي بتقديم خطاطة عامة قد تشكل - في نظري- منطلقا لبحث و نقاش أكثر تدقيقا و تخصصا. لكنها خطاطة يقتضيها سياق حقل بحثي متجدد، يتصل بأسئلة الفعل الاجتماعي و الممارساتي لمجتمع أصبح في الفترة الأخيرة محل تفكير و مساءلة من نوع مغاير.. وبداية لمنطلقات منهجية أخرى لفهم طبيعة هذا المجتمع و مسار انطلاقه، لأن العقلية تمثل البنية الوجدانية الأعمق التي تجعلنا أكثر قدرة على فهم المجتمع الجزائري ودراسة تمظهرات أفراد السلوكية و الممارساتية. من هنا ينبغي أن نتساءل: كيف نفهم الجزائري؟ ومن أي زاوية ابيستمولوجية و منهجية نلج فضائه؟ في أي سياق، و داخل أي أفق يمكننا فهم الجزائري فهما صحيحا بعيدا عن مقاربات التلفيق أو التوفيق؟

أسئلة ضرورية وهامة، إذا ما أردنا استشراف مقاربة مغايرة لموضوع قيل فيه الكثير، و عليه سوف نتناول موضوع عقلية الجزائري كما تتبدى من خلال دراسات جزائرية و أجنبية و لكن كذلك من خلال ملاحظات ميدانية و لقاءات شخصية شاءت الصدف أن تكون لب تجربة سوسولوجية خصبة من حيث الدلالة.

## 1 - حول مفهوم العقلية :

يقول «آلفين توفلر»، في كتابه المعروف صدمة المستقبل، مشددا على البنية المعقدة لمفهوم العقلية « إن كل شخص يحمل في داخل رأسه نموذجا ذهنيا للعالم، أي تصورا ذاتيا للعالم الخارجي، ويتكون هذا النموذج الذهني من عشرات فوق عشرات من ألوف الصور» (2). إنها نمط ذهني من التصورات الذاتية للعالم تساعد الإنسان على تحقيق تكيفه مع عناصر الوجود وتجعله يمتلك نمطا كلياً من التفكير يعتمد في النظرة إلى خصائص الوجود.

لذلك يعد مفهوم العقلية من المفاهيم المراوغة في ابيستمولوجيا العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولاسيما تلك المتعلقة بمضامين التفكير و الأنساق القيمية المؤطرة للفعل الاجتماعي، ويتجلى هذا في تعدد استخدامات هذا المفهوم في العديد من البحوث و الدراسات ولاسيما الأنثروبولوجية منها. ويضاف إلى ذلك كله أن هذا المفهوم يستعمل كمصطلح عام للدلالة على مميزات و وضعيات مختلفة و متداخلة في سواء في اللغة الفصحى أو اللغة العامية، وهذا من شأنه أيضا أن يضاعف من تعقيدات الإشكالية الأبيستمولوجية التي يطرحها هذا المفهوم.

يشير مفهوم العقلية (3) Mentalité إلى تكوينات معقدة واعية وغير واعية، شعورية وغير شعورية، حاکمة للسلوك و الفعل، كما يحيل عند البعض (4) لنظام مركب من مشاعر وأفكار وتمثيلات وقيم و تصورات... التي تجعل جماعة أو فرد تتصرف إزاء وضع أو حالة على نحو معين، وتنظر إلى العالم برؤية خاصة، وتحكم و تقدر الوجود و وجودها بشكل محدد يفرضه ذلك النظام بمؤثراته المختلفة.

ولو حاولنا أن نحدد الجوانب الأكثر وضوحا في هذا النظام الخفي، علينا أن نميز في مفهوم العقلية هذه المستويات (5) :

- منطلقات التفكير التي يعتمد عليها الفرد في تحليل معطيات الوجود.
- منظومة التصورات والمفاهيم والعقائد التي تشبع بها الفرد وتبلورت في أعماقه بصورة لاشعورية.
- آليات السلوك وأنماط الاستجابات الحياتية التي يعرف بها الفرد أو الجماعة.
- النزعة الداخلية التي تحرك الإنسان لاتخاذ موقف من عناصر الكون على نحو كلي.

كما يجب علينا أن نميز في هذه المستويات، أن كل مستوى ينطوي على جانب شعوري وآخر لاشعوري. وغالبا ما تكون الجوانب اللاشعورية (6) أكثر أهمية من الجوانب الشعورية في بنية العقلية.

لذلك يعتبر الحديث عن العقلية تجاوزا للحديث عن العقل المحض الذي هو تلك الفاعلية الإدراكية والتجديدية التي يتعامل بها الإنسان مع محيطه، ومن ثم فإن مفهوم العقلية في التداول المستعمل في هذا المقام، لا يعني معنى محددا، ولكنه يؤول إلى جملة معان تتعدد على نحو تقريبي بالذهنية الاجتماعية وبمستواها الثقافي وارتقاءها المعرفي ومزاجها ودرجة استجابتها لتوتيرة الحركة المتسارعة التي تتفاعل بها جماعة معينة مع وجودها الاجتماعي و مع إرثها القيمي والأخلاقي.

## 2 - تمثيلات العقلية الجزائرية:

قبل البدء في تحليل ما نفترض أنه عقلية الجزائري، يجب الاعتراف بأن أي طرح هو في الأصل مجرد نوع من المقولات المجردة. فمن المؤكد أنه توجد عقليات متفردة و استثنائية، لكن و في نفس الوقت، توجد مجموعات متفردة و متميزة، ومع ذلك فإننا معتادون على التكلم عن «المجتمع الجزائري» وأن ننتج في نفس الوقت معارف جديدة تؤكد تباينات هذا المجتمع الجزائري.

إن الطرح المجرد الذي نجازف بالخوض فيه- سواء أكان حول العقلية أم المجتمع الجزائريان- يمكن الوصول إليه عن طريق عمليات تعميمية. فعندما نقول بأن الجزائري هو الشخص المكابر و سريع الغضب، فإننا نلجأ إلى اختزال لفظي تعميبي، تؤكد ملاحظات عينية و متكررة لسلوك عدد معين من الجزائريين مثلاً. وعلى أساس هذا التعميم يمكن للمرء في المقابل أن يقول بأن الجزائريين (والذي هو في الأصل مفهوم مجرد) يتصفون بالمكابرة و سرعة الغضب، وبالمثل فعندما يجازف الباحث بإعطاء رأي حول ميزة عقلية محددة لأي فئة اجتماعية فإنه يقوم بأمرين معاً: التعميم والتجريد.

و مع هذا يجب التذكير أن نمط «العقلية السائد» الخاص بأي مجتمع هو منظومة معرفية تشاركها مجموعة بشرية مكونة من أعضاء، هي في الأصل نتاج للخبرات مشتركة. ولا يتطابق ذلك مع شخصية الفرد بل مع أنظمة تكوين الشخصية لديه والتي تعتبر عنصراً أساسياً في تكوين بنيته الإعتقادية.

إن ما يمكن أن يكون مشتركاً لجماعة ما، هو خاصة مميزة، أو مجموعة من الخصائص المميزة، يشير إليها علماء الأنثروبولوجيا و الفلكلور عندما يتكلمون عن السمة الثقافية أو النموذجية للمجتمع أو جماعة فرعية. وبالمناسبة، فإن مصطلح «نموذجي» هو مستعار من علم الإحصاء (حيث يشير إلى قيمة أو رقم يحدث بتواتر شديد في سلسلة معطاة من الأحداث)، يرينا بأن السمة الموصوفة بذلك هي فقط السمة الأهم من الناحية الإحصائية في الجماعة المدروسة، وليس بالضرورة لدى الأغلبية.

وعليه فالمبدأ الأساسي للدراسات المتعلقة بالسمة النموذجية أو الثقافية يتمثل في ملاحظة أن الأفراد الذين يترعرعون في بيئة مشتركة يبدو عليهم عامل مشترك قوي في شخصياتهم وذلك بعيداً عن ذكر اختلافاتهم الفردية. ولا يمكن تحاشي كون هذا الأمر هو القضية الرئيسية، فأى حقل اجتماعي ثقافي يطبع الأفراد الذين يعيشون ضمنه بطابعه الخاص من حيث: القيم، وأنماط السلوك، ونمط الحياة وما تتقبله وتوافق عليه من الأنماط المختلفة لآلية الفعل ورد الفعل، بالإضافة إلى رغباتها وأهدافها الموجهة ثقافياً.

إن قيمة مصطلح عقلية الجزائري- مع تعيين حدوده ومؤهلته - كأداة في أي بحث علمي، وكمحاولة لرسم صورة مشخصة له ، تعززها حقيقة كون فكرة العقلية موجودة- ولو بصورة مهمة - في وعي الجزائريين أنفسهم. ومع انتشار الدعوات الفئوية في كافة المجالات

الاجتماعية ، فإن الناس في كل مكان اكتسبوا عادة التفكير بأنفسهم على أنهم أعضاء في فئة ما وأنهم يتشاركون صفات ثقافية محددة تميزهم .

لكن كيف يمكن لنا معرفة هذه السمة النموذجية أو العقلية التي يشترك فيها الجزائريون؟ أو عل الأقل تحديد بعض الصفات التي يمكننا من خلالها فهم تجليات هذه العقلية؟ بدون الوقوع في خطأ التعميم العبثي الذي قد يثير حساسية البعض...!

في الواقع أننا خلال بحثنا عن دراسات تناولت هذا العنصر وجدنا ثلاثة دراسات جزائرية و دراسة فرنسية حول – ما يمكن تسميته مجازا- العقلية الجزائرية(7)، و إن اقتصرنا في معالجتنا على الخطاب الثقافي من خلال الأمثلة الشعبية، أو التاريخ الثقافي الجزائري. و إن كنا نؤمن بأن عقلية الجزائري هي امتداد للعقلية العربية في قالبها العام، فإننا في نفس الوقت نأخذ بعين الاعتبار خصوصية المجتمع الجزائري من حيث التكوين و التجربة و القدرة على الفهم و التكيف الفكريين مهما كان مستواه. لهذا اعتمدنا في معالجتنا للموضوع على تجاربنا الشخصية و تجارب غيرنا، بالإضافة إلى بعض الإشارات التي وردت في تلك الدراسات و أبحاث أخرى قام بها جزائريون و أجانب.

لكن هل هناك عقلية جزائرية ؟ وهل يمكن تجاوز التباينات الاجتماعية والثقافية واللغوية بين الجماعات communautés المكونة للمجتمع الجزائري، لتوصل إلى المشتركات العامة فيما بينها؟ و الجواب حسب اعتقادنا نعم؟ ببساطة لأن الجزائري يتكون من مركب تتمازج فيه مكونات كثيرة متنافرة ومتناغمة ،متقاربة ومتباينة، تاريخ وصورة مصطنعة للتاريخ، سياسة وعلاقات تسييس، التفرد و التماثل، طريقة خاصة في التعبير، لغة الجسد مميزة، التلويع بالأيدي، طريقة الكلام، الصياح، الصراخ، الضحك، إلقاء النكت، الدهاء، البوح، إمساك الكلام، الحزن الدفين، الفرحة لأقل شيء ، الألم الذي يعتصر القلب، والذي يجلب الضغط و السكري، التأقلم السريع بكل صوره، العنف بكل أشكاله، الطيبة والسماحة، الغلظة والفظاظة، التوتر الكامن و المستمر، فقدان الأمن والأمان، المكابرة والتعفف، الخرافة و العملية، المزاجية و التطلب، الكره والمحبة، حب الوطن وأمل الهجرة، التدين والمجون، الفردية و الجماعية، الهمة و الاتكالية، التذني في الذوق ومحاولة التمسك

بالرقي في المعاملة والفرن، حب المال وما جلبه من مصائب ومن غنائم، انعكاسات التغيرات في مظاهر الشوارع والقرى، الهوائيات المقعرة. كل هذا وأكثر مما لا يتسع له المجال يشكل القاعدة الرئيسية لخارطة عقلية الجزائري.

الجزائري انبساطي بطبعه وهو أيضا انطوائي، بمعنى آخر أن الظرف و السياق يخلق جوه النفسي العام من فرح ومرح وابتهاج، كذلك فإن الظرف يجعله يحزن ويكتئب وقد ينبسط وينطوي في فترة زمنية قصيرة(8) ، فقد يضحك على المحزن ولا يبالي بالذي يدعو للترقب والحذر. «يبدو من تلك الملاحظات العامة أن الإنسان الجزائري بدأ، أو عله فعلا فقد تلك الانبساطية التلقائية، أو عله بالفعل فقد منظومتها الداخلية الدقيقة فترك نفسه نهبا لما يحدث حوله، يستسلم له، ينهش فيه، فيضحك إما سخرية من الآخرين، أو من نفسه، وقد يضحك في أسى أسود، وقد ينبسط ويضحك عليا، لكن لفترات محدودة، في محاولة للشفاء من أمراض المجتمع وتوحش العلاقات الإنسانية حوله، وكذلك التشبث الشديد بالماضي أو الحلم الغريب بالمستقبل المزدهر الذي. يمكن. أن تستمر فيه الانبساطية أطول، وتكون فيه الانطوائية مجرد انعطافة.»(9)

الجزائري عاطفي، رومانسي في آماله وأحلامه، رومانسي جدا في حبه لجزائر أخرى يرسمها تصور تاريخي، ورغم خيبة الأمل يتمسك، أو يحاول التمسك بهذه الرومانسية، و الجزائري قليل الصبر، ييأس بسرعة، يمل بسرعة، يفقد صبره بسرعة، يتألم بسرعة، ينزعج بسرعة، يفرح بسرعة وتنطفئ الفرحة لديه بسرعة. يكره اجترار أحزانه وأفراحه، ينفجر فجأة، ويهدأ فجأة، يكره الأشياء المعقدة و يحب البساطة، يخاف المستقبل ويخشاه ويعمل له ألف حساب، في داخله إحساس دفين بعدم الأمن والأمان، ولا يثق في الآخرين بسهولة على الرغم من أنه. أحيانا. قد يصدق، رغبة في التصديق، أو رغبة في الهروب. و هو في كل حالاته متطلب وكثير الشكاية(10).

الجزائري طموح، يسعى ويجتهد وابتكر وينفعل، لكنه - أحيانا ما- يصاب بالبلادة المميته، رغبته في تحقيق ذاته عالية، وإذا ما اصطدم بالظروف والعقبات يلوم الحظ و يلوم الآخرين ويلوم القدر، عزيز النفس لا يقبل الإهانة من أحد مهما كان. و هو لا يعمل بجد إلا بإكراه أو تحت مراقبة(11) و إن أراد العمل فهو يحقر العمل اليدوي(12) كما أنه



يكره العمل عند الغير و يعتبره استغلالا و عبودية(13).و في المقابل يفضل العمل الحر.

الجزائري يتفاعل مع البيئة المحيطة ويشارك فيها، يحتضن الآخر. غير الجزائري. خاصة في مجالات الفن، يقدره ويحترمه لكنه لا يتمكن من أن يغفر له الخطأ الجسيم تحديدا إذا كان في حق كرامته، علاقته ببلاده علاقة شوفانية يعتز بها أمام الآخر، و يحقرها أمام الجزائري، ببالغ في اعتزازه و ببالغ في تحقير جزائريته وبلاده. في المناسبات يعبر للعالم عن اعتزازه بجزائريته. يقدس الأسرة وتماسكها، لكنه في نفس الوقت عملي و قناص الفرص لا يتوانى في مجابهة المستحيل إذا رأى في ذلك مصلحته(14).

و الجزائريون يشتركون في منظومة من المعتقدات و التصورات والسمات التي تظهر جليلة في تفاعلات الحياة اليومية، هذا الاشتراك يكمن في ازدواجية الرؤية(15) ينمها ويغذيها المجتمع والعادات والتقاليد، والنظرة الأخلاقية(16) المؤطرة برؤى دينية و عرفية، والتناول المثالي للواقع المعاش المبني على نظرة ماضوية(17)، وهي أيضا تلك المشتركات التي تنظم وتبسط العالم الاجتماعي، فتظهر نسق القيم وسلوكات الجزائريين في عملهم و تعاملاتهم مع بعضهم البعض و مع الآخرين. لذلك نجد الجزائري لا ينظر إلى القانون وجها لوجه، تلك هي حيلته البصرية. أما احترامه للقانون كما انتهاكه يتم ضمن سلوكان متداخلان و متشابكان مع نفس النظرة و نفس الحيلة. يحترم الجزائري السلطة و التراتب بشكل مبالغ فيه، لكنه حينما ينتفض فإنه يأتي على كل ما يرمز لها.

و الجزائري هو كائن إشكالي و تجزيئي، يعاني من تمفصل بين الزمن المدرك و الواقع المعاش، فهو يتعامل مع الواقع المعاش وفق مفاهيم وتصورات وقيم ثابتة ومطلقة، حيث يزحف الماضي إلى الحاضر ويعيد إنتاج نفسه في تصور المستقبل، لذا نجد للجزائري كلماته السحرية الجاهزة و الصالحة لكل المواقف و لكل الأحوال مثل « موالفة و لا تالفة » « المعتاد عليه و ليس المبتدع » « عادي » و غيرها من الكلمات التي هي بمثابة السحر الذي يعالج كل شيء، أي لا شيء.

### 3 - مكونات عقلية الجزائري:

في الواقع أنه يمكن لكل متفحص متمرس للممارسات اليومية للجزائريين في مختلف السياقات، أن يهتدي إلى ثلاثة مكونات ثقافية متمحورة حول ثلاثة سمات، تمثل في الأصل لب العقلية الجزائرية. تتمثل هذه السمات الثلاثة، في التعلق و التشبث بقيم العدالة- الكرامة (العزة)، البحث عن إنتاج أوضاع و حالات ضبابية تحول دون العمل بالقواعد المحددة للمسؤوليات، و الأخيرة تتمثل في الأهمية المعطاة لمختلف صلات الانتماء الاجتماعي(الجنس، الفئة الاجتماعية، المحل، المستوى التعليمي...).

فنزعة الجزائريين لتفضيل قيم المساواة-الكرامة تترافق مع نزعة رفض هيمنة الغير، و هي نزعة نجد أسسها في الثقافة الشعبية اللفظية التي تمجد الحرية و تمثل الانصياع التام للتوجيهات بصفة البلاهة. و مع هذا فهناك من الوقائع ما يدفعنا إلى التحفظ على ذلك، بحيث أن تلك السمة تشير إلى وجود سمة أخرى معاكسة وهي الأبوية paternalisme و التي وجدنا أنها تتجسد من خلال:

- ✓ اعتقاد الجزائريين بأن الراعي عليهم ( اب، مسؤول ، رئيس...إلخ) هو المسئول عن أفراحهم و أقراحهم ، عن نجاحاتهم و عن إخفاقاتهم...
- ✓ أولوية الصلات الشخصية على المحددات الموضوعية في تقييمهم وتعاملهم مع الراعي.

أما حالات الضبابية فهي تظهر جليا من خلال رفض الجزائريين للقواعد الدقيقة و الواضحة التي من شأنها تحديد المسؤوليات، و النزوع إلى اعتماد قواعد مهمة في سير حياتهم سواء العادية أو العملية. كما تظهر أيضا من خلال الاستعمال الأداتي للقواعد المعتمدة سواء من حيث احترامها أو انتهاكها.

تمثل هاتين السمتين ( الأبوية و الضبابية) الأرضية الخصبة لنمو السمة الثالثة المتمثلة في الأهمية المعطاة لصلات الانتماء الاجتماعي في التوضع الاجتماعي.

قد يبدو الأمر بهذا الاستعراض سلسا و سهلا. لكن إذا ما عمقنا التحليل، فإننا سوف نجد حتما أن حقيقة وجود سمات التعلق بقيم المساواة- الكرامة، الأبوية و قيم الانتماء الاجتماعي، تكمن في أن اندماجها يشكل كل أو مركب فريد يمثل صلب عقلية

الجزائري مهما كانت خصوصيته. و نحن نؤكد كل التأكيد على هذا الطرح، لأن ارتباطها مع بعضها البعض ينتج مجموعة كبيرة من السلوكات و الممارسات القابلة للملاحظة العينية على كل جزائري سواء داخل الجزائر أو خارجها.

فهذا المركب الفريد له القدرة على توجيه - بدرجات متباينة - كل الجزائريين بدون استثناء مهما كانت أصولهم الاجتماعية و مستوياتهم التعليمية، نحو شكل معين من الممارسات و السلوكات و في طريقة تفكيرهم و تقديرهم لمختلف الأوضاع المتواجدين بها. يمكننا إيجازها في ما يلي:

✓ ترسخ مشاعر اللاعدل و فكرة المؤامرة، و ارتباطها بنمط من التفكير الانفعالي، من سماته تغليب الجزء على الكل، وغياب النقد الذاتي، وإطلاق الواقع، و الانغلاق ضمن أحكام نمطية.

✓ النزوع إلى تهميش المبادرة و الفاعلية و الاكتفاء بالحد الأدنى في أداء الأنشطة.

✓ النزوع إلى تقدير الغير على أساس الالتزام الأخلاقي و ليس الكفاءة. و ارتباطها بنوع من الميل إلى المحاكمة .

✓ النزوع إلى التنصل من المسؤوليات و إلقاءها على الغير.

✓ النزوع إلى عدم إظهار أي نوع من أنواع الالتزام. و الاكتفاء بالمواقف الظرفية و الوسطية.

#### خلاصة:

لعل الخلاصة التي يمكن يصل إليها القارئ من خلال تتبعه هذا الرصد لبعض تجليات العقلية الجزائرية، سواء من خلال دراسات باحثين و مهتمين أو من خلال ملاحظتنا الشخصية المستقاة من صلب تجربتنا الحياتية، أن هناك تناقضا صارخا يلف هذه العقلية. فمن جهة هناك مؤشرات على مكان الإبداع و المبادرة والمغامرة نحو آفاق أكثر عمقا وأصاله، و من جهة أخرى تنتصب نزعات و مواقف المجانفة للتغيير والابتكار. فكيف نقرأ هذا الوضع؟

لا شك في أن المجتمع الجزائري بحكم حيثيات و ظروف سوسيو تاريخية، يعيش مرحلة البحث عن الذات، لكن في ظرف و زمن لا يتناسب مع ذهنيته و أسس منظومته

المعرفية، ففعليلته هي في الواقع، خلاصة تعايش نكد لعدة مكونات قيمية و معيارية متناقضة و متضاربة، تتجلى و تتجسد في مجموعة من السلوكات و المواقف و الاتجاهات المشوشة التي لا تستطيع استيعاب العالم المعاصر و حركته السريعة في كليته، و إنما في جزئياته.

مما يجعلنا نتحدث عن ثلاثة أنماط من الاستجابات التي تجسد صلب العقلية الجزائرية. فمن جهة أول يعكس التشبث بالهوية الأولية القائمة على الاستمداد من الأصول الثابتة ك الاثنية و المحل، باعتبارهما مصدرين للقوة و الدعم. و الثاني يعكس بدهة التكيف و التأقلم مع المستجدات و الفرص، فالحياة بالنسبة للجزائري مثل لعبة الشطرنج حيث يكون هو قطعها و من يلعبها في نفس الوقت، و هو يدرك هذا، لذا فلكل وضعية هناك استجابة نمطية جاهزة. وبين الأول و الثاني يقع النمط الثالث الذي يعكس نزعة التوفيق بين المتناقضات، و هي استجابات يمكننا تصنيفها ضمن نوع من «الانتهازية الإستراتيجية»(19). التي عنوانها البارز « القادر على القادر» أو باللهجة الجزائرية « طاق على من طاق».

و الحق أن هذه الأنماط الثلاثة للاستجابات هي التي تشكل اليوم المشهد الجزائري في كل مستوياته و مجالاته، بما في ذلك نزعة الثراء و تسلق المراتب، نزعة التسلسل و العنف، و أخيرا نزعة اقتناص الفرص و تحرر من كل القيم. في الحقيقة أن الجزائري هو انعكاس صريح و وفي للواقع المعاش و المدرك بكل تناقضاته و مفارقاته. إنه كيان توليفي لكل الأزمات و التشوهات النفسية و الاجتماعية و المعرفية لجزائر أخرى. جزائر يسميها «جمال غريد» بجزائر الاستثناء(18).

## المراجع و الهوامش:

- 1 - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت 1989 ص 58.
- 2 - توفلر آلفين : صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد. ترجمة محمد علي ناصيف. الطبعة الثانية، نهضة مصر، القاهرة، 1990، ص160 . عن وطفة على أسعد : الجمود و التجديد في العقلية العربية . مكاشفات نقدية . وزارة الثقافة . الهيئة العامة السورية للكتاب رقم 54 2007 . ص 11 .

3 - لقد شهد مفهوم العقلية ولادته العلمية في مطلع القرن العشرين على يد الأنثروبولوجي ليفي برونول (Levy -Bruhl Lucien) (1857-1939) في كتابه 1910 « Les inférieures fonctions mentales dans les sociétés primitives ». ثم في كتابه 1922 « La mentalité primitive ». كما يعرف معجم «لاند» العقلية بأنها «مجل الاستعدادات العقلية وعادات التفكير والاعتقادات الأساسية لفرد ما» ومفهوم العقلية كما يبين «لاند» هو مصطلح يستخدمه بعض الكتاب للإشارة إلى الوقائع أو الحالات الداخلية للفرد.

4 - J.Copin : Genèse de l'histoire des mentalités, Sciences Humaines, N4, Juin - Juillet, 1989- pp 12- 16.

5 - وطفة على أسعد : الجمود و التجديد في العقلية العربية . مكاشفات نقدية . وزارة الثقافة . الهيئة العامة السورية للكتاب رقم 54 2007 . ص 12 .

6 - Mucchielli. Alex : Les mentalités, Que sais-je, P.U.F., Paris, 1984. pp 74 – 75.

7 - نقصد دراسة أحمد نعمان: سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية . المؤسسة الوطنية للكتاب. 1988. و دراسة عبد الحميد حفري : فرانز فانون: بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته . مطبوعات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 . و دراسة سليمان عشراطي: الشخصية الجزائرية ،الأرضية التاريخية و المحددات الحضارية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 2007 . و كتاب شريط عبد الله : معركة المفاهيم . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . الطبعة الثانية . 1981 . و Bourdieu Pierre & A. Darbel, J.-P. Rivet & C. Seibel: Travail et travailleurs en Algérie. Ed Mou- ton . Paris-la Haye 1963. P 383

8 - Bendib Rachid : « de la personnalité algérienne en particulier » 1<sup>ere</sup> partie article paru dans «el Watan» le 16/5/2005 rubrique idées et débats

9 - عشراطي سليمان: الشخصية الجزائرية ،الأرضية التاريخية و المحددات الحضارية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 2007 . ص 84.

10 - أشار الرئيس بوتفليقة صراحة إلى هذه الخاصية و طلب من الجزائريين بصريح القول « عقلية الجزائريين يجب أن تغير...» و ذاك في خطابه الذي ألقاه من قسنطينة

خلال زيارته التفقدية في 17 أفريل 2006 .

11 - Bourdieu Pierre & A. Darbel, J.-P. Rivet & C. Seibel: Travail et travailleurs en Algérie. Ed Mouton . Paris-la Haye 1963. P 383.

12 - Malou Jean : Sociologie du Maghreb. Ed., Plon. Paris, 1990, P.78 &125.

13 - Zghal Riad : « culture sociétale et culture d'entreprise » in culture d'entreprise. Ed .CRASC avril1997 . PP79-102.

14- للمزيد حول هذه النقطة أنظر : حمدوش رشيد : مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطيعة؟ دار هومة .الجزائر 2009 . لاسيما الفصل الرابع . و إلى : طالب الابراهيمى خولة : « احنا ولاد دزاير نتاع الصح . ملاحظات حول لغة شباب باب الواد». مجلة إنسانيات . العدد 17 -18 ماي - ديسمبر 2002 . ص ص 7 - 17 .

15- هي إحدى نتائج البحث الميداني التي توصلت إليها مخداني نسيمة في دراستها الموسومة بـ الطلبة الجامعيون بين الثقافة العالمة و الثقافة الشعبية .دراسة ميدانية لعينة من طلبة جامعة الجزائر. رسالة دكتوراه غير منشورة تخصص علم الاجتماع الثقافي . جامعة بن يوسف بن خدة الجزائر السنة الجامعية 2006 - 2007 . لاسيما في الفصل الثالث من الباب الثاني ص ص 241 - 349 .

16 - Guerid Djamel : l'exception Algérienne . la modernisation à l'épreuve de la société. Ed casbah .2007. p 23.

17 - Bendib Rachid : « de la personnalité algérienne en particulier » 2<sup>eme</sup> partie article paru dans »el Watan« le 17/5/2005 rubrique idées et débats.

18 - Guerid Djamel : l'exception Algérienne , la modernisation à l'épreuve de société . Ed casbah . Alger 2007. P 20.

19- مصطلح مقتبس من مقال « رشيد جرموني » : التحولات القيمية بالمغرب الشباب نموذجا. مجلة إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع. العدد 08 .خريف 2009 . ص ص 159 - 168.

## الاتجاهات الوالدية المعتمد عليها في تنشئة الأبناء

د/الشيخ فتيحة كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية جامعة سيدي بلعباس

### تعريف الاتجاهات الوالدية Parental Attitudes

تستخدم العديد من الدراسات والبحوث مفهوم الاتجاهات الوالدية وأساليب المعاملة الوالدية في التنشئة كمرادفين غير أن هناك اختلاف بين الاثنين:  
فالالاتجاهات الوالدية هي كل سلوك يصدر من أحد الأبوين أو كلاهما يؤثر على الطفل ونموه، وتنقسم هي بدورها إلى شكلين:

#### الاتجاهات الوالدية كما يدركها الآباء:

« هي عبارة عن حالة استعداد العمليات الإدراكية والانفعالية، العقلية والعصبية التي انتظمت بشكل بنية ثنائية في ذهن أحد الوالدين أو كلاهما لتعبر عن استجابتهم الموجبة أو السالبة نحو المواقف التي يمر بها الأبناء» (1).

#### الاتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء:

تعرفها أمال سيد عبده 1997 على أنها الأساليب التي يتبعها الوالدان مع أبنائهما عبر مراحل الحياة المختلفة، والتي تعمل على تشكيل شخصية هؤلاء الأبناء من خلال عملية التفاعل التي تحدث بين الطفل ووالديه في مواقف الحياة المختلفة و نتعرف على هذه الأساليب من خلال إدراك الأبناء لها اتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء والثانية كما يدركها الآباء (2).

قد ينظر الطفل للآباء نظرة غير واضحة ومبهمة، فقد يرى في أبيه على أنه رب العائلة ف له الكلمة الأولى والأخيرة وفي نفس الوقت غائب وبعيد عنه (3).

أما الاتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء فهي تبرز لنا نظرة الأبناء والأطفال للأسلوب الوالدي في التنشئة الاجتماعية.

أما عن المصطلح الثاني أي أساليب المعاملة الوالدية فتري انشراح دسوقي أنها تلك الأساليب التي يتبعها الآباء لإكساب الأبناء أنواع السلوك المختلفة والقيم والعادات

والتقاليد، وتختلف أساليب التنشئة الاجتماعية باختلاف الثقافة والطبقة الاجتماعية وتعليم الوالدين ومهنتهما وتؤثر على ما سوف يكتسبه الفرد من خصائص ومنها على سبيل المثال: ( أساليب التقبل، الرفض، الاستحواذ والضبط وغيرها (4).

وهكذا فالاتجاهات الوالدية هي اتجاهات عقلية لدى الوالدين اتجاه الأبناء، أما إدخال هذه الأفكار حيز التنفيذ على شكل أداء سلوكي يقوم به أحد الوالدين أثناء المعاملة المباشرة مع الأبناء يسمى أسلوباً أو أساليب المعاملة الوالدية.

### 1. العوامل المؤثرة في تكوين الاتجاهات الوالدية:

لقد أدرج المختصون التربويون جملة من العوامل التي تؤثر في تكوين الاتجاهات الوالدية فمنها ما هو خاص بالآباء (التربية التي تلقاها، المستوى التعليمي، شخصية الوالدين، المستوى الاجتماعي والاقتصادي، العلاقة الزوجية وطبيعتها) ومنها ما هو خاص بالأبناء (جنس الطفل، الترتيب الميلادي للطفل، صحة الطفل الجسمية ومرضه أو إعاقته).

#### عوامل خاصة بالآباء

##### - تنشئة الآباء:

إن التربية التي تلقاها الآباء تنتقل إلى الأبناء فلذلك ينصح دائماً باستعمال الأساليب السوية و الحسنة في تربية الأطفال، وترى فاطمة منتصر الكتاني (5) أن أنماط السلوك تنتقل من الآباء إلى الأطفال ومن ثم من الأطفال إلى أبنائهم عندما يصبحون آباء أي أن نماذج التفاعل تنتقل من جيل لآخر ويطلق عليها الباحثون اسم دورة الحرمان المتعاقبة بين الأجيال (6) Cycle of Deprivation across generation.

##### - شخصية الوالدين:

إذا كانت شخصية الوالدين متزنة و متوافقة انعكس ذلك إيجاباً على الطفل و تربيته فتري هورني 1950 Horny: « إن الاتجاهات نحو الذات تنعكس على الاتجاهات نحو الآخرين، فتقبل الذات يصحبه تقبل الآخرين وعدم تقبل الذات يصحبه الفشل في تقبل الآخرين» (7)، فعلى الأب أن يكون رمزاً للأبوة والعطف و تقديم الرعاية اللازمة لأبنائه، وعلى الأم أن تكون ممثلة لدورها (8) مستوى التعليمي للوالدين:



يؤثر المستوى التعليمي للوالدين على اختيار الأسلوب المناسب في التعامل مع الأبناء وهذا ما أثارته نجاة خضر في دراستها إذ وجدت أن الأمهات المتعلمات أكثر تسامحا مع أطفالهن من الأمهات غير المتعلمات (9).

#### - المستوى الاجتماعي والاقتصادي للوالدين:

يؤثر الوضع الاجتماعي، الاقتصادي والثقافي للأسرة على التنشئة وتشكيل سلوك الطفل، فالفقر والجهل والحجم الكبير للأسرة والمسكن الغير لائق أو المنعدم كلها ظروف تنعكس على نمو الطفل بسبب تبني الآباء لأساليب تربية غير سوية.

#### - العلاقة الزوجية:

إن علاقة الزوج بزوجته والتي يسودها الحب والاطمئنان تنشئ أطفالا أقوياء عكس الأسرة المفككة التي انفصل فيها الوالدان، فكان مصير أطفالها الاعوجاج والانكسار النفسي.

#### ب عوامل خاصة بالأبناء

#### - جنس الطفل:

تهتم أغلب المجتمعات وخاصة العربية منها بإنجاب الذكر أكثر من الأنثى، إذ له أولوية في كل شيء كما يلاحظ أن أسلوب التعامل معه يتصف باللين والحب وحرية التصرف عكس البنت فحريتها محدودة جداً.

#### - الترتيب الميلاي للطفل:

إن لترتيب الطفل داخل الأسرة تأثيرا على المعاملة الوالدية فالطفل الأول أو الأخير قد يتلقى اهتماما زائدا من طرف الوالدين على حساب الطفل الأوسط الذي يبقى مهمشا (10)، كما أن لوحيد والدية درجة كبيرة من الاهتمام فقد يكون مدلا أو يبالغ في رعايته وحبه وهكذا ينبغي عدم الإفراط في المعاملة الإيجابية أو السلبية حتى لا تؤثر على نمو الطفل.

#### - صحة الطفل الجسمية:

إن الطفل الذي يعاني من ظروف صحية صعبة، كمرض مزمن، أو إعاقة تؤثر على

نفسية والديه فيعامل معاملة خاصة، من تدليل وتسامح وحماية زائدة، فهذه الأساليب تؤثر على ذات الطفل.

#### - طبيعة الطفل:

يرى كل من ألكسندر طوماس وستيلا شيس Alexandre Thomas et Stella Chess أنه يوجد 3 أصناف من المواليد (11).

- المولود السهل: له مزاج إيجابي، نشاطه معتدل و سهل التكيف.

- المولود الصعب: مزاجه سلبي، نشاطه غير منظم، كثير البكاء.

- المولود البطيء: مزاجه سلبي أحيانا ردود أفعاله بطيئة.

إن هذا التقسيم يجعل الأم تميل أكثر نحو الطفل السهل والابتعاد عن المولود الصعب والبطيء.

#### 2. تصنيف الاتجاهات الوالدية:

تعددت البحوث والدراسات واختلفت تصانيف وتقسيمات الاتجاهات الوالدية، فمنهم من قسمها إلى مجموعتين من الاتجاهات (الود والعداء) (التقييد والسماح)، فالأولى هي متصلة بالعلاقات العاطفية التي تجمع الآباء بالأبناء أما المجموعة الثانية فلها علاقة بأساليب ضبط سلوك الطفل. فلطبيعة الطفل تأثير كبير على تحديد نوع التعامل.

يضاف إلى هذا تقسيم شيفر Schaefer 1957 لأساليب المعاملة الوالدية، إذ صنفها إلى ثلاث مجموعات (التقبل، التحكم والتسيب)، أما بوكاتكو وديهلر Bukatko et 1992 Daehler عرض ثلاث من الاتجاهات الوالدية.

التبليغ induction أي الشرح والتفسير.

تأكيد القوة Power assertion أي استخدام أساليب القوة في

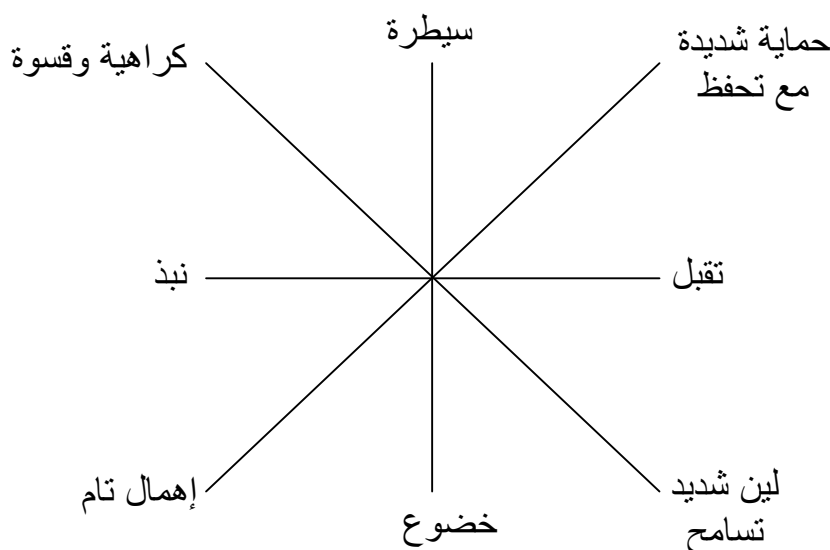
المعاملة كالسيطرة، التسلط والعقاب البدني.

سحب الحب Love with drawal، أي استعمال أسلوب  
الرفض والإهمال.

ويرى محمد جميل منصور 1989 أنه يوجد محورين أساسيين في العلاقة بين الآباء والأبناء هما: السيطرة والخضوع بالإضافة إلى التقبل والنبذ (12).

والشكل الموالي يوضح ذلك:

شكل رقم(1) يوضح محاور العلاقة بين الآباء والأبناء.



يوضح هذا الشكل أنواع العلاقة التي تربط الآباء بأبنائهم، فقد يكون الطفل منبوذا أو مقبولا، مسيطر عليه أو متساهل معه، مكروها يعامل بقسوة أو محمي حماية شديدة وهكذا فاستجابات الآباء حسب فاطمة منتصر الكتاني لا تقع على الأطراف المتباعدة. وإنما تكون قريبة من المركز والابتعاد عن هذه النقطة لدليل على العلاقة الغير سوية بين الآباء والأبناء.

وهذا ما أكد عليه أيضا كل من عماد الدين إسماعيل ورشدي خام منصور 1984 بدراستهما على المجتمع المصري فوجدا ثماني اتجاهات والدية: التسلط، الحماية الشديدة، الإهمال، التدليل والتساهل، القسوة، إثارة الألم النفسي، التذبذب والتفرقة، بالإضافة إلى اتجاه السواء الذي يمثل المعاملة الوالدية السوية.

فبالإضافة إلى هذه التقسيمات جاءت حنان محمد علي الصياد (13) باتجاهات والدية لا سوية وهي ترى أنه يوجد أشكالاً للإساءة الوالدية وهي:

- الإساءة الجسمية أو البدنية Physical Abuse.

- الإساءة النفسية Psychological Abuse: وتضم (الرفض، التجاهل، العزل، الإرهاب، الإفساد والإساءة اللفظية).

- الإهمال Neglect: قد يكون جسدي، عاطفي، طبي، دراسي واجتماعي.

- الإساءة الجنسية Sexual Abuse.

وهكذا نلاحظ أن التقسيمات قد تعددت فتمحورت كلها حول وجود اتجاهات سلبية تعرقل نمو الطفل وأخرى إيجابية تسهل تطور الطفل ونضجه.

أ/الاتجاهات الوالدية السوية:

● اتجاه السواء Attitude of Normality:

هو ممارسة الآباء للأساليب السوية في تنشئة الأبناء مع تجنب الطرق السلبية (القسوة، الإهمال، التذبذب، الحماية الشديدة، التسلط، التدليل، التفرقة، وإثارة الألم النفسي). ولقد برهنت الكثير من الدراسات كالتى قامت بها فاطمة منتصر الكتاني 2002 أنه يوجد ارتباط بين المعاملة الوالدية والثقة بالنفس عند الطفل، فتقبل الآباء لطفلهما يؤدي إلى شعوره بالأمن، وضبط النفس ويسهل عملية التعلم.

الاتجاهات الوالدية الغير سوية أو الخاطئة: من جملة الأساليب السلبية المعتمدة من قبل الآباء ما يلي: التسلط، الحماية الشديدة، الإهمال، التدليل أو التساهل، القسوة، إثارة الألم النفسي، التذبذب والتفرقة

ب./الاتجاهات الوالدية الغير السوية

● التسلط Authoritarianism:

يقصد به فرض الوالدين لرأيهم على الطفل ومعارضة رغباته وكذا منعه من القيام بأي عمل يريد تحقيقه ويرى سمير عبد الفتاح<sup>(14)</sup> أن التسلط هو الأسلوب الصارم في التنشئة، فتسلط الأب يكون بالأمر والتهديد والحرمان والضرب أحياناً، أما الأم فيكون أسلوب تسلطها مصطبغ باللين والحب، كأن تفرض على أبنائها نوع اللباس أو الرفاق،... إن هذا الاتجاه يعطينا شخصية خجولة، حائرة غير واثقة في نفسها أو غيرها .

● الحماية الشديدة Overprotection:

وتدعى أيضاً المبالغة أو الإفراط في الرعاية أو الحماية ويرى محمود السيد أبو النيل<sup>(15)</sup> أن الحماية الشديدة أو الزائدة هي القيام بدلاً من الطفل بالمسؤوليات التي يمكنه القيام بها، أما محمد السيد عبد الرحمن<sup>(16)</sup> فيعرفها على أنها الخوف على الطفل بصورة مفرطة من أي خطر قد يهدده مع إظهار هذا الخوف بطريقة تؤجل اعتماده على ذاته. يضاف إلى هذين التعريفين ما جاء به حسام عبد العزيز عبد المعطي مصباح<sup>(17)</sup> إذ يرى أن الحماية الشديدة هي القيام بدلاً من الطفل بالواجبات والمسؤوليات التي يمكن أن يقوم بها وينبغي تدريبه عليها حتى يصبح مسؤولاً مستقبلاً، وهكذا يتضح بعد عرض هذه التعاريف المتشابهة أن الحماية الشديدة هي الخوف المفرط والحب الزائد الذي يجعل الطفل يعتمد على غيره حتى عند قيامه بواجباته فيصبح تابع لوالديه غير مسئول في المستقبل.

ومن نتائج الحماية الشديدة حسب مصطفى فهمي<sup>(18)</sup> ما يلي:

- يكون لهؤلاء الأطفال الرغبة في الخضوع والطاعة في

مواقف لا تستدعي طاعة.

- عجز الطفل على اختيار مساره العلمي والمهني ... كونه ما

زال يعتمد على والديه.

- شخصية عاجزة عديمة الثقة بالنفس.

- يبدو على الطفل مظاهر الإهمال وغياب النظام.

#### ● الإهمال: Negligence

إن الإهمال واللامبالاة اتجاه يسلكه بعض الآباء عند عجزهم عن التحكم في أسرهم وأبنائهم (19) ولقد قسم حسين فايد (20) الإهمال إلى أنواع وأشكال كثيرة هي: عاطفي، طبي، دراسي، واجتماعي

- الإحساس بفقدان المكانة والحب والانتماء للأسرة.

- القلق المتكرر والعدوانية والانفعالات المتذبذبة.

البحث عن جماعة يجد فيها الطفل مكانته، ويحس بنجاحه فيها، ويكتسب حب أعضائها.

#### ● التدليل أو التساهل Fondling:

هو تشجيع الطفل على تحقيق رغباته بالطريقة التي يختارها دون توجيه من الوالدين ومن أسباب اختيار هذا الأسلوب في المعاملة ما يلي حسب محمد سمير عبد الفتاح (21).

- جنس الطفل: كونه ذكر يعيش لوحده مع أخواته البنات،

أو ميلاده بعد طول انتظار.

ومن نتائج هذا الاتجاه: شخصية قلقة، مترددة، عديمة المسؤولية.

#### ● القسوة Attitude of Cruelty:

هو استخدام الآباء لبعض الأساليب الخشنة في التعامل مع أبنائهم، كالضرب، التهديد،

والحرمان اعتقاداً منهما أنها الطريقة الأساسية في عملية التنشئة.

مثال: ضرب الطفل عند تعثره في الأكل والشرب .

ومن نتائج أسلوب القسوة ما يلي:

شخصية انسحابية، منطوية، عديمة الثقة بالذات، يميل صاحبها إلى الخوف، التمرد والعدوانية نحو الغير (22).

#### ● إثارة الألم النفسي The Guilt:

أو إشعار الطفل بالذنب كلما قام بسلوك وتحقيره والتقليل من شأنه وكذا معاملته بأسلوب غير لائق (23).

يترتب عن هذه المعاملة شخصية انسحابية منطوية، غير واثقة في نفسها، تخاف من الغير، تخشى المغامرة وتتباهى بما تنجزه من أعمال وغالبا ما تتباهى بالأقربين وتتمنى أن تكون مثلهم.

#### ● التذبذب Hesitation:

هو عدم الاتفاق بين الأبوين بشأن تربية الطفل فالأسلوب الذي يثاب عليه مرة قد يعاقب عليه مرة أخرى، فقد نلاحظ حيرة أحد الأبوين إزاء عمل يقوم به الطفل فلا يعرفان كيفية التعامل معه.

ويمكن اعتبار هذا الأسلوب أخطر الأساليب وأصعبها بحيث لا يمكن تعديله فنتائجه سيئة إذ يعطينا شخصية متقلبة ازدواجية.

#### ● التفرقة أو تفضيل الإخوة Inequality:

هو غياب المساواة في التعامل مع الأبناء، فقد يفضل أحدهم عن الآخر لجنسه أو ترتيبه في الأسرة أو لأسباب أخرى. إن أسلوب التفرقة يعطينا شخصية حقودة تعرف ما لها ولا تعرف ما عليها.

ملاحظة: إن هذه الاتجاهات السلبية أو الغير سوية ليست منفصلة عن بعضها البعض فقد تجتمع كلها أو بعضها في شخص واحد.

مثال: اعتماد احد الأبوين أو كلاهما على أسلوب الحماية الزائدة والتسلط معاً...  
وهكذا يتعرض بعض الأطفال إلى سوء معاملة الوالدين لسبب من الأسباب التالية:  
- الحالة الصحية المتدنية، أطفال غير شرعيين أو مشوهين، أو أطفال إناث، أو غير مرغوبين، أو مولودين في ظروف اقتصادية سيئة، أو أطفال غير ناضجين سلوكياً (كثرة البكاء، مص الأصابع، كثرة الحركة) (24).

وهكذا تؤثر الاتجاهات الوالدية في بناء شخصية الطفل في المستقبل، إذ يرى محمد عماد الدين إسماعيل و زملائه أن الشخصية هي نتاج للخبرات الطفلية وإذا كان لنا أن نعدل فلا بد أن نبدأ بتغيير الاتجاهات الوالدية والأساليب التربوية التي يتبعها هؤلاء الآباء..  
استنتاج:

نستنتج مما سبق أن للاتجاهات دور فعال في تربية الطفل وتنشأته بطريقة صحيحة وخاصة إذا كانت هذه الاتجاهات التي يتبعها الآباء سوية خالية من أي مرض فسوف ينظر إليها الطفل نظرة إيجابية فيدرك بالتالي أن اتجاهات والديه بعيدة على أن تكون قاسية أو متسلطة أو مهملة أو متشددة بل لها طابع سوي يضمن النمو والتطور السليم للشخصية، وهكذا فلا ينبغي لجنس الطفل ورتبته أو صحة الطفل وإعاقته وغيرها أن تؤثر على اتجاهات الوالدين، وينصح هنا بتجنب اتجاه التفرقة في التعامل مع الأبناء والتأكيد أكثر على اتجاه المساواة بينهم سواء كانوا ذكورا أو إناثا وهذا لضمان طفل سليم وشخصية سوية ناجحة ومتوافقة من الناحية النفسية الاجتماعية ومتقدمة مدرسيا، تحصيلها متوسط وعالي.

الهوامش:

1- حسام عبد العزيز عبد المعطي: الاتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بتأكيد الذات، دراسة مقارنة بين الطفل الكفيف و الطفل العادي، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، قسم الدراسات النفسية و الاجتماعية، جامعة عين شمس،



مصر 2001 ص 15 .

- 2- حسام عبد العزيز عبد المعطي، المرجع السابق ص 17.
- 3- Latefa Belaroussi : Images Parentales et identification dans une so-  
ciete en changement unite de recherche en Anthropologie sociale et cultu-  
relle , cahier n° 1, laboratoire famille, personnalisation et developpement,Oran  
,Algerie1990 P59
- 4- حسام عبد العزيز عبد المعطي، المرجع السابق ص 14.
- 5- فاطمة منتصر الكتاني ،الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية و علاقتها  
بمخاوف الذات لدى الأطفال،دار النشر والتوزيع،الطبعة الأولى ،الأردن 2000 ص83.
- 6- حنان محمد علي الصياد: الإساءة الوالدية و علاقتها ببعض المتغيرات النفسية  
لدى الطفل ،دراسة اكلينيكية ،رسالة ماجستير، كلية الآداب ،القاهرة 2005، ص 52 .
- 7- فاطمة منتصر الكتاني، المرجع السابق ص 84.
- 8- مجدي محمد أحمد عبد الله: علم النفس التربوي بين النظرية و التطبيق ،دار  
المعرفة الجامعية ،القاهرة 2003 ص 228 .
- 9- فاطمة منتصر الكتاني، المرجع السابق ص 85.
- 10- حسام عبد العزيز عبد المعطي، المرجع السابق ص 38.
- 11- فاطمة منتصر الكتاني، المرجع السابق ص 85.
- 12- فاطمة منتصر الكتاني، المرجع السابق ص 76 .
- 13- حنان محمد علي الصياد، المرجع السابق ص 37.
- 14- سمير عبد الفتاح ،علم النفس الاجتماعي ،دار المصطفى للطباعة ،القاهرة  
2003 ص 73.
- 15- محمود السيد أبو النيل: علم النفس الاجتماعي ، دار النهضة العربية ،الجزء  
الأول ،بيروت ،لبنان 1984 ص 316.
- 16- محمد السيد عبد الرحمن : دراسات في الصحة النفسية ،دار قباء للطباعة و  
النشر والتوزيع ،الجزء الأول ،القاهرة ، 1998 ص 228.
- 17- حسام عبد العزيز عبد المعطي، المرجع السابق ص 31.

- 18- مصطفى فهمي: الصحة النفسية في الأسرة و المدرسة و المجتمع ،دار الثقافة  
القاهرة 1963 ص85
- 19- Jean Lu-Viaux: L'enfant et le couple en crise, Edition jeunesse et droit,  
Dunod, Paris 1997 P167 .
- 20- حسين فايد : إساءة و إهمال الطفل ،مؤسسة طيبة ،القاهرة 2006 ص 16.
- 21- سمير عبد الفتاح، المرجع السابق ص 85.
- 22- حسام عبد العزيز عبد المعطي، المرجع السابق ص 25.
- 23- محمد السيد عبد الرحمن ص 228.
- 24- حنان محمد علي الصياد المرجع السابق ص 62.

## دور النشاط المدرسي في تلبية حاجات المتعلمين والإعداد للحياة

أ. خلوفي محمد - أستاذ محاضر - ب. جامعة الجيلالي الياقوب، سيدي بلعباس

### تمهيد :

من الوظائف الرئيسية للمدرسة اليوم إعداد الفرد في المجتمع بحيث يساهم فيه مساهمة إيجابية فعالة، ولا تيسر عملية الإعداد هذه إن لم تتضمن برامج المدرسة ألوانا من النشاط المختلف بحيث تربي هذه البرامج الفرص للطلاب كي يمارسوا ممارسة فعلية للحياة الاجتماعية في صورتها المصغرة التي تنطبق فيما بعد على الحياة الاجتماعية بشكلها الأوسع، كما تعمل هذه الألوان من النشاط أيضا على كشف ميول الطلاب واستعداداتهم وقدراتهم ثم العمل على تنميتها وصقلها، وبذلك يمكن الاستفادة الكاملة من طاقات أفراد المجتمع وزيادة فاعليتهم وقدرتهم الإنتاجية وتحقيق السعادة والصحة النفسية لهم .

### 1- تاريخ النشاط المدرسي:

لقد قطع النشاط المدرسي شوطا طويلا منذ عام 1920م عندما بدأ يلقي اهتماما من خلال ما يكتب عنه ، ويعود الفضل في إدخال أول مقرر للنشاط بشكل منهجي منظم وإدارة هذا النشاط (خارج المنهج) إلى البروفسور فروتويل -FROTWELL- عام 1927م في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا الذي نشر أول مؤلف يعالج هذا المجال بطريقة منظمة عام 1925م، وبعدها بدأت تنشر مؤلفات إلى جانب الدراسات والمقررات التي تزود المعلمين بالأسس العامة للقيام بمسؤوليات الإشراف على النشاطات اللاصفية، واعتبر الكثير من التربويين والمعلمين والكتاب على استعمال مصطلح النشاط خارج المنهج، وهو المصطلح الذي انتشر استعماله بصفة عامة، واقتروا مصطلحات مثل ( مناشط في المنهج ومناشط نصف منهجية - ومناشط في داخل المنهج - ومناشط محاذية للمنهج - ومناشط زائدة خارج الفصل ). إلا أن هذه التسميات لم تحل محل التسمية الأولى التي كانت تركز على النشاط اللاصفي - أي النشاط خارج المنهج -

ولما كانت مهمة المدرسة الأساسية هي إعداد الجيل الصاعد للحياة والعمل، وجب أن

يتسع المنهاج التربوي سعة الحياة نفسها ليشمل كل المناشط والخبرات التي يوفرها المجتمع بواسطة المدرسة، وهذا كله جاء نتيجة مفاهيم التربية الحديثة معارضة مفاهيم التربية التقليدية التي سيطرت في الماضي ( جعيني، 2001:179)

لقد مر النشاط المدرسي بعدة مراحل نوجزها فيما يلي :

- المرحلة الأولى: تجاهلت المناشط حيث كان اهتمام المعلمين مقتصرًا على المقررات الدراسية القائمة على التلقين .

- المرحلة الثانية: معارضة المناشط من قبل الإدارة المدرسة لزيادتها ، فطغت على وقت المتعلمين وهددت الجو الأكاديمي بسيادتها و سيطرتها على الجو المدرسي .

- المرحلة الثالثة: قبول المناشط المدرسية خارج إطار المنهج واعتبارها جزءًا من وظيفة المدرسة واهتمام المتعلمين وأولياء الأمور بالمناشط كوسيلة لزيادة خبرات المتعلمين وتعلمهم.

- المرحلة الرابعة: تغيرت النظرية التربوية من الاهتمام بالمادة العلمية والمعالجة الذهنية إلى الاهتمام بجميع جوانب المتعلم والتركيز على التعلم عن طريق الخبرة واستخدام إستراتيجية التغذية الراجعة ( إبراهيم، د.ت:122-121).

وكخلاصة لما تم تقديمه يمكننا أن نوضح بأن المنهج الدراسي بدأ سيمهد إعداد التلميذ للعمل على تكييفه في المستقبل مع الحياة الاجتماعية والبيئة المتغيرة في المجتمع، ومن ثم بدأ ينظر إلى المواد الدراسية، لا على أنها مواد منفصلة في حد ذاتها، وإنما على أنها مصادر تعليم تتكامل فيها الخبرات التربوية، وهكذا تحول المنهج الدراسي من الاهتمام بالتركيز على المادة الدراسية كمعلومات تلقن إلى الاهتمام بالتركيز على النشاط وإثارة الإيجابية للتلاميذ، وتنمية شخصياتهم وميولهم، وجعلها عنصرا منتجا في المجتمع

#### 1- مفهوم النشاط المدرسي :

يعرف أحمد عبد الرحمان عيسى النشاط بأنه « نشاط حر ، مطلق ، يصدر عن التلميذ بمحض رغبته، وامتدادا لهوايته من خلال المنهج الدراسي، وفي ظل توجيه المدرسين وإشرافهم، وتقويمه لنتائجه في داخل الفصل وفي خارجه، وبهذا تتكامل شخصية التلميذ معرفة وسلوكا نابعين من المدرسة و الحياة معا (العنزي ، 2004)

كما تؤكد دائرة المعارف الأمريكية " أن النشاط يتمثل في البرامج التي تنفذ بإشراف وتوجيه المدرسة، والتي تتناول كل ما يتصل بالحياة المدرسية وأنشطتها المختلفة ذات الارتباط بالمواد الدراسية أو الجوانب الاجتماعية البيئية أو الأندية ذات الاهتمامات بالنواحي العملية أو العملية، أو الرياضية، أو الموسيقية، أو المسرحية، أو المطبوعات المدرسية ( إبراهيم ، د.ت).

نستنتج من التعاريف السابقة ما يلي :

- الأنشطة المدرسية هي سلسلة برامج تنفذ بإشراف المدرسة.
- يقبل عليها الطالب بدافعية ذاتية و باختياره .
- يهتم جانب من هذه الأنشطة بتعزيز المقررات الدراسية، والجانب الآخر يعمل على بناء وتنمية شخصية الطالب في الجوانب الاجتماعية والدينية والرياضية والثقافية ، ويمكن أن تمارس في شكل جماعات وأندية .

## 2-ربط دور المناشط المدرسية في اعداد المتعلمين للحياة.

كما تنبع أهمية النشاط الطلابي من الفوائد الكثيرة التي يحققها ومنها :

- يسهم النشاط في تثبيت المفاهيم وإدراكها لدى الطفل .
- يسهم في تحقيق استقلال الطفل، ونموه العاطفي والاجتماعي لأنه يحتوي على أعمال تعاونية، تسهم في تنمية بعض الصفات مثل: الاتزان ورباطة الجأش، والثقة في النفس، وتعديل السلوك، كما أن النشاط ذو الطابع التعاوني يوفر مجالات تطبيقية لتحقيق وتأكيد الديمقراطية عن طريق مشاركة التلاميذ في العمل مع الجماعات المنظمة لهذا النشاط .

- يمكن أن يتعلم التلاميذ عن طريق النشاط تحمل المسؤولية، والعمل التعاوني بين أفراد الجماعة، كما يتدربون عمليا على التحلي بروح الإيثار وإنكار الذات، وما شابه ذلك من عادات سلوكية إيجابية تساعد التلميذ على تحقيق ذاته والاعتماد على نفسه .

- يحقق النشاط الاستقلال والثقة في النفس، إذ أنه من المفروض أن يحاول المشرف على النشاط أن يشرك التلاميذ في اختيار النشاط وتخطيطه وتقويمه وعندما يشجع المعلم أو المشرف التلاميذ على ممارسة النشاط بعد تعويدهم على تحمل مسؤولية

وأعباء تخطيطه، فإن ذلك يعد تدريباً لهم على الشعور بالاستقلال والاعتماد على النفس.

- يحقق النشاط قيماً اجتماعية مرغوبة، فمن خلال ممارسة النشاط يتعلم التلاميذ المواءمة بين أفكارهم وأمزجتهم الشخصية، والقيم والعادات الطيبة الإيجابية للمجتمع، وعلى المعلم أو المشرف أن يساعد التلاميذ على التمييز بين واجباتهم ومسؤولياتهم المختلفة من خلال التعامل مع جماعات النشاط ومعايشة أفراد الجماعة، فيمكن مثلاً: أن يساعد على وضوح الرؤية عند تخطيط نشاط الجماعة مع زملائه، أو قد يساعد البعض الآخر على التغلب على بعض الصعوبات النفسية مثل عدم الثقة بالنفس، أو التشتت وعدم القدرة على التركيز.

- يحقق النشاط الحرية والاعتماد على النفس بتوجيه من المعلم أو المشرف وبالتعاون، ومن خلال سيادة روح الاعتماد على النفس وتقسيم العمل بين أفراد الجماعة، يتعلم التلاميذ كيف يناقشون بحرية، كما يتدربون على التصرف والسلوك السوي للوصول إلى الأهداف المنشودة، وذلك في حد ذاته تدريب لهم على تنمية قدرة الاعتماد على النفس.

وهناك فوائد كثيرة يشعر بها كل من التلميذ والمعلم، أو المشرف في المدرسة الابتدائية أثناء ممارسة النشاط، وخاصة الجوانب النفسية والروحية الإيجابية التي تتكون وتنمو وتزايد مع تزايد الانغماس في النشاط ومتابعة السير فيه، وعلى ذلك يمكن للنشاط أن يسهم في تنمية التلاميذ بدنياً وروحياً وفكرياً، كما يسهم في بناء المجتمع على أسس ديمقراطية سليمة، تقوم على احترام شخصية الفرد، وبث روح التعاون والاهتمام بالعمل، ودعم القيم الديمقراطية (قمر 5، 2008: 38-40).

## 2- فوائد النشاط المدرسي:

- توجيه ومساعدة الطلاب على اكتشاف قدراتهم ومواهبهم وميولهم والعمل على تنميتها.
- تعميق قيم ديننا الحنيف وترجمتها سلوكياً.
- تنمية وتعزيز القيم الاجتماعية الهادفة كالتعاون والتسامح وخدمة الآخرين والمنافسة الشريفة.

- بناء الشخصية المتكاملة مع تعزيز القيم الإسلامية و تطبيقها والتحلي بأدائها .
- تحقيق النمو البدني والعقلي من خلال توسيع الخبرات في مجالات متعددة .
- إتاحة الفرص للموهوبين و تشجيعهم التفوق والابتكار.
- إشباع حاجات التلاميذ النفسية والاجتماعية.
- مساعدة التلاميذ على التخلص من بعض المشاكل النفسية والاجتماعية كالقلق والتوتر والانطواء والضغط النفسية والخلج والاكثاب .
- تنمية قدرة الطلاب على التفاعل مع المجتمع وتحقيق التكيف الاجتماعي .
- تقدير قيمة العمل اليدوي والاستمتاع به واحترام العمل والعاملين من خلال الممارسة الحسية و الحركية .
- تثبيت المادة العلمية من خلال التطبيقات واستخدام الحواس لاستيعابها .

### 3- وظائف النشاط المدرسي :

- وظيفة نفسية: فعن طريق ممارسة النشاط يستطيع الطالب التعرف على ذاته والتعبير عن ميوله والتنفيس عن انفعالاته وإشباع حاجاته النفسية المختلفة .
- وظيفة صحية: فعن طريق النشاط يتم اكتساب العادات والسلوكيات الصحية المختلفة التي تساعد على المحافظة على النمو الصحي الجيد واللياقة البدنية الكاملة.
- وظيفة علاجية: حيث تساعد الأنشطة على تخطي مشكلات الطلاب النفسية والانفعالية والاجتماعية، كما تساعد على التخلص من معوقات نموه وتعديل سلوكه واتجاهه.
- وظيفة مهنية: وذلك عن طريق الممارسة العملية لبعض الحصص التي تتطلب مهارات معينة مما يساعده على تحقيق المستقبل المهني والوظيفي .
- وظيفة تعليمية: حيث يساهم النشاط في دعم عملية التعلم من خلال الممارسة العملية لبعض ما يكتسبه الطلاب داخل الفصل، وما يتم من مناقشات وقراءة وكتابة وغير ذلك.
- وظيفة بيئية: حيث تساهم الأنشطة غير الصفية في تعريف مزاويله بالبيئة المحلية وكيفية المحافظة عليها وإدراك أهميتها واكتشاف منافعها .
- وظيفة اجتماعية: من خلال ما يكتسبه المشاركون في النشاط من مهارات التعامل

الجيد، والتعاون والتفاني في خدمة الجماعة وغيرها (النصار، 2005).

#### 4- أهمية النشاط المدرسي :

- للأنشطة المدرسية أثر ايجابي على احترام الذات و الرضا عن الحياة والعمل : أشارت نتائج الدراسة التي قام بها - قولن - ( GOLLEN، 2000 ) إلى أن الطلاب الذين يشاركون في الأنشطة المدرسية يزداد عندهم احترامهم لذواتهم وثقتهم بأنفسهم . كما أن دراسة - إلدن ورفاقه ( ELDEN ET AL 1980 ) التي أجريت على 351 طالبا وطالبة في المرحلة الثانوية، وتوصلت إلى أن الاشتراك في النشاطات المدرسية يعزز الاتجاه الايجابي نحو قيمة العمل.

- للأنشطة المدرسية أثر ايجابي على التحصيل الدراسي : أشارت نتائج الدراسات التي أجراها كل من - بوركممان ورفاقه - ( Bure kmane et al ) أشارت النتائج إلى تميز الطلاب المشاركين في الأنشطة المدرسية بالقدرة على تحقيق النجاح والانجاز الأكاديمي، بالإضافة إلى إيجابيتهم مع زملائهم وأساتذتهم ، وتمتعهم بروح القيادة والتفاعل الاجتماعي . - الأنشطة المدرسية تحقق الأهداف التربوية داخل المدرسة (كالشعور بالانتماء للجماعة، إظهار روح التنافس المنظم والشريف بين الجماعات، والاهتمام بتحقيق نتائج إيجابية، وتحقيق الاستقرار النفسي، والأهداف التربوية خارج المدرسة (كالتطبيق الفعلي للمعلومات والخبرات المستفادة من النشاط المدرسي حسب نوعيتها مثل: تطبيق روح المواطنة الصالحة وخدمة المجتمع والقدرة على الخطابة والمواجهة من خلال النشاطات المسرحية والمعسكرات والرحلات.

من خلال عرض الدراسات السابقة نستنتج ما يلي:

- انصب التركيز بدرجة رئيسية على تعرف العلاقة بين فاعلية هذه الأنشطة واكتساب الطلبة للمعارف والقيم و الاتجاهات والمهارات البيئية.

- أهمية قيام المتعلم بنشاط ذاتي بغرض التعلم وتنمية القدرات المختلفة للمتعلم.

- للأنشطة الخلوية التي تتم خارج الفصول الدراسية التقليدية، تأثير بالغ في اكتساب الفئات المستهدفة المهارات والقيم والسلوك البيئي الذي يمكنهم من تحمل المسؤولية الذاتية نحو البيئة كما أشارت نتائج بعض الدراسات وهو ما يؤكد على



أهمية اقتران المعرفة بالعمل.

- أهمية النشاط وفعاليته في التعليم، ولذلك يتضح ضرورة أن يصاحب تدريس الكتاب المقرر بعض الأنشطة التي تشجع المتعلمين على ممارستها بغرض الارتقاء بمستوى التعليم.

ويظهر من خلال ما تقدم ذكره بأن للنشاط المدرسي أهمية كبرى بالنسبة للتربية البيئية المدرسية وغير المدرسية، حيث يحقق أهدافها ويبني شخصية متعلمها، ويعد جزءا مكملا للمنهج، ويؤدي إلى اكتساب الطلاب اتجاهات مرغوب فيها، مثل تحمل المسؤولية والإسهام في خدمة الجماعة والعمل بروح الفريق والتعاون، وممارسة الديمقراطية، وقبول الآخر، وكثير من الاتجاهات الايجابية المرجوة نحو بيئته.

### المراجع:

- 1- إبراهيم عمر أحمد ( د.ت ) مدى إسهام برنامج النشاط في تدريب طالب التربية عاى استخدام وسائل وأساليب الاتصال ، دراسات تربوية ، العدد (18) ص ص 103-143 .
- 2-العنزي منزل عسران جهاد (2004)، علاقة إشراك الطلاب في جماعات النشاط الطلابي بالأمن النفسي والاجتماعي لدى طلاب المرحلة الثانوية بمدينة الرياض - ماجستير رعاية وصحة نفسية .
- 3-النصار صالح بن عبد العزيز (2007) دور النشاط المدرسي في التحصيل الدراسي، ورقة عمل منشورة ضمن أعمال اللقاء "تربوي النشاط تربوية وتعليم" الذي نظمته الإدارة العامة لنشاط الطالبات في الفترة من 10-12 ( 05 ) 1428هـ الرياض .
- 4-جعنيني، نعيم حبيب (2001) درجة تحقيق النشاطات اللاصفية الموجهة لأهدافها التربوية في المدارس الثانوية الرسمية في الأردن من وجهة نظر معلميهها. مجلة جامعة دمشق. المجلد (17). العدد (1). ص ص 175-207.
- 5-قمر 5، توفيق عصام (2008) التكامل بين العملية التعليمية والأنشطة التربوية في المدرسة الابتدائية. سلسلة دراسات في الأنشطة التربوية.



## ابن خلدون والمسألة السكانية

د فوزية بلعجال جامعة سيدي بلعباس

تمهيد:

إن الظاهرة السكانية محل اهتمام العديد من المفكرين منذ القدم، فقد كانت آراءهم هي البداية التي أشارت للعلاقة المتواجدة بين السكان والاقتصاد. تركزت بحوثهم ودراساتهم حول محورين أساسيين: أسباب النمو السكاني من جهة و الآثار المترتبة على ذلك من جهة أخرى. فقد أولت المجتمعات القديمة أهمية كبيرة للإنجاب بهدف التعويض السكاني الناجم عن الحروب أو الأوبئة والمجاعات.

من أول المجتمعات التي أثارت الموضوع؛ اليونان القديمة، و من أبرز مفكرها أفلاطون الذي يعتبر أول من وضع قانون للسكان. كما أشار تلميذه أرسطو بدوره إلى المخاطر التي تنجم عن النمو السكاني غير محدود. وكذا الفيلسوف الهندي كوتيليا الذي تحدث أيضا عن العلاقة بين السكان والموارد المتاحة. وحتى الأباطرة في عهد الإمبراطورية الرومانية اهتموا بقضية السكان من جانب الإنجاب كضرورة لإحلال أعداد القتلى وتوفير اليد العاملة فقط.

أما في العصور الوسطى فقد ظهر ابن خلدون و طريقته المميزة في تحليله للظواهر، جعلته من أوائل العلماء الذين أعطوا أهمية لدراسة الظواهر السكانية أين وضع من خلال نصوص المقدمة أن كثافة السكان تساهم إلى حد كبير في تحسين الظروف الاقتصادية و بالتالي حسن استغلال الثروة الاجتماعية وتقسيم العمل.

### ابن خلدون

يعد «ابن خلدون» عبقرية عربية متميزة، فقد كان عالماً موسوعياً متعدد المعارف والعلوم، تناول قضية السكان في مؤلفه «مقدمة ابن خلدون» وقد تحدث عن مزايا النمو السكاني، فقد رأى أن النمو السكاني يخلق الحاجة إلى تخصص الوظائف وبدوره يؤدي إلى مداخيل أعلى وهي الفكرة التي تناولها ادم سميث في تحدثه عن تقسيم العمل فيما بعد، كما أشار أيضا أن النمو السكاني يركز أساسا في المدن لأن سكانها ذات حجم أكثر ورفاهية أكبر من المناطق ذات الحجم السكاني الأقل والسبب الجوهرى هو الاختلاف في طبيعة

الوظائف التي تؤدي حسب كل منطقة، لكل مدينة أسواق لأنواع مختلفة من الأعمال و كل سوق يستوعب من الإنفاق ما يتناسب مع حجمه. وسوف نتطرق لكل ذلك مستشهدين بنصوص المقدمة فيما يلي:

ولد «ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي» بتونس في [ غرة رمضان 732هـ = 27 من مايو 1332م ]، ونشأ في بيت علم ومجد عريق، فحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وقد كان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على يد مشاهير علماء عصره، من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى تونس بعدما أُلِمَ بها من الحوادث، فدرس القراءات وعلوم التفسير والحديث والفقه المالكي، والأصول والتوحيد، كما درس علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس كذلك علوم المنطق والفلسفة والطبيعية والرياضيات، وكان في جميع تلك العلوم مثار إعجاب أساتذته وشيوخه. (سمير حلبي)

ابن خلدون.. مؤسس علم الاجتماع يعد ابن خلدون المنشئ الأول لعلم الاجتماع، وتشهد مقدمته الشهيرة بريادته لهذا العلم، فقد عالَجَ فيها ما يطلق عليه الآن «المظاهر الاجتماعية». أو ما أطلق عليه هو «واقعات العمران البشري»، أو «أحوال الاجتماعي الإنساني».

وقد اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيج له الاحتكاك بها، والحياة بين أهلها، وتعقب تلك الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة.

قد كان «ابن خلدون». في بحوث مقدمته . سابقاً لعصره، وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي «فيكو»، والألماني « ليسنج»، والفرنسي «فولتير»، كما تأثر به العلامة الفرنسي الشهير «جان جاك روسو» والعلامة الإنجليزي « مالتس» والعلامة الفرنسي «أوجست كانت».

ابن خلدون «وعلم التاريخ» تبدو أصالة ابن خلدون وتجديده في علم التاريخ واضحة في كتابه الضخم «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وتتجلى فيه منهجيته العلمية وعقليته الناقدة والواعية، حيث انه استقرئ الأحداث التاريخية، بطريقة عقلية علمية، فيحققها ويستبعد منها ما يتبين له اختلاقه أو تفاهته.

ابن خلدون رائد فن الترجمة الذاتي كذلك، فإن ابن خلدون يعد رائداً لفن الترجمة الذاتية . الأوتوبيوغرافيا . ويعد كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» . من المصادر الأولى لهذا الفن.

لقد كان ابن خلدون مثالا للعالم المجتهد والباحث المتقن، والرائد المجدد في العديد من العلوم والفنون، وترك بصمات واضحة لا على حضارة وتاريخ الإسلام فحسب، وإنما على الحضارة الإنسانية عامة، وما تزال مصنفاته وأفكاره نبراساً للباحثين والدارسين على مدى الأيام والعصور.

تعرض ابن خلدون للعلاقة بين عدد السكان والوضع الاقتصادي موضحاً أن عدد السكان الأمثل يؤدي لرفع المستوى المعيشي من خلال حسن استخدام الموارد الاقتصادية. ويمكن أيضاً الإشارة إلى أن المفكر العربي هو أول من عالج هذا الموضوع معالجة علمية ببحثه في عمران الدول و اتساعها و تأخرها و على هذا الأساس ربط كل ما سبق بنمو السكان و نقصهم. فقد ذكر ابن خلدون أن حجم الدولة و مجال توسعها و مدة بقاءها في علاقة مباشرة مع العدد من أولئك الذين أسسوها (W. M. Guckin : 1934, P 11)

إن العلامة الكبير ابن خلدون قد سبق عهده في تحليله الذي تعرض فيه لكافة الميادين، ومن بين هذه الميادين الجانب السكاني أو الديمغرافي. إن تحليل ابن خلدون لم يعتمد على نظرية واضحة بخصوص القضايا السكانية لكنه تطرق لها من خلال العلاقة المتبادلة بين السكان و الموارد و أن مفهوم هذه العلاقة يتبع الظروف الاجتماعية و السياسية للمجتمع. (G. Caselli

, J Vallin, G J. Wunsch: 2006, P. 23) ,

قد تحدث في المقدمة عن القوانين التي يسير عليها التزايد في النوع الإنساني، وبذلك سبق «مالتس» الاقتصادي الإنجليزي في نظريته التي اشتهر بها، وهي نظرية «تزايد السكان». وابن خلدون الذي كان قبل مالتس بأكثر من أربعمئة سنة قد تعرض لهذا النظرية، وإن لم يعن بتفصيل الحديث عن أجزائها، ووضع قانوناً محدداً لها، كما فعل مالتس. (علال البوزيدي : 7/2003)

مالتس من علماء الاقتصاد الإنجليزي، ولد سنة 1766م وتوفي سنة 1842م، ويعدّ من المنشئين لعلم الديموغرافيا أو علم إحصاء السكان. اشتهر بمقالاته عن مبادئ علم

السكان سنة 1798م. وتقوم فكرته الأساسية على أن أعداد السكان في العالم تميل إلى الزيادة، بينما كميات الطعام تقل. واستخلص مالتس من دراساته لظاهرة التزايد في النوع الإنساني أن السكان يتزايدون كل خمس وعشرين سنة بنسبة متوالية هندسية (1، 2، 4، 8، 16، 32...)، إذا لم يوقف تزايدهم عائق خارجي. كما كان يعتقد أن الحروب والأمراض ستفتك بالأعداد الزائدة من البشر، ما لم يتم تحديد النسل. وظهر هذا الكتاب سنة 1803م. ( G. MONTIGNY : 1997, p 157 ).

يبني مالتس تحليله على مصادرتين أساسيتين:

الأولى: هي أن الغذاء ضروري لحياة الإنسان. الثانية: أن العاطفة بين الجنسين ضرورية.

يقول مالتوس في مقاله : « إنه بفرض أن المصادرتين قضية مسلم بها، فقدرة السكان هي أعظم بدرجة لا متناهية من قدرة الأرض على إنتاج وسائل العيش للإنسان، فالسكان يتزايدون بنسبة هندسية – إذا لم يحد من هذه الزيادة – بينما لا تزيد وسائل العيش إلا بنسبة حسابية – وبناء عليه، فإن المعرفة الطفيفة، بالأعداد لتبين ضخامة القوة الأولى مقارنة بالثانية» (رمزي زكي: 1984 ، ص 25).

ان الإنسان لا يستطيع العيش دون وجود الطعام وأن قدرة الإنسان على التكاثر تتجاوز بكثير إمكانية زيادة الموارد الغذائية، وطبقا لفكرة المتوالية الهندسية فإن عدد السكان، من الناحية النظرية، يمكن أن يستمر في التزايد إلى ما لا نهاية ما لم يعرقل هذا التزايد موانع معينة، وكل ما استند إليه هو الإحصاءات التي كانت تعكس آثار الهجرة السكانية الكبيرة التي قام بها سكان أوروبا إليها دون أن يهتم بإثباته. (رمزي زكي: 1984 ، ص 26).

يقول مالتوس : « بحكم قانون طبيعتنا هذا الذي يجعل الغذاء ضروريا لحياة الإنسان، فلا بد من الإبقاء على تساوي النتائج المترتبة على هاتين القدرتين غير المتساويتين، وهذا يتضمن عائقا قويا باستمرار منع زيادة السكان عن طريق صعوبة العيش، وهذه الصعوبة يجب أن تحل في مكان ما، ولابد حتما أن يشعر بها فريق كبير من الجنس البشري» (رمزي زكي: 1984 ، ص 26).

وبذلك، فإن المشاكل التي يواجهها المجتمع من فقر وبطالة وسوء الأحوال المعيشية

والصحة والجوع وانتشار الآفات والانحرافات الأخلاقية، نتيجة حتمية لقانون الطبيعة الأبدي مهما كانت الظروف التي يعيش فيها الإنسان، وهذه المشاكل لا صلة لأي نظام (بالتحديد النظام الرأسمالي)، ولا لأي طريقة في الحكم، بل الفقراء هم المسؤولون الأولون عن شقائهم وسوء أحوالهم، وذلك بتكاثرهم نتيجة سلوكهم الجنسي غير الموجه والمنظم وأهم مساعدة لهم في توعيتهم وتبصيرهم بقانون السكان، وبالنتائج المترتبة عن ذلك وعلى إثر هذه الرؤية اتخذ مالتوس اتجاهها لمعالجة هذه المشكلة وذلك بطرح جملة من الحلول أهمها كان لا إنساني لتقليل التزايد السكاني، ولا يكون هذا التقليل إلا بفرض موانع معينة توفر التناسب بين الزيادة السكانية وبين الثروات الطبيعية.

أما من ناحية ابن خلدون فقد تطرق في مؤلفاته إلى تطور المجتمعات و فناءها والعوامل المؤدية إلى ذلك، وتطرق أيضا إلى الدور الذي تلعبه الكثرة والقلة في عدد السكان على استمرارية المجتمع وتطوره أو عكس ذلك. وبين أن العمران البشري يرتبط بقيمة التعاون وبالطبيعة الإنسانية في الاجتماع حيث يقول « الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أَرَادَهُ اللهُ من اَعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران » (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 43).

ويضيف ابن خلدون « فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوات له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه » (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 42)، لقد أظهر ابن خلدون ضرورة اجتماع الإنسان بأمثاله لأن طبعه الغالب يميل إلى التعاون والتكاثف للتكامل مع بعض حيث أن استمرارية العنصر البشري وبقائه لا تكون إلا باجتماع عدد كبير من أبناء جنسه وتعاونهم في تحصيل قوتهم والدفاع عن بعضهم البعض، ويتضح لنا أهمية العدد في تكوين القوة للدفاع ولتوفير الغذاء وبذلك يضمن بقاءه ويحفظ النوع البشري.

لقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن ظهور العمران البشري وقد ربط ذلك بطبيعة الإنسان من جهة وبجوانب جغرافية كالإقليم والتربة من جهة أخرى. من خلال تعرضه لطبيعة الإنسان. وتحدث أيضا عن دور السكان في تطور المجتمع وذلك من خلال عرضه لمختلف المراحل التي يمر بها المجتمع. إن أسلوب الحياة البدوية أو الحضرية يتحدد

بنوع المهنة التي تسود في المجتمع ونجد أن نوع المهنة هو الذي يحدد للمجتمع المكان الذي يعيش فيه (خميس طعم الله – المسألة الديمغرافية عند ابن خلدون). يقول ابن خلدون: «اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله» (المقدمة عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 120).

يعتبر ابن خلدون طور البداوة هو أول طور تمر به المجتمعات السكانية وعبر النمو الاقتصادي ينتقل إلى طور الحضارة وكي يتم ذلك لابد من كثرة الصناعات بسبب زيادة السكان كما وضع ابن خلدون في مقولته «ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكن والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 120).

فعند نشأة أية دولة و بداية تحولها إلى التحضر *Sédentarisation*، يكون المجتمع في طور النمو و الزيادة في عدد السكان، وبارتفاع الكثافة السكانية فان تقسيم العمل يسهل المهام و يرفع من المستوى المعيشي للأفراد و بالتالي يزيد من فاعلية المؤسسات السياسية، العسكرية و الاقتصادية. الزيادة الاقتصادية و الزيادة السكانية يؤديان بدورهما إلى ثراء الدولة، فتقع الحكومة في فخ الرفاه و الجشع مما يؤدي الى رفع الضرائب. و من هنا تبدأ مرحلة الانهيار. و بثقل الضرائب على الأفراد يفقدون الرغبة في الإنتاج. وبمحاولة الحفاظ على نفس المداخل الضريبية يزداد العبئ على المواطنين. مما يولد الأوضاع الراضية و الثورات وتسوء الأوضاع في المجتمع تقل على إثرها الخصوبة و ترتفع نسبة الهجرة، بالإضافة إلى انتشار المجاعات و ارتفاع نسبة الوفيات ( G. J. Wunsch : 2006. P. 23 ).

( G. Caselli.J. Vallin

إن تحدث ابن خلدون عن تقسيم العمل و تنبيهه إلى ضرورة الاهتمام بالصناعة في المجتمع الجديد و عدم اهتمامه بالفلاحة و تسمية محترفها بالمستضعفين و أيضا بأهل العفية. يهدف شد الانتباه إلى عدم الاعتماد على الزراعة فقط و إبراز ضرورة اعتماد المجتمع على النشاط الاقتصادي الخاص بالتجارة و الصناعة. كما أشار في حديثه عن تقسيم العمل و إشاعته التضامن في المجتمع الذي يكمل بعضه بعضا، فالكل ينتج و يختص فيه و مالا ينتجه يحصل عليه من إنتاج غيره المتقن. (محمد أبو عبيدة و عبد



الحميد محمد شعبان، 2008 ، ص 76).

إن إشارته لتقسيم العمل في المجتمع من خلال اجتماع عدد من الأفراد بهدف التعاون لتوفير الغذاء والمستلزمات «فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدف إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 120).

«... ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة، وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 121). تزايد السكان يؤدي إلى تقسيم العمل ويزيد في الإنتاج في المجتمع وبالتالي زيادة ارتفاع مداخيل الأفراد، ويزيد حجم الطلب نتيجة الإقبال على الاستهلاك للسلع فتنشأ بذلك صناعات جديدة مما يشجع على زيادة السكان، (خميس طعم الله، 2006). يقول ابن خلدون أيضا: «... اعلم أن ما توفر عمرانها من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنها اتسعت أحوال أهلها وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 265). وبذلك فإنه يربط بين كثرة السكان وكثرة الأعمال، فكلما زاد عدد السكان وتنوعت الأعمال زاد الاختلاف بين مجتمع البدو والحضر، وما يفرق بين المجتمعين هو اختلاف وحداته شكلا وحجما وكثافة، إذ يقول: «... إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانها من مدينة...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 121).

وبتحديثه عن النمو الاقتصادي ذكر: «... أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 400). وأيضا: «... وعلى مقدار

عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 401). يوضح من خلال ما سبق بان النمو الاقتصادي للمجتمعات مرتبط بتطور العمران وتزايد السكان فيه، أما إذا انصرف المجتمع إلى غير ذلك تدهورت أحواله وسعى إلى خرابه وحدد الحضارة حين يتزايد عدد السكان وتزدهر المدن وتكثر الصناعات والحرف وأن ضعف المجتمع نتيجة الانحلال والتباعد: «... قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال و ابذعر الناس في الأفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخرجت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 287). و أن الحضارة هي بوفرة العمران، فإذا تناقص سكان المصر فمعنى ذلك احتلال العمران. «... أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية 1 وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدولة العامة قبيلهما وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 163).

ان قوة الدولة كما يشير ابن خلدون تكون في الكثرة والقوة العسكرية التي تحدد هيمنة الدولة تنتج من كثرة الأشخاص القادرين على الدفاع عنها، فبقدر ازدياد العدد تقدر عظمة القوة العسكرية و يقدر امتداد وتوسع الدولة، لذلك كانت العصبية آنذاك تشجع على كثرة النسل وخصوصا على أهمية الذكور التي تنصب على عاتقهم مهمة الحماية والغزو والحرب « تناكحوا، تكاثروا فأني أباهي بكم الأمم» فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب النِّكاح

يربط ابن خلدون زيادة السكان والنمو الاقتصادي بمرحلة معينة من مراحل حياة الدولة وهي المرحلة التي يسود فيها العدل والأمن وما يتوفر لرعيتهما من امن واستقرار وأماكن للعمل وكسب الرزق، أين يعيش المجتمع في رفاه ووفرة «... الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدريج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء...» (عبد الرحمن

ابن خلدون، 1984، ص 301).

يشير ابن خلدون أيضا إلى أن الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة تؤدي إلى ارتفاع نسبة الوفيات وهي مرتبطة نتيجة الواقع الذي آل إليه المجتمع عند نهاية الدولة عندما اهتم الحكام باللهو والترف أين تصبح النفقات كبيرة مما يدفعهم إلى الزيادة في الضرائب وتسوء الأوضاع الاجتماعية للعمال، مما يؤدي إلى انحلال العصبية وتكثر المظالم حيث يلجأ عدد كبير من السكان إلى الهجرة والباقيين يصبحون عرضة للمجاعات وسوء الأحوال الصحية وارتفاع نسبة الوفيات الذي يؤدي بدوره إلى انتشار الأمراض والأوبئة، والتلوث الذي سماه ابن خلدون بـ «فساد الهواء» الذي يحدث نتيجة كثرة نمو العمران وتلاصقه (البناءات العشوائية).

حوصلة لما سبق يمكن تلخيص المراحل التي يمر بها النمو الديمغرافي إلى مرحلتين على حسب العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تحدث في المجتمع، وهذا حسب ما وضعه ابن خلدون في مقدمته.

المرحلة الأولى: زيادة معدل الخصوبة في المواليد ونقص معدل الوفيات وهي الفترة التي تستغرق للانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة فيزداد عدد السكان وتزدهر الصناعات (خميس طعم الله، 2006). «أن الصنائع غنما تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 444).

«... أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا به عددا إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصابات حينئذ بكثرة العدد...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 174).

ذلك أن كثرة التناسل لا تتم إلا بالتشجيع على الزواج المبكر وعدم وضع أي قيود على سن الزواج، ففي مرحلة بناء الدولة تكون هناك حاجة ملحة لعدد كبير من السكان (خميس طعم الله، 2006).

يرتبط التناسل عند ابن خلدون بمسألة شرعية فهي حفظ النسل على الأرض لأداء الأمانة التي كلف بها الله الإنسان. فتتفرع الحياة سبب مباشر في ازدياد النسل أو الخصوبة

وذلك من خلال تحسن الأوضاع وتوفير الغذاء.

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة يشير ابن خلدون إلى تحول الأوضاع فترتفع معدلات الوفيات نتيجة ظهور الأمراض والأوبئة والاضطرابات التي تنتجها الفوضى والفساد والظلم مما يؤدي إلى انخفاض معدلات المواليد (الخصوبة) مما يؤدي إلى إضعاف نشاط السكان ويشير أيضا إلى أن الظلم هو من الأسباب المؤدية إلى انقطاع النوع البشري حيث يقول «... الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع...» (المقدمة ص 288) ونرى ذلك أيضا واضحا في قوله «... فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات الاحتكار مفقودا فشمّل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع البواء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران...» (عبد الرحمن ابن خلدون، 1984، ص 302).

وبذلك نستنتج أن المرحلة الأخيرة من حياة الدولة ونتيجة الظروف والظلم تدخل مرحلة الهدم والانحلال العصبية بما يدفع الناس إلى الهجرة ومسك أيديهم عن العمل والإنتاج (الفلج) مما يؤدي إلى المجاعات وسوء التغذية وانتشار الأمراض مما يؤدي إلى ارتفاع الوفيات وانخفاض الولادات.

المراجع باللغة العربية:

1. حديث شريف: فتح الباري شرح صحيح البخاري «كِتَاب النِّكَاح».
2. ابن خلدون عبد الرحمن (1984): المقدمة، الدار التونسية للنشر، الجزائر .
3. رمزي زكي (1984): المشكلة السكانية و خرافة المالتوسية الجديدة ،عالم المعرفة الكويت.
4. محمد أبو عبيدة و عبد الحميد محمد شعبان ( 2008): تاريخ الفكر الاقتصادي.
5. خميس طعم الله (2006): المسألة الديمغرافية عند ابن خلدون.
6. سمير حليبي: ابن خلدون.. سيرة و مسيرة، <http://criticsamir.blogspot.com>

## المراجع الأجنبية:

1. William Mac Guckin(1934) : Les prolégomènes d' Ibn Khaldoune, Première partie, Paris.
2. Gilles MONTIGNY(1997) : Analyse économique et historique, prépas économiques et commerciales, Première année, Ed ellipses.
3. Graziella Caselli,Jacques Vallin,Guillaume J. Wunsch(2006) : Histoire des idées et politiques de population . Editions de l'institut national d'études démographiques.

## الهوامش:

لعصبية عند ابن خلدون: تجمع أفراد القبيلة الواحدة وتكاتفهم وتعاونهم.



## مجتمع المعلومات و فجوة المعرفة في المجتمعات النامية -مقاربة نسقية مفاهيمية-

أ.عبد الله ثاني محمد النذير<sup>(1)</sup> جامعة مستغانم

مقدمة:

مجتمع المعلومات مصطلح انتشر في الغرب وأمريكا أساسا وهو بمثابة استمرار للنظريات التي أفرزت مصطلحات المجتمع الصناعي وما بعد الصناعي، وكما هو واضح من "العنوان" ففي أساس التسمية تفاؤل تكنولوجي بالقدرة على حل كثير من المشكلات الاجتماعية المستعصية باستخدام المعلومات، عدا الجانب الوصفي الذي يقنن ويدشن انتشار "الحوسبة" و "الإعلامية" موضوعيا وتخللها النسيج الاجتماعي ككل .

وغالبا ما يلفت الانتباه التركيز على التجربة اليابانية التي تقدم كمثال متقدم على المجتمع المعلوماتي في اليابان، وهو برنامج طموح يهدف إلى خلق وتطوير بنية اجتماعية-معلوماتية متميزة تشمل الإنتاج والتوزيع والنقل والخدمات والإدارة والتعليم والمعيشة، وهذه البنية الاجتماعية-المعلوماتية تتخلل الشبكات التيليحاسوبية (télé) التيلي في اليونانية تعني بعيدا (البعد) بحيث يتمكن الناس عبرها من حل مشكلاتهم المهنية الخاصة بواسطة الاتصالات المباشرة، وهناك سياسة قومية في اليابان لخلق وإنشاء "صناعة المعارف" وكذلك مشروعات لإصلاح تطور الدولة الاجتماعي، والتي تشمل منظومات إعادة التأهيل القوة العاملة وإعادة توزيعها، بحيث يتحول المجتمع في مراحله العليا "ي-ماسودا"، وهو أحد قادة البرنامج المذكور - إلى مجتمع استهلاكي ومرفه من الدرجة الرفيعة، وبعد ذلك يجري حل كافة مشكلات الشخصية - حسب هذا الاعتقاد - ومتطلباتها في الإبداع والتحقق الذاتي عن طريق الاستخدام العالمي الكوكبي للمعلومات، إذن تعلق آمال كبيرة على "عولمة" و "تدويل" التوجهات المعلوماتية الجديدة - أي حصول "حوسبة" المجتمع و"إعلاميته" على نطاق كوكبي عالمي.

كما يرى الأستاذ معن النقري<sup>(2)</sup> بأن التقويم المتأني والشامل للثورة الجديدة في العلم والتكنولوجيا والأبعاد المختلفة للثورة الحاسوبية والمعلوماتية وتأثيراتها على المجتمع البشري ككل وعلى المجتمعات المتباينة فيه (يقصد الفجوة المعلوماتية)، ولاسيما المجتمعات النامية - كل ذلك يحتاج إلى وقفة خاصة ومتأملة، كما ترى الباحثة في الشؤون الإعلامية عواطف

عبد الرحمن بأن مشكلة الدول النامية في عدم اختيار التكنولوجيا الملائمة لإحتياجاتها ومواردها وخلفيتها الحضارية ، كما يدفعنا هذا إلى اكتشاف حقيقة أخرى هامة وهي أن المسؤولية تقع بالدرجة الأولى على المؤسسات العلمية التي تسهم في صنع القرار الخاص باستيراد التكنولوجيا<sup>(3)</sup> فمن خلال هذه الأفكار تتجلى الإشكالية المطروحة: مامدى نجاعة تكنولوجيايات الجديدة للإعلام والاتصال في معالجة إشكالية فجوة المعرفة في المجتمعات النامية؟ .

## 1. ظاهرة تفجر المعلومات :

كلما تطورت البشرية، وتعقدت أساليب الحياة تراكمت المعلومات، واتسع نطاق استخدامها، وبالتالي تزداد حاجتنا إلى المزيد من المعلومات التي تساعدنا في اتخاذ القرارات السليمة. فالمعلومات مورد لا ينضب، وعنصر لاغنى عنه لأي مجتمع ولأي فرد . وقد شهدت السنوات الماضية تفجرا هائلا في حجم المعلومات المتدفقة من مصادر عديدة، وصاحب ذلك حاجة متزايدة إلى تنظيم هذه المعلومات، وتخزينها بأساليب تتيح استرجاعها بأقصى سرعة، وفي أي مكان . ويعرض هذا الفصل لأهمية المعلومات، ومشكلة تفجر المعلومات، ومجتمع المعلومات والمسيطرين عليه في النصف الثاني من القرن العشرين.

### 1.1 مجتمع المعلومات: Information Society :

لم يظهر بعد تعريف لمفهوم مجتمع المعلومات بالمعني الشامل، إلا أن بعض الكتاب قدموا تعريفات مختلفة منها تعريف برانسكرامب حيث يعرفه بأنه «المجتمع الذي يرتبط بعمليات صنع، جمع، معالجة، اختزان واسترجاع المعلومات». أما رونفيلد فيعرفه بأنه «المجتمع الذي يتعامل غالبية مع الحواسيب وأنظمة الاتصالات الفضائية وشبكات المعلومات العالمية»<sup>(4)</sup>.

## 2.1 مفهوم مجتمع المعلومات :

يأتي مجتمع المعلومات بعد مراحل متعددة مر بها التاريخ الإنساني، وتميزت كل مرحلة بخصائص ومميزات، حيث شهدت الإنسانية من قبل، تكنولوجيا الصيد ثم تكنولوجيا



الزراعة، وبعدها تكنولوجيا المعلومات، التي رسمت الملامح الأولى لمجتمع المعلومات هذا الأخير تميز «بالتركيز على العمليات التي تعالج فيها المعلومات، والمادة الخام الأساسية به هي المعلومة، التي يتم استثمارها بحيث تولد المعرفة، معرفة جديدة. وهذا عكس المواد الأساسية في المجتمعات الأخرى، حيث تنضب بسبب الاستهلاك، أما في مجتمع المعلومات فالمعلومات تولد معلومات، مما يجعل مصادر المجتمع المعلوماتي متجددة ولا تنضب» الأمر الذي يفسر أهمية المعلومات، ومكانتها كأهم مادة أولية على الإطلاق وهو ما يجعل المجتمع الجديد يعتمد في تطوره بصورة أساسية على هذا المورد، وشبكات الاتصال والحواسيب، ويتميز بوجود سلع وخدمات معلوماتية لم تكن موجودة من قبل، إلى جانب اعتماده بصفة أساسية على التكنولوجيا «الفكرية» أي تعظيم شأن الفكر والعقل الإنساني بالحواسيب، والاتصال والذكاء الاصطناعي ونظم الخبرة.

ويقصد كذلك بالمجتمع المعلوماتي: إذا أردنا ان نتعرف إلى المجتمع المعلوماتي فلا بد لنا أن نتاول مواضيع عده من شأنها تسهيل الوصول إلى ماهية المجتمع المعلوماتي ولا بد من مقدمة شمولية تأتي لتعميم بعض المفاهيم والمصطلحات. باتت المعلومات هي المحرك الأول لكافة الأنشطة والعمليات وهي الأساس في المرجعية التي يبني عليها اتخاذ القرارات وعليه اهتمت كافة المؤسسات باقتناء مصادر المعلومات وحفظها واسترجاعها في الوقت المناسب، أدت الثورة المعلوماتية المحدثه اجراء لانتشار وسائل الاتصال الحديثة والتي جعلت من المجتمع مجتمعا معلوماتيا مفتوحا هذا الانفتاح العائد<sup>(5)</sup>.

#### 4.1. أهمية المعلومات:

تشكل المعلومات دورا حيويا في حياة الأفراد والمجتمعات، فهي عنصر لا غنى عنه في أي نشاط نمارسه، فهي المادة الخام للبحوث العلمية، والمحك الرئيسي لاتحاد القرارات الصحيحة، ومن يملك المعلومات الصحيحة، وفي الوقت المناسب، يملك عناصر القوة والسيطرة في عالم متغير يستند على العلم في كل شيء، ولا يسمح بالارتجال والعشوائية. ويذهب البعض عند تقييمه للمقومات الأساسية للإنتاج القومي وهي: المادة، والطاقة، والمعلومات إلى أن الأخيرة أصبحت تتبوأ المكانة الأولى من حيث الأهمية بل ذهب إلى أبعد من ذلك معلنا معدلات نمو الاقتصاد القومي ترتبط ارتباطا طرديا بكمية المعلومات التي يتم الإلمام بها، ويؤكد الكثير من علماء الاقتصاد على أن الوضع السيئ للاقتصاديات

معظم الدول النامية قد يزداد سوءا اذا ما استمر إهمال قطاع المعلومات فيها وإذا أيقنا أن المعلومات لا غنى عنها الآن في كل نواحي النشاط ، فإن مهمة متابعة المعلومات، والتحكم في إنتاجها المتزايد بصورة ضخمة، أصبح أمرا يكاد يكون مستحيلا، ومن ثم أصبح تفجر المعلومات مشكلة حقيقية تواجه البشرية<sup>(6)</sup>.

### 5.1. مشكلة تفجر المعلومات: Information explosion

يشير مصطلح تفجر المعلومات إلى اتساع المجال الذي تعمل فيه المعلومات ليشمل كافة مجالات النشاط الإنساني، بحيث تحول إنتاج المعلومات إلى صناعة أصبح لها سوق كبير لا يختلف كثيرا عن أسواق البترول الذهب، وقد يزيد ما ينفق على إنتاج المعلومات – على المستوى الدولي – عما ينفق على الكثير من السلع الإستراتيجية المعروفة في العالم<sup>(7)</sup>. وتتخذ مشكلة تفجر المعلومات مظاهر عديدة أهمها :

#### 1.5.1 النمو الهائل في حجم الإنتاج الفكري :

هناك من يرى أن معدل النمو السنوي للإنتاج الفكري يتراوح ما بين 4٪-8٪ وحتى يمكننا أن نقدم صورة سريعة لخلفية هذه الأزمة نعرض مثالا لدورية واحدة وفروع الكيمياء وهي التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، وتغطي هذه الدورية معظم ما ينشر من الدوريات العلمية الهامة في مجال الكيمياء فقط، فقد صدرت هذه الدورة عام 1908، واستكملت المليون بحث الأولى بعد واحد وثلاثين سنة. ثم رصدت المليون بحث الثانية في ثماني عشرة سنة، ورصدت المليون بحث الثالثة في سبع سنوات، وبصورة عامة فإن كمية المعلومات تتضاعف كل إثنتي عشرة سنة، وقد تطور حجم الإنتاج الفكري المنشور في الدوريات-وهي واحدة فقط من أشكال عديدة للنشر – من حوالي مائة دورية في عام 1800 إلى أكثر من 70 ألف دورية في عقد الثمانينات<sup>(8)</sup>.

#### 2.5.1 تشتت الإنتاج الفكري :

كان للتخصص الزائد في الموضوعات العلمية أثره واضح في بزوغ فروع جديدة أخذت أصولها من أفرع مختلفة، ومن الأمثلة على ذلك الهندسة الطبية، والكيمياء الحيوية. وهناك ملاحظة أخرى مؤداها أن الباحثين يميلون إلى دراسة موضوعات ضيقة غاية الضيق، و نتيجة هي أنه كلما ازداد الباحثون تخصصا، وكبر حجم الإنتاج الفكري المنشور، قلت فاعلية الدوريات التي تعمل على تغطية قطاعات عريضة أو مجالات واسعة، وبالتالي يكون

من الصعب على الباحث متابعة كل هذا الإنتاج الفكري والإلمام به من مصادره الأولية. وتشير الإحصاءات إلى أن الإنتاج السنوي من المعلومات مقدر بعدد الوثائق المنشورة يصل ما بين 12-14 مليون وثيقة، وأن عدد الأشخاص الذين يساهمون في هذا الإنتاج بشكل أو بآخر يتراوح ما بين 30-35 مليون دورية، يضاف إليها كل عام ما يقارب من 15 ألف دورية جديدة، أما الكتب فقد بلغ الإنتاج الدولي منها حوالي 600 ألف عون، أي بمعدل 1650 كتابا في اليوم، أو 70 كتابا في الساعة<sup>(9)</sup>.

### 3.5.1 تنوع مصادر المعلومات وتعدد أشكالها :

هناك مصادر عديدة للمعلومات منها الدوريات، والكتب، وتقارير البحوث، والبيانات، والأوراق المقدمة إلى الندوات والمؤتمرات، والرسائل الجامعية، وبراءات الاختراع، والمعايير الموحدة، والمواصفات القياسية، وكذلك النشر المصغر وهو ما يعني إما إعادة تسجيل النصوص المكتوبة على هيئة كتب ودوريات في شكل مصغر، أو تسجيلات معلومات جديدة في شكل مصغر مباشرة مثل الميكرو فيلم، والميكرو فيش، والأفلام، والشرائح، والأشرطة، والأقراص، وغيرها.

وقد حقق استخدام الميكرو فيلم وحده في مراكز المعلومات الإعلامية وفرا يصل إلى ما بين 95-99.5٪ من الحيز المطلوب لحفظ المعلومات، كما أدت طفرة الهائلة في إنتاج المعلومات إلى طفرة مشابهة في مجال تخزين المعلومات واسترجاعها، كما استخدم الحاسب الإلكتروني في تحقيق التوحيد القياسي لمقاسات صور الوثائق بعد فترة من المعانات بسبب تباين أحجامها، واختلاف أشكالها، وقد انخفضت كلفة تخزين المعلومات بما يقرب من 20 ٪ خلال الخمسة عشرة عاما الأخيرة، كما ارتفعت سرعة استرجاع المعلومات قرابة 10 ٪ في السنة الواحدة.

علاوة على ذلك هناك كم هائل من المعلومات التي تبثها وسائل الاتصال الجماهيري، وتشير إحصاءات اليونسكو إلى أن ما بين 200-250 شخصا من كل ألف من سكان العامل يصلهم توزيع الصحف اليومية، فضلا عن استقبال خدمات الراديو وتلفزيون، وهناك 30 دولة في العالم وصلت إلى نقطة التشبع في مجال الصحف، 38 دولة وصلت إلى نقطة التشبع في مجال خدمات الراديو، و22 دولة وصلت إلى نقطة التشبع في مجال خدمات التلفزيون.

ومن ناحية أخرى يوجد بدول العالم المختلفة 116 مكتبة قومية يبلغ رصيدها من المجلدات حوالي 160 مليون مجلد ، كما يوجد ما يقرب من 120 وكالة أنباء دولية ووطنية تعمل في مجال المعلومات والأخبار، وتبث يوميا أكثر من نصف مليون خبر ومعلومة، ربعها على الأقل مسجل بالصوت والصورة .

كذلك توفر الأقمار الصناعية كما كبيرا ومتنوعا من المعلومات التي تفيد في التنمية بشكل مباشر، والتي بدونها لا تستطيع أية دولة نامية أن تخطط على نحو فعال لبرامجها التنموية المختلفة. وتكمن خطورة هذه المشكلة في معاملة المعلومات كسلعة قابلة للبيع والشراء ، وخاضعة لقانون العرض والطلب، وغالبا ما تتاح هذه المعلومات بسهولة للشركات التابعة للدول المتقدمة ، وتحجب المعلومات الهامة عن الدول النامية، ولاشك أن المعلومات ليست سلعة كبقية السلع المادية، وإنما هي سلعة غير مادية، ذات قيمة رفيعة تقدر على أساس معايير تنموية واجتماعية وثقافية ، وليس بناءا على معايير الربحية<sup>(10)</sup>.

#### 6.1 ماهية وخصائص وأهداف مجتمع المعلومات:

إن المفاهيم تعددت فعلا بتعدد الأطراف المعنية والثقافات وكذلك المصالح، مما أدى إلى أن يكون من أهداف القمة العالمية لمجتمع المعلومات الاتفاق على مفهوم موحد، على المستوى العالمي، لمهية مجتمع المعلومات وعلى تمشيات متناغمة في إرسائه من خلال تطوير المقاربات السياسية والتنظيمية والشبكات والخدمات في مختلف بلدان العالم . ولما كانت الثقافة الاتصالية اليوم من أهم ركائز المجتمع الدولي، فإن اعتماد بعض المبادئ الهامة والضرورية لمعالجة موضوعية لمسألة إنشاء وتطوير مجتمع الاتصال والمعلومات في الوطن العربي يغدو أمرا ضروريا. ويمكن معرفة أهم هذه المبادئ فيما يلي .

\* ضرورة توفر وعي موحد على المستوى البلدان ، بالرهانات الجديدة التي سيواجهها نتيجة المفاهيم الجديدة المقترنة بعولمة الاقتصاد .

\* ضرورة اعتماد استراتيجيات تتماشى في توجهاتها وبرمجتها الزمنية مع النسق العام لتطور مجتمع الاتصال والمعلومات على الصعيد الدولي .

\* حتمية تكامل وتشابك مختلف المحاور – الهيكلية والتكنولوجية و الثقافية والاقتصادية والاجتماعية – في تطوير مجتمع الاتصال والمعلومات، مما يستدعي التشاور الواسع النطاق وفي مختلف الميادين ذات الصلة بين كافة المتدخلين من القطاعين العام والخاص ومن كافة

مكونات المجتمع المدني عموماً.

\* ضرورة تحول العالم الثالث من مجرد مستهلك للعولمة إلى طرف فاعل من أطراف المجتمع المعلومات وذلك من أجل تحقيق التنمية الشاملة والمندمجة والمستديمة .

\* ضرورة استثمار فيض المعلومات التي يزخر بها العالم الثالث في الموازنات العالمية<sup>(11)</sup>.

#### 7.1. مجتمع المعلومات والمسيطر عليه:

ظهر نتيجة تعدد بداية ما يسميه البعض – مجتمع المعلومات – **information society** التسهيلات الجديدة والشبكات المتخصصة، فخلال عقد الخمسينات دخل الحاسب الإلكتروني مراكز البحوث والجامعات، ثم امتد إلى مجالات التجارة والصناعة، وأصبح الحاسب لإلكتروني أداة فعالة لعمل الحسابات المعقدة. وخلال عقد الستينيات زاد الاعتماد على الحاسب الإلكتروني أكثر وأكثر في أداء الوظائف التجارية، وظهرت الحاجة لعمل –منافذ – للمعالجات المركزية، وتبادل المعلومات، كما أمكن تحويل الإشارات data communication. ونتج عن كل ذلك تطور اتصال البيانات لإتاحة استخدام أفضل لشبكات الهاتف. من إشارات رقمية signal analog إلى إشارات تماثلية Digital signals.

ومن خلال عقد السبعينات استمر التقدم في مجال الحاسب الإلكتروني، ووسائل الإتصال، وقد أسفر ذلك عن ظهور خدمات semiconductor، وتكنولوجيا المواد شبه الموصلية للحرارة عديدة لنقل المعلومات مثل البريد الإلكتروني، والخدمات التليفزيونية التي تتيح استرجاع المعلومات مثل التليتكست، والفيوداتا، والصوت، والفيديو، والمؤتمرات عن بعد، وقد أحدثت هذه التطورات، والمنازل المتصلة بشبكات سلكية<sup>(12)</sup>.

مفاهيم جديدة مثل المكاتب التي تدار ذاتياً offices automated. كل ذلك جعلنا نعيش في عصر المعلومات، فالطفل الذي يولد في منزل Wired households مزود بالحاسب الإلكتروني هو طفل مجتمع المعلومات، أما الطفل الذي ينشأ في منزل بدون الحاسب الإلكتروني فهو طفل فقير في المعلومات<sup>(13)</sup>.

وبدل ذلك على مدى تركيز السلطة والهيمنة في الدول الصناعية المتقدمة، بل وفي عدد قليل من هذه الدول نتيجة لسيطرتها على المعلومات، وعلى وسائل إنتاجها ومعالجتها وتخزينها واسترجاعها، ويتم ذلك بسرعة هائلة وعلى نطاق شاسع مما أدى إلى وجود قلة منتجة وكثيرة مستهلكة، صفوة مهيمنة وأغلبية مهورة، جماعة تزداد غنى وسيطرة، وجماعات تزداد فقراً وتبعية<sup>(14)</sup>.

## 2. مجتمع المعلومات والفجوة الرقمية

### 1.2. الفجوة الرقمية

تكمن خطورة الفجوة الرقمية في أن حيازة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكلها الحديث وحيازة المهارات التي يتطلبها التعامل معها يمكن أن تعطي أفضلية اجتماعية واقتصادية للحائزين عليها على من لا يحوزها، سواء كانوا دولاً أو مؤسسات أو مواطنين، وقد تعني هذه الأفضلية بالنسبة للأفراد الفرق بين الفقر والرفاهية وبالنسبة للدول أو المجتمعات النجاح في الانضمام للاقتصاد العالمي الجديد أو الانعزال عنه.

في السنوات 1970-1980، كانت الدول الصناعية الكبرى لها الشرعية في مساعدة دول الجنوب في تطور ميدان الاتصال لاستغلاله في المكان الأول لتعزيز الإدارة الاستبدادية في الجنوب و للسماح للآلة الدعائية والإيديولوجية السياسية تعمل، وفي وقت مبكر للألفية الثالثة، هذه المساعدة قبل أن تعطى للأفراد والنساء للتعامل مع المعلومات والمعرفة، ولكن حجم الفجوة الرقمية هو أنه يتطلب تخفيض بذل جهد هائل من الفن من البلدان الصناعية فاق التوقعات ، كما يدعو لإقامة شراكة جديدة حول هدف مشترك، في السياسية الاقتصادية والاجتماعية في الشمال والجنوب. وهي وبهذه الطريقة يمكننا تجنب الهامش في أقلية متميزة ، "معلومات غنية" ، أو أن تطرح الملايين من الناس استبعدت من العالم السيبري إلى مجتمع متعطش للمعلومة<sup>(15)</sup>.

### 1.2. مجتمع المعلومات خلال الفجوة الرقمية.

إن أولى الأسس التي من شأنها تمكين العالم الثالث من استخدام تكنولوجيات الاتصال والمعلومات استخدام تكنولوجيات الاتصال والمعلومات استخداماً أمثل هي تحديد ما يريده العالم الثالث في هذا المضمار، وبمعرفة أهدافه في هذا المجال، يستطيع أن يضع سياسات وخطط وأن يسن التشريعات الكفيلة بصيانة وضمان تنفيذ الإستراتيجيات .

ولعله من المفيد التوقف عند الأفاق المحتملة للمستقبل العربي من خلال إرساء مجتمع الاتصال والمعلومات.

فقد حطمت تكنولوجيات المعلومات المكان والحواجز المصطنعة وأصبح بالإمكان تبادل السلع والخدمات وتقديم الاستشارات بين البلدان العالم الثالث دون الحاجة إلى الانتقال الفعلي، والأهم من ذلك أن ينمي إحساس مواطنيه بكونهم مواطنين عالميين مساهمين في

## إثراء الحضارة الإنسانية .

وتكمن شروط ذلك في المعرفة بواقع العصر وإيقاعاته الفكرية والتقنية والثقافية، ومشكلاته وفي وضع السياسات الواعية الناتجة عن المعرفة بالواقعين الدولي والعربي، حتى يواكب المواطن التطور التكنولوجي ويساهم في إثراء الثقافة الإنسانية.

وبالرغم من عدم وجود تصورات محددة عما سيحدث في العالم الثالث وفي العالم حول : نتائج التطور المتسارع والمذهل لتكنولوجيات الاتصال، إلا أنه يمكن، بناء على تجارب الماضي والحاضر، القول بأن هناك خيارات عديدة سيتوفر للمواطن كجزء من النسيج الإنساني باعتبار أن طرق كسب العيش والاستثمار، والبيع والشراء، والحياة الأسرية، ومكان العمل، وأساليب التعليم والتعلم ستتغير<sup>(16)</sup> .

### 2.2. عصر المعرفة

إذا كانت عملية إنتاج المعرفة تعتمد على وجود المعلومات بصورة وافرة، وإذا كانت عملية الاستقراء تعني التجريب والجانب الملموس أكثر من أي شيء آخر، فإن الملاحظة الهامة هي أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن تلخيصها كما يتم تلخيص الظواهر الطبيعية ، فالنشاط السياسي مثلاً يعتمد على الإنسان وكيفية إدارة شئونه .ولذا فإن المفكرين يطرحون مفهوم الإدارة المعرفية للشئون الإنسانية والتي تعتمد على الجوانب الثقافية والمؤثرات لسلوكية على الإنسان، بمعنى آخر أنها تتعامل مع الذكاء الاجتماعي، الذي يتكون من مجموعة إنسانية تتعامل مع بعضها الآخر وتشارك في إدارة شئونها عبر وسائل إنسانية لائقة (...) كما أن الرموز التي تتحول إلى معلومات عبر المشاهدة والتحليل وعبر الخبرة المتراكمة، جميعها مؤشرات لوجود المعرفة العملية، والمعرفة يمكن تلخيص كثير منها في معادلات وقوانين وهذه هي المعرفة الظاهرية التي يمكن نقلها دون مشكلة، ولكن المعرفة الأهم هي التي يستنبطها الإنسان، وهي غير قابلة للكتابة أو التوثيق، هذه المعرفة هي خبرة داخل الممارسة الإنسانية لكل واحد منا، ولا وسيلة لاكتسابها أو الاستفادة منها إلا بالتعامل مع بعضها الآخر<sup>(17)</sup> .

### 3. رهانات مجتمع المعلومات .

#### 1.3. مجتمع المعرفة

صدر تقرير لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة اليونسكو في عام 2005 بعنوان (من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة)، وقد ورد فيه تحت عنوان: (لا يمكن اختزال مجتمعات المعرفة إلى مجتمع معلومات): لا ينبغي لبروز مجتمع عالمي للمعلومات، باعتباره ثمرة لثورة التكنولوجيات الجديدة، أن ينسبنا أنه لا يصلح إلا وسيلة لتحقيق مجتمع حقيقي للمعرفة، فازدهار الشبكات لا يمكن له وحده، أن يقيم قواعد المعرفة. لأنه إذا كانت المعلومات فعلا وسيلة للمعرفة، فليست هي المعرفة<sup>(18)</sup>.

#### 1.1.3. خصائص مجتمع المعرفة

تتميز مجتمعات المعرفة أن المعرفة تشكل أهم المكونات التي يتضمنها أي عمل أو نشاط، وخاصة فيما يتصل بالاقتصاد والمجتمع والثقافة، وكافة الأنشطة الإنسانية الأخرى التي أصبحت معتمدة على توافر كم كبير من المعرفة والمعلومات، ويتسم مجتمع المعرفة أو اقتصاد المعرفة بكون المعرفة لديه من أهم المنتجات أو المواد الخام. وليست مجتمعات المعرفة أمرا حديثا، فإنه على سبيل المثال كان الصيادون يتقاسمون المعرفة منذ زمن بعيد بشأن التنبؤ بالطقس وذلك في إطار المجتمعات المحلية التي يعيشون بها، ويتم إضافة المزيد باستمرار إلى هذه المعرفة التي تعد جزءا من رأس مال هذه المجتمعات. الأمر الذي جد حديثا هو أنه:

- بفضل التكنولوجيات الحديثة، لم يعد ضروريا التقيد بالتواجد في نفس المكان الجغرافي.
- تسمح التكنولوجيا المتاحة حاليا المزيد والمزيد من الإمكانات لتقاسم المعرفة وحفظها واستعادتها.
- أصبحت المعرفة من أهم مكونات رأس المال في العصر الحالي، وأصبح تقدم أي مجتمع مرتبطا أساسا بالقدرة على استخدامها.



### 2.1.3. ازدیاد أهمية مجتمع المعرفة وارتباطه بالمجتمع ككل.

يتشكل كل مجتمع حسب مجموعة من المفاهيم المشتركة، وقد أدت العولمة وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات إلى تكوين مجتمع عالمي يتمتع بمعرفة مشتركة حول كل الموضوعات والإمكانيات. ولقد كانت الموارد المادية والعمليات التحويلية الخاصة بها (أي الموارد الاقتصادية) هي الأساس الذي قام عليه النمو الاقتصادي، فيما كانت هناك أمور مثل الموسيقى والفن وامتزاج الثقافات (أي الموارد الثقافية) هي العوامل التي دفعت على النمو في المجتمع بأسره، ومع وصول المجتمع إلى مرحلة النضج أصبحت هذه المعرفة متاحة في الوثائق والقوانين المكتوبة والقوانين غير المكتوبة وآراء الناس ومعتقداتهم والكلمات التي يستخدمونها في كل لغة وما إلى ذلك، وكما هو الحال من حيث غياب التوزيع العادل للموارد المادية والاقتصادية مما أحدث نوعاً من عدم المساواة بداخل المجتمع، فقد أدى عدم توزيع وإتاحة وتقاسم المعرفة بشكل متساو إلى إعاقة التنمية. وتدرك مجتمعات المعرفة أهمية وجود المعرفة وبنائها وتقاسمها وتوزيعها بشكل ملائم من أجل تنمية المجتمع.

#### 1.2.1.3 فجوة المعرفة:

ظهرت هذه النظرية بعد رصد نتائج بحوث عديدة أشارت إلى أن قطاعات الجمهور المختلفة تحظى بقدر متوازن في الحصول على المعلومات المتدفقة من وسائل الاتصال الحديثة. وتعتمد هذه النظرية على الفرض التالي: « يؤدي تدفق المعلومات من وسائل الإعلام داخل النظام الاجتماعي إلى جعل فئات الجمهور ذوي المستوى الاقتصادي الاجتماعي المرتفع يكتسبون هذه المعلومات بمعدلات أسرع من الفئات ذوي المستوى الاقتصادي الاجتماعي المنخفض، وبالتالي تتجه فجوة المعرفة بين فئات الجمهور المختلفة إلى الزيادة بدلاً من النقصان (Tichnor, Donohu & Olien 1970). ويؤكد هذا الفرض على أن الفئات ذات المستوى الاجتماعي الاقتصادي المنخفض لا تظل فقيرة في المعلومات ه عام، ولكنها تكتسب معلومات أقل نسبياً من الفئات الأعلى في المستوى الاجتماعي الاقتصادي.

وقد أيدت بحوث عديدة صحة هذه الفرضية في الولايات المتحدة، وأوروبا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط.... حيث أشارت إلى أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية هي المحدد الرئيسي لاكتساب الجمهور للمعرفة. كما أنه حالياً يتم تطبيق نظرية

فجوة المعرفة على مستويين رئيسيين:

- 1- **المستوى الفردي الضيق:** micro level ويتضمن اكتساب الفرد للمعرفة من وسائل الاتصال، ويتحكم في ذلك: الفروق الفردية، ومهارات الإتصال، والقدرة المعرفية ، ومستوى الاهتمام، وغيرها من العوامل الفردية.
- 2- **المستوى المجتمعي الأشمل:** macro level ويشمل طبيعة البناء الاجتماعي والمتغيرات المرتبطة بالمجتمع مثل: أساليب نشر المعلومات وتوزيعها، ووسائل الإتصال المتاحة، وطبيعة الصراع الاجتماعي، وملكية وسائل الإعلام وطرق تمويلها وتشغيلها (Tichnor,Donohu &Olien1970) <sup>(19)</sup>

كما أدلى الباحث سلمان رشيد سلمان بأنه لا شك أن الفجوة التكنولوجية و الإقتصادية قد خلقت ما يسمى بدول المركز، وهي الدول المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا، والتي تهيمن على دول المحيط، والتي تمثلها دول العالم الفقيرة والمفتقرة إلى بنية علمية وتكنولوجية والمثقلة بالدين، ولقد تحولت التبعية مابين المركز والمحيط من تبعية سياسية إلى تبعية اقتصادية، أما الآن فإن دول المحيط تتبع المركز معرفيا، مما يزيد من التبعية الإقتصادية والسياسية للدول النامية وتبعيةها المستمرة للمركز الذي تمثله الدول المتقدمة. لقد تفاقمت هذه التبعية خصوصا في مجال المعلومات ، حيث إنها تخلق وترسل باتجاه واحد، وهو من المركز إلى المحيط <sup>(20)</sup>.

### 3.1.3. مبدأ الحرية والمجانية لدى مجتمع المعرفة

1. المعرفة بطبيعتها حرة ومجانية.
2. يجب أن تظل المعرفة مجانية من أجل صالح المجتمع.
3. يجب أن تظل المعرفة مجانية من أجل تحقيق المزيد من التطور لهذه المعرفة وبلورتها.
4. يجب مناقشة وجهة النظر التي تقول بأن تحرير المعرفة أو جعلها مجانية سوف يقتل الحافز.

أمثلة على مجموعات يمكنها أن تنمو لتصبح من بين مجتمعات المعرفة  
الأفراد العاملون بنفس المجال.

- المعلمون الذين يقومون بتدريس ذات المادة .
  - الجماهير المحبة لنفس الفرقة الموسيقية .
  - الفنانون ذوي الاهتمامات المتقاربة .
- أفراد من تخصصات مختلفة.
- المهندسين الذين يتحدثون مع العلماء بشأن موضوع علمي متصل بمشروعهم الهندسي.
  - الباحثين من مختلف المجالات الذين يناقشون مشكلة بحثية مشتركة .
  - المتصوفين ورجال الدين في حوارهم مع العلماء .

#### 4.1.5 البنية التحتية

يتطلب مجتمع المعرفة بنية تحتية تضم ما يلي:

1. بنية تحتية مادية: مثل قاعات الاجتماعات ولوحات المناقشة.
2. بنية تحتية تكنولوجية: مثل تقنيات تقاسم المعلومات والقوائم البريدية الإلكترونية والبوابات السيبرانية (القائمة على الإنترنت)، وصفحات الويكي وحجرات المحادثة وعقد المؤتمرات المرئية (فيديو كونفرانس) والاجتماعات التخيلية الافتراضية، وبيئات التطوير من خلال التعاون، والتعلم عن بعد<sup>(21)</sup>.

ومن بين مسائل مجتمع المعرفة هي :

- مسألة الفردانية .

«...يخدم الفرد تعبير المجموعة في معظمها، ما هو دائما ايجابي. إعطاء قوات جديدة إلى الهوية، الجمعيات، والمجموعات ضد مشجعين -- الثقافة إنها ليست ضد الديمقراطية-- . واحدة من النتائج الأولى لعلم الاجتماع التاريخي من وسائل الإعلام ، التي أعدها روبرت بارك ، هو أن مجموعة الأقليات التي تستخدم مختلف وسائل الإعلام على حد سواء للدفاع

عن هويتهم والمساعدة على تحقيق اندماجهم الجماعي. بالمصالح الخصوصية الجزئية التي تستنفد نفسها استنفدا مجيريا لا يحصى من المواقع التي لا ينظر إليها في شبكة الانترنت وربما ليست مدينة فاضلة ولكنها تدرك إنها لا تعمل على تقويض التغيرات الاجتماعية في حديثه على كل حال ، وهي مجرد وسائل الإعلام...»<sup>(22)</sup>.

#### - الديمقراطية الالكترونية.

##### خاتمة :

في أقل من عقدين من الزمان شهد العالم تغيراً تكنولوجياً شاملاً في المجالات الاقتصادية، السياسية والثقافية. وقد وصفت رياح التغيير هذه بثورة المعلومات، أو الثورة الثانية بعد الثورة الصناعية. وشعار هذه الثورة هو الحاسوب أو العقل الالكتروني كما كان يصور في أفلام الخيال العلمي. هذا الجهاز استطاع إعادة ترتيب أنشطة المؤسسات السياسية، الاجتماعية، الثقافية، المصانع، الاتصالات، أجهزة الإعلام وعمليات معالجة اختزان واسترجاع المعلومات.

لكن مع ظهور مجتمع المعلومات وتجلياته على المجتمعات، فقد ظهرت هناك فروق فردية وجماعية وحدث تغير في المجتمع من الناحية السلوكية، فتغيرت سلوكيات الأفراد والجماعات، وتم ذلك في المجتمعات المعلوماتية والمعرفية لأن هناك مجتمعات مازالت بدائية في تعاملتها، فنتج في العالم فجوة رقمية ومعرفية ما بين الدول الصناعية الكبرى والدول العالم الثالث، فالرهانات الكبرى لمجتمع المعلومات تجلت في الفردانية والديمقراطية الإلكترونية، فأصبحت هناك مرونة في وصول المعلومة عن طريق الطرق السيارة للمعلومات، فأصبح الإنسان سيبورغي بمعنى الكلمة، أي إنسان نصف آلي يتعايش ويتعامل مع الآلة في جل أوقاته فانعكس ذلك على حياته بتبني سلوكيات جديدة في نمط عيش فريد من نوعه وغير ذلك من الأمور، بيد أنه يعيش في مجتمع تغذيه المعلومة، واقتصاده مبني على المعلومة، وبالتالي هل هذا النمط من المعيشة سيستثمره الفرد ويستغله استغلال مذهب في صالحه وفي صالح المجتمع ويحول المعلومة إلى معرفة والمحيط الذي حوله أم ينهمك في سلبياته وأثاره الوخيمة كتبذير في الجهد والوقت والمال ؟

والخلاصة كما يرى الباحث المغربي يحيى اليحياوي بأن «التوترات بين إمكانات تكنولوجيا الإعلام والاتصال وتكريس الوصول الديمقراطي إلى المعرفة لا يمكن إلا أن تتعمق وتزداد

بحكم غياب الديمقراطية، ورفض التعددية والرأي الآخر، وهيمنة الهاجس الأمني المتخوف من كل جديد، وتهميش البحث العلمي، وتكريس قيم النخبوية في الإستفادة من المستجدات التكنولوجية»<sup>(23)</sup>.

<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>  
<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>  
<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>  
<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>  
<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>  
<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=11432>

## قائمة المراجع

- 1- / أستاذ مساعد بقسم علوم الإعلام والاتصال (جامعة مستغانم) .
- 2- / معن النكري ، المعلوماتية والمجتمع ( مجتمع مابعد الصناعة ومجتمع المعلومات ) ، ط1، بيروت ، لبنان ، المركز الثقافي العربي، 2001، ص 175-177.
- 3 / -عواطف عبد الرحمن ، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، ط1، القاهرة، مصر، دار الفكر العربي، 1997، ص6.
- 4 <http://ar.wikipedia.org/wiki/> .27/07/2008 .heure, 14 :00 h
- 5 <http://ar.wikipedia.org/wiki/> 28/07/2008 .heure,12 :00 h
- 6 / حسن عماد مكاي، تكنولوجيا الاتصال الحديثة في عصر المعلومات ، ط1 ، الدار المصرية اللبنانية للنشر ، 2003 ، القاهرة ، ص28-ص29
- 7 / فاروق أبو زيد ، انهيار النظام الإعلامي الدولي من السيطرة الثنائية إلى هيمنة لقطب الواحد5 القاهرة : مطابع أخبار اليوم ، طبعو أولى ، 1991 ص 13 .
- 8 / أحمد بدر، المدخل إلى علم المعلومات والمكتبات، ط1، الرياض : دار المريخ للنشر ، 1985

- ص 81-82 .

9/ محمد فتحي عبد الهادي، مقدمة في علم المعلومات، ط1، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية 1948 ، ص ص 19-22.

10/ - شون ماكبرايد وآخرون ، أصوات متعددة وعالم واحد ، الاتصال والمجتمع اليوم وغد ، تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال - الجزائر : الشركة لوطنية للنشر والتوزيع ، 1981 - ص ص 326-327.

11/- طارق محمود عباس ، مجتمع المعلومات الرقمي ، ط1 ، المركز الأصيل للطبع والنشر والتوزيع ، مصر ، 2004 ، ص ص 110-111.

، مرجع سابق ، ص 32. 12. /- حسن عماد مكايي

13/- نفس المرجع السابق ، ص 33

14/- حمدي قنديل ، اتصالات الفضاء ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1985 ، ص 37

15/- Allain modoux , les défis de cybermonde , la fracture numérique peut- conduire à la création ...,les presse de l'université laval ,québec ,canada ,p209

16/- محمد فتحي عبد الهادي ، المعلومات وتكنولوجيا المعلومات على أعتاب قرن جديد ، ط1، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية / ، 2002 ، ص 55

17/- غالب عوض النوايسة ، خدمات المستفيدين في المكتبات ومراكز المعلومات ، ط1، عمان ، دار الصفا للنشر والتوزيع / ، 2000 ، ص 142.

18/- طارق محمود عباس، مرجع سابق، ص 143.

19/- حسن عماد مكايي، ليلي حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، ط7، دار المصرية اللبنانية، لبنان، 2008، ص ص 339-340.

20/- سلمان رشيد سلمان، البعد الإستراتيجي للمعرفة ، ط1، مركز الخليج للأبحاث، الإمارات العربية المتحدة، 2004، ص 152.

21 <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%,30/08/08>. 18:00h

22 ERIC MAIGRET , sociologie de la communication et des médias , Armand colin/paris,2003,p266,267

23/- يحيى اليحيوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة- مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة -، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2002، ص 179 .

## إشكالية التنمية المحلية في الجزائر: بين أبوية الدولة و زبائية المجتمع .

د . قدوسي محمد

تعتبر مشكلة التنمية, من أهم القضايا التي تواجه مجتمعات العالم الثالث . و خاصة المجتمعات التي تعيش مشكلة صعوبة ايجاد توازن بين حجم السكان والموارد المتاحة لسد احتياجات ابنائها . او باعتبارها , كذلك مجتمعات ريعية ترتكز على مصدر واحد في تلبية احتياجاتها .1

التنمية بشكل عام هي تغيير نوعي في المجتمع لتحقيق رفاه المجتمع و الفرد من جيل الى جيل .

من أجل توسيع خياراته في الصحة و التعليم و الدخل و توسيع حرياته و فرص مشاركته الفعالة في المجتمع .2

و هذه الاخيرة لا تستطيع ان تتحقق , في نظر المتبعين و المختصين , إلا وفق إرادة حقيقية للدولة و المجتمع بالنهوض و محاولة خلق نقلة نوعية في شتى الميادين .  
فالتنمية المحلية في الأخير ما هي إلا محصلة للتفاعلات الرسمية و الغير رسمية . بين عدد من الفاعلين من دولة والمنظمات الغير حكومية و القطاع الخاص على المستوى المحلي ( البلدية ) .3

إذ نجد أن السمة المشتركة بين البلدان التي حققت مثل هذا التغيير، هي وجود دولة قوية مبادرة من جهة ، و مجتمع مدني مهيكّل من جهة ثانية .

و لذا عرفت التنمية المحلية ، بأنها العملية التي بواسطتها يمكن تحقيق التعاون الفعال بين جهود المواطنين و جهود السلطات العمومية . من اجل رفع مستويات المجتمعات المحلية ، اقتصاديا ، اجتماعيا و ثقافيا .....

فإذا كانت جهود الدولة تمثل عاملا مهما لتحقيق التنمية المحلية ، فان الجهود المحلية الذاتية من خلال المنتجين المحليين و المشاركة للمواطنين لا تقل أهمية عن ذلك .

في الجزائر بروز في الآونة الأخيرة سياسة تنموية ، و لو خصوصا على مستوى الخطاب الرسمي . و ما تركز سياسة المجلس الوطني الاقتصادي و الاجتماعي ( CNES ) ، على هذه

المسألة إلا دليل على ذلك 4. إذ جاء في مقدمة التقرير الثامن الذي قدمه إثناء فتحه لحوار وطني مع الشركاء الاجتماعيين بداية من سنة 2011: «...يتميز السياق الجديد في الجزائر بتحسين الوضع الأمني و عودة النمو الاقتصادي و الأفاق المشجعة لتعزيزه سيما في إطار المخطط الخماسي ( 2010-2014 ) . الذي يعتمد على تحديث المنشآت القاعدية و تحسين مستوى التشغيل و السكن و الظروف الاجتماعية للسكان ، حيث خصص هذا البرنامج مبلغ مالي قدره 286 مليار دولار ....»

إلا أننا نجد في نفس التقرير التركيز على النقائص الرهانات التي يجب رفعها بقوله : « غير أن هذا السياق المشجع تعثره العديد من العراقيل المتعلقة أساسا بالتبعية الشديدة للمحروقات ، و بالعديد من النقائص جراء استفحال الاقتصاد الموازي و الارتفاع المستمر للطلب الاجتماعي و اختلال التوازن بين الريف و المدينة .....» 5. لكن رغم مرور أكثر من سنة و نصف على رفع التقرير النهائي للمجلس الوطني الاقتصادي و الاجتماعي، بعد إنهاء سلسلة حواراته الوطنية، إلى اعلي سلطة في البلاد ( رئاسة الجمهورية ) . إلا أن الواقع السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي المحلي ، يوحى للملاحظ من أول وهلة افتقار البلديات لنظرة إستراتيجية تنموية واضحة ، إذ مازال : - حصر عملية التنمية على شقها الاقتصادي المحض .بدون الإشارة إلى أبعادها المختلفة الاجتماعية و السياسية.1

- الاعتماد في الدخل البلدي على عنصر واحد ووحيد . هو ميزانية الدولة ، المستمدة بدورها من عائدات الربع 2.

- ثقل الجانب الإداري الذي لا يتسم بالمرونة و عدم تجاوبه مع التحديات المفروضة .

- استقالة الفاعل السياسي المحلي عن الفضاء العام ، والمكون من المجلس البلدي ورئيسه .

- لا مبالاة العنصر الاجتماعي، الممثل سواء في القبيلة أو الجمعية...بالشأن العام .

مما يصعب من فهم إشكالية التنمية المحلية الحقيقية ، فهذه الأخيرة تتطلب خلق خاصة الشروط السياسية و الاجتماعية، التي تجعل تحقيقها ممكنا. كما أكدت ذلك العديد من الوثائق الرسمية التي صدرت مثلا عن وكالات التنمية التابعة للأمم المتحدة.6

والتي غالبا ما تركز على الخصائص الهامة لعملية التنمية بصفة عامة و التنمية المحلية



بصفة خاصة . و منها :

- التنمية هي عملية و ليست حالة ، و بالتالي فإنها مستمرة و متصاعدة تعبيراً عن احتياجات المجتمع و تزايدها .
- التنمية هي عملية مجتمعية يجب أن تساهم فيها كل الفئات و القطاعات و الجماعات في المجتمع .
- التقرير الذي ضرر في 31 جويلية 2008 .
- التنمية هي عملية واعية ، إذا هي ليست عملية عشوائية بل محددة الغايات و الأهداف .

- بناء قاعدة و إيجاد طاقة إنتاجية ذاتية ، أي مرتكزات البناء تكون محلية .
- الإطار الاجتماعي و السياسي ، يتضمن آلية التغيير و ضمانات استمراره . و يتمثل ذلك في نظام الحوافز القائم على أساس الربط بين الجهد و المكافأة .

هذه النظرة القاصرة لمفهوم التنمية المحلية ، أكدتها لنا العينة المبحوثة من ممثلين سياسيين ( المجلس البلدي ) ، و الفعليين الاجتماعيين ( قبائل ، جمعيات ....) الذي قمنا باستجوابهم . انطلاقاً من عمل ميداني ، في إطار بحث ميداني ( PNR ) . تحت عنوان: « التمثيل السياسي المحلي و علاقته بالتنمية . إعادة في تشكيل الروابط الاجتماعية .» قمنا به في عدة بلديات من ولاية سيدي بلعباس 7.

و الذي كان من أهدافه محاولة إبراز ، علاقة التنمية المحلية بالتمثيل السياسي و الروابط الاجتماعية الموجودة . انطلاقاً من سؤال سوسيولوجي مركزي : هل فيه إمكانية لاستغلال الروابط الاجتماعية الموجودة على مستوى البلدية و لو في شكلها التقليدي ( قبيلة ، جماعة دينية ..... ) . من طرف الممثلين السياسيين ( مجلس بلدي ) لمحاولة خلق نوع من التنمية المحلية و لو في صورتها البسيطة ( خلق القيمة المضافة المحلية ) .

فمن خلال البحث الذي قمنا به على مستوى البلديات المذكورة ، نجد اقتصار هذه الأخيرة في تسييرها اليومي فقط على ميزانية الدولة السنوية . و في مشاريعها غالباً على المشاريع الوطنية ( المسجلة على المستوى الوطني ) . و التي كانت معتادة خلال سنوات عديدة ، في إطار المخطط البلدي التنموي ( PCD ) مثل مشاريع :

- انجاز و توسيع أو تجديد قنوات صرف المياه .

- انجاز شبكة المياه الصالحة للشرب (AOP).
- مشاريع السكن المختلفة (ريفي-ترقوي-اجتماعي).

ولا خروج عن هذه المشاريع. كما يصرح العديد من المستجوبين ، من بينهم رئيس بلدية تفسور8 ، عن سؤال حول أهم مشاريع البلدية ، يقول :«استفادة البلدية من الماء ، من تعبيد الطريق الرابط بين تفسور مع وعلة ، و جبنا للشعب انتاع تفسور البناء الريفي ، الترميم...»

وعن المقارنة بين العهدة الأولى و الثانية لرئيس البلدية ، فيما يخص مسألة المشاريع البلدية قال نفس المشاريع ، لا تخرج عن الإطار العام..

هذا ما يؤكد كذلك رئيس بلدية مولاي سليسن : « جبت للبلدية و للشعب انتاع مولاي سليسن مشروع كبير للتزود بالماء الشروب un grand forage ، زيادة على الطريق و le pavée و l'assainissement و مشروع نتاع محطة القطار جهوية ....» .  
رغم ان منطقة مولاي سليسن و خاصة بلدية تفسور ، هي مناطق ذات طبيعة فلاحية و رعوية ، تمتد على أراضي جبلية .

اغلب اليد النشطة في المنطقة هي رعوية ، يقتصر فيها الناس على نوع معين من الرعي (غنم- بقر – معز) . بعدد محدود و بطريقة كلاسيكية . فلا وجود مثلا لتربية النحل و لا لتربية الدواجن .....، رغم أن المنطقة تساعد على ذلك . كما يؤكد لنا النائب الأول لرئيس البلدية: « حنا هنا بلاصة نتاع غابة ، يجي فيها كل شيء و surtout النحل و الدجاج و الداندو ، بصح الناس مايديروش...»

أو اقتصار المجتمع المحلي على الفلاحة البسيطة ، مثل القمح و الشعير غالبا . فترتيب العمالة 9 في البلديتين يكون على الشكل التالي مبين في الجدول : جدول منجز من طرفنا اثناء البحث الميداني:

ترتيب النشاط	نوع النشاط
1- الرعي	أغنام + أبقار + ماعز
2- الفلاحة	قمح + شعير
3- موظفي الدولة	البلدية + تعليم
4- المتقاعدون	الجيش+حرس بلدي+مجاهدين
5- التجار	التجارة البسيطة

و لمعرفة دور البلدية في اقتراح مشاريع على أفراد المجتمع و توجيههم للاستثمار ، باعتبارها القاطرة الأساسية في عملية التنمية . نجد أن هذه الأخيرة ( المجلس البلدي ) ، لا يقوم بهذا الدور إلا نادرا . لأنه لا يعلم أن هذا الدور من اختصاصه و من أولوياته ، كما يؤكد ذلك لنا نائب رئيس بلدية عين البرد بقوله : « مشي من خدمتنا نقول للناس وشادبروا ، راهم كبار و يعرفوا صلاحهم ».

و من هنا نجد أن السياسة التنموية في الجزائر على المستوى المحلي ، و الهادفة أساسا إلى تجاوز ظاهرة الريع بمحاولة خلق القيمة المضافة على المستوى المحلي ، تعاني من عدة مشاكل هيكلية ووظيفية .

- فبالإضافة إلى المشكل الأمني ( le problème sécuritaire ) الذي عانت منه البلاد في التسعينات من القرن الماضي ، و الذي قضى على العديد من الحرف و النشاطات المحلية التي كانت متمركزة خارج المدن و التجمعات السكنية الكبرى . خاصة في الجبال و الغابات ، نتيجة النزوح الريفي .

- و المشكل العقاري المطروح بشكل كبير ، خاصة في المناطق النائية من الولاية . فمثلا في بلدية تفسور ، نجد أكثر من 70 بالمائة من الأراضي الزراعية و الرعوية هي أراضي « شيع » ليست ملك . و بالتالي أصحابها لا يستطيعون التصرف فيها ، إذ نجدهم لا يملكون الوثائق التي يستطيعون بها مثلا طلب قروض من البنك لاقتناء أجهزة و آلات فلاحية و رعوية للعمل و توسيع عملهم . كما صرح به سكان المنطقة ، نجد أن السياسات المحلية مازالت تعاني في الجزائر منذ زمن طويل من أبوية الدولة على المجتمع .

فالبلدية كوحدة أساسية ، و هذا عكس الخطب الرسمية لا تملك الاستقلالية الكافية لتسيير نفسها ، باقتراح و خلق المشاريع المحلية المختلفة . كما جاء على لسان كل المبحوثين مثل رئيس بلدية مولاي سليسن : « شعال من خطرة نجمع مع المجلس و نقترح des projets بصح فالتلي يجي اللي بغاوه من فوق ..... » .

هاته الأبوية التي تفرض على القاعدة الارتباط الكلي بالقمة أو المركز 10. هذا إضافة إلى زبائنية المجتمع المحلي . هذا المجتمع الذي نجد أغلبه على مستوى البلديات المذكورة منخرط في الشبكة الاجتماعية . أو مستفيد بشكل أو بآخر من المال

العام ، بدون القيام بأي نشاط يذكر . و الأدهى و الأمر هم تصور هذه العائدات كحق يجب الحصول عليه ، كما يقول احد المستجوبين ، شاب من بلدية عين البرد : « 3000 ألف حقي عطاها لي بوتفليقة ...» و يؤكد آخر من بلدية مولاي سليسن بقوله :«...نترى من الحلوف ولا تركه سالم.»

و بالتالي مما سبق نجد أن البلدية و المجتمع كليهما لا يمتلكان قوة ذاتية من اجل انطلاقة تنمية حقيقية . فمن جهة نجد مركزية القرارات و من جهة ثانية انتشار الثقافة الاتكالية في الأوساط الاجتماعية 11، نتيجة السياسة التوزيعية . مما جعل هذا الأخير يعاني من ضعف ذاتي ، يحد بينه وبين ثقافة العمل و المثابرة و النشاط 12...

هذا المجتمع سواء كان أكثره منتعي إلى القبيلة كما يوجد في بلدية تفسور أو مولاي سليسن ، أو منخرط في الجمعيات المختلفة كما يوجد في بلدية سيدي علي بن يوب مثلا . فاذا كان المنطق القبلي ، منطق مغلق لا يسمح لصاحبه بالتححرر و الخروج عنه بالابتكار و العمل و توسيع النشاط ... ، نجد كذلك الجمعية ما هي إلا قناة زبائية ، ينخرط فيها الفرد من اجل التموقع و الاستفادة من الربح .

### المراجع

1- سلوى شعراوي، إدارة شؤون الدولة و المجتمع ، مركز دراسات و استشارة الإدارة العامة، القاهرة 2001.

2 - حسين كريم، مفهوم الحكم الصالح ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004

3- هشام شرابي ، المجتمع الابوي ، دار الغرب ، الجزائر 2001

4- addi lahouari : l'impasse du populisme .éd OPU, Algérie 1993

### التقارير

- 1- تقرير المجلس الوطني الاقتصادي و الاجتماعي .الجزائر سنة 2011 .
- 2- تقرير التنمية البشرية العربية التابع للأمم المتحدة .لسنة 2012-2013 .
- 3-

### الهوامش:

- 1- هذا المصدر طبيعي، غي متجدد و غير متحكم فيه، و هو هبة من الطبيعة.
- 2 - سلوى شعراوي، إدارة شؤون الدولة و المجتمع ، مركز دراسات و استشارة الإدارة

3 - حسين كريم، مفهوم الحكم الصالح ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004 ص 96.

4-(cnes) يعتبر جهازا و استشاريا للتفكير والحوار في القضايا الاقتصادية ،تم إحداثه سنة 1993 من مهامه محاولة إشراك الفاعل الاجتماعي والاقتصادي في صيرورة إنتاج القرارات .

5 - رغم أن مفهوم التنمية أصبح مرادف التنمية المستدامة

6- جملة لوالي معسكر أثناء اللقاء الجهوي للمجلس الاقتصادي والاجتماعي .وهران في 19-11-2011 . « je suis la jour distribuer le budget de l'etat » التقرير الذي ضرر في 31 جويلية 2008 .

7-بلدية تفسور ومولاي سليسن جنوب الولاية ، وبلدية سيدي علي بن يوب وعين البرد شمالها.

8-نائب رئيس تافسور 45 سنة ، من جنوب الفجر .

9-الترتيب من أكثر انتشار إلى الأقل حسب النشاطات الموجودة

10-الأبوية هي موضوع من مواضيع علم الاجتماع السياسي .

11-من مهامها تصور المجتمع على انه قاصر غير كفى لا يعرف مصالحه. هشام شرابي ، المجتمع الأبوي دار الغرب الجزائر .12-الثقافة هي مجموع من المعاني والرموز التي تتبلور على هيئة منظومة ، قيم توجد سلوكيات البشر في مختلف مجالات الحياة سواء بالسلب أو الإيجاب .



## الأنثروبولوجيا والاستعمار - قراءة في صورة الجزائرية في المؤلفات الأنثروبولوجية الاستعمارية

د/ أوراغي أحمد - جامعة تلمسان

### 1- الأنثروبولوجيا والمنظومة الكولونيالية:

تعد الأنثروبولوجيا حقولا دراسية اجتماعية تاريخية وثقافية، تمثل كل التماثلات المعاشية الفعلية منها والمرجوة لدى الجماعات، والتي يعبر عنها بطريقة شفوية أو سلوكية، والدراسة الأنثروبولوجية لأي شعب من الشعوب لا تعد قفزة في فراغ متقطع ولا جريا وراء سراب معرفي يشكل تصورا عشوائيا يرتطم بجدران معارف أخرى محيطة به أحيانا وبنفسه وتركيبته أحيين أخرى، لينطوي بذلك على رؤية أحادية غير مؤسسة على أي نوع من المرجعيات المعرفية/ العلمية، بل هي كل متكامل يأخذ من هذا وذاك وتبنى نظرتها الخاصة وتصوراتها المؤسسة على آليات الاشتغال الأنثروبولوجي، لتتلاقح وبقية العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

بيد أن الملاحظ على كثير من الدراسات الأنثروبولوجية التي اتخذت من الجزائر حقلا دراسيا لها أنها لم تخرج - في إطارها العام- عن مرجعية استشراقية نظر إليها - في كثير من الأحيان- كتكوين مقدس ومنظومة أيديولوجية وسوسيو ثقافية توخت تقديم نماذج ثقافية ومعرفية للأناسة الجزائرية وتقديمها بوجه جاف، مشوهة سلسلة رباطاتها الوجودية التاريخية والثقافية، عابثة بوحدة جذورها التاريخية العميقة، في شكل لا يستند إلى تأسيس علمي.

وهكذا تقبلنا في كثير من الأحيان تاريخنا الوجودي وسماته وأنماطه كما كتب عنه الآخرون دون تمحيص لم قدمه لنا المستشرقون، ولم نعد من الكشوفات الأركيولوجية وعلوم الفيلولوجيا والتي لم تخضع حتى الآن لدراسة أكاديمية مقارنة تعيد إظهار الحقائق وتزيل ما تراكم عنها من غبار الاستشراق وغبار الزمن وتعتيم الأيديولوجيا المركزية الاستشراقية، والتي قدمت لنا أنماطا وجودية وتاريخية وثقافية كما تشتبي هي وليس كما هو واقع الحال. وهنا أضحي من الضروري بمكان دراسة البنية الميثولوجية والأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية/المعرفية للمجتمع الجزائري في تطوره التاريخي منذ عصور ما قبل التاريخ في

تسلسل تاريخي ثيولوجي وثقافي، بغية التأسيس لأنثروبولوجيا معرفية وحضارية لوجودنا الزماني والمكاني، عبر وحدة الخيال والذاكرة الجمعيين، وبالتالي وحدة السيكلولوجيا الجمعية، وصولا للتأسيس للهوية الناجزة تاريخيا بما يقدمه ذلك من ارتكاز متين لإنجاز مشروع نهضوي ثقافي/علمي/معرفي.

وذلك باعتبار أن الأنثروبولوجيا تعد «علما مهما وأساسيا يؤهل الباحث إلى إقامة حوار مع الذات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والأيدولوجية والعقائدية، ومعرفة كنهها وأسسها البنيوية ومنطقها الخاص بعيدا عن تلك الأطروحات العرقية والإثنومركزية الضيقة، فالأنثروبولوجيا تزود الباحث بطاقات معرفية ومنهجية لدراسة الذات الشعبية وكيانها المحلي والوطني كذات فاعلة ومتفاعلة مع نفسها ومع محيطها ومع الآخر... فاعلة ومتفاعلة تفاعلا حرا ومتحررا من قيود الثقافات الضاغطة والتي سجنّت الفكر المعادين للآخر وللآخر ضمن تلك الثنائية العنيفة والمدمرة والإقصائية والتي تأسس أصلا وفق المنطق الصراعى»<sup>1</sup>.

وعلى رأي حسن شحاتة سعفان فإننا لا نستطيع أن نفهم كثيرا من ظواهرنا ونظمنا وعاداتنا الاجتماعية وتقاليدنا إلا إذا رجعنا إلى علم الإنسان ليعيننا على فهمها وفهم أصولها وماذا طرأ عليها<sup>2</sup>.

حيث إن وبناءا على ماسبق، فقد أضحي من الضروري بمكان «إعادة إنتاج ميدان الأنثروبولوجيا، وذلك من خلال عملية معقدة وطويلة هدفها نفذ الشروط التاريخية والمعرفية الاستعمارية المكونة له، بما هو أداة تعمل على استكشاف الأوليات التي تتحكم بالحركة التاريخية للمجتمعات الأخرى المسيطرة عليها»<sup>3</sup>.

ولعل خوض غمار البحث النظري في مضمار الأنثروبولوجيا في الجزائر، إنما يبعثنا من صميم إشكالية «عادل فوزي» التي جعلها أساسا نظريا للمعطى الأنثروبولوجي للجزائر: «هل بإمكاننا حقا أن نصبح فاعلين في حقل الأنثروبولوجيا بعدما كنا موضوعا غرائبيا مدة من الزمن؟

وبأي ثمن؟ وماذا نفعل بالإرث المتراكم؟ هل سنرسل «الأعمال الكافرة» إلى محاكم التفتيش وبعدها إلى المحرقة، أو استخلاص الدروس والاستفادة منهجيا من جميع التحقيقات التي جرت حتى الآن، قائلين أن لا يمكننا اليوم طرح نفس الأسئلة التي طرحها من سبقونا»<sup>4</sup>.



ولعلنا وقبل الخوض في هذه الإشكالية نقف وقفة المتريث قبل استصدار حكم الإعدام أو صكوك للغفران ضد أو للمنظومة الاستشراقية، وبغض النظر عن الأيديولوجية التي حركتها صوب دراسة الأناسة الجزائرية، فإنها خطت الأسطر الأولى ووضعت أولى اللبئات النظرية والتطبيقية للأناسة المعرفية الجزائرية، ولأزالت الأعمال الدراسية في هذا المضمار تتأسس وفق ما كتبه المستشرقون في هذا المجال.

وعليه فلا بد، مراعاة لروح الموضوعية في الطرح، من «الاعتراف أنه بعد تجاوز عمليات توجيه اللغة بسهولة، والشم الكسول، سنجد أعمالا ضخمة أثارَت لوقت طويل طريق أجيال من الدارسين، مثل ج سارفي (J.Servier)، تيون (G.Tillon)، أ.مسكيري (E. Mesguera)، لاوست (E.laoust)، بيرك (J.Berque)، بورديو (P.Bordieu). لا أحد يستطيع إنكار أن ج. سارفي أوجد من خلال أعماله امتدادات عالمية للحضارة الزراعية في المغرب (les portes de l'année)، ولا إنكار أن ج. تيون (G.Tillon) استطاعت كشف ماهو أكثر ديمومة في بناء العائلة والقبيلة، والمقصود هنا هو الزواج الداخلي (Le harem et les cousins)، ولا إنكار أن بورديو (P.bordieu) استطاع أن يضيء أواليات العنف الرمزي من خلال معالجة الشرف (equise d'une théorie de la pratique)»<sup>5</sup>.

كما لا يمكننا البتة إنكار ما قدمه المستشرقون – بعض النظر عن النية المبيتة سواء أكانت علمية أم كولونيالية- من دراسات في مجال الأناسة المعرفية في ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية خصوصا فيما يتعلق بالمعتقدات الشعبية فيما يخص الأضرحة والأولياء<sup>6</sup>، وكذلك ما قام به البعض في مجال جمع التراث الشعبي الأدبي، خصوصا منه الشعر الملحون<sup>7</sup>. بيد أنه ومع أن الباحثين الغربيين قد قدموا خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين خدمات جلى في ميدان الأناسة المعرفية والاجتماعية الجزائرية، وذلك عن طريق تعمقهم في دراسة التراث الشعبي الجزائري عموما، إلا أن نظرتهم للأمور ظلت في غالبيتها مطبوعة بطابع غربي، إذ لم تستطع أن تسبر أغوار وأعماق الفكر لدى هذه الشعوب – أي الشعوب العربية عموما- لعدم قدرتها على تفهم كل ما يتضمنه التراث الشعبي من تجارب ورؤى وتصورات، بالإضافة إلى أن ظهرت فئة من الباحثين حاولت متعمدة إبراز كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالشعب الجزائري خصوصا والعربي عموما<sup>8</sup>. ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر نقطة بداية مناسبة لدراسة الشعوب «البداية»،

فقد ازدادت المعلومات عن تلك الشعوب زيادة كبيرة نتيجة لتوسع الاستيطان الأوربي للأمريكيتين واستعمار الدول الأوربية لعدد كبير من الأقطار في إفريقيا وآسيا وأستراليا وغيرها من أرجاء العالم، وازداد تبعاً لذلك اهتمام العلماء في أمريكا وأوروبا بتلك الشعوب البدائية وكان المبشرون ورجال الإدارة ذوي ثقافة عالية في الغالب، فاستطاعوا أن يتحفظوا العالم بدراسات رغم أنها لم تكن علمية فقد قدمت الكثير من المعلومات الدقيقة المفيدة فكانت خطوة فعالة في الدراسات الأنثروبولوجية<sup>9</sup>.

بيد أننا لا نجزم أن الأنثروبولوجيا الاستعمارية كانت بريئة من شطحات كولونيالية بحثة، مستخدمة العلم لخدمة الاستعمار الاستيطاني، بغية إدراك كنه الشعب والأرض حتى تسهل مهمة السيطرة عليه وكبح جماح مقاومته وإخماد أوراها، إذ اقتربن البحث الأنثروبولوجي بالجزائر بالحركة الكولونيالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك بغية الاتصال بالبنى العميقة للمجتمع الجزائري والتي من شأنها تهديد وتهيئة وتسهيل المهمات العسكرية، فقد توصل المحتل إلى أن الاحتلال العسكري يجب أن تصحبه معرفة بالخصائص الجغرافية للأرض وكذا الأنماط الثقافية والاجتماعية والدينية المهيمنة على الأوساط الشعبية، فبدأ الاهتمام بالبحث في الإنسان الجزائري، وكان العسكريون الفرنسيون هم الأوائل الذين خاضوا حقل الدراسة الأنثروبولوجية بالجزائر، ولا زالت أعمال كوفيه (cauvet) والإخوة مارسي (Marcais) وباسي (Basset)، وألفرد بال (A.bell) وغيرهم ... تشهد على ذلك الاهتمام الذي خصته الإدارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري ومكوناته الإثنية والدينية وغيرها.

لقد ارتبطت الأنثروبولوجيا بالجزائر – لدى الكثير من الدارسين- بحركة المد الاستعماري الأوربي خصوصاً في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الإدارات الأوروبية في حاجة إلى استكناه خصائص الشعوب التي يريدون احتلالها، أو كانوا قد احتلوها بالفعل، وذلك باعتبار أن الأنثروبولوجيا ليست مجرد نتاج فكري ولا نظريات أو أفكار متداولة عن الإنسان، بقدر ما هي رؤية شاملة ودقيقة للواقع الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الإنسان بالإضافة إلى النظرة التي تقدمها عن مجموع القيم والأخلاق التي تسم أفكاره وسلوكاته، فإن الرؤى التي تقدمها عن هذا الإنسان ما هي في الواقع إلا انعكاساً للظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحيط بهذا الإنسان في

موقفه داخل المجتمع وداخل الدولة»<sup>10</sup>.

والمستعمر كان دوما في حاجة إلى معرفة خصائص الشعوب التي وقعت نيره، سواء قبل الشروع العسكري أم أثناءه، فكانت تقارير الرحالة والمستكشفين أولى حلقات مشروع المحتل، كما رافقت الجيوش الغازية بعثات علمية كان الهدف الأساس منها تسليط ضوء البحث / الدرس على كل ما هو مجهول في الأنماط الحياتية والفكرية والعقائدية لهذا الآخر الذي ربما بدا غريبا في أنماطه المعيشية والثقافية والعقائدية وحتى تشريعاته القانونية والعرفية ونظمه الاقتصادية.

وقد تعارفت الدراسات المهمة بتاريخ العلوم على اعتبار الأنثروبولوجيا علما استعماريًا بحثًا، إذ انبثق هذا العلم أول ما انبثق في رغبة «العالم المتحضر» (الغربي) في استكشاف الآخر «البدائي» (المتخلف)، أو الغريب عن الحضارة الغربية، والذي لا يزال يزرع تحت غياهب التوحش والبدائية.

لقد شكلت الأنثروبولوجيا منظومة معرفية تخدم النزعة الكولونيالية وأيديولوجيتها، بل إن ميلاد هذا العلم ارتبط ببداية حركة المد الاستعماري الأوروبي بداية القرن التاسع عشر، ويمكن القول إن الأنثروبولوجيا قدمت خدمات «علمية» جلية للإدارات الاستعمارية، إذ وضعت الشعوب المزمع احتلالها تحت منظار الإدارة ترصد حركاتها وسكناتها، وتراقب أنماط حياتها وعاداتها السلوكية وقيمها الاجتماعية ونظمها الاقتصادية.

فقد أدركت الإدارات الاستعمارية أن البحث الأنثروبولوجي- لما له من قوة على اختراق المجتمعات وتحليلها بدقة - كفيل بتقديم ما ترغب في معرفته حول الآخر، وذلك لما يملك الباحث من آليات مساعدة أهمها معايشة تلك الشعوب ومساءلتها ومعرفتها معرفة عميقة بحكم التعايش والاحتكاك عن قرب.

وهكذا بدأ «الأنثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والاستفادة من نتائج تلك الدراسات في إحكام السيطرة الاستعمارية عليها، بمعرفة مواطن الضعف في المجتمع ورسم السياسة المناسبة للتعامل معها أو لتعديل بعض الأوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب، وبالتالي البقاء والاستمرار في استعمارها والسيطرة عليها»<sup>11</sup>.

ولما كان الأمر كذلك فقد عيّنت الإدارات الاستعمارية بالأنثروبولوجيا وعلمائها أيما

عناية، فبالإضافة إلى تسخير العلماء البحاثة لغايات استعمارية، فقد «خصصت لهذه الأنشطة العلمية الموجهة مراكز للبحث ودراسات ثقافات الشعوب، وأوكلت مهمة تنشيطها للأنثروبولوجيين المنضمين تحت رايتها وتحت لوائها وتحت سلطتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك وفق رؤية أيديولوجية استعمارية ليست إلا، فكانوا يطعمونها بأبحاثهم وتقاريرهم الميدانية»<sup>12</sup>.

بيد أن الأمر لم يكن ليتوقف عند خدمة الأنثروبولوجيا -كعلم- للإستعمار - كظاهرة تاريخية- وحسب، بل إن الخدمة كانت متبادلة بين هذا وذاك، إذ «لا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الاستعمار والأنثروبولوجية، فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية، فلقد استفادت هي الأخرى من خدمات الحركات الاستعمارية، والتي كان لها أثر كبير في تقدم الدراسات والمناهج الأنثروبولوجية، فمن المعروف أن القرن 19 كان قرن التوسعات الاستعمارية بهدف استعمار المجتمعات البدائية من أجل إحكام السيطرة عليها واستغلالها سياسيا واقتصاديا وثقافيا ودينيا، ومن هنا نشطت الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية والتطبيقية متخذة من هذه المجتمعات الصغيرة مجالا لدراساتها»<sup>13</sup>.

وبذلك يمكن القول إن الأنثروبولوجيا -كعلم- شكلت «لمدة من الزمن الموضوع الخصيب بامتياز للفكر الكولونيالي، والذي سخرها تسخيرا استعماريًا، حيث انتشرت خارج أوروبا الدراسات الفكلورية التي تهتم بقطاع الثقافة أو الحضارة، قبل وصول المظاهر الحضارية المقترنة بمرحلة التحديث الأوروبية، وكان جزء كبير من هذا الاهتمام موجها -إضافة إلى الأهداف العلمية- لغايات استعمارية، وذلك للتحكم بعمليات التغيير الثقافي والاجتماعي من جهة ولتسخير العلوم الإنسانية لأغراضهم الاستعمارية هذه»<sup>14</sup>.

وتجمع جل الدراسات النظرية التي تناولت الأنثروبولوجيا كتاريخ علمي أنها نشأت بين أحضان المنظومة الاستعمارية، حيث استثمرت الآلية الكولونيالية هذا العلم بغية الإحاطة بعقلية الشعوب وأنماطها السلوكية والاعتقادية، إذ «سخرت المنظومة الكولونيالية الأنثروبولوجية وعلماءها لأغراض استعمارية بحثية، حيث تم استغلال واستثمار أبحاثهم من أجل معرفة عقلية الشعوب ومظاهرها الثقافية المادية والمعنوية والسلوكية. لقد تفتنت المنظومة الفكرية والسياسية الاستعمارية وأيديولوجيتها في وقت مبكر إلى الدور الريادي الذي يمكن أن يقوم به الأنثروبولوجيون، فعملت الإدارات الاستعمارية على إرسالهم

ضمن بعثات علمية أو إرادية أو دينية في مناطق مختلفة من العالم يدرسون ويسجلون ثقافتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ونظمها المعاشية الاقتصادية والاجتماعية والعرفية والعقائدية»<sup>15</sup>.

وهكذا ارتبطت نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية بالحركات الاستكشافية والاستعمارية وأصبحت دراسة المجتمعات الغربية -البدائية والأهلية- موضوعها الرئيسي، وفي هذا الصدد يذهب جيرارد لوكلارك (G.Lclerc) إلى أن القول «الأنثروبولوجيون أنفسهم يعترفون اليوم بأن اختصاصهم العلمي هذا يستمد موضوعه الفعلي من النزعة الامبريالية، ويستوحي منهجه من النظرة الاستعمارية، فأصبح الاهتمام بتلك الشعوب ووصف مؤسساتها الثقافية من أولوياتهم»<sup>16</sup>، وكذلك بات من المؤكد من الناحية التاريخية أن الأنثروبولوجيا «تطورت في الوقت نفسه الذي كانت فيه حركات الاستعمار تنتشر في أقاصي الكرة الأرضية»<sup>17</sup>.

والملاحظ أن هذه الحركات لم تكن تهدف إلى دراسة تلك الشعوب ووصف نمط حياتها والتعرف على أنساقها الثقافية، بل إن غرضها الأساسي كان استعبادها وإخضاعها لسيطرة الشعوب الاستعمارية الأوروبية واعتبرت الأنثروبولوجيا آنذاك إحدى الوسائل الفنية لمساعدة الحاكم «على إدارة المجتمع الأهلي بأدنى حد من الاحتكاك والتوتر»<sup>18</sup>، فكانت إحدى استراتيجيات المستعمر لفهم ثقافة وسلوك الشعوب المستعمرة هي «استخدامه الخبراء الأنثروبولوجيين وتعيينهم مستشارين في الإدارات الحكومية للبلاد المستعمرة»<sup>19</sup>، فتمكنوا من معرفة أحوال تلك الشعوب، الاجتماعية والاقتصادية، ووقفوا على عقائدهم الدينية وممارستهم السحرية وأبدوا اهتماما كبيرا في وصف وتحليل عاداتهم وأعرافهم.

ومن الباحثين من يرى أن الأنثروبولوجيا الميدانية ظهرت إلى الوجود في فرنسا من مبادرات بعض الحكام الذين رغبوا في معرفة نمط حياة الشعوب الواقعة تحت هيمنتهم الاستعمارية، «وتعود المبادرة الأكثر أهمية إلى كلوزيل (clozel) الذي كان حاكما على إفريقيا الغربية الفرنسية في بداية هذا القرن (ق 20)، فقد أسس سنة 1915 لجنة الدراسات التاريخية والعلمية لإفريقيا الغربية الفرنسية، وكان يطلب من مساعديه أن يطلعوه بشكل تفصيلي على الأنساق القانونية السودانية حينما كان يريد استبدالها بالقانون المدني»<sup>20</sup>. وبهذا الشكل أدت الأنثروبولوجيا دور الخديم العلمي للمنظومة الكولونيالية ووجد

المستعمر مبرره الأخلاقي في التقارير الأنثروبولوجية التي كانت تصور المجتمعات المغلوبة على أمرها على أنها متوحشة وغارقة في الجهل، وأنه يجب تهذيبها وتمدينها، ومن ذلك ما ذكره لويس رين (Louis rinn) حين يقول: «منذ خمسين سنة بذلت القوى الأوروبية جهودا كبيرة لجذب المشرق القديم إلى تيار الحضارة الحديثة»<sup>21</sup>.

وهكذا وجدت الادارة المركزية الامبريالية ضالتها في علم الأنثروبولوجيا، فسخرت لخدمة أغراضها التوسعية، وجندت في سبيل ذلك ما تهيا لها من كفاءات علمية وبحاثة ميدانيين بغية إعداد كشوفات دراسية عن الشعوب المستعمرة، وكانت التقارير الميدانية للأنثروبولوجيين بمثابة سبر لأغوار ثقافات هذه الشعوب ونظمها الحياتية المختلفة وبهذا انخرفت الأنثروبولوجيا عن مسارها المعرفي لتصبح أداة في يد الإدارات الاستعمارية تتيح لها معرفة هذا «الآخر» الذي كان يبدو غريبا وأحيانا بدائيا أو متوحشا.

ولم تكن الجزائر ببعد عن هذا الإنحراف المعرفي للأنثروبولوجيا، فقد كان الشعب الجزائري يحيا تحت منظار التقارير الميدانية للأنثروبولوجيين الكولوناليين الذين تصدوا لدراسة المجتمع الجزائري وأنماطه الحياتية ونظمه وتشريعاته، بغية تقديم صورة واضحة المعالم عنه حتى تسهل عملية انقياده وتطويعه، وبالتالي كبح جماح مقاومته، وأحيانا اهتمت الأنثروبولوجيا الاستعمارية بما من شأنه زعزعة وحدة الشعب، فضربته في أعماق هويته الناجزة تاريخيا حتى تفك رباطاته الإنتمائية التي كان يستمد منها قوة مقاومته ومعارضته لوجود محتل غريب على أرضه.

## 2- الأنثروبولوجيا العسكرية وبدايات اكتشاف الإنسان الجزائري:

ارتبطت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر في بداياتها الأولى بالعسكريين والضباط الميدانيين الذين شكلوا النواة الأولى للبحث الأنثروبولوجي في غياب علماء مختصين، فالمحتل الذي جاء غازيا لم يكن يعرف الكثير عن هذه الأرض ولا عن قاطناتها مما استوجب معرفة كل ما يحيط بوجود شعب له ما يميزه من أنماط حياتية وتشريعات ومعتقدات وفلكلور وغيره، ومن ثم أصبح لزاما أن يخوض العسكريون مهمة التنقيب الميداني لإمالة اللثام عن هوية هذا الشعب وخصوصياته الثقافية والاجتماعية.

فالمعرفة العلمية للجزائر – وكما وصفها لوكاس (lucas) وفاتان (vatin) كانت قبل كل شيء وظيفة الاحتلال، فقد بدأت مع العسكريين وبهم<sup>22</sup>، ويشير صاحب كتاب جزائر

الأنثروبولوجيين إلى أن الاكتشاف العلمي للجزائري هو إذن قبل كل شيء متوقف على الاحتلال، وقد شرع فيه حقا بواسطة العسكريين وتعاظم في الميدان وفق وتيرتهم، بحيث يمكن أن تقتفي مع التفاوت الخفيف والضروري للتدوين والانطباع المراحل المتعاقبة للإستكشاف هذا، خصصت السنوات العشر الأولى بالأحرى للجزائر العاصمة والمدن المغزوة وضواحيها القريبة<sup>23</sup>.

فكان العسكريون أول من بدأ الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمع الجزائري الذي كان ينظر إليه على أنه تجمع هجين لطوائف وفئات اجتماعية مختلفة ومتباينة، منها العربي والبربري واليهودي، وبذلك فالجزائريون كانوا بالنسبة للأنثروبولوجيين الاستعماريين كما وصفهم تريميلي (trumulet) « يستحقون كل صفات الدناءة والخساسة والاحتقار »<sup>24</sup>.

فالفرنسيون لم يكونوا يعرفون عن الجزائر الشيء الكثير ذا الأهمية قبل الاحتلال، ولم تكن لديهم وثائق مدونة للأنماط الحياتية والاعتقادية والميولات الثقافية لهذا الشعب، اللهم مذكرات بعض هواة الكتابة الأدبية الذين رصدوا من خلالها عالما غريبا عن عالمهم، عالم مثير للدهشة والاستغراب حينما وللسخرة، وربما الاحتقار، أحيين أخرى.

وبعد مرور عقد من الزمن على نزول الجيوش، وبعد أن تم اختيار توسع عسكري بعينه، أقدمت الحكومة (الاستعمارية) على تحرر enquête واسع النطاق، وقد تم جمع معطيات في قرابة أربعين مجلدا بين 1844 و 1867، وقد اضطلع العسكريون بنصيبهم في هذا التحري، وكان على رأسهم كاريت وبولوسي *carette et pelissier*، وقد استدعيت التخصصات والعلوم كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمنية عن الآخر، أي هذا العربي أو هذا البربري، بما أنهم ينكرون عليه تسمية أخرى<sup>25</sup>.

ويذهب المؤرخ الفرنسي شارل أندير جوليان -في هذا الصدد- إلى أنه وإلى غاية سنة 1847 لم يكن بين أيدي السلطة المحتلة في الجزائر سوى تقريرين رسميين كان يمثلان أهم ما يمكن معرفته عن الجزائر<sup>26</sup>.

فلما وطئت أقدام المستعمر أرض الجزائر لم تكن لديها من المعرفة سوى أنها كانت بكل ابتذال أرضا تركية تصلح للاغتصاب<sup>27</sup>، وكانوا يتحدثون عن الجزائريين « تماما كما كان يفعل البحار الغربي مع سكان غينيا الجديدة أو مع الهنود »<sup>28</sup>.

ولما استشعر المستعمر ضرورة ومعرفة الآخر، لم يجد من يصلح لهذه المهمة سوى

الجيش، وفي سنة 1837 قرر وزير الحرب البدء في استكشاف الجزائر علميا، ولكنه لم يجد على أرض الميدان سوى أفراد الجيش الذين أنجزوا عمل السوسيوولوجيين والمؤرخين والألسنيين»<sup>29</sup>.

وهذا سلمت الجزائر إلى هواة من ضباط الشؤون الأهلية وصغار المعلمين والرحالة والمبشرين الذين ارتجلوا علم الاجتماع، والذين لم يكن هدفهم البحث العلمي ف «لم يهتموا بإعداد ملفات وتقديمها كتقارير ... بل كانوا يقدمون انطباعات مرفوقة بأرائهم الشخصية»<sup>30</sup>، ولم يكن هناك ما يحثهم على الاجتهاد والتعمق، لأن ما هو سطحي عند الأهالي كان كافيا لهم لتفسير الأمور، وتقديم صورة حسبوها مكتملة المعالم حول حياة هذا الشعب وأنماطه السلوكية والاعتقادية.

ويقدم كتاب جزائر الأنثروبولوجيين أمثلة عن كتابات سطحية لعسكريين، لم تكن إلا وصفا شكليا بعيدا عن التعمق في أغوار حياة وثقافة الأهالي، فكتابات الملازم العام للشرطة أوبينوز -على سبيل المثال- لم تقدم عن طرائف عيش الجزائريين إلا «تفاصيل حول طرائق عيش السكان الحضر، وهي من وضع رجل لا يعرف الجزائر إلا من خلال هذه الملفات التي انبثقت منها أول رؤية متناسقة للعلاقات بين وضع قطر والمنزلة التي يراد منها»<sup>31</sup>.

ويذهب بلقاسم بن زنين الذي قدم قراءة قيمة لكتاب جزائر الأنثروبولوجيين إلى أنه وبغض النظر عن بعض أعمال العسكريين التي كانت عبارة عن مذكرات لم توجه بشكل مباشر لخدمة الاستعمار فقد كان من أول ثمار أعمال العسكريين كتاب الضابط Merle وعنوانه «طرق تاريخية وسياسية للإفادة في تاريخ غزو الجزائر سنة 1830» «طبع سنة 1831، ثم أعيد طبعه سنة 1832، وكتاب آخر للنقيب «روزت» (Rozet) الذي كان في نفس الوقت جغرافيا «رحلة إلى مدينة الجزائر أو وصف بلد محتل من طرف الاستعمار الفرنسي في إفريقيا» «طبع في 1833 (3 أجزاء) والملاحظ من هذه الكتابات الأولى أنها كانت مقتصرة على مدينة الجزائر، ثم سرعان ما توسعت فيما بعد لتشمل المناطق المجاورة خاصة متيجة التي كانت أراضيها الخصبة مطمع المستوطنين، ثم منطقة القبائل في مرحلة لاحقة باعتبارها تمثل خصوصية ثقافية متميزة وتنظيما اجتماعيا مغايرا لما وجده الفرنسيون في الجزائر العاصمة»<sup>32</sup>.

وقد كان يروم الأنثروبولوجيون العسكريون من خلال دراساتهم إلى التوصل إلى معرفة



السكان من خلال الخوض في ثقافته المحلية، وذلك من أجل تسهيل عملية انقياده، وذلك ما يبرز من خلال تصريح أحد مهندسي الدراسات الأنثروبولوجية العسكرية التي قال بأنه «ينبغي الاستيلاء على روح هذا الشعب قبل الاستيلاء على جسده»<sup>33</sup>.

بيد أن العسكريين عجزوا عن الوصول والإحاطة بكل أبعاد الفعل الأنثروبولوجي الذي تشكل فيه العادات والمعتقدات والسلوكيات الفردية والجماعية كلا متكاملًا، كما قصرُوا عن الوصول إلى ما يلف الإنسان الجزائري من قيم ومثل عليا تمثل روح الشعب وكنه هويته الوجودية والثقافية.

فالكتابات الأنثروبولوجية للعسكريين الفرنسيين حول المجتمع الجزائري لم تكن سوى أوصاف انطباعية عادة ما اتسمت بالسطحية والسذاجة فقد تم بين سنوات 1844 و 1867 وضع ما يقارب الأربعين مجلدا، جمع أغلبه العسكريون، وشاركهم جمعها غيرهم من الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين، والمهتمين بالأنماط الثقافية المحلية، قدمت صورة مختلفة الأبعاد متشعبة زوايا النظر عن إنسان شمال إفريقيا العربي أو البربري الذي لم يكن يعرف له غير هذا الاسم<sup>34</sup>.

وبذلك شكلت دراسات الأنثروبولوجيين العسكريين - في عمومها الغالب - باستثناء البعض- أحكاما قبلية غير مؤسسة على أي مرجعية معرفية، وهذا راجع بالأساس إلى عدم اختصاص هؤلاء العسكريين في مجال البحث الأنثروبولوجي، وخوضهم غماره- كما يقول عبد الباقي الهرماسي - «صدفة»<sup>35</sup>.

فالعامل الأنثروبولوجي للعسكر - والذي أعقب الغزو مباشرة - لم يكن سوى تشويها للحقائق وتزويرا لما هو في واقع الحال، وذلك من خلال تقديمه للمجتمع الجزائري تقديمًا جافًا، ووسمه إياه بالجمود والسلبية والاستسلام، وأحيانا عدة بالدناءة والخسة والحقارة، وبذلك كانت تقارير العسكريين بمثابة تبريرات أخلاقية لعملية غزو شعب بغية تخليصه من براثن الخلف، باعتباره شعبا ممزق التشكيلات الاجتماعية، شعب بلا تاريخ، وهكذا «لا يكون للغرب أية مسؤولية في جمود هذه المجتمعات، لأن هذه الحالة صادقة على التوسع الاستعماري»<sup>36</sup>.

ونشير في هذا المقام إلى أن المعرفة العلمية للجزائر لم تكن قد بلغت نضجها المعرفي والمنهجي في السنوات الأولى للغزو الاستعماري، وإنما تبدأ تلك المعرفة خصوصًا بعد سنة

1848، خصوصا بعد صدور أعمال لبحاثة وطنوا أنفسهم على البحث الإنسان الجزائري، وعلى رأسها «حوليات الجزائر» (Annales algeriennes) لبيليسي<sup>37</sup> (pelissier)، هذه الحوليات التي تعد بحق مرجعا نفيسا للبحوث المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية في الجزائر، ولا تزال المرجع الأكثر استعمالا للباحثين في المرحلة الاستعمارية<sup>38</sup>.

لقد مثلت حوليات بيليسي ورينو الجزائرية الإحصائيات الأولى المنتظمة، التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة التي ليست فقط أثرا بسيطا من آثار ضخامة الدولة الاستعمارية وإيمان الفرنسيين بقيمتهم، بل هي نتاج إرادة القوة التي تطول جميع جوانب المقاومة المحتملة التي قد تصدر عن الخصم، غير أن هذه الهيمنة لا تريد ولا تقوى أن تمارس في كل مكان وفي ذات الوقت والتي تزعم أولا بأنها غزو بالسلاح، لهذا ألفت الضباط هم الذين يتهيبون من الخصم وقواته وضعفه وإمكاناته المادية والرجال والأسلحة وإمكاناته النظرية، أي المعتقدات والإيمان<sup>39</sup>.

فالسعي إلى حبس طاقات الوحدة معناه أولا معاينة المجموعات وتحالفاتها ونظام تحالفها وصراعاتها، ما هي يا ترى هذه القبائل التي يتحدث عنها؟ ما هو حيث الجماعات الدينية التي هي من القوة بحيث كاد النظام التركي أن يسقط تحت وقع ضرباتها؟ من هم هؤلاء السكان الجبليون القبائل الذين يأبون الانصياع للحكم الخارجي<sup>40</sup>؟ إن تراكم هذه الأسئلة وما تثيره من فضول «استراتيجي»، جعلت معرفة المحتل بالشعب والأرض قاصرة، مما أفرز ضرورة التصدي للأنماط الحياتية لهذا الشعب التي لم تكن معروفة لدى الآخر المستعمر، فكان لا مناص من مباشرة الجيش بدراسة هذا المجهول واستقصاء ما يلفه من معتقدات وأفكار وأنماط سلوكية وطقسية وغيرها، فالتزم الضباط أول الأمر للمهمات الاستكشافية التي كانت تزود الإدارة الاستعمارية بتقارير عن هذا الشعب، فتحولت آلة الغزو من بندقية إلى قلم، وأضحى الضابط منوطا بعمل المؤرخ والإثنولوجي وعلم الاجتماع والألسني...<sup>41</sup>

فمهمة العسكريين كانت اكتشاف العدو، هذا الآخر المجهول، فكانت الإيديولوجية الكولونيالية هي التي تحرك روح البحث، ولم تكن الدراسات المنجزة سوى تنويعا لفضول المحتل، فضول غير برئ البتة، إنه فضول الغالب لمعرفة خبايا المغلوب، نقاط قوته وضعفه والمداخل التي يمكن الولوج عبرها إلى تمزيق وحدة هذا الشعب وضربه في أعماق

جذوره الانتمائية.

فمهمة الأنثروبولوجيا العسكرية في الجزائر -إبان عهد الاحتلال- لم تكن طرح وجهات نظر معرفية، ولم يكن الاكتشاف العلمي ما يبعث تلك النزعة الاستكشافية لديهم، فقد ساهمت تلك البحوث في تنويع السياسة الاستعمارية وإضفاء نوع من الشرعية تجاه سلوكاتها، من زوايا عدة، فهذا الشعب «المتوحش» يجب أن يروض، وأن يتعلم -ولو بالقوة- أبجديات التنوير الحضاري الغربي، وذلك باعتبار أن «الدهنيات المنغلقة تشكل حاجزا أمام تقدم هذه المجتمعات، والتعليم يجد صعوبة في الوصول إلى سكان هذه الأرض»<sup>42</sup>.

بيد أن هذا لا يعني أن بعض الأعمال لبعض العسكريين لم تكن مهمة من الناحية المعرفية فـ«على الرغم من أن الضباط الفرنسيين كان تكوينهم عسكريا، كما يقتضيه الأمر، إلا أنهم أسسوا مدخلا مهما في البحث الأنثروبولوجي الخاص بالجزائر، عرف بـ«الأنديجينوفيل» (Indigénophilie) وكذلك القبائلوفيلية (Kabylophilie)»<sup>43</sup>.

فالبحت الأنثروبولوجي للعسكريين شكل نقطة البدء للاستكشاف المعرفي للجزائر، ولا يمكن إنكار حجم المادة المعرفية التي قدمها العسكريون، والتي تناولت الإنسان الجزائري بالدراسة والبحث، ثم إن هذه الأبحاث تطورت منهجيا، بمرور الزمن فجسدت بذلك تطورا ذاتيا لروح البحث الأنثروبولوجي في الجزائر.

كما أن هذه الأبحاث أصبحت أكثر دقة بعد أن كانت تتميز في انطلاقتها الأولى بالشمولية والمحلية، وكان أولى مظاهر هذا الاهتمام وضع عدة قواميس مثل القاموس الفرنسي الأمازيغي، الذي ألفه العقيد «لابان» (Lapéne) سنة 1837<sup>44</sup>.

لقد شكلت السنوات التالية للاحتلال بداية توجه معرفي مهم للأنثروبولوجيا العسكرية خصوصا «بعد إعلان وزير الحرب الفرنسي القيام بحملة استكشافية، كان من أبرز القائمين بها الضباط «كارت» (Carette)، رينو (Reynaud)، دوسلان (Deslane)، وبتوجيه من العقيد «سان فانسون» (Bory de st vincent)، انكب أعضاء اللجنة العلمية على إعداد جرد منهجي للبلاد في مختلف مجالات الطبيعيات والتاريخ وعلم الآثار والاثنوغرافيا، وشملت أعمالهم أيضا الترجمة التي كلف بها الضابط «سلان»<sup>45</sup>.

هذا الضابط (De slane) «دوسلان، الذي كان من أصل إيرلندي، وكان يعد من أشهر المستعربين الأوروبيين، اهتم بالترجمة، ومن أعماله الكبرى ترجمته لمقدمه ابن خلدون، التي

عدت -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- مرجعا أساسيا في البحث الأنثروبولوجي الاستعماري، وقد تمت هذه الترجمة بفترة وجيزة قبل تحرك الآلة العسكرية الفرنسية نحو الجزائر.

كما أن حوليات بوليسي ورينو الجزائرية (*Les annales algeriennes*) كانت تمثل الاحصائيات الأولى المنتظمة التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة التي ليست فقط أثرا بسيطا من آثار ضخامة الدولة الاستعمارية وإيمان الفرنسيين بقيمتهم، بل هي نتاج إرادة القوة التي تطول جميع جوانب المقاومة المحتملة التي تصدر عن الخصم، غير أن هذه الهيمنة لا تريد ولا تقوى أن تمارس في كل مكان وفي ذات الوقت، والتي تزعم أولا أنها غزو بالسلاح، لهذا ألقيت الضباط الذين هم يتهيبون من الخصم وقواته وضعفه وإمكاناته المادية والرجال والأسلحة وإمكاناته النظرية أي المعتقدات والإيمان، إن السعي إلى جس طاقات الوحدة معناه أولا معاينة المجموعات وتحالفاتها ونظام تحالفها وصراعاتها<sup>46</sup>.

وهكذا شرع الضباط السامون ومن هم دونهم شأنا في تقديم الأجوبة الأولى<sup>47</sup>، أجوبة كانت في شكل تقارير ومدونات لضباط عاينوا التجمعات القبلية والإثنية في الجزائر وقدموا ما عاينوه في قالب دراسي، بيد أن الهدف منه كان واضحا وجليا، وهو معرفة نقاط قوة وضعف هذا الآخر «العدو» المثير للدهشة، والريبة والحذر.

وإذا كانت الأنثروبولوجيا العسكرية قد انتقلت من «الإستراتيجية» إلى «التكتيك» فإنها تحولت فيما بعد إلى البحث في أدق التفاصيل التي تخص السكان وقادتهم الذين رفعوا لواء المقاومة، تلك المقاومة التي كان لها أثرها البالغ في ظهور المزيد من الأعمال، خاصة وأن بعضا من هؤلاء العسكريين أصبحوا مقربين من قادة المقاومة ورؤساء القبائل حتى أننا نجد أن الأمير عبد القادر يسم أحد كتب «ليون روش» (Leon roches) بمقدمة يشيد فيها بأعماله<sup>48</sup>.

هذا الضابط الذي كان مترجما في الجيش الفرنسي، تم اتصاله بالمقاومة الشعبية للأمير عبد القادر وكان من مقربيه، وقد أثبتت عديد من الشكوك حوله وحول حقيقة وجوده بين ظهراني المقاومة، وبالتالي طبيعة المهمة التي كان منوطا بها حينئذ<sup>49</sup>.

وإذا كان البعض قد دعا -ولا يزال البعض الآخر يدعو- إلى إعادة قراءة الأعمال الأنثروبولوجية العسكرية، من خلال منهجية علمية تتفق والشروط الاجتماعية والثقافية

للتطور الذي أعقب فترة الغزو الفرنسي، وإلا فإن مضامين هذه الأعمال سوف تكون مضلة للبحث ومشوهة للحقائق من خلال الصورة السلبية التي تقدمها عن الإنسان الجزائري وتجعلها لصيقة به، وهو (أي الإنسان الجزائري أو الأنديجان حسب تعبير الأنثروبولوجيا الاستعمارية) لا يعدو أن يكون إنسانا جامدا، كسولا، مستسلما، خاضعا دنيئا... وهي نظرة لا تعدو كونها وليدة الأيديولوجيا الاستعمارية وإدارتها المركزية التي كانت في رحلة بحث لتبرير أخلاقي لما تقوم به إزاء الشعب والأرض.

فإن هذا لا يمكن أن يكون ذر رماد في الأعين وعملية اتهام صارخ دون روية في استصدار أحكام بحق «الأعمال الكافرة» -كما وصفها عادل فوزي- وإرسالها إلى محاكم التفتيش ومن ثم عرضها إلى المحرقة وإعدامها بتهمة الخيانة المعرفية.

ف «عمل هؤلاء الضباط متجليا في عشرات المؤلفات، قد أسهم في شكل لا يمكن إنكاره أو إغفاله في التأسيس للمعرفة الأنثروبولوجية في إحدى أهم فترات التاريخ الجزائري. وهذه الأعمال تكتسي أهميتها أيضا من كونها تمثل على المستوى الاستعماري دعوة إلى الخروج من سبات دغمائي وأيديولوجي... إنها دعوة لتصويب الحركة التاريخية في اختلاف وتشابك مراحلها، وفي محاولة تجميع لن تكون موحدة ولكن مختلفة»<sup>50</sup>.

بيد أن هذا الموقف لا يعني أيضا أن ننظر إلى تلك الأعمال كتكوين معرفي مقدس وكمرجع دراسي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، بل إنه يتوجب على الباحث الأنثروبولوجي اليوم أن يتمتع بروح النقد والتحليل واستقصاء الحقائق التي كثيرا ما طمست في تلك الأعمال، فهي أعمال لها ما لها وعليها ما عليها، أعمال أسست مدخلا منهجيا للدرس الأنثروبولوجي في الجزائر حقيقة، لكنها كانت تحمل -ضمنيا- في طياتها أيديولوجية استشراقية سعت إلى تشويه الروابط الوجودية للإنسان الجزائري وقدمته بصورة لا تختلف البتة عن الصورة التي رسمها الرحالة والمستكشفون الأوروبيون عن الإنسان الأصلي للعالم الجديد المكتشف أو إنسان الأدغال الأفريقية.

الهوامش:

1- محمد سعيدي الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2006-2007، ص 05

2-أنظر: حسن شحاتة سعفان: علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، 1966، ص03.

3-محمد حسن دكروب : الأنثروبولوجية، الذاكرة والمعاش، دار الحقيقة، بيروت، لبنان، ط2، 1991:ص09

4-عادل فوزي: إشكالية، ترجمة : عنصر العياشي، وقائع الملتقى، أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، تيميمون: 22-23-24 نوفمبر 1999، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ص14

5-المرجع السابق ص14

6-أنظر مثلا

:-cauвет M Las marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'afrique, revue

africaine, n° 64, année 1923

-Edmond douté : Notes sur l'islam maghrabin, ernest laroux , editeur, paris, 1990.

-louis rinnM Marabouts Klouans

7-أنظر: -سونك : الديوان المغربي في أقوال عرب شمال إفريقيا والمغرب، للنشر، الجزائر، 1991.

-إيدمون يافيل: مجموعات الأغاني والألحان من كلام الأندلس، الجزائر، 1904

-إيدمون يافيل: مجموع زهو الأنيس المختص بالتباسي والقوادس، الجزائر، 1907

8-مصطفى أوشاطر: الأسطورة في التراث الشعبي الجزائري، رسالة دكتوراه الدولة في الأدب الشعبي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2002-2003، ص03

9-أنظر: -حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003، ص47

- 10- بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، (مخطوط)، رسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2000-2001، ص 02
- 11- وسام العثمان: المدخل إلى الأنثروبولوجيا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2002، 1، ص 18.
- 12- محمد سعدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص 34.
- 13- المرجع نفسه، ص 34.
- 14- المرجع نفسه، ص 04
- 15- المرجع السابق، ص 33
- 16Gerard Leclerc: Anthropologie et colonialisme, Fayard, Paris, 1972, P202
- 17Michel Leiris: cinq etudes d'anthropologie, gouthier, Paris, 1969, P33
- 18- لنشن رالف: الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1967، ص 34
- 19- المرجع نفسه
- 20Gerard Leclerc: op . cit P45
- 21Louis Rinn: Marabouts et khouanes, etudes sur l'islam en algérie, Adolphe jourdan libraire- editeur, alger, p07
- 22- راجع:
- philippe lucas et jean claude vatin: l'algerie des anthropologues, maspero, paris, 1982, P13
- 23- فيليب لوكا- جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة د. محمد يحياتن - بشير بولفراق- ورده لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للإستقلال، الجزائر، 2002، ص 09-10
- 24- بن زنين بلقاسم: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 20.
- 25- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 09
- 26- راجع: شارل أندريه جوليان: تاريخ الجزائر المعاصرة، باريس 1964، ص 56
- 27P.Lucas et j.c Vatin, op cit, P11
- 28Ibid, P 11
- 29Benjamin STORA : Histoire de l'algerie colonial ( 1830-1945) ENALE, Houma, Alger, 1996, P18

30P. LUCAS et J.C VATIN, op.cit, P 11

31- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 09

32- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 19-20

33-أنظر:

- EL Baki HERMASI: Etat et société au maghreb, edition anthropoide, Paris, 1975, P70

34P.LUCAS et J.C VATIN, op.cit,P13

35EL Baki HERMASI, op.cit, p27

36M.DAUMAS et M.FABER: Lagrande Kabyle, etude historique, Paris, 1847, P12

:

37راجع

E.PELISSIER: Annales Algeriennes ( 7 Tomes), Paris, 1836

38- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 21

39- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 11

40- المرجع نفسه، ص 12

41- راجع في هذا الصدد:-

Charles TAILART: L'algerie dans la littérature française, champion, paris, 1925, p 222-253

- P.LUCAS et J.C VATIN, op. cit, P 12

42 -Ibid, p 31

43- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 20

44- بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 21

45- المرجع السابق، ص 21

46- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 11-12

47- المرجع نفسه، ص 12

48- بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 24 (بتصرف)

49- ينظر: يوسف مناصرية : ليون، في الجزائر والمغرب ( 1832-1847)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

50- بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 28





In Revue les Cahiers du Centre de Recherches Historiques, 11 | 1993.

Référence électronique [En ligne], mis en ligne le 05 mars 2009.

Adresse URL : <http://ccrh.revues.org/index2762.html>. Consulté le 06 mars

2009.

**4-KORSO (Mohamed):** Prof – Département de civilisation-Université d'Oran.

**Conférence** In Journal LIBERTE, Mardi 09 Oct 2012.

**5-AMEYAR (Hafida):** Qui se souvient des déportés algériens en Nouvelle-Calédonie ?

In Journal LIBERTE, Mardi 09 Oct 2012.

**6- Bourdieu (pierre) et Sayad (A), Le déracinement**, Editions de Minuit, 1964.

**7- A.N.O.M-Aix en Provence, Administration pénitencière coloniale.**

**8 -OUENNOUGHI (M). In revue Insaniyat -CRASC (Oran-).N° 32-33 du 04/09/2007.**

**9 –Ibid.**

**10 – SELLAL (Rachid) : « Histoire. Les algériens de Nouvelle-Calédonie**

Regard sur ces déportés », In journal El Watan le 12 - 08 - 2006.

**11-** Notons que conformément à la loi Française n°2008-696 du 15 juillet 2008 relative aux archives, les dossiers sont communicables après un délai de 75 ans à compter de la date de la dernière condamnation figurant au dossier, délai étendu à 100 ans pour les affaires se rapportant à des personnes mineures.

**12 – OULDENNEBIA (K) : « Histoire de L'état civil des Algériens – Patronymie et Acculturation »,**

In revue Maghrébine des études Historiques et Sociales, UDL Sidi-Bel-Abbès, n°01/ Septembre 2009, pp 05 – 24.

**13- Listes des déportés politiques.**

**14- Journal El-Watan, 12-08-2006.**

paramètre le plus important en union avec le choix de cette classification.

## **CONCLUSION**

Le pouvoir colonial en Algérie comme en Amérique du nord, insistait à enfermer la masse dite « indigène » et « indienne » dans des réserves qu'elles les pensent promis à une disparition inéluctable. Entre les détruire ou tout au moins les refoulés, l'idée de les déporter, a germé dans la tête de plusieurs officiers français depuis 1864 et donc bien avant l'insurrection 1871.

Pour conclure, c'était donc, les « prisonniers » de la Bataille de « Toten-Yahia », le 7 Avril 1864 au environ de Ras-el-Ma (Bedeau) au sud de la ville de Sidi-Bel-Abbès qui auront été déportés en Nouvelle Calédonie.

La présence de ces Algériens dans ces îles trop petite, trop lointaine, trop marginale, fait partie de ces « études » que l'historiographie a tendance à ignorer. Pourtant, dès qu'on s'y intéresse, se révèle une histoire étonnante qui, aussi paradoxal que cela puisse paraître, s'inscrit au cœur de « grandes questions ». Fondée sur un véritable projet idéologique de peuplement soumis à une double logique volontaire et en même temps factice parmi eux des Algériens forcés à l'exil sans retour. C'est vraiment une expérience sans précédent en l'Histoire. Bien entendu, il appartiendra aux jeunes chercheurs particulièrement des Universités algériennes d'apporter pour des recherches à caractère scientifique toutes les modifications qui s'imposent. De bonnes perspectives de travail pour les directeurs de recherche et leurs étudiants sont désormais grandes ouvertes sur le thème des déportés Algériens en nouvelles Calédonie.

## **Notes et Références.**

### **1-OUENNOUGH (Melica): Les Déportés maghrébins en Nouvelle-Calédonie et la Culture**

**du Palmier dattier**, (1864 à nos jours), éd-l'harmattan, janvier 2006, (374 pages).

### **2-OULDENNEBIA (Karim):» « Les Déportés oubliés de l'état civil »**

In journal **Quotidien d'Oran**, le 22 Avril 2009, (débat - page 8 et 9).

### **3- Merle (Isabelle) : « La Nouvelle-Calédonie, 1853-1920. Naissance d'une société coloniale »,**

13	Nacer Adda Fils de ADDA	17776	Cultivateur	né 1841-région Sidi-Bel-Abbès
14	Taib si bachir Fils de Taib	17448	Journalier	né 1841 -région Sidi-Bel-Abbès
15	Belabbes Abbes Fils de Belbahlil	17731	Sans Prof	né 1842-région Sidi-Bel-Abbès
16	Benbrik Djilali Fils de Mohamed	17741	Cultivateur	né 1835-région Sidi-Bel-Abbès
17	Habib ould Kadda Fils de Hamza	17743	Cultivateur	né 1841-région Sidi-Bel-Abbès
18	Moulay Ould Bachir Fils de Taib	17734	Journalier	né 1833-région Sidi-Bel-Abbès

En observant bien ce tableau, Les Algériens, on le sait, n’avaient pratiquement pas de noms patronymiques avant l’instauration de la législation coloniale en Algérie concernant l’état-civil du 23 mars 1882. Peut être même bien avant la mise en place du registre matrice disant avant 1892. On disait généralement, Ahmed fils de Kaddour, puis Abbes, fils de Ahmed, puis Abdelkader fils de Abbes et ainsi à la troisième génération le nom du grand-père (c’est-à-dire Kaddour) avait disparu sauf dans les familles où le petit-fils reprenait le nom de son seul aïeul pour le perpétuer [12]. Il y’avait certes la désignation honorifique, Hadj par exemple. La filiation fils de (Naceb). Le prénom avec ses variations. Le prénom du père aussi. Et quelquefois une désignation familiale dans la noblesse religieuse ou militaire comme le neuvième de la liste « El-Baroudi ».

L’âge présumé de ces dix huit déportés variait entre 23 ans pour le plus jeune et 47 ans pour le plus vieux [13]. On le voit bien ; la majorité des déportés étaient des « Paysans » appauvrit par la terrible politique de la spoliation des terres [14].

Selon les archives ,les déportés choisis ci-dessus de la liste des condamnés déportés en Nouvelle-Calédonie ont été référencés sous des numéros d’ordre indiquant la date de départ des bateaux et sous des numéros matricules indiquant la date d’arrivée des bateaux en Nouvelle-Calédonie. Il est donc facile de déduire que les déportés dont les chiffres sont rapprochés étaient dans le même bateau à leurs arrivées.

Et puis, évidemment que le lieu présumé de naissances de ces déportés reste le

linguistique susceptible d'être interprété « culturellement ».

Voici donc les Noms des déportés Algériens avec matricules et fonction supposées. Evidemment que le lieu présumé de naissances de ces déportés reste le paramètre le plus important en union avec le choix de cette classification.

<b>Nbr</b>	<b>Noms et Filiation des déportés</b>	<b>Matricules des déportés</b>	<b>Fonctions Supposées</b>	<b>Dates et Lieux [présumés]</b>
1	Ali Benahmed Fils de Ahmed	18862	Berger	né 1844.Douar Ouled/Ali région Sidi-Bel-Abbès
2	Belhadj ould Amar Fils de larbi	17735	Cultivateur	né 1833 -région Sidi-Bel-Abbès
3	Benouda Benmazouz Fils de Bel-Arbi	17726	Cultivateur	né 1833 -région Sidi-Bel-Abbès
4	Bouteldja Ould AID Fils de Benamar	18714	Tailleur	1831 à Béni-Ameur- région Sidi-Bel-Abbès
5	Ben-Bekkar Djilali Fils de Kadda	17736	Journalier	né 1836 -région Sidi-Bel-Abbès
6	Hamida BenAlla Fils de Larbi	18636	Journalier	né 1831 -région Sidi-Bel-Abbès
7	Hachemi Benraho Fils de Adda	17747	Journalier	né 1835 -région Sidi-Bel-Abbès
8	Amar Mohamed Fils de larbi	17729	Cultivateur	né 1820-région Sidi-Bel-Abbès
9	Baroudi Mohamed Fils de Baroudi	17730	Cultivateur	né 1831-région Sidi-Bel-Abbès
10	Talha Mohamed Fils de Baroudi	17728	Cultivateur	né 1825-région Sidi-Bel-Abbès
11	Oulhdadj Adda Med Fils de Cheikh	17729	Cultivateur	né 1839-région Sidi-Bel-Abbès
12	Matmati Mohamed Fils de Taib	17727	Cultivateur	né 1830-région Sidi-Bel-Abbès

elle recense de fait la quasi-totalité des condamnés envoyés dans les bagnes coloniaux [11].

En 2006, Melica Ouennoughi, avait publié les listes généalogiques de déportés (1867-1895), ainsi que les listes des mariages mixtes ainsi que les listes de concessionnaires à Bourail. Faisant état des investigations historiques dans les archives des armées de Terre et de la Marine durant les années 1998 à 2004.

Dans la même année, l'Institut International d'histoire sociale (IISG) d'Amsterdam, avait aussi publié dans le site de la revue des études coloniales d'autres listes de déportés algériens, avec photos d'archives, provenant d'un registre entré en possession de cet organisme par voie de don ou d'acquisition. A mon avis se sont les mêmes listes. Certes on peut se poser la question si ce premier registre est en double exemplaire. Même si l'antériorité scientifique revient à Melica Ouennoughi.

Parmi ces listes ou 121 Algériens ont été déportés en tant que condamnés politiques, j'ai donc retenus dix huit Algériens présumés nés dans la région de Sidi-Bel-Abbès même si cette ville n'a existé pleinement qu'à partir de l'année 1849. Les douze premiers déportés sur la liste ont été déplacés sous la contrainte par le bateau « Le calvados » qui a fait onze convois de 1864 à 1871. Les Cinq derniers de la liste ont été déportés dans le « Fleuris » qui a fait le départ le 24 Octobre 1867, probablement à partir d'Oran. Et le « Sybille » convoi parti le 27 Avril 1867. D'autres Bateaux ont fait le long trajet : Algérie-Nouméa mais aussi Saint Martinique au Antilles ou Cayenne (Amérique du sud) en plusieurs convois. Seulement on n'enregistre aucun déporté présumé de la région de Sidi-Bel-Abbès. En effet, parmi ces Bateaux : « La Néréide » convoi parti le 23 /10 /1867 et le « Calédonien » dont quatre convois partis entre 1890-1892. La « Loire » deux convois entre juillet et octobre 1881. Le « Navarin » et le « Tage » dans la même année et surtout le « Fontenoy » dont deux convois spécialement pour les déportés politiques entre 1881 et 1885.

Il est utile de signaler dans cet article : l'obligation de modifier l'orthographe de quelques noms qui figuraient dans les documents issus de l'administration coloniale qu'elle soit judiciaire ou pénitentiaire. C'est un choix que j'assume puisque les chercheurs désireux d'effectuer des recherches sur ces déportés, auront besoin de ces mêmes références selon l'orthographe le plus rapproché à la connotation

préfet d'Oran). Tout les prisonniers politiques détenus suite à ces mouvements de résistances furent déportés en Nouvelle Calédonie dans les circonstances connues de la première insurrection des Ouled Sidi Cheikh en 1864 dont la majorité eurent péri en mer.

En rappel, la Nouvelle-Calédonie était devenue française depuis la date du 24 septembre 1853. La ville de Nouméa fut créée un an après. Comme en Algérie, la France avait choisi la colonisation de peuplement et agricole pour assimiler cette partie du monde. A ce type de colonisation venait s'ajouter dès 1864 celle d'origine pénitentiaire depuis la création du bagne par Napoléon III. Ces îles lointaines occupent, dans l'histoire coloniale, une place singulière : une terre d'expérimentation où il est possible, d'harcéler sans répit le passé pour arriver à comprendre la logique de cette violence. Les condamnés étaient exilés pour le restant de leur existence (les condamnés anglais à l'exil, quant à eux, avaient toujours le droit de rentrer en Grande-Bretagne, une fois leur peine achevée). « La logique de l'exil fonctionnait à plein régime », écrivait Ouennoughi (Malica) dans son remarquable ouvrage [8].

Le pouvoir colonial imposait tout d'abord, aux déportés, la règle de l'exil à vie pour rendre leur retour impossible ou extrêmement difficile. En échange, il promettait de façon beaucoup plus systématique, la propriété du sol. Les valeurs sont là, bien françaises : « la terre est rédemptrice de tous les vices » [9].

### **III - La déportation par l'authenticité des archives.**

De 1852 à 1953, plus de 100000 condamnés ont subi leur peine dans les bagnes coloniaux, dont les plus importants furent en Guyane et en Nouvelle-Calédonie. Mais Sous le terme « bagne », se confondent différents territoires [10], mais aussi différentes peines. Ainsi cette population pénale compte-t-elle des condamnés aux travaux forcés, des déportés considérés comme incorrigibles et les opposants politiques ? c'est donc la déportation des politiques qui nous intéresse le plus. Au centre ANOM-AIX, la base de données constitue l'inventaire des dossiers individuels de condamnés conservés aux Archives nationales d'outre-mer, dans la série H (administration pénitentiaire coloniale) :

« Si-Laâli » et son neveu Si-Ahmed des Ouled Sidi-Cheikh, qui sont venus au début du mois d'Octobre de l'année 1863 au dedans de la région de Daya et Ras-el-Ma notamment Bir-El-Hamam et Brizina avec une force militaire constituée d'une centaine de cavaliers et fantassins de la tribu des « Ouled-Balegh » une autre section de la grande fédération des Beni-Ameurs ,mais aussi les Béni-Mathar,Djeâffras et les Ouled Sidi Cheikh. Une première Bataille se déclencha dans la même année dans les lignes sinueuses de la Mekerra. Cet événement a obligé l'occupant à ériger des redoutes fortifiées dans le vaste territoire des hauts plateaux de l'ouest notamment Saida et El-Khiter. Il faut préciser que « Si-Laâli », avait réussi à pénétrer dans le centre de colonisation de Chanzy (Sidi-Ali-Benyoub) causant une peur bleue aux colons. Une autre bataille rangée se déclencha le 7 Avril 1864 à « Toten-Yahia » au environ de Ras-el-Ma (Bedeau) entre les insurgés et les Forces Coloniales du Colonel « Beauprêtre ». Mais cette fois-ci, l'armée coloniale « renforcée » par les légionnaires avait réussi à disperser les insurgés et capturer les malhabiles. Toute fois « Si-Laâli » réussira à se réfugier dans les contours de la frontière du royaume du Maroc. Il mourut en 1886 au lieu très connu dans la Saoura par le nom « Kouba de Hadj-Eddine ». Finalement, c'était donc, les « prisonniers » de la Bataille de « Toten-Yahia » qui auront été déportés en Nouvelle Calédonie.

En plus des circonstances des actions menées par les résistants pour s'opposer à l'expansion coloniale, l'administrateur de la commune coloniale subdivisionnaire, devenue commune mixte à partir de 1866 en Algérie coloniale, avait le pouvoir d'internement des « Indigènes » puisque les arrêtés ministériels de septembre 1834, avril 1841, août 1845 donnaient pouvoir au gouverneur général et au commandant aussi puisque c'était une « commune militaire » de prendre une mesure d'internement exécuté sous la forme de transportation, et de détention au hameau très connu sous le nom de « Bordj » édifié pour la deuxième mise sous surveillance de la grande Tribu des « Béni-Ameurs » puisque la première a eu lieu en 1843 dans la rive gauche du oued Mekerra ou fut construite plus tard la ville de Sidi-Bel-Abbès .Ce Bordj donc, était devenu par la suite à partir de 1874 le pénitencier de Boukhanifis (Bouchebka- non loin de Sidi-Bel-Abbès). La détention « d'Indigènes » dans ce Bordj était prononcée pour une durée indéterminée pour des faits variés et peu définis. Environ une centaine furent prononcées annuellement (sans compter les internements illégaux prononcés par le



1876 (Avec 120 embarqués) et enfin l'insurrection du sud oranais en 1881-1882. En effet ; l'Histoire des déportés de Sidi-Bel-Abbès, commença donc bien avant le grand soulèvement de la fatidique année 1871. Cette période de l'histoire de l'Algérie a été peu prolifique en écrits. D'ailleurs notre mémoire nationale n'en retient que trois (Mokrani Boumezrag, M'hamed Ben Cheikh El Haddad et son frère cadet Aziz). Il faut noter que plusieurs Algériens furent exécutés sommairement par les conseils de guerre pour cause de résistance, les autres miraculés furent jugés et condamnés sans appel. Ils étaient des centaines de chefs sections de tribus, Caid, Spahis, amins, mokadems, marabouts...mais aussi des Cultivateurs et de journaliers, c'est-à-dire « Jarnatt » selon le langage local.

Rappelant que le 30 janvier 1845 les Chefs des Ouled Brahim section de la fédération des Beni-AMEUR décidèrent de s'attaquer au camp militaire français construit abusivement dans le territoire du saint patron Sidi-Bel-Abbès El-Bouzidi. L'appartenance à la tarika ou confrérie religieuse a joué à cette époque un grand rôle de résistance en Algérie. Mais la répression fut terrible, presque tous les insurgés étaient pourchassés et exterminés ; 58 tués et une vingtaine de prisonniers. Parmi eux ; Les plus « belliqueux » furent condamnés à mort dont le dernier fut Kandil Ben-Djeffal, exécuté le 26 mai 1845 à Oran. Logiquement, il faut préciser que la déportation commença en 1864, donc il n'y a aucun lien avec cette attaque de 1845.

Ces déportés de la région de Sidi-Bel-Abbès, furent sans doute envoyés en Nouvelle Calédonie dans la « logique » de la politique coloniale de Napoléon III qui profitait de la moindre occasion pour se débarrasser de ces « Indigènes » tout en adhérant joyeusement à l'arrivée de nouveaux immigrants venus surtout du sud de l'Europe. Ces déportés durent attendre plusieurs mois avant leur embarquement dans des convois destinés aux colonies françaises d'outre mer. C'est la raison pour laquelle ces « prisonniers politiques » furent internés injustement dans des dépôts ou lieux de détentions en Algérie ou en France comme le fort de Quélerin (Brest) et à l'île d'Oléron ou du port de Toulon avant leurs départs définitifs en Nouvelle Calédonie à plus de 24 000 km de leur pays natal pour un exil forcé. Une traversée de cinq mois (145 jours environ) [7].

Ce nombre « plus au moins important » de déportés de la région de Sidi-Bel-Abbès, on peut l'expliquer par le mouvement de résistance de la population locale ainsi que l'insurrection des tribus du sud de la Mekera notamment celle du Cheikh

Dans cet article, je tiens à rappeler que mon intérêt pour la question des déportations en Nouvelle-Calédonie remonte à l'année 2009, puisque c'est le thème de l'Histoire de l'état civil qui a éveillé ma curiosité d'historien à la recherche de documents sur l'Histoire enfuie de ces Algériens oubliés par l'état civil [2]. Selon les précédentes recherches établies sur ces déportés [3]. Un certain Brahim Mohamed, exilé en 1864, a été le premier déporté algérien en Nouvelle-Calédonie. Le dernier détenu a été Cheikou Cissé, condamné en 1919 à la déportation à perpétuité, et mort à Nouméa en 1933. La présence du bagne est peu à peu contestée par les colons qui subissent la concurrence de la main-d'œuvre des bagnards mais aussi de l'administration pénitentiaire qui accapare les meilleures terres. La transportation sera interrompue en 1897, mais les prisonniers du bagne y finiront leur vie (en 1921, ils étaient encore 2 300).

Il faut également rappeler que seulement pour la période du troisième quart du XIXe siècle, 1 702 Algériens figuraient parmi les déportés. Ce qui a fait dire à un Historien Algérien qui est le professeur Korso : « Plus de 93% des déportés en Nouvelle-Calédonie sont d'origine algérienne » [4]. Tout en précisant que 45% d'entre eux étaient du Constantinois, 23% de l'Oranie et 32% de l'Algérois. Et que les 1 700 dossiers relatifs aux déportés dévoilent que 7% étaient âgés entre 16 et 20 ans, 54% appartenaient à la tranche d'âge 21-30 ans, 31% à celle des 31-40 ans, 7% à celle des 41-50 ans et 1% à celle des 51 ans et plus[5]. Ces chiffres nous révèlent qu'une étude plus restreinte et plus limitée dans l'espace sera incontestablement plus intéressante. Ce qu'il faudra c'est surtout mettre en évidence ce « déracinement » d'Algériens soumis à la perpétuelle violence coloniale [6].

## **. II - La déportation d'Algériens : Quelle logique ?**

C'est un essai d'Histoire, sur ces Algériens « héros malheureux », ou plutôt une présentation qui correspond conventionnellement à la conséquence des insurrections successives en Algérie ; des Ouled Sidi Cheikh en 1864 (178 condamnés) ou l'on enregistre des déportés de la région de Sidi Bel-Abbes (sujet principal de notre article), ensuite celle de Mokrani Ahmed et Cheikh Améziane Mohand El-Haddad en 1871, plus au moins étudiés et d'El-Amri ( Biskra) en

travaillé dans les domaines confondus à faire connaître dans notre pays d'autres Algériens garants de l'espoir immuable d'un futur d'optimisme et confiant dans l'avenir de l'Algérie. Le lieu présumé de naissances de ces déportés, c'est-à-dire la région de Sidi-Bel-Abbès reste le paramètre le plus important en union avec le choix de cette classification.

Quelles étaient les causes directes de leurs déportations ? Qu'elle est le rapport direct entre leur déportation et l'insurrection des Ouled-Sidi Cheikh en 1864 ou l'on enregistre le chiffre de 178 condamnés puis déportés vers la Nouvelle Calédonie ? Qui sont-ils ? Enfin. Ces prisonniers étaient-ils vraiment des déportés ou des transportés ou tout simplement des relégués suivant la classification des archives pénitenciers ?

Toutefois, il est clair que ces chiffres traduisent très clairement la trop grande étendue de ce thème historique qu'on peut certainement le comparer à l'immensité de l'océan autour duquel flotte ces petites îles Calédoniennes.

## **I- La déportation : Des registres et des chiffres.**

Il est aussi de notre devoir de mémoire envers ces algériens de donner une image valorisante de leur Histoire ambiguë certes mais surtout inconnue, sur la base de leurs noms, dates et lieux présumés de leurs naissances qui restèrent comme seuls valeurs et apports spécifiques encore enfouis dans les sources d'archives des registres matriciels d'outre mer notamment : Listes nominatives d'embarcations à bord à bord, registres de l'Administration pénitentiaire, courriers municipaux, lettres des missionnaires, comptes rendus et sources orales mais aussi les remarquables ouvrages des sciences Historiques et Anthropologiques de ces cinq dernières années cités dans cet article.

En effet, il faut d'abord placer le thème de la déportation des Algériens en Nouvelle Calédonie dans le contexte de l'époque du XIXe siècle, en rappelant qu'il s'agit d'un nombre impressionnant d'Algériens mais aussi d'Algériennes [1] qui se sont retrouvés à dix milles lieux de leur patrie amoncellement entassés dans une colonie pénitentiaire. En plus, les colonisateurs ont déportés ces Algériens juste parce qu'ils ont fait acte de résistance. Au XIXe siècle, l'Algérie était devenue malheureusement un véritable laboratoire d'essai de multiples punitions collectives sur les peuples présumés « arriérés » et non civilisés !

## **Les déportés de la région de Sidi-Bel-Abbès**

### **Vers la Nouvelle Calédonie.**

**[1864-1867]**

**OULDENNEBIA (Karim) – Université Djilali LIABES- SIDI-BEL-ABBES.**

Depuis l'année 1864 environ, plusieurs « Algériens » divisés en trois catégories «d'Arabes» pour reprendre la dénomination calédonienne ont été envoyés en Nouvelle Calédonie. Plus exactement, 1822 condamnés aux travaux forcés y ont été transportés, 121 y ont été déportés en tant que condamnés politiques et 163 y ont été soumis à la relégation sans compter les décédés en mer.

D'abord les « Transportés », (aussi appelés « forçats » car condamnés à des peines de travaux forcés de 8 ans jusqu'à perpétuité pour des crimes de droit commun.) ensuite les « déportés » condamnés politiques. Il faut préciser que les déportés français de la commune de Paris envoyés à partir de 1872 sont souvent appelés « Communards ». Ils ont obtenus l'amnistie en 1880. Les déportés Algériens par contre étaient majoritairement installés à Nessadiou à Bourail leurs noms sont très connus (les Abdelkader, Aïfa, El Arbi, notamment). Enfin, les relégués en Nouvelle-Calédonie connus pour être des récidivistes.

La « vaste commune » de Bourail des territoires d'Outre mer Française a publiée, en avant première de la manifestation Caledoun 2011, la liste dressée par Louis-José Barbançon de ces 2106 condamnés en grande majorité d'origine algérienne (1981 sur un totale de 2106). Cette liste ou plus exactement les trois listes respectent la catégorisation pénale tout en classant les différents condamnés par convois et par ordre d'immatriculation et tout en indiquant la date d'arrivée du navire concerné. Le chiffre de 2106 ne tient pas compte des décédés en mer mais uniquement des immatriculés à la Transportation, la Déportation ou la Relégation.

L'historiographie coloniale de l'Algérie a malencontreusement investi une image de psychose qui a longtemps obsédé les Historiens, ethnologues et autres anthropologues sur ces Algériens confinés et isolés, déportés et exilés ou tout simplement « partis ailleurs ». Pourtant, c'est le contraire qu'il faudrait révéler. Ces Algériens déportés portèrent malgré tout, l'Algérie dans leurs cœurs, accrochés à un espoir de retour de cette terre lointaine dépassant les vingt milles km et entourée par une immense étendue d'eau. Il est de notre devoir à tous surtout ceux qui ont



# Sommaire

Les déportés de la région de Sidi-Bel-Abbès Vers la Nouvelle Calédonie. [1864-1867]	OULDENNEBIA Karim	01
---	-------------------	----



**Université de Djillali Liabes**  
**Sidi Bel Abbas - Algérie**

# **Revue Maghrébine des Etudes Historiques et Sociologiques**

revue académique éditée par le laboratoire Algérie, Histoire et Société  
durant la période moderne et contemporaine



N° 7 / Décembre 2013

**ISSN 2170 - 0600**